عبد الرحمن حجاج
الطبعة 4
كوابيس قبل النوم
رواية
الرسم بالكلمات
t.me/twinkling4

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَاد، الإلكترونية.©

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب

t.me/twinkling4

http://elrasm-blkalemat.com
FB.com/elrasm.blkalemaat
Instagram.com/elrsmbkalemat
01061419555
http://elrasm-blkalemat.com

عنوان الكتاب:	كوابيس قبل النوم (الجزء الأول).
المؤلف:	عبد الرحمن حجاج.
الطبعة الأولى:	٢٠٢٤.
الإخراج الداخلي:	Dr.Right
تصميم الغلاف:	إسلام مجاهد.
رقم الإيداع:	
الترقيم الدولي:	

الرسم بالكلمات

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يُعرِّض صاحبه للمُساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

كوابيس قبل النوم ١

البدايـــــة

الجزء الأول

رواية

عبد الرحمن حجاج

تنويه

رسائل فينسنت إلى ثيو هي من خيالي الخالص ولا تمت للواقع بِصلة..

ربما

إهداء

لحواديت جدتي بتاعت زمان، لولا حواديتك ما كنتش هبقى بعرف أكتب حواديت دلوقتي.

للنور، اللي بييجي بعد الضلمة، والضلمة اللي بتخلينا نعرف قيمة النور...

للحب اللي بيتحول لهوس، والهوس اللي بيتحول لوجع، والوجع اللي بنتعلم منه في النهايات..

للي حب وما طالش، واللي فرد جناحات عشقه عشان يطير ف وقع على جدور رقبته

إلى كوابيسي... أهديكم هذه الرواية... لعلي أتحرر منكم...

إهداء تاني

إلى أمي، اللي كانت بتاخدني زمان المكتبة وتخليني أقرأ أكتر واتعلم أكتر

إلى أبويا، اللي كان دايمًا بيجب لي أفلام ديزني أول ما تنزل، ومعاها فهمت معنى الخيال

لكل واحد وصل للصفحة دي، شكرًا على إيمانك بيا... يا رب أكون عند حسن ظنك دايمًا

مَتى يَشتَفي مِنكَ الفُؤادُ المُعَذَّبُ

وَسَهمُ المَنايا مِن وِصالِكِ أَقرَبُ

فَبُعدٌ وَوَجدٌ وَاِشتِياقٌ وَرَجفَةٌ

فَلا أَنتِ تُدنيني وَلا أَنا أَقرَبُ

كَعُصفورَةٍ في كَفِّ طِفلٍ يَزُمُّها

تَذوقُ حِياضَ المَوتِ وَالطِفلُ يَلعَبُ

فَلا الطِفلُ ذو عَقلٍ يَرِقُّ لِما بِها

وَلا الطَيرُ ذو ريشٍ يَطيرُ فَيَذهَبُ

فلو كان لي قلبان عشتُ بواحدٍ

وخلَّدتُ قلباً في هواكِ يعذَّبُ

ولكنما أحيا بقلبٍ واحدٍ

فلا العيشُ يصفو لي ولا الموتُ يقربُ

وَلي أَلفُ وَجهٍ قَد عَرَفتُ طَريقَهُ

وَلَكِن بِلا قَلبٍ إِلى أَينَ أَذهَبُ؟

قيس ابن الملوح

مقدمة

ثلاثية كوابيس قبل النوم

بدأت فكرة رواية كوابيس قبل النوم في سنة ٢٠١٨، لكنها لم تكن فكرة مكتملة بشكلٍ كامل في رأسي، كنت أقول لنفسي وقت التحضير "لسه فيه حاجة ناقصة"، أردت أن أكتب روايةً تجمع بين الرعب النفسي، اللون الرومانسي مع الإثارة والغموض، أردت أن أكتب رواية أحب أن أقرأها في ليلة شتوية مصحوبة ببعض الموسيقى المخيفة وأنا أحمل بين يدي كوبًا من الشوكولاتة الساخنة، أو في الصيف على شاطئ البحر بينما صوت الموج يداعب أذني، رواية تنقلك لمكان خاص بها أينما كنت.

في ٢٠١٩ سافرت لمدينة أمستردام، والهدف الأساسي وقتها هو زيارة متحف فان جوخ، هذا الرسام الساحر الذي طالما أحببته وأثار فضولي لسببٍ لم أعلمه حتى انتهيت من ثلاثية كوابيس قبل النوم، وبينما أتجول في المتحف العملاق وجدت ضالتي المنشودة، ممر ضيق غير مزدحم مثل باقي المتحف، وكأن أرنب أليس في بلاد العجائب هو من نادى عليَّ حتى يأخذني لهذا الممر تحديدًا، الممر كان يحمل براويزًا بداخلها جوابات بخط اليد من فينسنت، العشرات من الرسائل بخط يد فينسنت من أصل المئات التي كتبها لأخيه خلال سنوات حياته وخصوصًا الفترات التي عاشها في المصحات النفسية.

بجانب كل رسالة كان هناك سماعة هاتف، منها تستطيع أن تستمتع لأداء تمثيلي صوتي لفينسنت وهو يلقي الرسائل بمختلف المشاعر، عاش فينسنت حياة قصيرة، ولكنها امتلأت بالكثير من التفاصيل الغنية، عاش الحب، الألم، الخذلان، الفشل، الإحباط، الوحدة، الخوف، ولم يقدّر العالم فنَّه إلا بعد وفاته.

بعد عودتي شرعت في القراءة عنه، عن حياته وعن فلسفة لوحاته، وحينها فقط علمت "فكرة الرواية خلاص اكتملت" وأنا أسأل نفسي: "ماذا لو؟"،

لأخلق حينها شخصيتي المفضلة على الإطلاق في عالم رواياتي، (يونس أحمد ليل)، والذي أنتم بصدد قراءة قصته العجيبة.

أتركم الآن مع الثلاثية التي بدأت رحلتها كفكرة في ٢٠١٨ وخط الحرف الأخير من جزئها الأخير في ٢٠٢٣، أتمنى لكم رحلة مختلفة مع حكاية لم يُعرف حتى الآن إذا كانت تنتمي للواقع أم للخيال.

عبد الرحمن حجاج

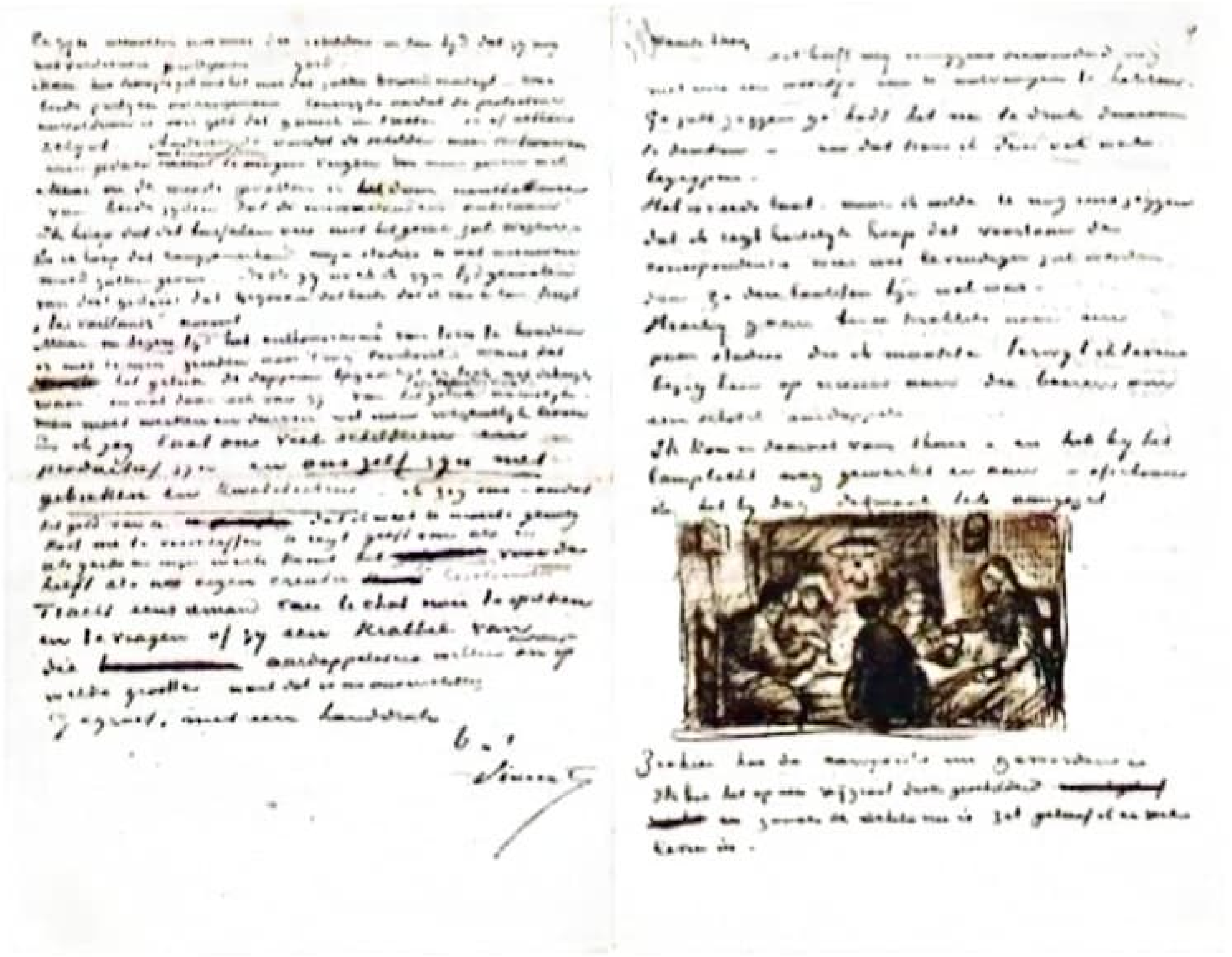

يا سهم الغرام الغريب اللي صابني

هزمني وغصبني

وفاتني ف بحور الليالي التقيلة

هشام الجخ

سر الثلاثة.. سر الجميع"

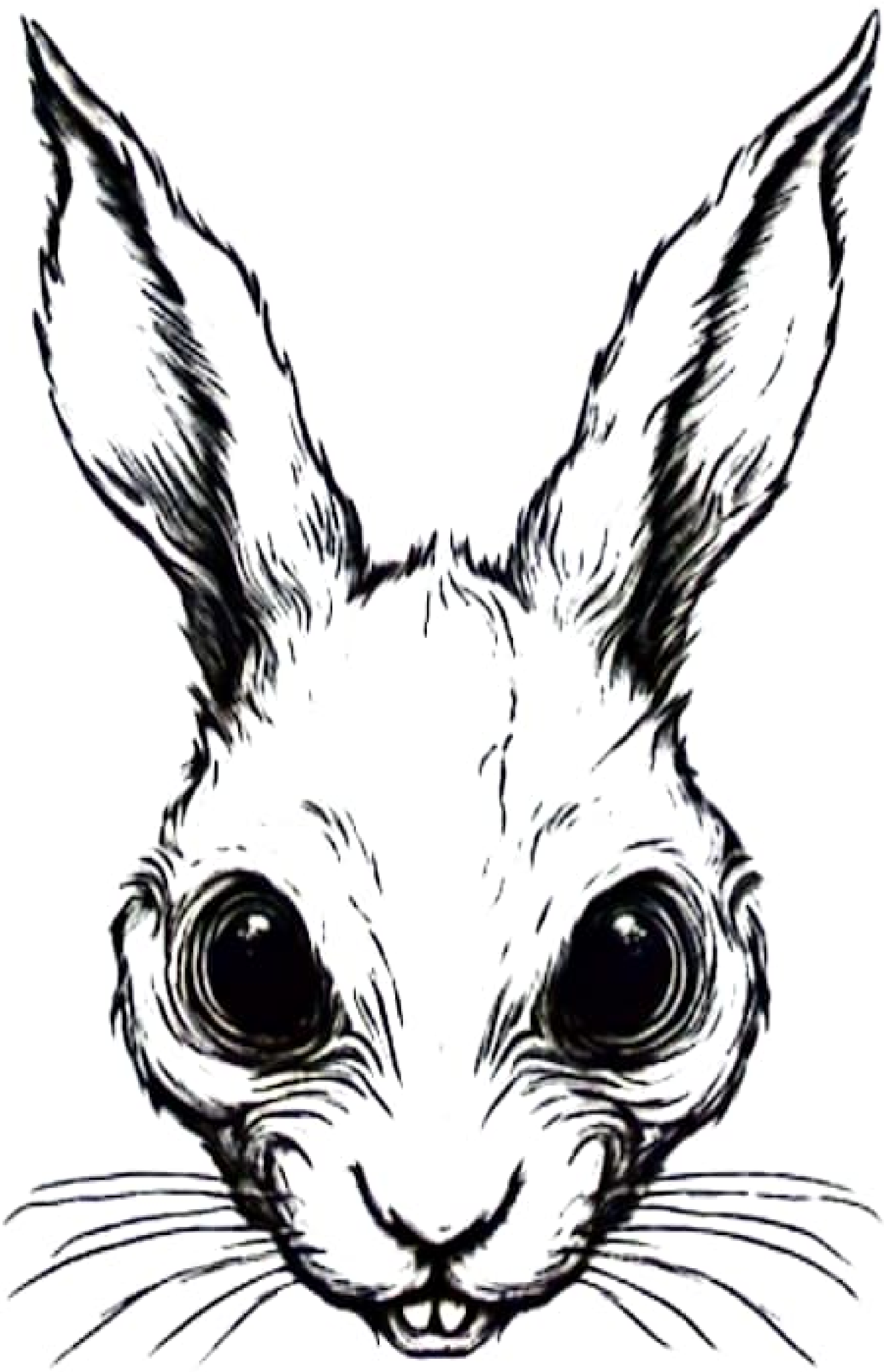

- في يوم من الأيام هيبقى عندنا مزرعة زي اللي على الطريق دي

- هتسيب شغلك وحياتك وتقعد تزرع وتربي فراخ وبقر وكلاب؟

- دي حاجة نفسنا فيها أنا وانتي من زمان... وبعدين كفاية إننا هنبقى مع بعض

***

"ينام الليل وسهرانة في هواه ما بنامش"

- سرحان في إيه؟

- افتكرت الفيلم اللي مرة فرجتيني عليه أول ما عرفنا بعض

- فيلم إيه؟

- مش فاكر اسمه، اللي هو بتاع جيم كاري وكايت وينسلت دا...

- أيوه... **eternal sunshine of a spotless mind**... ماله بقي؟

- أنا بخاف من الفيلم دا جدًا على فكرة... بخاف ييجي يوم وتنسيني... بخاف في يوم من الأيام أعدي من جنبك ونبقى مش فاكرين بعض... أنا بترعب من فكرة الفقد...

- أنا عمري ما هبعد... دا وعد...

عزيزي ثيو،

"أكتب إليك اليوم من داخل غرفتي بالمصحة النفسية التي أودعوني بها منذ عدة أشهر أو أسابيع، مع مرور الوقت أفقد القدرة على الحساب وعد الأيام، كل الأحداث هذه الفترة هي أحداث يومية رتيبة تدفعني كل يوم إلى الانتحار، بالأمس حاولت أن أسرق القلم من يد ممرضتي لأطعن نفسي به في رقبتي ولكن استطاع هؤلاء الأغبياء أن يمسكوا بي ويمنعوني، يعتقدون أن الموت شرٌ لي، في الواقع أنا أخاف من الموت، ولكن لا ضرر إن أقدمت عليه، الفضول دائمًا يدفعني لمعرفة ما بعد الحياة، أكتب إليك بقلمٍ رصاص متناهي الصغر أعطوني إياه بعد تأكدهم من استحالة استطاعتي استخدامه في قتل نفسي، كل ما يمكنني الحصول عليه بشكل يومي هو الطباشير، لا أتوقف عن الرسم أبدًا، أرسم كل نهار وليل حتى تمتلئ الحوائط برسوماتي، وفي صباح اليوم التالي أطلب من ممرضتي أن تمسح لي الحوائط ببعض الماء لكي أتمكن من الرسم عليها مرارًا وتكرارًا، يوفرون لي الطباشير ولا يدركون أنهم يعطوني سمًا قاتلًا قد يفتك بي أفضل من أي قلم، لا يدركون أن بداخل هذا الطبشور الأبيض البسيط مكونات مرعبة مثل الرصاص والزرنيخ والزئبق، لن أقتل نفسي الآن، أشعر بالرغبة في الرسم أكثر من الموت، أراك قريبًا..."

فنسنت

وقف شريف مهتزًا متوترًا وهو يصوب فوهة مسدسه، يترنح مثل المخمور وشفتاه ترتعشان، العشرات من الأفكار والقرارات تدور بداخله ولا يستطيع إن يتخذ قرارًا واحدًا، الأصوات داخل رأسه تكاد تفتك به، ينظر إليّ وينظر حوله إلى هؤلاء الأشخاص ذوي أقنعة الحيوانات، صامتين وساكنين... ينظرون صوبه وصوبي بعدها...

- كفاية أوي كدا... العبث دا لازم يخلص ودلوقتي

- ما توديش نفسك في داهية، نزل المسدس دا يا شريف...

- أروح في داهية بدل ما أنا عايش كدا... هيحصل إيه يعني؟ هيعدموني؟ برضه هيبقى أريح من اللي أنا عايشه دا...

كان ترنحه يزداد ولسانه يصاب بثقلٍ أكثر في النطق، يحارب لكي تخرج كلماته صحيحةً ومتزنة، يبدو ثملًا بائسًا وبداخله الكثير ليخرجه والقليل جدًا الذي يمكنه قوله...

- طب نزل المسدس وخلينا نقعد نتكلم... أوعدك هريحك...

- فات وقت الكلام... أنا هحرق قلبك وأحرقك زي ما حرقتني كل يوم...

كان الصوت الذي تلي الجملة الأخيرة صوتًا مدويًا اهتزت لأجله أرجاء البناية بالكامل، زجاج يتناثر في كل مكان وأصوات غريبة يصعب تمييزها..

الفصل الأول

أن أكون يونس

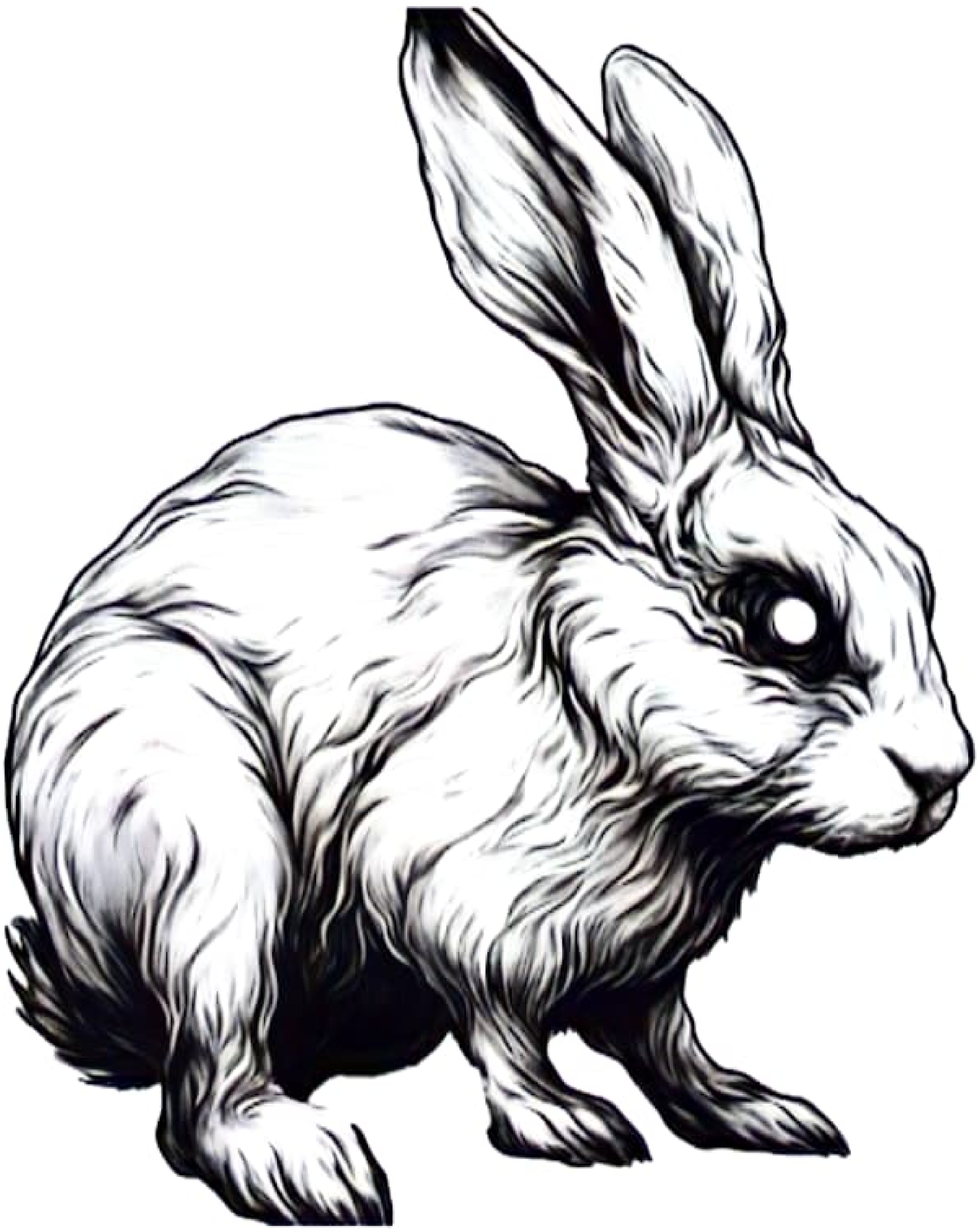

أنا هو أنا، لا أتغير ولا أنوي التغير، حياتي الشيقة بالنسبة لهم قد تكون في الكثير من الأحيان الأكثر مللًا بالنسبة لي، لدي كل الأسباب لكي أصبح واحدًا من روادي وحالاتي، لكني أتيقن وقتها أني يجب أن أبقى كما أنا، لهم... ليس لي... نعم... فقط لهم، أخلق أبوابًا جديدة كل يوم لعلّي أجد مهربًا لي، ولكن تلك الأبواب التي أعثر عليها تشبه كثيرًا متاهة علي بابا، كل باب أفتحه معتقدًا أنه باب الهروب يسحبني إلى عشرات الأبواب الأخرى؛ فأشعر بالضياع والوجع، أشعر بأنفاسٍ كريهة لزجة تقترب مني وتحرقني، أشعر بوحشٍ عظيمِ الهيئة يقترب مني، بملامحه السوداء وعباءته التي يسيل منها الدم، يقترب مني ويدعوني للرحيل، يمسك بيدي كصديقٍ قديمٍ ويزج بي إلى بابٍ جديد، و الأبواب كثيرة وجميعها يأخذني إلى نفس المكان أو نفس النتيجة، اللا شيء...

أنا هو أنا، ملعون بعدم الاكتراث، ملعون بالاعتياد، ملعون بعدم قدرتي على الوصول إلى الذروة في أي شيء، ملعون بكوني شخصًا **expired**، لا تفوح مني رائحة العفن ولكن الأفضل للآخرين عدم استخدامي...

أنا العدو الأكبر لدى نفسي، لا أؤذيها حقًا، ولكني أيضًا لا أنفعها، أنا من يدفن نفسه في العمل لساعات وساعات لأتفادى وقتًا قد أقضيه مع نفسي، فتسألني هي: إيه اللي انت غلطت فيه يا يونس، أنا من يعيش في ماضي لن يعود وحاضر لا أكترث لوجوده وينتظر مستقبلًا لا أمل فيه...

- لما بنحب، بنفكر في لحظة الفراق؟

- لما بنحب مش بنفكر أصلًا...

أنا مجموعة من التفاصيل الغريبة، ممزوجة بخمسة وثلاثين عامًا من الخبرة الحياتية التي قد تكون غير مفيدة أو غير مثمرة على الإطلاق، القليل من الشعر الأبيض، الكثير من الحزن وعدد يصعب حصره من القصص والحواديت، أصبحت أتعامل مع المرضى ومشاكلهم كما يتعامل الأطفال مع حواديت ما قبل النوم، أمر لا غنى عنه ولا بديل له، أسمعهم وأواسيهم وأدعوهم للنوم العميق، أدعوهم للأحلام السعيدة والبحث عن الفرص

الضائعة، أو حتى البحث عن ماهيتهم الحقيقية...

أنا المتسرع دائمًا فيما قد يضرني، أعيد حساب الأشياء في الأيام العادية مرارًا وتكرارًا، ولكن حين يتعلق أمرٌ ما بي، أتسرع، فأغرق، فأندم، والندم الأسوأ هو الذي يرتبط بالقلوب، هذا النوع من الندم الذي يجعلنا نتجنب الأشخاص والأماكن وحتى الروائح التي تعيدنا للنقطة صفر مرة أخرى، الندم الذي يحدد أقامتنا فنصبح مساجين داخل أنفسنا، الندم الذي يجعلنا نعيش كما قالت الفنانة أصالة في أغنيتها "نص ضحكة، نص فرحة، نص راحة".

يونس أحمد ليل، أو دكتور يونس ليل أو يونس باشا، أو لا شيء على الاطلاق...

لك أن تطلق عليّ الاسم الأقرب إليك، لا أهتم بالألقاب أو ما عدت أهتم كما كنت أفعل في حياتي السابقة، كل ما يهمني هو أن يحكوا ويُخرجوا ما في قلوبهم ونفوسهم، يفرزوا دموعهم وعرقهم على هذا الكرسي المريح لكي ينهضوا منه أشخاصًا أخرين، قادرين حقًا على الحياة وعلى حل مشاكلهم وأوجاعهم، أستقبل المرضى والذي يتعجب معظمهم لعدم وجود شيزلونج ليجلسوا عليه مثلما يرون في الأفلام، أحداث الأفلام لا تحقق، لا ينتصر الخير في الواقع ولا يفوز البطل بحبيبته بل تُفضل عليه شخصًا آخر، ربما تختار شابًا مفتول العضلات مثلًا أو ثريًا عربيًا يحقق لها أحلامها التافهة أو قد توفر عليك عناء الجراح فتموت في حادثٍ مروري فتستبدل الجرح بوجعٍ يعيش ويموت معك، في الأفلام نر ى غرفة الطبيب النفسي مظلمةً ونرى المرضى أقرب إلى المجاذيب، رغم أن في الواقع هم أشخاص عاديون، فقط حظهم العثر دعاهم لكي يجالسوا شخصًا مثلي، شخصًا تم تنصيبه في مركز أعلى منهم، يسمع ويحكم ويقرر ويحسم...

أحب عيادتي حقًا، بكل تفاصيلها وديكوراتها البسيطة والتي لن أكون كاذبًا إن قلت أنها الأفخم والأجمل إن قارنتها بأي عيادة أخرى لطبيبٍ نفسي، مكتبٌ خشبي فخم اشتريته من مزادٍ على إحدى صفحات المزادات

على الفيسبوك، بدأ المزاد بـ ٢٠٠٠ جنيه، بدأت بالمزايدة وهذا الشخص السخيف الذي حمل حسابه اسم "وحدي أنا" أزايد فيزايد حتى كتبت إني سأدفع عشرة آلاف ثمنًا لطاولة المكتب وحسمت المزاد، لم أشترِ شيزلونجًا، أراه بلا فائدة، فأنا من يجعل المريض يحكي وليس هذا الشيزلونج، إضاءات بسيطة ومريحة للعين لا تميل للظلام، مكتبة ضخمة تضم المئات من الكتب التي لم أقرأ نصفها حتى الآن، أخبر نفسي إنني يجب أن أهتم بالقراءة وينتهي بي المطاف فلا أفعل أي شيء من وعودي لنفسي...

يأتي أباظة كل أيام الأسبوع ليتأكد إن كل شيء مرتب ونظيف، يتأكد أن برطمان النيسكافيه الجولد ممتلئ فهو يعلم جيدًا إني قد أتجرع في اليوم الواحد ما يقرب من العشر أكواب خصوصًا إن كان ضغط العمل كثيرًا في هذا اليوم، أحب هذا الرجل حقًا رغم عدم اقتران اسمي باسم أي شخص آخر ومعنى كلمة "حب"، ولكن أباظة بسمرته الجميلة وضحكته الحقيقية تدفعك لحبه...

أمسك بتلك الكراسة الصغيرة، أقلبها في يدي عندما يسمح لي الوقت أو في أوقات فراغي وأكتب بعض الجمل التي تدور في ذهني، أكتب عما علمتني تلك الحياة أو ربما بعض الكلمات من أغنية محببة إلى قلبي، أكتب لكي أرتاح... أكتب لكي أظل على قيد الحياة، أنظر إلى مكتبي مرة أخرى فأرى ذلك الخاتم الذي يحمل حجر الفيروز، فأمعن النظر إليه وأتذكر قصته، أتذكر هذه العصفورة التي غيرت حياتي كذلك...

في السيارة أستمع إلى أغنية تشدني كلماتها، لا أستمع إلى الأغاني مثل باقي البشر، أعيشها وأرى نفسي بطلها في كثير من الأحيان...

في أيام إجازتي الأسبوعية، أهرب إلى الإسكندرية وأغلق هاتفي، أترك فقط الـ **internet connection** حتى إذا أراد مريضٌ إن يحدثني أو يسألني عن شيء أجيب على رسائلهم على الواتساب، ولكن الجميع يعرف هذه القاعدة عني جيدًا "الدكتور لا يستقبل مكالمات أثناء السفر إلا في الحالات القصوى"، أفتح الهاتف مرة أخرى في طريقي إلى العودة لكي

أحادث عم أباظة وأذكره بالنسكافيه وأؤكد على المعلومة "لو ما جبتش النسكافيه ما تجيش يا عم أباظة يا جميل"...

أطير بسيارتي في أيام الإجازة إلى الإسكندرية حيث أنسى كل مشاغل ومتاعب الأسبوع هناك، ألقي همومي في البحر، الذي لم يمانع يومًا إن يشاركني أحزاني ولم يشتك في مرة بسبب كثرة حكيي معه، الأشياء عادة تختلف في الإسكندرية، الطعام والهواء، حتى الشيشة... في الإسكندرية كل الأشياء تختلف...

أقتل الوقت بالقراءة، أفضل الشعر، قيس بن الملوح وهشام الجخ، أقرأ وفي أذني يندس صوتها إلى قلبي كما يندس السم في العروق، تغني هي وتعيدني إلى ذكرياتي وقصتي وبدايتي ونهايتي، أنغام...

"لو ضروري تفوتني... خد مني الحنين"

أنا هو أنا، قد أحارب جيوشًا بدهائي، ولكن حينما يعود الأمر إلى كوابيسي، أصبح خائر القوة، مهزومًا حتى قبل بداية الحرب، يونس السقيم بلا مداواة...

***

اليوم هو أحد أيام الإجازة الخاصة بي، ولكنني مرغمٌ على الذهاب إلى العيادة من أجل عيون ابنة أختي الوحيدة، مريم... أعلم جيدًا إنني لو أصبح لي ابنة لن أحبها كما أحب مريم، حدثتني منذ عدة أيام وقالت أنها تريدني في أمر هام له علاقة بمشروع تخرجها من كلية الإعلام وإنها تريد مقابلتي في العيادة مع إحدى صديقاتها وشريكتها في مشروع التخرج، وها أنا أجلس منتظرًا الأستاذة مريم وعم أباظة الذي تأخر كعادته عن إحضار النسكافيه، فعل الانتظار شيء مخيف، يشبه الكابوس... لا تعلم تحديدًا متى ينتهي...

بمناسبة الكوابيس، تطاردني في صحوي كل يوم تقريبًا، لا أحتاج للنوم كي أراها وتأتيني، لا تطرق الباب حتى قبل الدلوف إلى مشاعري، تهاجمني

ككلب مسعور بلا هوادة ولا رحمة، لا شيء ينفع مع كوابيسي، في البداية أهدتني أختي "دريم كاتشر"، كانت قد أحضرتها معها من واحة سيوة.

يقول الهنود الحمر أنهم يعلقونها خلال النوم فوق رؤوسهم، لأن الأحلام السيئة تعلق في الشبكة، أما الأحلام الجميلة فتنجو وتمر من خلالها، ثم تتلاشى الكوابيس مع طلوع الفجر، وهم يرون أن الأحلام عبارة عن أفكار تستمر أثناء الليل، والقصد إن الأفكار الشريرة تصبح أكثر لطفًا بعد إن تخرج من الريش، لأنها تتفرع وتصبح أقل تركيزا.

ظلت تؤكد لي على سحر صائدة الأحلام وأن الأسطورة تؤكد قدرتها على منع الأحلام المزعجة والكوابيس، أحاول أن أشرح لها أنه حتى وإن كانت الـ "دريم كاتشر" تقوم بشيء حقًا فهي تساعد من ينام ويحلم، أما أنا فلا أنام ولا أحلم، هي كوابيس الصحو وكفى...

الحالات، المرضى أو الأشخاص في العموم، يحتاجون إلى من يسمعهم، ويلمس قلوبهم ويطمئنهم، الكثير من المرضي لا يبحثون عن حلول بقدر احتياجهم للكلام، يحتاجون إلى من يستمع إليهم باهتمام، رحلتهم الدائمة للبحث عن بعض الحب حتى وإن كان شغفًا زائفًا ومصطنعًا...

الفصل الثاني

زيارة سريعة

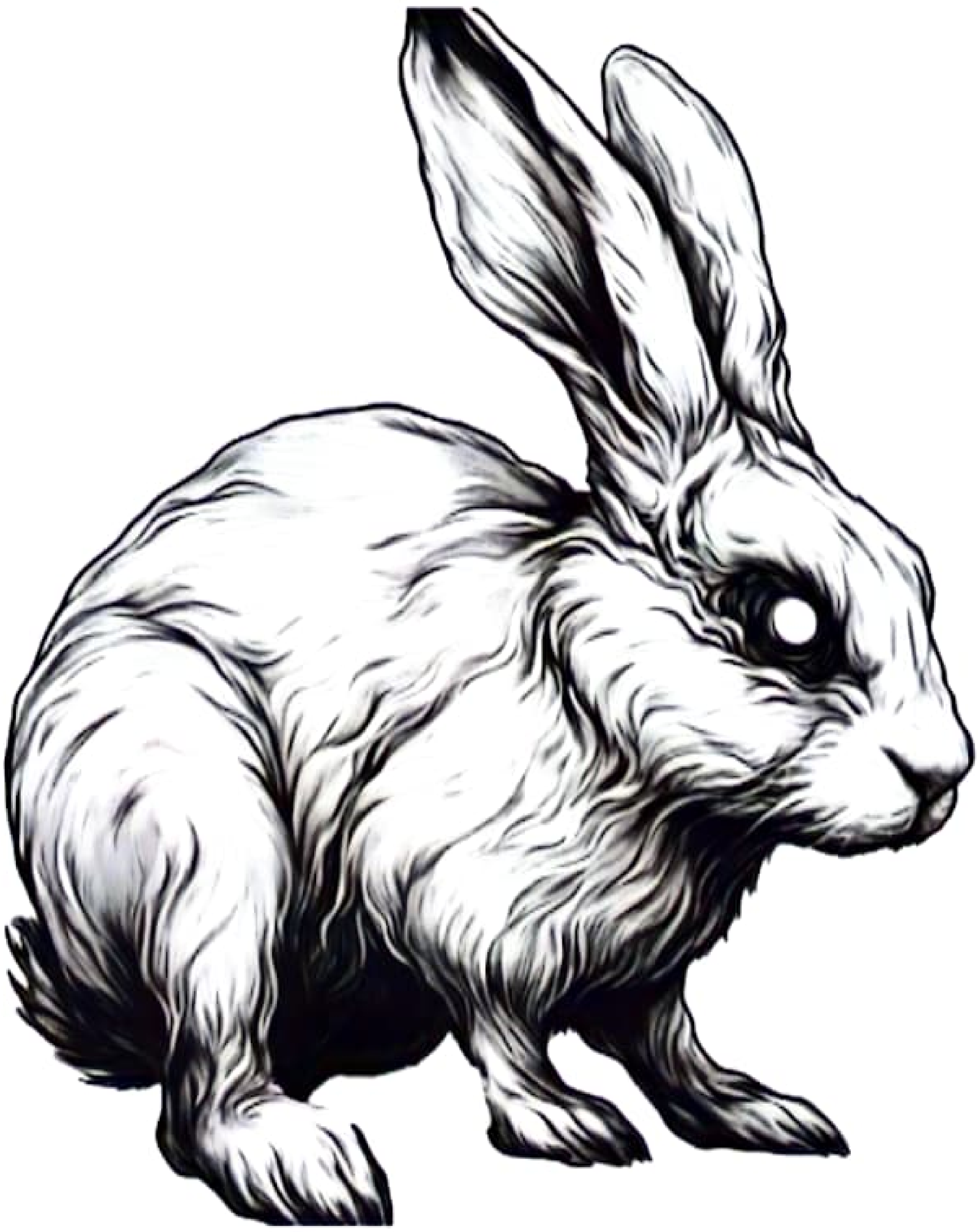

تيا ما زالت نصف نائمة ومريم تحاول الاتصال بها للمرة العاشرة تقريبًا، تمطى في دلال وهي تحسس أسفل وسادتها باحثة بأناملها عن هاتفها المحمول، أغمضت عينيها عندما أنار ضوء شاشة الهاتف في وجهها، فعدلت من مستوى إنارته ليناسب غرفتها المظلمة، لا تطيق تيا النوم إلا في الظلام الكالح، كانت تحايل على القدر لكي تظل نائمة ويفوتها موعد اليوم، هي تكره الدراسة والكلية وتكره أكثر أن تخرج يوم الإجازة، خصوصًا إن كان الخروج من أجل بحثٍ تقوم به لمشروع تخرجها من كلية الأعلام، عشرون مكالمة لم يتم الرد عليها كانت حصيلة المرّات التي حاولت مريم فيها أن تتصل بتيا...

- ألو...

- انتي مستفزة؟ أنا بقالي ساعتين تحت بيتك يا تيا!!

- سوري يا حبيبتي نمت متأخر أوي... ربعاية وابقى عندك تحت

كعادتها تيا، أو كعادة كل ما خلق الله من نساء، يقولون أمامهم ربع ساعة لتتحول إلى ساعة أو ربما خمسة!! النساء يرتدون الساعات ولا يجيدوا قراءة الوقت..

اختارت كليتهم هذا العام "الأمراض النفسية" ليكون موضوعًا يختار منه الطلبة مشروعهم، ولأنهم أصدقاء منذ الطفولة؛ قررت تيا ومريم إن يشتركا في مشروعهما سويًا، ولحظهم الرائع أن يونس خال مريم طبيب نفسي شهير، قررا لقاءه لكي يساعدهما...

- شفتي السرعة بقى؟ أسرع شاور في العالم أهو

- نفسي أعرف إيه اللي مصبرني عليكي بس؟ دايمًا معطلاني

- يا رب خالك يساعدنا بجد بس.

- عيب عليكي... هتشوفي وتحكمي بنفسك

***

الوقت يمر ببطء، تأخرت مريم، بعض النسكافيه قد يقتل بعض الوقت، بعض الموسيقى قد تساعد أيضًا...

انظر إلى نفسي في المرآة التي تواجه باب العيادة، فأراني كما لم أعهد نفسي، أرتدي قميصًا ورديًا وجينز أبيض، ذقني طويلة بعض الشيء لكنها مهذبة، السواد أسفل عيني يجعلني أشبه حيوان الباندا ولكن النظارة الطبية تخفيه بعض الشيء...

- ازيك يا عم أباظة

- أهلًا يا مريم يا بنتي، أخبار الكلية إيه؟

- الحمد لله... خالو يونس وصل؟

- مستنيكي من بدري... اتفضلوا

مريم قلقة بعض الشيء، أشعر من ملامحها بالخوف على هذا المشروع، ما زالت لا تعلم ماذا ستصور أو تكتب، أما صديقتها فيبدو عليها عدم الاكتراث والبرود، لكني أرى في عينيها الكثير والكثير من الفضول، حضنتني مريم وسلمت صديقتها علي بأدب شديد، أرى الهيبة والاحترام في أعين المريدين لما يرون من فخامة المكان والبساطة في التعامل من قبلي...

- دي تيا صاحبتي يا خالو، معلش هي اللي أخرتني

- أنا آسفة والله يا دكتور

- قولي لي يا يونس، ومريومة تقدري تقولي لي يا يونس انتي كمان، أمك مش معانا عشان تقعد تدينا محاضرة في الأخلاق وأهمية الألقاب، ها بقى احكولي إيه موضوع مشروع التخرج...؟

- الطب النفسي والعلاج النفسي... الحالات الغريبة وايه اللي حصل لهم؟ وهل فعلًا العلاج النفسي بيجيب نتيجة ولا لأ...؟

- هممم

- عايزين حضرتك تحكي لنا عن الكواليس.. وحكاية العلاج مثلًا...

- بس اشمعنى الموضوع دا اللي اخترتوه.. ما فيه مواضيع كتير أسهل وابسط من الدوامات دي

- احنا لو علينا والله كنا عملنا مشروع التخرج عن دهب وأهي منها سفرية وبحر بس الكلية بقى اللي اختارت المواضيع.

- تمام، أهم حاجة عندي زي ما دخلتوا العيادة بتضحكوا تخرجوا منها بعد كل قعدة لسه بتضحكوا... مهما كانت الحواديت حزينة اعتبروها حدوتة من الخيال

- ما تخفش علينا... احنا قلبنا ميت خلي بالك... تحب نبدأ ازاي؟

تنهدت، في الحقيقة أنا لا أعلم تمامًا ما يجب علي أن أحكيه وما يجب عليهم سماعه، أريد أن أساعدهم بالحد المسموح لهم في عمرهم هذا، فكرت لدقائق وجاوبتهم قائلًا:

- خليني أحكي لكم عن شوية حالات، حواديتهم ورحلتي معاهم، امتى بنجح مع مريض وامتى بفشل معاه، يعني تعالوا نعتبر كل جلسة لينا قعدة حواديت، يهمني بس تعرفوا إن المريض النفسي مش مجنون زي ما ناس كتير بتفتكر، المريض النفسي في الأغلب بيعاني من مشكلة معينة من المشاكل دي، يعني مثلًا مش بيحسوا بالرضا عن حياتهم، مشاعرهم بتتحكم فيهم بشكل مؤذي، بيبقوا متأثرين أوي من الماهيات اللي حواليهم وبيبقوا شبه الكوباية الإزاز، اللي لو وقعت وقعة بسيطة هتتكسر مليون حتة وكمان تعور اللي حواليها، المرضى النفسيين كمان بيبقوا في أحيان كتير مش متسامحين مع نفسهم، مش بيتقبلوا الغلط وبينسوا ازاي يسامحوا الناس. يحسوا إنهم غير منتميين للمجتمع ولا حتى للناس اللي حواليهم، بيتحولوا إلى أشباه كائنات فضائية ولا هما فاهمين الناس ولا الناس فهماهم. المريض النفسي بيبقى فعليًا في عالم خاص محتاج اللي يطلعوا منه...

***

أشعر بالخوف في كثير من الاحيان، أغمض عيني أو أتركها على حالها، أحدق في الفراغ أو حتى فراغ جفوني المعتمة، و أنا أجلس وحدي كل ليلة في غرفتي، أنتظر شيئا أعلم أنه لن يأتي مهما طال الوقت، أنظر حولي وادرك كل تلك الاشياء التي تركتيها خلفك قبل الرحيل، أو حتى الاشياء التي لم تأخذيها ولكنها مازالت تحمل أنفاسك ورائحتك، ريموت التلفاز، صندوق الشيكولاتة، ملابسي التي كنتي تعشقين أرتدائها، في الواقع أنتي أخذتي الكثير، حتى سعادتي لم تتهاوني فيها واخذتيها معكي...

انتي بنات أفكاري الملعونين...

- انا حاسس إني محبوس في حكايتك، سيبيني...

- عمري...

فقط لو كنت أعلم أنك سترحلين بلا عودة، لكنت وشمت على جسدي كلمة "بحبك" مئات المرات، أغني لك كل أغاني "أنغام" التي تعشقينها، أحضنك حتى تخلع ضلوعك وضلوعي وأنا أغني قائلًا "دا انت النسايم اللي بيها العمر حالي... إمتى يا سيدي تحس بيا ترؤف بحالي"، لو كنت أعلم أنك سترحلين كنت قبلتك كل ساعة وكل لحظة، كنت تجنبت الكثير من الحزن والمشاكل، كنت لأغير الكثير والكثير من الأشياء...

كنت رأيت شخصًا آخر غير يونس في الكون...

عزيزي ثيو،

المرأة مخلوق معذب، هي الخاضعة التي تمتثل إلى المسلمات، ضعيفة وخانعة أمام الرجل، لا تريد سوى إن تحيا حياة بسيطة لا مشاكل أو متاعب بها، أنا لا أريد مثل هذا النوع من السيدات في حياتي يا أخي، أريدها غير تقليدية وغير مكترثة للمسلمات، أريدها متمردة يا ثيو، أريدها أن تشبهني ولا تشبهني، تتبعني ولا تتبعني... في الواقع... أنا لا أعرف ما أريد...

فنسنت

- خليني أحكي لكم الأول عن شريف...

يعشق شريف مهنته كضابط مباحث، مرهق هو في أغلب الأوقات، لا ينام تقريبًا ويعيش على القهوة والسجائر وما قد تطوله اليد من أكياس شيبسي أو مشروبات غازية...

عرف بين زملاء المهنة باسم شريف باشا المخاوي، لقدرته العجيبة على حل كل القضايا الصعبة والتي يعجز الجميع عن حلها، بارع في قضايا القتل والخطف، لا يستخدم العنف أبدًا، لكن سلاحه أقوى من العنف... العقل...

ذات صباح كان شريف جالسًا في مكتبه يراجع بعض القضايا، الأوراق والملفات أشبه بجبل صغير على وشك الانهيار، إذا مر فان جوخ من أمام مكتبه لقام برسم لوحة فنية لمشهد فناجيل القهوة على مكتب شريف...

دخل العسكري وأخبره إن هناك من يريد مقابلته، صياد يدعى النونو، فأشار إليه بيده لكي يدخل النونو، تقدم الرجل وهو رجل في العقد الخامس من عمره يرتدي جلبابًا رائحته مزيج من السجائر الكليوبترا وزفارة السمك، دعاه شريف إلى الجلوس وانتظر لكي يبدأ الرجل بالكلام

- أنا جاي أبلغ عن واحدة مختفية يا باشا

- تقرب لك إيه المختفية دي يا عم نونو؟

- لا هي ما تقربليش، دي بتيجي تأجر مراكب من عندي كل يوم.

- مراكب؟ لا فهمني... و بعدين إنت عرفت منين إنها اختفت وهي مش قريبتك؟ شوفتها يعني وهي بتتخطف؟

- أنا اسمي النونو يا باشا، عبدالكريم النونو وعندي محل تأجير مراكب صيد ومراكب رحلات في الفيوم، اللي جاي أبلغ عن اختفاءها دي يا باشا زبونة أميرة وبنت ناس اسمها الأستاذة حنين، بتجيلي كل يوم يا باشا من ييجي سنة ونص، صيف شتا يا باشا تلقيها عندي في البحيرة، تاخد

المركب وتدخل جوه ترسم وتسمع أغاني في الراديو بتاعها أو التليفون المحمول وترجع تحاسبني وتمشي، مفيش يوم يا باشا ماكنتش بتيجي، دا أنا حتى سألتها من فترة إنها ازاي بتعرف تيجي كل يوم ومفيش ولا يوم فوتته وكانت دايمًا تضحك وتقول إن المكان دا غالي أوي عليها، بس والله بنت حلال أوي يا باشا، دا حتى الصيادين كلهم بيحبوها وبتيجي تتواضع وتقعد تاكل معانا وتهزر... و هوب يا باشا بين يوم وليلة اختفت...

- مش شرط يا عم نونو تكون اختفت، ما يمكن عيانة أو مسافرة أو يمكن ماتت حتى، معاك بيانتها طيب عشان نوصل لأهلها ونتطمن؟

- لا والله يا باشا، دا حتى نمرة تليفونها اديتها لي زمان في ورقة وأكيد ضاعت مع اللي بيضيع، بس دي صورتها يا باشا، اتصورتها مع الأستاذة حنين من بيجي سنة كدا وهي طبعتها واديتها لي هدية، والنبي قبل الهدية

- طيب يا عم النونو سيب رقم تليفونك وسيب الصورة دي ولو في جديد هقولك ولو لقيت الورقة اللي فيها نمرتها جرب كلمها يمكن يطلع كل اللي في دماغك دا هواجس وتريح قلبك...

- ألف شكر يا باشا... ألف شكر

***

كان يجلس أمامي متوترًا ومهمومًا، يصبح شخصًا آخر عندما يخلع سلاحه من حزامه ويرتدي زي الأنسان العادي بعدما تنتهي الساعات الميري في يومه، جلس أمامي وهو يتجرع أكواب الماء الواحدة تلو الأخرى كمن لم يشرب منذ سنوات، أنظر إليه وأدعوه لكي يتحدث ويخبرني أكثر عما بداخله ولكنه كان قليل الكلام...

- شريف... أجيب لك مياه تاني؟

- شكرًا يا دكتور... تصدق شريف دي مش متعود عليها من غير باشا وبيه...

- خلاص احنا قلنا بنشيل الألقاب والتكاليف لما بنقعد في الأوضة دي... عايزك تتحرر من كل اللي شاغلك ومسيطر على تفكيرك وإحساسك... قول اللي جواك زي ما انت شايفه مش زي ما انت عايز الناس تشوفه.. فاهمني يا شريف؟

- أنا بس بالنسبة لي الموضوع جديد يا يونس، أنا بشوف حنين وبتكلمني رغم إني عمري في يوم ما شوفتها.. بتظهر وتحكي وتتكلم، هي تقريبًا عايشة معايا في البيت وفي الشغل، ساعات بتكلمني في التليفون وتقولي يا شريف وصلت لأية في القضية بتاعتي...

- بتخاف منها يا شريف؟

- مش خوف... وجودها بس مش مريحني ومأثر على حياتي، أنا بقيت أخاف أستحمى ألاقيها داخلة ورايا الدش، بقيت بخاف أبقى في اجتماع مهم مع حد من زمايلي وتظهر لي وما اعرفش أداري وجودها... أنا تعبت يا دكتور يونس... خايف أكون مجنون...

- احكي لي طيب براحة كدا إيه اللي حصل بعد أما جالك النونو دا أول مرة...؟

***

عزيزي ثيو،

" مثل المواسم التي تغير الطيور فيها ريشها. تكون أوقات الشقاء والتشتت بالنسبة للبشر. ويمكن أن يخرج الإنسان منها متجددًا، ولكن لا يجب إن يحدث هذا أمام أنظار الجميع. لذلك فالشيء الوحيد الذي يجب على المرء فعله، هو إن يخفي نفسه... ولكن... أيخفي نفسه من نفسه؟ أم من البشر؟"

فنسنت

في هارديز الزمالك، جلست مريم تلتهم البرجر الخاص بها في نهم وهي غارقة في أكياس الكاتشب بينما تيا سارحة تقلب الطعام في يدها بلا تركيز...

- مالك؟ من ساعة ما نزلنا من عيادة خالو وانتي سرحانة

- كنت فاكرة الموضوع أسهل من كدا بصراحة... شكله هيطلع حوار كبير

- مش حاسه إن هو دا اللي واخد عقلك... من إمتى يعني بيفرق معاكي شغل الكلية؟

- أهو اللي حصل... بس بقولك إيه؟ خالك طلع مز، ماتظبطيني معاه يا بت...

وضحكا سويًا وهما يكملان طعامهما.

***

الفصل الثالث

أنا وهؤلاء

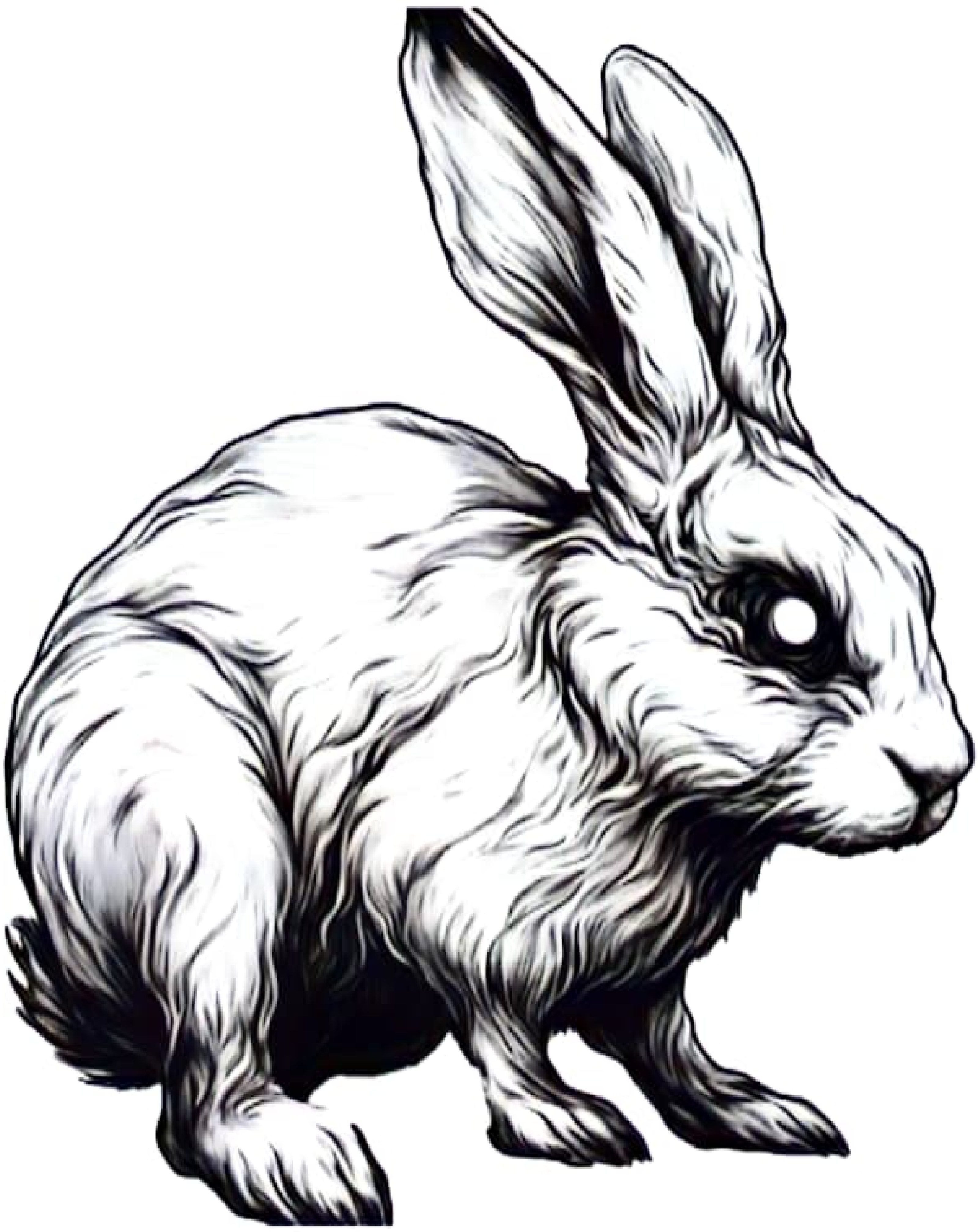

تعجبي الدائم عندما تزورني كنزي في العيادة، هو كيفية أن يمتلك أي مخلوق في المطلق تلك المقدرة على خيانتها، هي بالفعل تقترب إلى حد كبير من الكمال، ولولا الإيمان المتبقي داخلي ويقيني أن الكمال لله وحده، لقلت بعلو الصوت إن تلك الكنزي كاملة كمال البدر، بل أكثر من ذلك...

تفاصيلها لا تشبه أحدًا في المطلق، جمالها صارخ مؤلم إلى العين والمشاعر...

إن كنت تعودت طوال سنوات حياتك على النظر إلى القمر فقط، فحتما ستتأذي عيناك من رؤية نور الشمس...

- مش احنا صحاب؟

- طبعًا يا يونس... أكيد...

- طب بما إننا صحاب، أنا عايز أشاركك حاجة بتدور جوه دماغي...

- حاجة إيه؟

- أنا حاسك بتكدبي يا كنزي... حاسس إنك مش بتحكي كل حاجة، أو الأسوأ... بتغيري الحقيقة...

***

بحكم العادة والعشق، أهرب إلى الإسكندرية بعد نهاية أسبوع عمل طويل. في الطريق أبحث بيدي على سي دي أستمع إليه في رحلتي، بحكم العادة أيضًا لا أختار شيئًا محددًا لأستمع إليه، بل أترك يدي تفاجئني باختيارها وقد أسعدني الاختيار فعلًا...

تخللت موسيقى خالد حماد إلى داخل روحي وأنا أستمع لموسيقى فيلم "أحلى الأوقات"، أتذكر هذا السي دي جيدًا، كان هدية من ريماس منذ سنوات، كان نهارًا شتويًا، قابلتها لأول مرة بعد إحدى ندواتي بدأت كل شيء بابتسامة صافية ويد ناعمة تمتد لكي تلامس يدي، تُداعب قلبي وتستولي بالكامل على روحي...

- ريماس الفقي، من أشد المعجبين بحضرتك وأفكارك

- شكرًا يا ريماس وحقيقي نورتيني

- ....

- انتي عايزة تقولي حاجة... قوليها على طول ما تتكسفيش...

- إيه اللي خلاك تفكر إني عايزة أقول حاجة؟

- ما هو انتي مش هتيجي المسافة دي كلها وتسمعي الندوة وتستني لما كل الناس مشيت عشان تحكي لي عن إعجابك بأفكاري... ولا إيه؟

- بصراحة أنا بقالي شهور بحاول أوصل لك... تقدر تقول معجبة، ينفع أعزمك على قهوة؟

- أنا ليه حاسس إني بتشقط!

قلتها وأنا أضحك كمحاولة مني لإزالة كل هذا التوتر والغيمة التي تحيط نبضات قلبي الغير منتظمة في الوقت الحالي، وبعدما شعرت أنني ربما أكون قد أحرجتها، ابتسمت وأكملت كلامي:

- عمومًا أنا قهوتي مظبوطة... أعرف كافيه حلو أوي قريب من هنا...

تركت أوراقي وأفكاري وأخذت فقط قلبي معي لعله يكون طوقًا للنجاة ولكني أكتشفت أن قلبي لم يفعل شيئًا سوى رميي في هذا البحر العميق ومشاهدتي وأنا أغرق... أغرق... أغرق...

***

في غرفة المعيشة بمنزله، جلس شريف مستلقيًا على أريكته يشاهد التلفاز، لا شيء مبهر حقًا، توقف للحظات عند قناة ناشيونال جيوجرافيك التي كانت تعرض حلقة عن صيد أسماك التونة في اليابان، تذكر وقتها النونو الذي أتي إليه هذا الصباح وقصة الفتاة المختفية، قرر أن يبحث عنها على الفيسبوك ولكنه أصيب بإحباط شديد عندما وجد المئات من الذين يحملون اسم

حنين، سيذهب للفيوم في الصباح، هذا ما قرره في تلك اللحظة، سيبحث عن المزيد من المعلومات عنها وسيجدها وينهي تلك القصة...

المسافة من القاهرة إلى وادي الريان تقريبًا ساعتين، لم يكن البحث عن النونو أمرًا صعبًا، الجميع يعرفه والجميع يلقبه بالريس الكبير، استقبله النونو بحفاوة كبيرة وامتنان شديد لاهتمامه باختفاء حنين...

- الوادي كله نور يا شريف بيه...

- منورة بيك يا ريس نونو... دا انت طلعت أشهر من عادل أمام يا راجل

- ربنا يديم علينا حب الناس يا باشا... تشرب إيه يا باشا ولا نحضر الغدا على طول؟

- كرمك سابق يا ريس نونو... أنا جاي عشان البنت اللي اختفت؟ لسه ما ظهرتش؟

- لسه يا باشا... بس أنا عرفت أوصل لنمرتها وكنت هاجي لحضرتك النهارده، بس المشكلة يا باشا إن نمرتها مقفولة

- اديني طيب النمرة وأنا هتصرف ما تقلقش، لو في جديد هبلغك...

***

لماذا اخترت هذا المجال تحديدًا يا يونس؟

لم أعد أستطع تذكر عدد المرات التي أسمع فيها تلك الجملة السخيفة، جملة شبيهة بجملة "مش هنفرح بيكي بقى يا حبيبتي؟" التي تسمعها الفتيات دائمًا...

بعض الأشياء تحدث، لأنها يجب أن تحدث... لا لسبب محدد...

***

تردد دائم يدور في عقل تيا، خوف من الحكي واحتياج دائم للبوح

بكل ما في داخلها، تخاف من أن يحكم أحد عليها، تخاف أن يراها الناس مطفأة وهي اللامعة دائمًا. تخاف أن يراها الناس ضعيفة وهي الأقوى على الإطلاق في المدرسة وحتى الجامعة. لا تهتم بما يراه الناس ولا تقع في شباك هؤلاء الشباب المتعطشين للوصول إلى قلبها أو أي منطقة أخرى في جسدها...

القصة التي أثرت عليها بشدة كانت قصة الأستاذ هادي، مدرس الفلسفة في الثانوية العامة، كائن رخوي هو يظهر عليه الأدب والأخلاق في البداية، ولكن فور أن يقترب منك سيحيطك بكل ما أوتي من أذرع، يشبه إلى حد كبير الأخطبوط في تفاصيله، أذرعه تحتوي على مصات للتشبث بالضحية، ينفث حبره فيصيبك بالعمي، ينقض على ضحيته من الأعلى ويسحبها رويدا إلى داخل فمه. الأستاذ أخطبوط هذا يمتلك عيونًا منتفخة لكي يراك ويراقبك في صمت لكي يتمكن من دراستك، ماكر هو، متأقلم مع الظروف المحيطة، يسبح ويزحف و يمشي ويدفع نفسه دفعًا إن لزم الأمر، ولهذا لم يكن من الصعب عليه الإيقاع بتيا...

- ينفع أقابلك بدري شوية النهارده قبل ما تيجي مريم؟

- انتي كويسة؟

- عايزة حد أتكلم معاه، حد يسمع من غير ما يحكم عليا...

- طبعًا... أنا هكون في العيادة كمان ساعة...

***

دلفت مكتبي بالعيادة، أقف أمام الشرفة المغلق زجاجها فأرى انعكاسًا غير واضح لنفسي فيه ، هذا الزجاج يراني أفضل من أي مرآة عادية، شخص باهت، شخص مصاب بالارتباك أو بالتيه، شخص يري نفسه... في الواقع شخص لا يري نفسه...

أسمع صوت خطوات أقدامها، تلك الطفلة التي لا تقل خطورتها عن أي

سيدة ناضجة، اقتحم عطرها غرفتي قبل إن تستأذن بالدخول...

- اتفضلي يا تيا

- آسفة لو كنت نزلتك بدري؟

- لا أنا متعود أنزل بدري شوية قبل أي ميعاد... ما تقلقيش...

- عمرك حبيت؟

- ومين ما حبش...؟ بس انتي جاية قبل مريم عشان تسألي عن حالتي العاطفية؟

- أنا جاية قبل مريم عشان أحكي لك عن وجعي... عشان كل اللي يسمع بيحكم وأنا اللي يحكم عليا بيضعفني وأنا ما اتعودتش أكون ضعيفة...

- تقدري تحكي أي حاجة... ومن غير أي حكم...

***

الفصل الرابع

مرض يدعى الحب

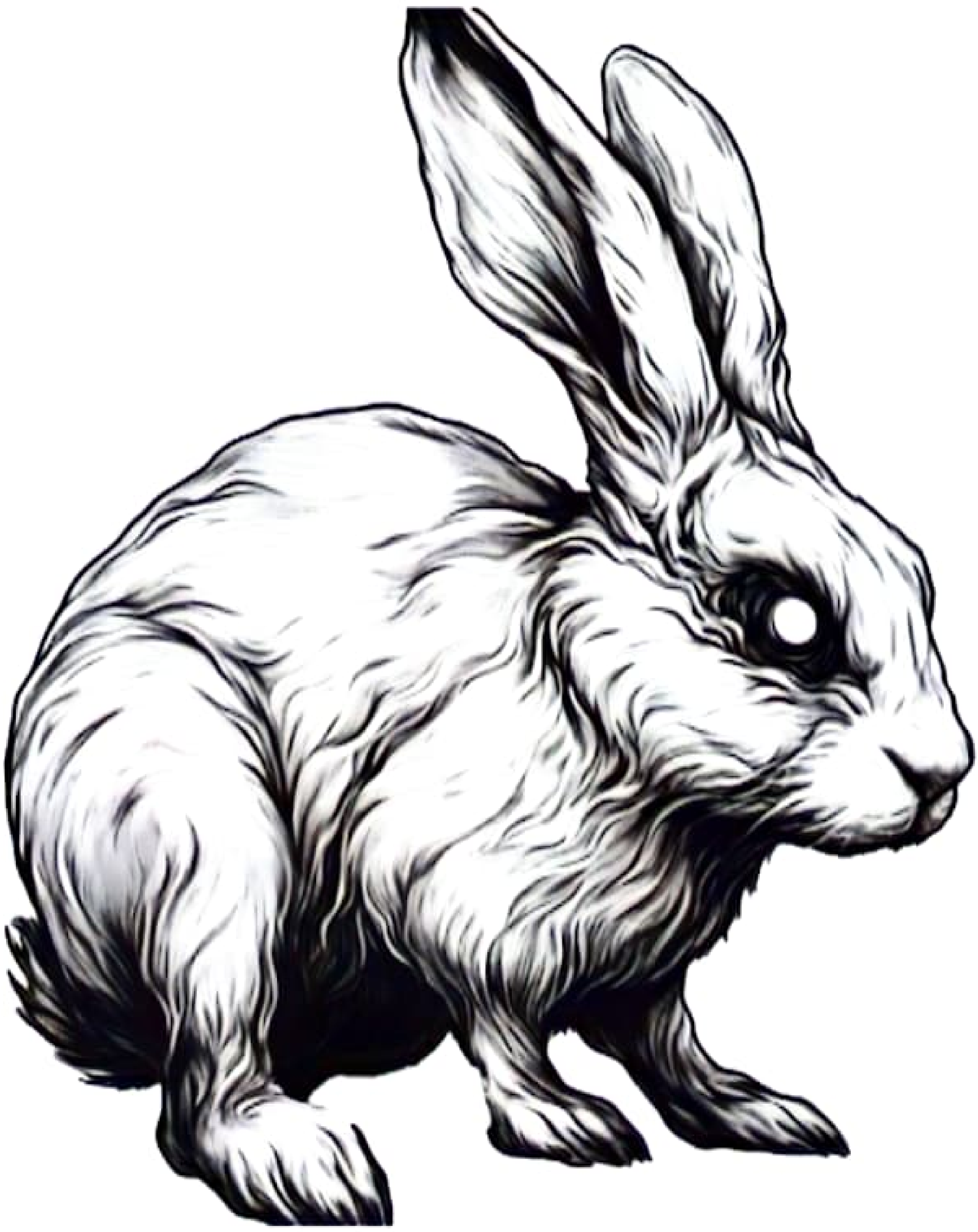

الأضواء حارقة!

عيناه أصابهما الجفاف من شدة وميض الكاميرات التي تتبعه في كل حركة يخطوها أو نفسٍ يأخذه، أهي ضريبة الشهرة؟ تبًا للشهرة إن كانت ستأتي ويأتي معها العمى والمرض والصداع الذي لا يفارقه...

حاتم نور، الفنان الذي صعد سلم الشهرة والنجاح في وقت قياسي، الذي تمني النجاح والمال وحصل عليهما ومعهما الاكتئاب والإرهاق والوجع...

بدأ مشواره منذ خمسة أعوام تقريبًا، موهبته كانت الوسيط الوحيدة له، من دور صغير في فيلم سيء إلى دور أكبر في مسلسل بطله نجم كبير، ثم دور كبير في الجزء الجديد من سلسلة أفلام شهيرة وناجحة، وها هو يقف الآن يلوح بيده إلى جمهوره أمام إحدى دور العرض احتفالًا بالعرض الخاص لفيلمه الجديد والذي يلعب فيه دور البطولة المطلقة.

في العام الماضي لعب دورًا رومانسيًا في فيلم أشاد به الجمهور والنقاد سويًا، كم كان رائعًا وهو يجسد شخصية الصحفي الذي يقع في حب تلك المسجونة، وقرر إن يحارب المجتمع لكي يثبت براءتها، وها هو اليوم يقف مبتسمًا في العرض الخاص لفيلمه الجديد الذي يلعب فيه شخصية ضابط شديد الذكاء يحاول الإيقاع بمجموعة من الإرهابيين...

- مبروك على الفيلم

- عجبك؟

- للأسف الفترة دي ما عنديش وقت أعمل أي حاجة مسلية، بس هو أكيد فيلم عظيم زي كل أعمالك

- شكرًا يا دكتور يونس...

- أقدر أعرف سر تشريفك ليا النهارده؟

- أنا حاسس بحزن كبير أوي في حياتي... حاسس إني لوحدي أوي...

- احكي لي أكتر

- عارف لما يبقى نفسك تقسم السعادة على اتنين؟ نفسك تقسم خروجك أو ضحكتك، نفسك حتى تقسم عمرك كله على اتنين... هي دي المشكلة...

***

هل كل الناس مصابون بالأمراض النفسية؟ أيوجد حتى في المطلق إنسانًا سويًا وخاليًا من المشاكل والأمراض؟ أهناك من يستحق أن يعيش حياة لا يشوبها أذى نفسي أو عصبي؟ وإن كانت الإجابة بنعم... فمن حقًا يستحق؟ هل أستحق هذا أنا؟ أمن يعالج الناس قادرًا إن يعيش متعافيًا؟

أنا يونس، أقر إنني لا أستحق أن أعيش سعيدًا، السعادة كنز لا يجده الكثيرون ولا يستحقه الكثيرون...

لماذا أتهم كنزي بالكذب؟ لماذا لا أكون أنا من يكذب أو يتجمل لكي أصل لما أريد، ولكن أليس ما أريد هو ما يريدون هم أيضًا؟

***

عزيزي ثيو،

"لا نستطيع دائمًا أن نحدد ما الذي يبقينا محبوسين، يدفننا ... ولكننا نشعر بالحواجز، البوابات. هل هي محض أوهام؟ لا أظن ذلك. ونسأل "يا إلهي، إلى متى؟ هل سيستمر ذلك إلى الأبد ؟"

أتعرف ما الذي يستطيع تحريرنا من هذا السجن ؟

العاطفة القوية الحقيقية، الحب بقوته السحرية، يمكنه ذلك... و لكن... ما هو الحب يا ثيو؟ ومتى سنتأكد إن كان هذا الحب حقيقيًا حقًا... أم مثله مثل الخيالات الدائمة..."

فنسنت

الجلسة يخيم عليها الخنقة، أتت مريم بعد تيا بساعة تقريبًا، رأسي مليئة بالأفكار والتعجب، عليّ الاعتراف أنني لم أكن منتبهًا تمامًا في تلك الجلسة، حاولت أن أشغلهم ببعض الكتب والمراجع عن بعض الأمراض النفسية الشهيرة والشائعة...

الاكتئاب، الهوس، الانفصام أو الذهان...

في المراجع التي بدآ في قراءتها بعض الأمراض التي استوقفتهم...

متلازمة ديوجانس كبداية، ترتبط تسميتها باسم الفيلسوف الإغريقي ديوجين، لكونه أصيب بها في آخر فترات حياته، حيث يقال إنه أهمل نفسه بشدة وزهد الحياة، لدرجة أنه كان يعيش داخل برميل نبيذ ولم يكن يملك أي شيء... وكان معتاداً على ضبط النفس والتقشف الصارم معرضًا نفسه إلى البرد والحر الشديدين... فكان يرتدي عباءة خشنة ويحمل عصا ومحفظة صغيرة ويعيش وسط الكلاب ويحمل مصباحًا يتجول به ليلًا ونهارًا بحثًا عن إنسان صالح... أو ربما حتى بحث عن نفسه، و هي من أشهر وأغرب المتلازمات النفسية على الاطلاق ويظهر على المصاب بها ما يُظهر لديه الرغبة في امتلاك الحيوانات، فتجده يحبها ويتعامل معها باندماج وتفاهم عجيب، في المقابل هناك رفض وكراهية بالغة للبشر، يبدو عليه الإهمال الحاد للذات، والميل للعزلة بشكل متطرّف، ومن أهم علامات هذا الاضطراب أيضًا بعثرة الأشياء في مكان المعيشة والسلوك الفوضوي، الادخار أو البخل المفرط، الاحتفاظ بأشياء عديمة الفائدة لتخليد الذكرى، إهمال نظافة المكان والمظهر والصحة، اللامبالاة والمصابون بهذه المتلازمة نلاحظ عليهم هذا التغيير في حياتهم وقد يتجهون للإدمان أحيانًا مع ملاحظة أن أي شخص يظهر عليه أيا من هذه الأعراض ليس بالضرورة أنه يعانى متلازمة ديوجين؛ بل قد تكون أعراض عابرة أو سمات شخصية أو مصاب باضطراب آخر، أما عن الفئات الأكثر إصابة؛ فيعد كبار السن هم الأكثر عرضة للإصابة بالمتلازمة، والمصابين بانهيار جسدي أو عصبي أو عقلي مرتبطٍ بالخرف وصغار السن الذين يعانون ضغوطًا نفسية، الذين يعانون

من حرمان شديد في حياتهم الأولى، من فقدوا أشخاص من الأقارب والأصدقاء أو من لديهم القدرة لتذكر الإحباطات والأحداث المؤسفة أو الأبناء الذين لا آباء لهم فيعانون من هذه المتلازمة، والذين يعيشون بمفردهم، مرتفعي الذكاء.

أما عن الحلول، العلاج قد يأخذ وقتًا طويلًا... فمن الصعب جدًا تقديم الرعاية الطبية للمصابين لنفورهم من الأشخاص وخوفهم من المؤسسات الطبية... ولكن يمكن تهدئة هذه الأعراض عبر بعض الأدوية... ومن ثم البدء بدعمهم النفسي وإرشادهم بحذر شديد، وفى حالة رفضهم علينا الانسحاب، ثم المعاودة وهكذا إلى أن نكسب ثقتهم بجانب العناية بنظافتهم وتغذيتهم...

- تفتكروا المصاب بالمتلازمة دي شخص محتاج مساعدة؟

- أصل لو أنا شخص فيا الصفات دي، مش يمكن عندي شعور بالاحتياج أكتر من كوني مريضة؟

- خليني أحكي لكم عن حاجة أسوأ...

- أسوأ من دا؟

- أسوأ بكتير في الحقيقة...

- ....

- في سنة ١٨٨٠، واحدة ست اسمها مادموازال أكس أو الأنسة أكس، راحت للطبيب الفرنسي كوتار، كانت بتشتكي من أحاسيس مزعجة زي الكرب وفقدان الأمل، وكانت بتشكي من عرض آخر أكثر خطورة، كانت بترفض الأكل والشرب لأنها كانت بتعتقد إنها ميتة، كوتار سمى المرض دا بمتلازمة كوتار، و من سنة ١٨٨٠، تم توثيق عدة حالات نادرة عن متلازمة كوتار، وفي العديد من الأوقات كان يتم تشخيص المرض على إنه اضطراب عقلي مثل السكيزوفرينيا أو انفصام الشخصية، وبسبب ندرة

هذا الاضطراب العقلي كان يتم تجاهله أو عدم رصده واكتشافه لدى معظم المصابين به في أغلب الأوقات... المرض دا بالمناسبة غير مرتبط بأي ألم جسدي، يعني المصاب بيبقى صحته كويسة، بس فعلًا بيتوهم إن أعضاؤه كلها ميتة...

- و دا ليه علاج؟

- الموضوع كله مرتبط بالإقناع يا مريم، طول ما أنا عندي القدرة إني أقنعك بأي شيء، يعني على سبيل المثال، متلازمة فريجولي بيبقى المريض متخيل وحاسس إن جميع المحيطين به هم شخص واحد يتنكر بوجوه ويلبس أقنعة مختلفة بهدف إزعاجه. هو دا بقى توهّم فريغولي، كأن الشخص دا شاطر جدًا وموهوب جدًا في التنكر ويقدر يبقى أي شخص عشان يخلي حياتك جحيم، وكل الحالات دي بيبقى في الأغلب علاجها بالإقناع...

***

كما توقع تمامًا...

لا أحد يجيب والنمرة لا وجود لها من الأساس...

شريف بدأ يشعر بالارتياب، حسه الأمني يخبره أنا ما يحدث ليس بمصادفة، من أنت يا حنين؟، سأل نفسه...

- أنا عايزك تعرف لي صاحبة الصورة دي يا هيثم

- تحت أمرك يا شريف باشا

صورتها تكفي بأن تبحث عنها لأعوام وأعوام، بسيطة هي، والسر كله يكمن في البساطة، هلال وليس بدر، سلسبيل وليس بحر، سر وليس أسطورة...

في الصورة تبتسم بصدق فتظهر الكرمشة حول عينيها من شدة السعادة، فستانها الأزرق الجميل زادها روعة، شعرها الناعم شديد السواد زاد السحر سحرا، من قد يؤذيها؟ من قد يجرحها؟

- حنين ساعات بتخبط على باب أوضتي في نص الليل يا يونس، بتبقى عايزة تحكي حواديت، وفي أوقات تانية بتبقى محتاجة تسمع حواديت تطمنها وتخليها تعرف تنام، بقيت بحفظ حواديت عشان أقدر أسعدها، حكيت ليها مرة عن قط كان مش عارف هو عايز إيه... كان تايه ونفسه يبقى أي شيء ليه فايدة أو قيمة، كان بيبص على الطيور ويحاول يطير زيها لكن بيفشل، كان بيشوف السمك ويحاول يعوم زيه بس كل مرة كان بيبقى هيغرق، لدرجة إنه قرر يبقى فاكهة لجاب قشر الفاكهة وحطها عليه ولما باقي الحيوانات شافوه حاولوا ياكلوه لقى نفسه بيعرف يجري ويهرب بسرعة... ووقتها بس عرف قيمة قوته... القط دا مش جبان يا شريف، صح؟

- على حسب إنت شايفه ازاي... كل شيء بيتحدد على حسب انت شايفه ازاي...

***

في صباح هذا اليوم، حكت لي تيا عن هادي، ظهر في بادئ الأمر على هيئة الأستاذ المحب العطوف، الذي يحمل كل صفات الأب والأخ الأكبر، وفي تلك الفترة يبدأ في بث سمومه ببطء حولها لكي تقع في شباكه، يطلب منها دومًا إن تحكي له عن أسرارها، إن تحكي له إن كانت معجبة بشاب في سنها، ويوبخها كثيرًا وكثيرًا إن كانت في علاقة حب عادية مع أحد من زملائها، يخبرها دائمًا إنها أميرة وملكة وياقوتة، يجعلها تشعر إنها البنت الأخيرة على وجه الأرض وأن ليس لها مثيل ولا بديل، يعرض عليها درسًا خاصًا بلا مقابل؛ لأنه يراها نابغة وذكية ولا بديل عن أنها تصبح الأولى دائمًا...

حكت لي عن هذا اليوم الأسوأ في حياتها...

- كانت الدروس دايمًا عندي في البيت، عمره ما كان بيعمل أي حاجة غريبة، حتى لما كان بيقول لي كلام حلو وكلام حب كان بيخليني أحس إني مهمة أوي وغالية أوي... مش زي أي بنت، أنا أصلًا مش بدي حد

الفرصة أنه يقرب مني ومش أي حد يقدر يقرب مني يا يونس، بس فكرة إن واحد أكبر مني بـ 15 سنة بيعاملني كدا خلاني أحس إني بجد ملكة! ! اليوم دا كلمني وقال لي إنه عيان وإن الدرس هيكون عنده في البيت، رحت وأنا مفيش في دماغي ولا أي حاجة، و... وحصل اللي حصل...

- حاولتي تحكي لأهلك؟

- مستحيل، أنا بابا من سوهاج، آه هو بيلف الدنيا ومش مقفل تمامًا بس لو عرف حاجة زي دي هيقتلني، أنا رحت له بيته... ومين يومها وأنا فعليًا مش بتعامل مع رجالة، بابا الوحيد اللي بقدر أتعامل معاه.. حتى الكلية مش بروحها.. هو أنا مجنونة؟ لما حد من قرايبي بيقرب مني بحس إني هموت، بدوخ ونفسي بيزيد، بترعش وبعرق.. أنا حياتي باظت بسببه..

- اللي عندك دا اسمه أندروفوبيا أو رهاب الذكور، ودا طبيعي في حالتك يا تيا.. بس في حالات أسوأ منك بكتير، بدليل إنك قاعدة معايا دلوقتي وبنتكلم أهو..

- إنت أول راجل أقعد معاه لوحدي من سنين يا يونس...

***

أجلس وحيدًا في العيادة، أنظر من النافذة لأستنشق بعض الهواء، السماء لونها يميل إلى الأحمر، أسمع أصواتًا صاخبة تشبه الانفجار، أنظر إلى السماء فأرى نيازك صغيرة تتساقط على الأرض فتدمر ما عليها، أسمع صوت صراخ فأنظر إلى مصدره لأرى ريماس تبكي وهي تحاول أن تتفادى تلك النيازك، أنادي عليها ولكنها لا تجيب، أحاول أن أذهب إليها ولكن فروعًا من الأشجار تخرج من باطن الأرض وتحيطني وتمنعني من الحركة، أحاول أن أصرخ ولكن أسناني تنغرز في لساني فأفقد القدرة على الحديث، أصرخ مرة أخيرة من الألم، فأفتح عيني لأجد نفسي في العيادة مرة أخرى وأن كل هذا كان كابوسًا مزعجًا كالعادة، أشرب بعض الماء وأذهب لأستنشق هواءً حقيقيًا تلك المرة...

الفصل الخامس

ملاك بلا جناح

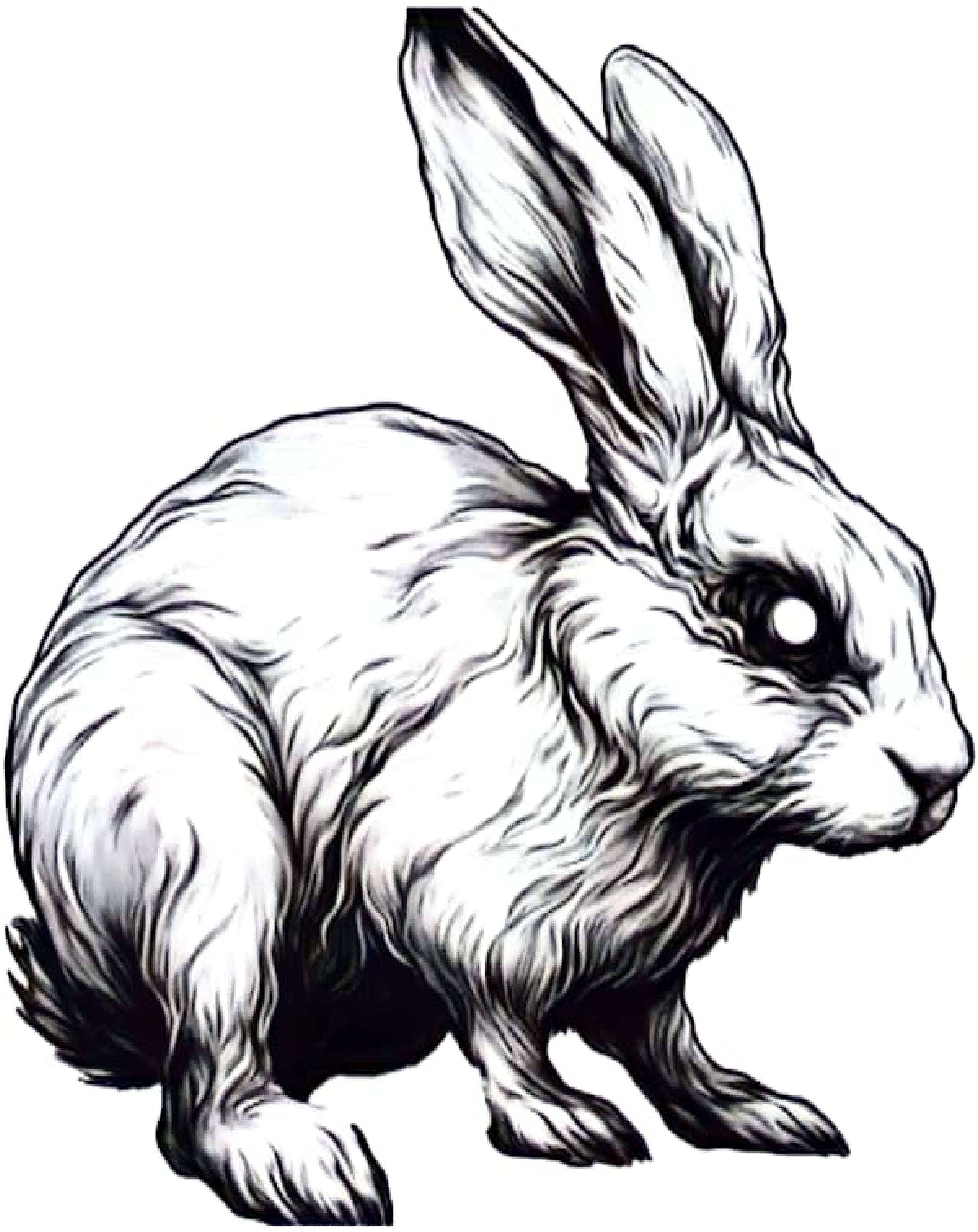

"قول ورايا يا أستاذ يونس... و على مذهب الإمام أبو حنيفة النعمان"

- مبروك يا عروسة... شكلك زي القمر وانتي حاطة الوردة دي في شعرك... شبه الملايكة

- و هما الملايكة بيحطوا ورد في شعرهم؟... الملايكة عندهم جناحات

- يا سلام... و انتي عمرك شفتي ملاك يا ريماس؟

- لا... بس هما بيترسموا كدا

- أنا شايف إن الجناحات دي مجرد رمز... رمز بيوضح طهارة وجمال الملاك...

- طب ما الغراب والبوم عنده جناحات... ما تعملش دكتور بقى وفيلسوف عليا

- أطلقك طيب ولا أعمل إيه أنا دلوقتي...؟

تزوجتها! في أغلب الأوقات عندما تسأل رجل عن سبب حبه للفتاة التي يحبها، تأتي الإجابة في أغلب الأوقات محملة بكلمات معادة معروفة مثل "عشان هي شبهي" أو "عشان هي مختلفة" أو "عشان فيها كل الحاجات اللي دورت عليها ولقيتها فيها"، أما عن ريماس، فحقًا كان السبب مبهمًا تمامًا بالنسبة لي، أتذكر هذا اليوم جيدًا، يوم جلسنا في هذا الكافيه وشربنا القهوة، كان اللقاء سهلًا مريحًا يدفعك لتطلب اللقاء التالي بلا تردد، وفي المقابلة السابعة طلبتها منها...

- تتجوزيني؟

- أنا؟

- لا، بقول للويتر... يا سخيفة، أيوة طبعًا انتي

- و أنا طبعًا موافقة يا يونس...

***

بعض الأحاديث كانت تحتاج لمترجم بالنسبة لريماس في كثير من الأحيان، كانت لا تفهم ما أقول أو تدّعي عدم الفهم لكي أشرح أكثر وأكثر...

كنت أكره الشرح، الأشياء تكون أجمل وأنقى إن تركناها مجردة وخالية من أي شرح، بعض الأشياء تظل ساحرة حتى يبدأ البشر في التدخل فيها ومحاولتهم تعديلها...

- طيب تعالى نتفق

قالتها ريماس في جدية وحنان في نفس الوقت...

- نتفق على إيه؟

- يعني... شكل حياتنا مثلًا...

ابتسمت وأنا أعتدل في جلستي وأجيبها ممسكًا يدها...

- وليه نتفق...؟ دي حياة يا ريماس... مش عقد... احنا بنخفر من الحب بدافع الخوف من بكرة أو حتى الخوف من الفشل، بنرتب دنيتنا ونحط قواعد لنفسنا ونحط قواعد لبكرة وفي الواقع كل شيء أبسط بكتير من كدا...

- ساعات مش بفهم كلامك

- أنا كمان... أنا كمان ساعات كتير مش بفهمني...

***

تحتسي قهوتها في توتر، عدم قدرتها على الإمساك بالفنجان جيدًا يشبه كثيرًا عدم قدرتها على الإمساك بزمام حياتها الملتوية...

في طفولتها كانت تكره الذهاب إلى مدينة الملاهي، كانت ترى نفسها أشبه بقطار الموت، كنزي الملتوية صعودًا وهبوطًا، كنزي التي تقلب الحياة كلها رأسًا على عقب...

- أنا مش بكدب... أنا بس يمكن مش بعرف أواجه

- شايفة نفسك خاينة؟

- و مين في الدنيا مش خاين يا يونس...؟

- بلاش تبرري أفعالك بتعميم الفعل، العالم مش كله خاين يا كنزي...

- ساعات بنشوف حاجات وبنفتكر إن هو دا اللي احنا عايزينه... بس بنطلع في الآخر غلطانين... عمرك كنت مبهور بحاجة أوي في الأول وبعد شوية زهقت منها؟

- كتير... بس في حاجات دائمة... بتعيش وتكبر كل ما احنا بنعيش ونكبر... ما كنش ذنبه إنه حبك وما كنش ذنبه إنه إدى لك كل حاجة عشان يشوفك مبسوطة... وبرضه أنا لسه مش فاهم... انتي عايزة حد يساعدك ولا عايزة حد يطبطب عليكي ويحسسك إنك مغلطتيش في أي حاجة؟

- الغلط دا يشبه الدايرة، كل واحد ممكن يحط نقطة عليها ويقرر إن هي دي البداية... وماحدش في الآخر بيبقى غلطان... كل واحد بيبقى عنده الصح بتاعه يا دكتور...

***

أعود دومًا إلى البدايات، التاريخ يفيد الحاضر دائمًا...

- اكتب لي هنا حكاية صديقك الخيالي يا شريف... اللي مرة قلت لي عليه.

"في طفولتي كنت طفلا مختلفا...

في طفولتي عشت كثيرًا مع الألم حتى أصبح جزءًا لا يتجزأ من تكويني...

لا أعيش سعيدًا ولا أنام حتى سعيدًا، أتعايش كل ليلة مع كوابيسي، في البداية كنت أرتعد خوفًا منها، ومع الوقت أصبحت أعرف شخصيات

كوابيسي معرفة جيدة، أصبحوا أصدقائي، أهرب من كوابيس الصحو وأقابلهم في كوابيس النوم، الشخصية الأكثر غموضًا وقربًا لي وقتها كان اسمه "زيتون"، كان في بعض الأحيان شريرًا مخيفًا وفي بعض الأوقات طيبًا مضحكًا، يحكي لي في بعض الليالي عن الأساطير، وفي ليالي أخرى يحكي لي قصصًا مرعبة...

في بعض الأيام كان زيتون يأخذ شكلًا بشريًا ويأتي ليلعب معي في غرفتي وأحيانًا يتشكل في هيئة رجل مسن شكله مضحك، أما عن تحوله الأقرب إلى قلبي وقتها كان عندما يتحول إلى قط...

لم يكن أحد يصدقني عندما أحكي له عن صديقي زيتون، وكان يوبخني كثيرًا عندما يعلم إنني حكيت لأحد عنه، كان يهددني كثيرًا بالاختفاء من حياتي ومن أحلامي وكوابيسي، و لكنني كنت صغيرًا فلم أكن أنصت إليه، وبالفعل في يوم من الأيام قام بالاختفاء ولم يعد مرة أخرى ...

في الواقع هو عاد في عدة مرات قليلة، أتذكر هذا اليوم جيدًا عندما كنت في المدرسة، كنت وقتها في الحادية عشر من عمري، في دورة المياه قام ولدان متنمرين بوضع رأسي في المرحاض، بكيت كثيرًا ولم أخبر أحدًا، وفي صباح اليوم التالي عندما وصلت إلى المدرسة، كان الجميع يقفون في دائرة يصرخون، اقتربت منهم لكي أجد الولدين المتنمرين محروقين بشكل مخيف، وتبدو على جثتيهما آثار تعذيب واختناق، أما عن أعينهما فبدا عليهما آثار الرعب، كأن من قتلهم قام بإخافتهم قبل إن يقتلهم، كأن من قتلهم ليس إنسانًا...

- زيتون!!

ليس مختلًا ولا مريضًا... العباقرة فقط من يخلقون أصدقاءً خياليين...

- الحاجات لما بتزيد عن حدها بتنقلب لضدها يا شريف

- تقصد إيه؟

- تسمع عن نيكولا ميكافيللي؟ وشك بيقول إنك ماتعرفوش... دا راجل محترم أوي، كان فيلسوف وسياسي ومفكر... من الناس اللي عرفوا البشرية كلها معنى كلمة سياسة، الراجل دا لما اتنفى بدأ يبقى إنسان تاني، كان أوقات كتير أوي فيها لوحده، كتب مرة عن أصدقاؤه الوهميين اللي بيقابلهم في منفاه وقال "عندما يأتي المساء، أعود إلى المنزل وأذهب إلى دراستي، على العتبة أخلع ملابس العمل الموحلة، التي تفوح منها رائحة العرق، وأضع علي جلباب المحكمة والقصر، وفي هذا اللباس القاسي أدخل المحاكم العتيقة للقدماء ويرحبون بي، وهناك أتذوق الطعام الذي هو لي وحدي، والذي وُلدت من أجله. وهناك أتحدث بجرأة إليهم وأطلب دوافع لأفعالهم، وهم، في إنسانيتهم، يردون عليّ. وعلى مدى أربع ساعات، أنسى العالم، ولا أذكر أي عجز، ولا أخشى الفقر، ولا أرتجف بعد الآن من الموت: فأنا أعبر في الواقع إلى عالمهم"

- ...

- هو ما كنش مجنون بالمناسبة، ولا انت كمان مجنون...

***

لا أثر لها على الإطلاق! !

هذا ما قيل لشريف عندما طلب أن يبحثوا عن صاحبة الصورة! !

لا أثر لها في السجلات! ! لا شيء! ! من يحملون اسمها وعمرها عددهم يزيد عن الـ ٥٠ ألف فتاة! ! هو كمن يبحث عن قشة في كوم قش! !

في صباح أحد الأيام كان جالسًا وسط الأوراق والرسومات حتى أستقبل مكالمة غيرت مزاجه تمامًا، كانت المكالمة من فتاة تبكي وتخبره أن لديها معلومات عن الفتاة المختفية حنين...

كانت شابة شديدة الجمال، يظهر عليها أثار البكاء والحزن...

- شكرًا، لأن حضرتك جيت تقابلني

- تحت أمرك... و بعدين دا شغلي...

- أنا تقى، أعرف حنين من زمان...

***

الفصل السادس

زيتون

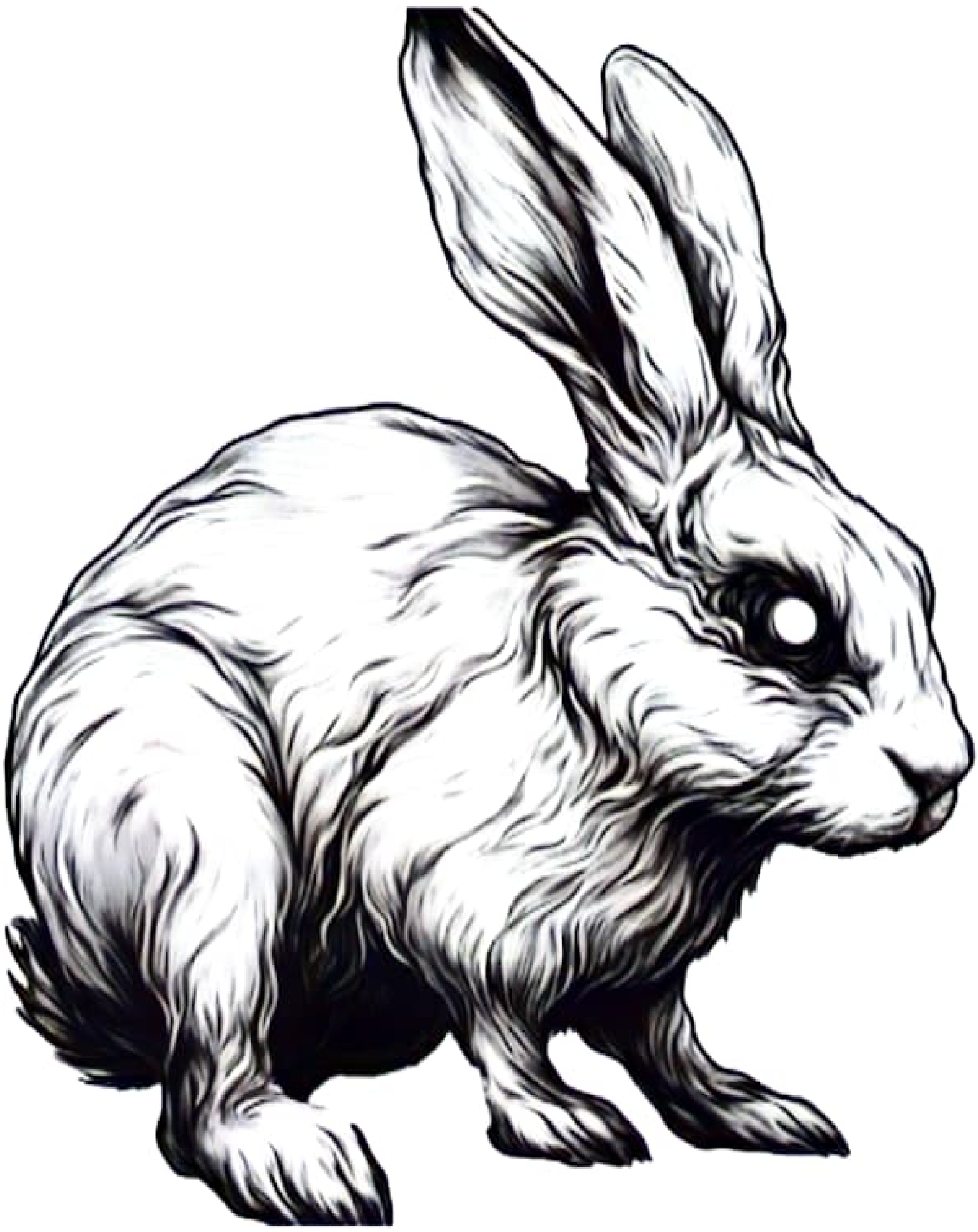

طلبت من شريف إن يكتب لي في يوم عن زيتون، يصفه ويحكي أكثر عنه، كتب وقال:

كان زيتون هو نعم الصديق، ليس بسبب طيبته أو صفاته الحسنة، ولكن أن يظهر شخصٍ ويتجسد ويخلق من كوابيسك ليكون كل شيء أنت لست عليه هو حلم كل إنسان ضعيف وجبان مثلي...

كان هو من ينتقم لي إن حدث لي مكروهًا من أي شخص كان، كان هو من يواسيني في كل أوقاتي العصيبة وأنا أكاد أجزم إن طفولتي كلها كانت أوقاتًا عصيبة...

هو لم يكن مارد ولا جن، على حسب اعتقادي، هو شيء أخر، أراه كما أرى نفسي في المرآة، يتغير ويتجسد ويتلون، زيتون كان الملاذ في الوقت الذي لا ملاذ لي سواه، كان تذكرة عبوري من خلال كل ما كنت أخاف منه، يجعلني أفكر في أمور لم أعتقد في يوم ما إنني قد أفكر فيها أو أفعلها، على مدار أعوام كثيرة كان يجاري تطوري العمري، يواكب احتياجاتي كطفل، ثم كمراهق، ورغم اختفائه لعدة أعوام بعد سنين المراهقة والنضج إلا أنه عاد بقوة بعدها، لا أعلم إن كان هذا بسبب شعوره باحتياجي له أو لانفجاره أخيرًا بعد مدة حبس مطولة...

أتذكر هذا اليوم جيدًا... يوم اكتشافي لخيانتها لي، تلك الملاك الملتوي الذي لا يظهر عليها أي شيء، خرج لي زيتون على هيئة رجل خمسيني على أفضل تقدير، شديد الصرامة والأناقة، يرتدي حلة سوداء وشعره الفضي المصفف بعناية أضاف على شخصيته الغامضة الكثير من السحر والهيبة...

- انت مستني إيه عشان تموتها؟ تيجي شايلة لك عيل في إيدها؟

- زيتون! !

- وحشتك طبعًا

- انت رجعت تاني؟ ! الناس كلها كانت بتقول عليا مجنون لما بحكي

عنك، و عشان كدا بطلت أحكي لما اتأكدت إني مريض... هو أنا اتجننت تاني؟!

- كفاية محن النسوان دا! ! أنا مش جاي عشان تحكي لي قصة حياتك التافهة، أنا جاي عشان أساعدك ونشوف حل في البلوى اللي بالينا بيها دي! !

- بالينا ؟

- احنا قدرنا واحد يا شريف...

***

كنت دومًا أحب أنا أفاجئها، أعطي لها البعض وأوفر البعض الآخر لوقت آخر، الساحر الماهر لا يكشف عن حيله كلها، والزوج المحب لا يظهر لحبيبته كل ما أوتي من حب في نفس الوقت، الحب يجب أن يقسم على أعوام وذكريات عديدة...

كنت أظهر لها ألوانًا لم تُعرف بعد في مشتقات الألوان، كنت الزوج المحب المخلص الذي يعطي بلا تردد ويحب بلا خوف، كانت ريماس جوهرتي وتاجي الذي أرتديه دومًا كلما شعرت إنني مجرد نكرة... لا شيء دون وجودها...

- عارفة مين جاي يتغدي معانا بكرة؟

- مين؟

- حاتم نور

- دمك بقى خفيف أوي يا روحي

- والله يا بنتي حاتم نور جاي يتغدي معانا بكرة... أما نشوف هتعملي إيه للفنان...

***

حاتم نور أصبح هو أيضًا جزء من الأسبوع في حياتي، يأتي إلى العيادة في ساعات متأخرة من الليل حتى لا يراه أحد وهو يتردد على عيادة طبيب نفسي، يعاني هو من فكرة احتياجه للحب الحقيقي المجرد من أي شروط، المجرد من أي مقابل غير الحب، يحكي لي دائمًا عن صدماته العاطفية الكثيرة، يرى النساء جميعًا باحثات عن شهرة معه أو طامعات في بعض المال أو حتى فقط يريدون تمضية بعض الوقت الممتع ليس أكثر، و لكنه لا يريد إن يحيا تلك الحياة، لا يريد أن يكون هذا الفنان البوهيمي ذا السمعة السيئة.. فقط يريد أن... يحب...

***

وضع عم أباظة النسكافيه أمامي وناول كل من تيا ومريم كوبًا من الشيكولاتة الساخنة قبل أن يبتسم في هدوء ويغادر الغرفة...

- هو الدكتور النفسي ممكن يبقى مريض نفسي يا خالو؟

- الدكتور مش فوق المرض، هو يمكن بيقدر يعرف أحسن من الناس التانيين، بيبقى فاهم أكتر في التشخيص والأعراض، بس مفيش حد أقوى من المرض...

- طب شريف مثلًا، إيه اللي يخلي ظابط شاف حواديت وكوارث يمرض ويتعب بسبب اختفاء واحدة زي حنين؟ مش غريبة شوية؟

- لما بندي نفسنا فرصة ندخل جوه الإنسان أكتر، وقتها بس بنلاقي مبرر لكل حاجة، شريف مثلًا كان ليه حكاية هي في الواقع أصل كل شيء... حكاية البنت الوحيدة اللي حبها...

***

أسميهم "الأوائل"، الأشياء الأولى في حياتي والتي شكلت جزءًا لا يستهان به من شخصيتي وتكويني الحالي، أول نجاح أتذكره، أول ألم، أول حب وأول شعور بالندم...

أول محاولة مني لكي أشرح لها، ريماس، عن شعوري الدائم بالخوف من ترددها والقلق من فقدها...

أول شعور بالندم! كيف لإنسان مهما كانت حياته وشخصيته أن يمتلك القدرة على إيذاء هذا الملاك، تلك الوردة، اسمًا على مسمى... كيف لجشعي وطمعي أن يدفعاني لمحو البسمة من على شفتيها إلى الأبد....

***

- تعالي نشبه حبنا بقوالب التلج، جبل عالي وقوي صعب يهزه ريح أو زمن...

- التلج مسيره يسيح يا يونس...

- دا مترتب على كمية التلج... الطاقة بتنتهي من الأشياء مع مرور الزمن، كله مترتب على حجم وثبات وقوة الطاقة دي يا ريماس

***

تيا تسأل ومريم تدون، وجودهم الأسبوعي يجلعني أشعر ببعض التغيير في حياتي، هم الهروب من رتابة الأسبوع، وجودهم أحيانًا يغنني عن هروبي الدائم إلى الإسكندرية، ولكن بعد هذه الجلسة أردت بالفعل الابتعاد ولو لساعات بسيطة، أكون فيها معي، أواسيني وأتحدث معي.... كثيرًا...

- احكي لي شوية عن مرض الذهان، تقريبًا دا أكتر مرض نفسي شدني وحاسة إني نفسي أعرف أكتر عنه...

- الذهان هو الشيزوفرنيا أو انفصام الشخصية، هو مرض مرعب في الحقيقة وللأسف لما بيعملوه فيلم سينما أو مسلسل بيبان بشكل ساخر أو سطحي شوية، لكن في الواقع المرض دا خطورته مخيفة... المرض بيخليك تشوف وتحس حاجات كتير وهمية، عالم خاص جوه دماغك، الذهان بيفصلك عن الحياة اللي إنت عايشها تمامًا، هلاوس سمعية وبصرية، خطورة المرض كمان في إن أسبابه كتير فالتشخيص بيبقى صعب ومحتاج دراسة

شخصية شبه دراسة الشخصية اللي بيعملها الممثلين وهما بيحضروا دور جديد ليهم، الذهان أسبابه ممكن تبقى طبيعية ناتجة عن مشاكل في النوم مثلًا أو اضطرابات في الأحلام وكوابيس متكررة، ممكن تبقى نتيجة إن حد قريب منك يموت، ممكن يبقى نتيجة أذى اتعرض له المريض سواء جسدي أو جنسي أو نفسي، الذهان كان ممكن ييجي من أنواع الإدمان المختلفة، أما أعراض الذهان بقى لحدث ولا حرج، يعني المريض ممكن يبقى عنده عرض من دول ويمكن أكتر ويمكن كمان يبقى عنده كل الأعراض دي، اضطرابات وتناقض في التفكير، اضطرابات في المزاج، صعوبة في التركيز، اضطرابات في الذاكرة والنوم والشهية، الاكتئاب، تغييرات في السلوك، الميل إلى العزلة، اضطرابات في التركيز، أفكار وهمية، الشعور بالاضطهاد، الهلوسات البصرية والسمعية، فقدان الاتصال مع الواقع...

- دا أنا على كدا مريضة ذهان عن جدارة

- مش كل واحد زعلان وحياته ملخبطة يبقى مريض ذهان يا تيا، صدقيني الموضوع أكبر من كدا بكتير

***

الفصل السابع

لوحة ما لفينسنت

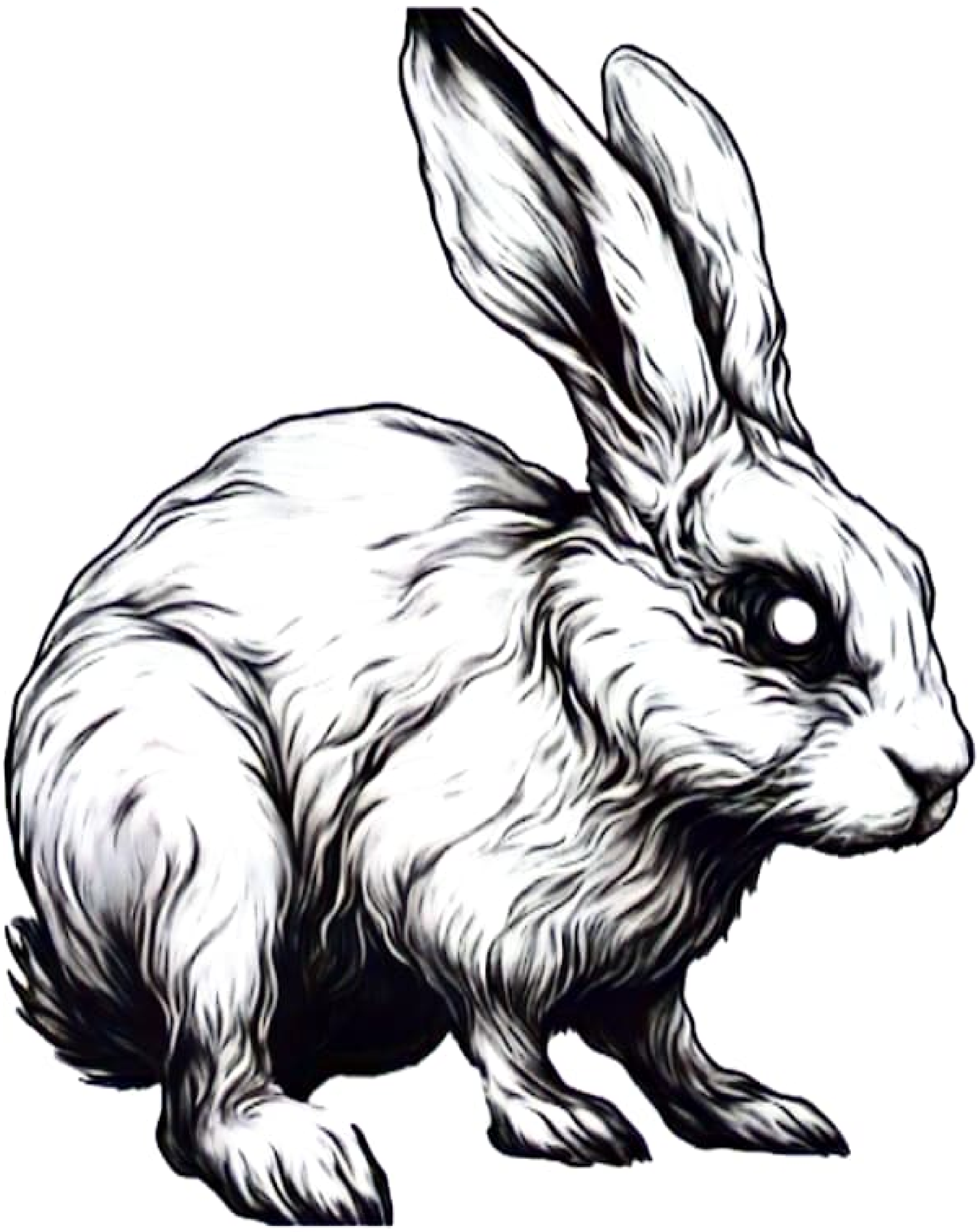

أتأمل تلك اللوحات التي تزين غرفة الكشف في العيادة، أحب الفن والرسم بشكل عام، ولكن دوما تستوقفني لوحة مقلدة لفان جوخ، لوحة "حقل الذرة والغربان"، أرى نفسي داخل اللوحة في كل مرة، لوحة ترمز إلى السوداوية والكآبة التي مر بها في أيامه الأخيرة أو ربما في حياته كلها، أتمنى لو كنت طبيبه أو كان طبيبي، الغربان في اللوحة ترمز إلى الموت الذي ينقضّ على الحقل دون إرادته، الحقل والزرع يموج بالحياة في مناطق معينة، أرى الحياة في اللون الأخضر دائمًا وأتمنى أن أعيش في بيت ريفي بسيط يحيطه الخضار والأمل، وفي مناطق أخرى اليبوسة والموت متمثلة في اللون الأصفر، في الواقع هي لوحة متشائمة، ومع ذلك هنالك بصيص أمل من خلال رسمه هذا الطريق في منتصف اللوحة المفتوح إلى ما لا نهاية. هذه اللوحة تفرض نوعًا من توجس لوني وإيقاعي يعكس تشاؤم ڤان كوخ ذاته من الحياة، وتعبر عن إحساسه بالوحدة ربما أو التوهة، ففي كل ضربة فرشاة أو لون يعبر عن إصراره على يأسه وعبثية الوجود وعلى التمسك بالانتحار معبرًا عنه بذلك الطريق الأحمر الممزوج بأحمر متعرج يمتد حتى يتلاشى في العمق البعيد وكأنه تعبير رمزي لحياة الإنسان حيث تتكامل بمرور الزمن ثم تتلاشى رويدا رويدا.

لكنه لا يشكل منظورًا أو أفقًا ما في عمق اللوحة، وإنما هنالك التحام بين سنابل القمح الصفراء النارية بالسماء الزرقاء الأخاذة القاتمة التي تنذر بسر ما، هي ألوان متنافرة تقطعها حركة غربان سوداء في حالة هجوم على حقل الحنطة وكأنها رسل الموت.. وهذه الحركة العنيفة تنسجم مع حركة سنابل القمح التي منحتها الفرشاة، وبالتأكيد فإن هذا هو تعبير عن إحساسه بالقسوة والعنف الذين مورسا ضده.

ولكن هنالك إحساس بكلية الموضوع وهذا يعني كلية الوجود ودائرية الكون؛ ففي هذه اللوحة لا يمكن الفصل بين الجزء والكل، القرب والتنافر، الألفة والوحشية، النار المتوحشة وهارمونية الحركة. لقد رغب فان جوخ في هذه اللوحة توديع عالمنا بصفعة تحمل في طياتها الحزن والألم، وربما بعض الأمل الزائف، وأن يرينا دروب حياتنا المليئة بالأسى والتي تتلاشى

في أفق غامض لا نرى نهايته بيسر...

- يمكن لو رميت اللوحة دي أرتاح شوية... اللوحة دي ليها سحر غريب

- حنين عامله زي اللوحة دي يا يونس، وجودها مخيف بس غيابها كمان مخيف...

- ساعات لما بتحكي لي عنها، بحسك بتحكي عن حد كنت فعلًا تعرفه يا شريف

- أنا أول مرة أبقى كدا...

- شريف، إنت عمرك حبيت؟

- مرة واحدة، بس ما كملناش...

- في يوم حكيت لي عن زيتون، لما رجع يظهر لك تاني، لما قال لك إنك لازم تنتقم من اللي خانتك... هي دي اللي حبيتها؟

- ممكن أمشي؟

- طبعًا ممكن، بس يا ريت الجلسة اللي جاية تحاول تحكي لي أكتر، عايزين نطلع حنين من جواك ونرجعك شغلك تاني.

- تفتكر ينفع؟ تفتكر ممكن أرجع تاني زي ما كنت زمان؟

- أكيد... أكيد يا شريف

***

ريماس، حبيبتي الأولى والأخيرة، أبيات القصائد، ألوان الصباح المشرقة وسكينتي وهدوئي وسعادتي، كل شيء معها كامل إلا الحديث، دومًا أنا أحكي ولا تنصت، أتحدث ولا تفهم، في بعض الأحيان أراها تحتاج إلى كلماتي وحبي، وأنا لم أكن يومًا بخيلًا معها بأي شيء، حتى وإن كنت أخاف من كلمات تقال ولا تحس، أو كلمات تقال وتنسى...

- اوصفني يا يونس

- دا جو بتوصفني بتكسفني بتاع أنغام؟

- هههههه، بتكلم بجد... اوصفني بجد

- طيب، أنا عمري ما اتخيلت إني يكون ليا زي الناس حبيبة، سميه خوف أو سميه هروب أو حتى تعالي، نسميه إني معقد من الحواديت اللي ياما وياما سمعت عنها من ناس أعرفهم أو ناس جاية تشتكي وتحكي عن أوجاعهم، انتي الحب اللي ابتدي بفنجال قهوة، ورغم إني زمان ماكنتش عارف أنا ماشي وطريقي موديني على فين، لقيت نفسي بعد شوية وقت بامشي لك، يطول الوقت ويزيد التعب وبرضه بمشي لك، وكأنك كان معاكي مفتاحي من قبل ما أقابلك حتى، بحكي لك اللي عمره ما اتحكى لحد، بقلع بدلة شيطاني وببقى عاشق بيعرف لأول مرة أهمية إنسانيته، معاكي ببقى زي بير عميق مليان مياه، كل ما هتتعبي شوية شوية فيه ومعاه كل ما هيديكي خير وحياة، انتي الشمس في الشتا والبرد في الصيف، انتي الربيع اللي هو يعني فصلي المفضل، انتي الفضفضة وراحة البال، وانتي برضه الجنون، حبيبة قبل كل شيء، و أم وصاحبة ووطن، بحب روحك... يعني لما تكبري ويتغير شكلك وتفاصيلك، هعشقك بعدد السنين اللي عيشتها معاكي والسنين اللي عيشتها بتمناكي....

- ممكن أحضنك؟

***

كانت تقى شابة في النصف الثاني من العقد الثاني، تشبه إلى حد كبير حنين، و رغم أن شريف لم يرَ إلا صورة واحدة فقط لها، لكنه أدرك على الفور التشابه الكبير بين الفتاتين، تقى كما أخبرته يومها إنها أخت حنين الغير شقيقة، هما أختان من الأم نفسها فقط ليس إلا، وإنها تحاول أن تتواصل مع حنين منذ فترة، لكنها لا تستطيع الوصول إليها على الإطلاق، أخبرته عن حياة حنين البسيطة والغامضة بعض الشيء، و هي التي لم تكن تفعل

أي شيء سوى الرسم في الفيوم أو مشاهدة الأفلام...

- حنين تقريبًا ملهاش حياة، أو على الأقل دلوقتي ملهاش حياة

- احكي لي أكتر عن حنين يا أستاذة تقى

- حنين أختي الصغيرة، أمي اتجوزت والد حنين بعد وفاة والدي بسبع سنين تقريبًا، ولما أمي ووالدها اتوفوا بعدها بعشر سنين في حادثة بقيت أنا اللي بربي حنين، هي إنسانة خجولة وهادية دايمًا، و هي اللي قررت إنها تعيش لوحدها بعد ما خلصت جامعة، في الأول كانت دايمًا عايزة تخرج وتنزل بس بعد جوازها بفترة اتغيرت ودبلت، و عاشت في عالم تاني... رحت أبلغ عن اختفائها وعرفت إن في حد أصلًا بلغ وإن حضرتك اللي ماسك موضوع حنين...

- طب أقدر أقابل جوزها؟

- الله يرحمه، اتوفى من فترة...

- البقاء لله... ربنا يصبركم وترجع لكم بالسلامة...

***

كانت الجلسات الأسبوعية تقسم إلى جزئين، الجزء الأول وهو حضور تيا قبل مريم بساعة للحديث عن كل ما يدور في نفسها ومساعدتها في تجاوز أزمة الأخطبوط هادي، والجزء الثاني وهو حكي الأمراض ومساعدتهم في مشروعهم الذي أصبح جزءًا مهمًا مما أفعل...

شأني شأن أليس، المختنق من الحياة والروتين، أجلس في حديقتي أو في مكتبي، أعيش كوابيسي اليومية في صحوي، أتمنى أن يحدث أي شيء يغير مجرى أحداث يومي الرتيب، أي شيء حتى وإن كان أرنبًا أبيضًا يحمل في يده ساعة، أتبعه كالمجذوب لعالم آخر...

- كنتي بتحبي زمان تتفرجي على فيلم أليس في بلاد العجائب يا مريم

- والله يا خالو ولحد دلوقتي كمان

- طب تعرفي بقى إن فيه مرض اسمه متلازمة أليس في بلاد العجائب؟ أيوه ما تستغربوش، هي حالة مرضية عجيبة، بتعمل على تشوش وارتباك المرضى، المصاب بالمرض بيشوف الأشياء من حوله بأحجام غير حقيقية، يعني ممكن يشوف الأشياء الصغيرة عملاقة، أو العكس.. بيبقى عنده تشويش في الأحجام، العجيب إن المعاناة من الأزمة دي مش بتحصل من واقع مشكلة ما في العين أو البصر، أو حتى نتيجة ضلالات أو ما شابهها، ولكنها تنتج عن تغيرات في كيفية قيام العقل باستيعاب البيئة المحيطة، يعني مش العين بس اللي بتتأثر بالمرض دا، حواس تانية زي اللمس والسمع، علمًا بإنه أحيانًا ما يفقد المريض بمتلازمة أليس في بلاد العجائب القدرة على الشعور بالزمن، فيشعر بمرور الوقت بصورة أسرع أو أبطأ من الحقيقة...

- خالو إنت مش بتشتغلني... صح؟

***

ظلت ريماس غير مصدقة ما أخبرتها بشأن حاتم نور، تراني مخبولًا، متسائلة "حاتم نور هييجي يتغدى معانا عشان سواد عيوننا مثلًا؟"، تأنقت رغم كل شيء، كانت تشبه سيدات القرن الماضي في أناقتهم في هذا الفستان الأسود الجميل، تعرف إن أحدًا قادمًا إلينا، لكنها متأكدة أنه ليس حاتم نور، الممثل المفضل لديها، في تمام الرابعة رن جرس الباب وذهبت هي لتفتح الباب، كان المشهد مضحكًا حقًا بالنسبة لي، زوجتي الجميلة تفتح باب شقتنا فتجد أمامها حاتم نور بالفعل، يبتسم لها ويقدم لها الورود وهي فاغرة فاهها في بلاهة وعدم تصديق...

***

- مساء الخير.. أكيد حضرتك مدام ريماس

- يو... يونس! ! ... حا... حاتم نور! !

تتشابه كثيرًا مع الأطفال، تتلعثم إن شعرت بالتوتر أو الخجل، يحمر وجهها ويفضحها في كسوفها حتى إن حاولت إخفاء ذلك، نعم... كنت أعلم من حديثها الدائم إن حاتم نور أحد الفنانين المفضلين لها، خلال جلساته معي بالعيادة وحديثه المستمر عن وحدته وشعوره بعدم الرضا عمن حوله من أشخاص مزيفين شعرت تجاهه بالأسى، أردته إن يعتبرني صديقًا، يمكنه محادثتي أي وقت وعن أي شيء، أجعله ينسى أنني طبيبه النفسي وأننا أصدقاء حقيقيون، لذلك قررت في إحدى الأيام أن أدعوه لتناول الطعام معي أنا وريماس في البيت، "عصفورين بحجر واحد"، هذا ما قلته لنفسي حين ذاك، سأفاجئ ريماس بقدومه وأجعله يشعر إن لديه من يهتم لأمره كإنسان...

- تسلم إيد حضرتك يا مدام، أنا بقالي كتير ما أكلتش أكل حلو كدا

- بجد؟... شكرًا...

قالتها ريماس على استحياء وهي تنظر نحوي كأنها تريد مني أن أنجدها من كسوفها وارتباكها...

- لا ولسه بقى لما تجرب فطيرة التفاح اللي عملاها ريماس... احتمال تيجي تعيش معانا بعدها

- شكرًا على كل حاجة بجد... يونس فضي نفسك إنت والمدام الخميس اللي جاي

- هتيجي تتغدى عندنا تاني؟

سألته وأنا أمازحه وضحك هو وأجابني

- لا أنا مش عايز يطلع لي كرش من الأكل الحلو دا... عازمكم على عرض مسرحيتي الجديدة

- أكيد هنيجي يا حاتم، إنت عارف إن ريماس فنانة؟ خلي بالك يعني مش إنت بس اللي فنان على الترابيزة دي

***

عزيزي ثيو،

لماذا نحب؟ لماذا نربط أرواحنا وقلوبنا وسعادتنا بأشخاص غير ثابتون، حتى مشاعرهم غير ثابتة، وجودهم معنا في حياتنا دومًا مقترن بشيء، وفور إن ينتهي هذا الشيء، نراهم يبعدون ويختفون من حياتنا رويدًا رويدًا، مثلهم مثل الضباب، يحيطك من كل جانب، يأسرك بياضه، يتخلل حواسك ويصيبك بالعمى، تصبح جزءًا منه ويصبح جزءًا منك، وفجأة يختفي، يتركك في منتصف الطريق، تائهًا وعاريًا، يأخذ بياضه وبرودته لمكان جديدٍ به أشخاص آخرون...

إذًا، حقًا لماذا نحب؟ عن ماذا نبحث؟ ولماذا حتى نبحث عنه؟ لماذا يدق القلب؟ لماذا نربط أنفسنا بأشخاص مؤقتين؟ لماذا لا نتعايش مثل الشجر؟ ثابتين في مكانٍ واحد طوال حياتنا، لا نعرف غير جذورنا، لا نلتحم أو نتعلق بجذور أخرى، أو لماذا لا نكون مثل الحيوانات؟ نعيش بالأفعال الغريزية فقط، نمارس الجنس ونأكل وننام، لماذا نحب يا ثيو؟ لماذا نقابل إنسانًا ونعشقها ثم نتركها أو تتركنا، فنعيش بأرواح مشوهة ومشتتة لا تشعر ولا يدخلها السعادة مرة أخرى؟ أخبرني لماذا؟ لماذا يرانا البعض كفراشات؟ أو نراهم نحن كذلك، نعشقهم لدرجة تجعلنا نضعهم في برطمان زجاجي! ! نراهم يختنقون في هذا البرطمان ونظن نحن أنهم يرقصون...

عزيزي ثيو، إن رأيتها فأخبرها كم أشتاق إليها، أخبرها إن ملابسي تشتاق إلى رائحتها، أخبرها أن أيامي تشتاق إلى ابتسامتها، أخبرها أن عمري يضيع يومًا بعد يوم بلا أدنى أهمية بفعل غيابها...

فنسنت

الفصل الثامن

لعنة لا شفاء منها

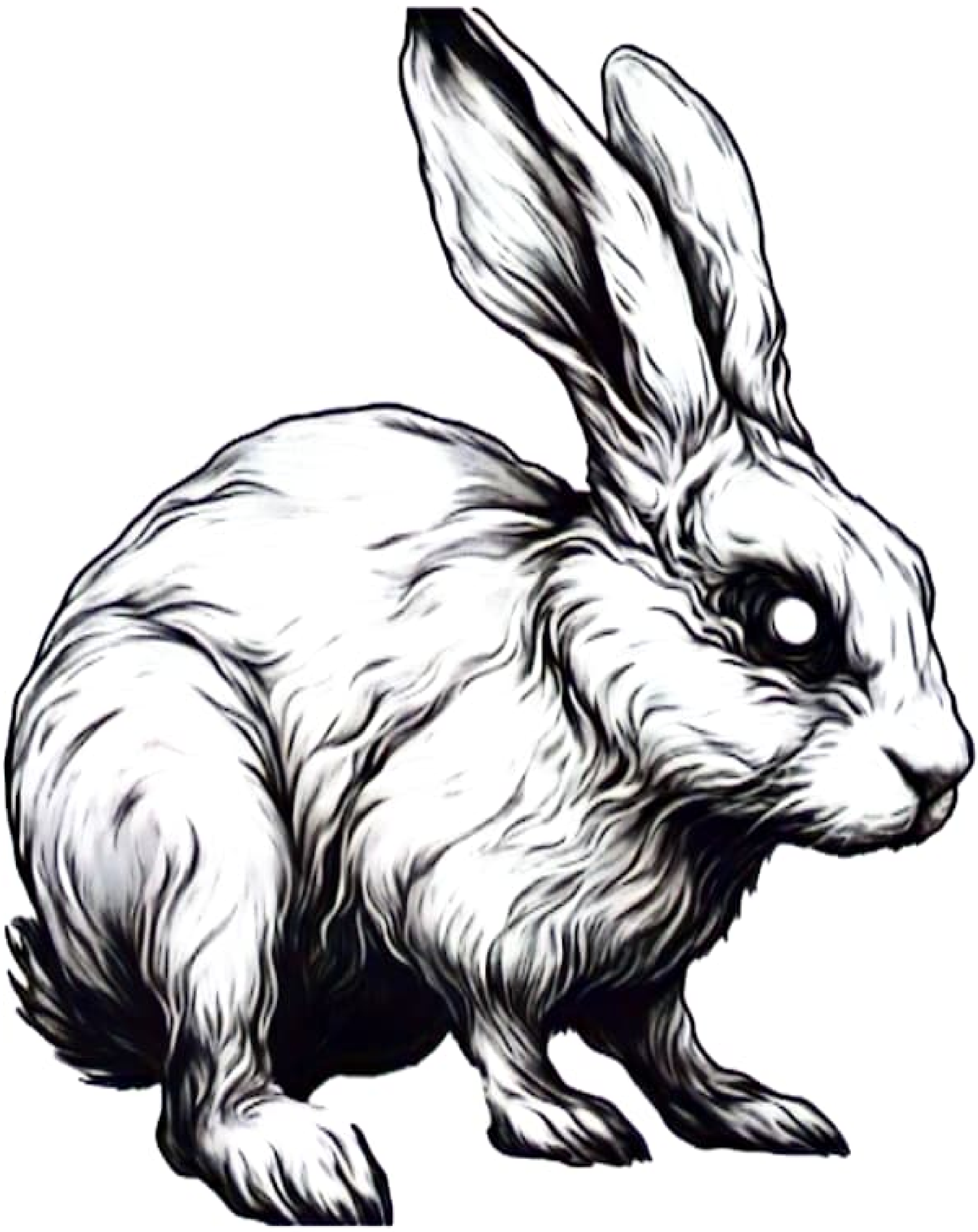

"يا حلمي اللي متأجل وانا هاموت وأحلمك، يا عمري اللي ناقص عمر نفسي أكملك"

- ساعات بحسك شايفني زي الفراشة الملونة...

- انتي أجمل من الفراش ومن الملايكة حتى...

- صدقني دا مش مدح... الناس في العادي لما بيشوفوا فراشة ملونة، فيحطوها جوه برطمان إزاز، بيسلبوا من الفراشة دي فرحتها وحياتها وحريتها ويخلوها ملكية خاصة، جوه الفاترينة بتاعتهم... و يخرموا في غطا البرطمان كام خرم، عشان يعني يبقى اسمهم بيدخلوا لها هوا وفارق معاهم إنها تعيش، بس الفراش ما اتخلقش عشان يعيش جوه برطمان يا شريف...

- مش كل الحاجات الملونة حلوة.. والفراش لو من غير جناحات ولا ألوان زي ألوانه ماحدش هيفكر يحطه في برطمان إزاز زي ما انتي بتقولي...

- و هي الفراشة لازم تتحط في برطمان؟ ما ينفعش تتساب للناس يشوفوها من بعيد؟ أو حتى من قريب من غير ما تتسجن؟ ولا انت حياتك ما تنفعش من غير كلبشات؟

- ربنا يهديكي وصدقيني أنا هعمل نفسي ما سمعتش كلامك دا كله!

عزيزي ثيو،

ماذا تعرف عن المصحات النفسية؟ هل زرت أحدها يومًا؟ هل استلقيت على أرضها المليئة بالبرودة يومًا؟ هل تناولت طعام المصحات النفسية يومًا؟ ماذا تعرف عن جلسات الكهرباء؟ هل وضعت يومًا مسارًا كهربائي على رأسك؟ هل تلقيت تيارًا كهربائيًا مركزًا بدون تخدير وبعدها أصبت بالتشوش أو فقدان مؤقت للذاكرة؟

عزيزي ثيو، هل صحوت من النوم مرة ونظرت إلى نفسك في المرآة ولم تستطع التعرف على نفسك؟ أعتقد إن كل إجاباتك على كل ما قلت أنا مسبقًا سيكون لا! ! بالقطع لا! ! وأنت الذي لم تعش ما عشت أنا يومًا من الأيام يا أخي، هل تعلم ما هي الخيانة؟ هل جربتها؟ هل قابلت إنسانًا وأعطيته كل ما تمتلك بداخلك من مشاعر وفي النهاية... خانك؟ أنت أكثر حظًا مني يا أخي... أحسدك على هذا من كل قلبي...

فنسنت

- احكي لي عن اليوم الأخير.

- و ليه ما تسميهوش اليوم الأول؟

- عشان كونه اليوم الأول يا شريف دا في حد ذاته هيديك أمل ويمكن شعور مخيف يفضل يطاردك زي ما بيحصل دلوقتي، أما لما تقتنع من جواك إنه اليوم الأخير دا بيقطع جوه عقلك اللا واعي كل الروابط اللي تخليك حاسس بالندم أو تأنيب الضمير

- تخيل إني فضلت بشتغل على القضية دي شهور يا يونس... و في النهاية ألاقيها بس جثة... كان شكلها حزين...

- انت عمرك شفت جثة بتضحك يا شريف باشا؟

- مش دا قصدي... بس في جثث مرعوبة وجثث مرتاحة وجثث في أوقات تانية بتبقى ملعونة... هي كانت... كانت حزينة

- انت محتاج تكمل حياتك يا شريف... إنت خسرت شغلك... بلاش كمان تخسر حياتك

- زيتون شايف إني المفروض أفضل حاسس بالندم...

- زيتون زيه زي حنين يا شريف... الاتنين ما ينفعوش يفضلوا جواك...

- لو الاتنين مشيوا... أنا هبقى لوحدي يا يونس...

- مش هتبقى لوحدك... أنا هبقى دايمًا معاك

***

"لقد كدت أنسى طعم المخاوف. مر بي زمن كانت حواسي فيه تجمد إن أنا سمعت زعقة في الليل، وكانت فروة رأسي عند سماعي قصة مرعبة تثار وتتحرك كأن فيها حياة. لقد أطعمت ألوانا من الرعب حتى شبعت والهول الذي تعودته أفكاري القاتلة لن يستطيع أن يجفلني بعد، مرة واحدة"

كان العرض رائعًا رغم أنني لم أكن من محبي شكسبير في الحقيقة، أراه أقتم من اللازم وأراه يعيش الألم في كل شيء، أكره السواد حتى وإن كنت أعيشه يوميًا، أكره أن أظل حبيسًا للوحشة والألم، كنت قد قرأت مكبث منذ أعوام طويلة، و لكن في رؤيتي لها مجسدة أمامي على المسرح، فهذا شيء آخر...

ريماس، كانت تشاهد العرض وعيناها تلمعان من السعادة والانبهار، تذكرني بتلك الطفلة التي رأيتها يومًا ما في حديقة الحيوانات، كانت تشاهد القرود الصغيرة وهي تقشر الفواكه وتأكلها في براعة بشرية مدهشة، صفقت هي في سعادة، وكم تشبهها ريماس الآن...

- مبسوطة؟

- أوي! ! إحنا ازاي عمرنا ما رحنا مسرحية قبل كدا مع بعض؟

- ما انتي عرفاني بقى، غاوي مزيكا أكتر... بس حاضر... نروح مسرحيات كتير بعد كدا

احتضنت كتفي بامتنان ومالت برأسها علي وهي ما زالت مندمجة في العرض، كم أعشق رؤيتها سعيدة وكم أعشق حبي في إسعادها...

***

ماذا يحدث فيتغير كل شيء؟ ما هي تحديدًا القشة التي تقسم ظهر البعير؟ وأي بعير أنا وأي قشة قادرة على الإطاحة بحبنا كانت؟ أجلس في بقعتي المفضلة على كوبري ستانلي بالإسكندرية، أشاهد تلك الفتاة الصغيرة والتي أراها كثيرًا عند مجيئي إلى هنا، تجلس هي ويلتف حولها العشرات من القطط، تطعمهم وتلعب معهم في سعادةٍ وحبٍ حقيقيين، كان معي سندوتشين كنت اشتريتهم من مطعمي المفضل "جيمي" ولسبب ما لم أعد أشعر بالجوع، وندهت عليها فأتت إليّ على استحياء...

- اسمك إيه؟

- ريتال

- اسمك حلو أوي يا ريتال... و القطط بتوعك شكلهم حلو أوي هما كمان...

- شكرًا يا عمو

- خدي الأكل دا عشانهم... و عشانك انتي كمان لو جعانة... أكل نضيف ما تخافيش

أخذت مني الطعام في خجل والابتسامة لا تفارق وجهها، رحلت هي ورحل الدفء الذي كان في المكان، أعود مرة أخرة إلى أفكاري وكوابيس صحوي التي لا تفارقني، هناك عدة أسباب لتعرض المرء للكوابيس المزعجة، ومن ذلك انخفاض سكر الدم خلال النوم، تغيير درجة حرارة الجسم، شرب الخمر والكحوليات، تناول بعض العقاقير مثل بعض مضادات الاكتئاب، أو أدوية القلب أو المضادات الحيوية أو مضادات الهيستامين، نتيجة للتوقف المفاجئ عن تناول أحد العقاقير كأقراص النوم مثلاً، أحد الأعراض الانسحاب للتوقف عن شرب الخمر والمخدرات، التعرض المستمر للضغوط النفسية والمشكلات العائلية والعاطفية، التفكير السلبي قبل النوم، قد يكون شكلاً من أشكال الأرق يصيب مرضى الاكتئاب، تناول الوجبات الدسمة قبل النوم مباشرة...

لماذا لم يذكروا إن من أسباب الكوابيس التي لا تنتهي؛ الشعور أن شيئًا ما ليس على ما يرام، الشعور أن هناك ما يحدث ولا أعرف عنه شيئًا... شعور هو خليط من الشك والخوف المستمر...

***

- اعمل حسابك إنت ومدام ريماس معزومين عندي يوم الجمعة في بيتي في الفيوم

- ملهاش لزوم يا حاتم... مش عايزين نتعبك ولا أنت بترد لنا العزومة

والجو البلدي دا

- والله أبدًا... بس أنا فعلًا حابب إنكم تيجوا... مش احنا أصحاب

- طبعًا يا حاتم... و أكتر من أصحاب كمان...

***

يجب على أن أعترف بجهلي، كل معلوماتي المغلوطة عن الفيوم أنها فقط أراضي زراعية فقيرة، لم أكن أعرف أنني سأرى كل هذا الجمال والسحر، أما عن بيت حاتم نور، فحدث ولا حرج، هو قصر، ليس بيتًا عاديًا...

كان استقباله لنا حافلا، يظهر الكرم والود في كل تفاصيله، القصر يحيط به من الخلف فدادين زراعية كثيرة، أما نافذته الأمامية فهي تطل على البحيرة الكبيرة، تشعر وأنت داخل القصر أنك تسبح في وسط البحيرة، لا أستطيع فعلًا أن أميز إنْ كانت المياه فضية حقًا أم هذا انعكاس السماء، لرتدى هو جلبابًا أسود اللون وأعطاني واحدًا كنوع من أنواع الكرم وواجب الضيافة، ابتسمت له ووضعت الجلباب إلى جانبي، كان قد أعد لنا وجبة من المأكولات البحرية الشهية والتي أخبرني أنه يختار محتوياتها بنفسه

- سيبك من إني مشهور وكل الكلام دا، لما تيجي تاكل سمك لازم تختاره بنفسك

- أنا بقى على قد حبي لإسكندرية عمري ما كنت بفهم في السمك

- أنا هعلمك يا دكتور... ألف هنا

***

- خالو

- ما قلت لك قولي لي يا يونس... خالو دي بتحسسني إني عندي ٧٠ سنة

- كنزي وحاتم نور وشريف، مين بالنسبة لك الحالة الأصعب وهل اتعالجوا في الآخر؟

- كل حالة صعبة عشان الأسباب اللي بتخليها صعبة، بمعنى إن كل حالة صعبة بتركيبتها الخاصة... صعوبة كنزي في إنها من الأساس مش مقتنعة إن عندها أي مشكلة، هي دايمًا عندها مبرر للخيانة وكانت بتيجي العيادة عشان عايزة حد تحكي له من غير ما يحكم عليها وعلى تصرفاتها، حاتم صعوبته كانت في البساطة، هو واحد بيدور على الحب، و الحرمان من المشاعر مأثر جدًا على حياته، ببساطة هو محتاج يلاقي الحب عشان يبقى كويس بس على قد ما الجملة تبان سهلة على قد ما هي صعبة جدًا... شريف صعوبته في الدوامة اللي هو جواها، شريف عامل زي اللي واقع في متاهة... كل ما يحس إنه خلاص هيخرج منها يلاقي نفسه بيبدأ من الصفر...

الفصل التاسع

هلاوس حقيقية

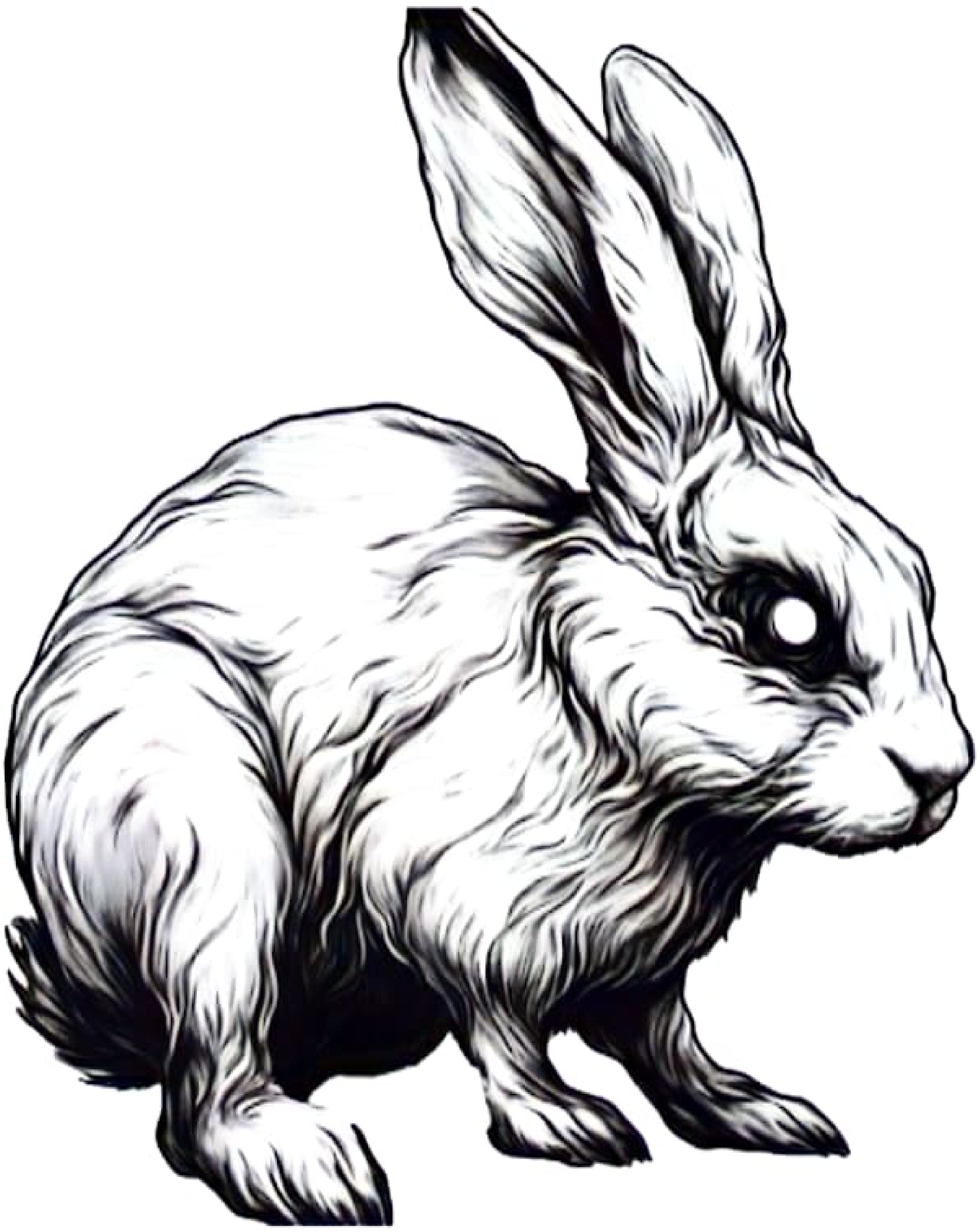

ما زال شريف لا يريد الخروج من تلك الشرنقة، بعض المرضى ينفصلون عن الواقع تمامًا بعد الصدمة، ينتهي كل شيء ويظلون داخل تلك الدائرة المظلمة ولا يملكون رفاهية الخروج منها...

- احكي لي عن البدايات يا شريف... احكي لي عنها...

- لأول مرة أحس إني أنا المتهم... و قاعد في تحقيق كمان... إحساس غريب يا دكتور

- انت قعدت سنين تسمع حواديت... مفيش مانع لو حكيت إنت حكايتك المرة دي على سبيل التغيير...

- صدقني أنا حكايتي مش هتبقى مسلية ليك تمامًا، أنا ما عشتش حكاية تشبه حواديت قبل النوم بتاعت زمان يا دكتور

- كل حدوتة وليها بطلها وليها تفاصيلها الخاصة... وبعدين بالعكس... أنا اللي سمعته يخليني عايز أسمع منك... أكيد حكايتك هيبقى ليها شكل تاني يا شريف...

- انت اللي طلبت... عمومًا... أنا حكايتي بدأت بفنجان قهوة شبه اللي قدامك دا...

أشار إلى فنجاني الذي قارب على الانتهاء، قلب الفنجان بين يده مثل قارئ الفنجان، ثم وضعه في مكانه وأنا أبتسم له في حزن...

***

تنهد طويلًا وبدأ في الحكي، وأنا من ورائه أكتب ما يقول، و أصيغه كقصة...

حكى شريف وقال أنه:

كان في نهار أتذكره جيدًا ببرودته الجميلة، تلك البرودة التي نحتاجها في أوقات كثيرة إن كانت الشمس حارقة، كنت قد حصلت على الماجستير

في الأمراض العصبية والنفسية، كانت تلك الندوة هي التاسعة لي، على ما أتذكر، كنت أتحدث عن الصحة النفسية للمسجون وكيفية تأهيله للمجتمع عند خروجه، في الواقع كنت أعشق فعلًا علم النفس وأهوى دراسته ومعرفة المزيد عنه، حتى خلال أعوام دراستي في الكلية، كانت النفس البشرية هي أكثر ما يستهويني، أرى أن العلاج النفسي هو أصعب وأكثر الأمراض تعقيدا عندما تحاول علاجها أو دخول عالمها...

كانت ملفتة للنظر حقًا، تدفع رقبتك فتلتف صوبها، و تدفع قلبك فينبض نبضًا مضاعفًا من أجلها، اقتربت هي ولم أمانع اقترابها، دعتني لشرب القهوة ولم أبعدها مثلما أفعل مع باقي البشر، شيئًا ما بها يجعلني لا أتردد ولو للحظة لأدخلها عالمي الخاص، كان للجلوس معها أثر سحري على روحي، و إن كنت أصنف الناس في حياتي إلى نوعين: أشخاص يحبهم القلب وأشخاص يحبهم العقل، كانت هي من يحبها الروح، تقتحمني، تراني عاريًا لا أبالي إن كشفت عوراتي أمامها، أراني أمشي خلفها بلا تردد، حتى الحذر قد تبخر، أيام وأسابيع نتواعد وأذوب في تفاصيلها...

- أنا عندي شغل في الصعيد... مش هرجع قبل سنة

- هاجي معاك

- بلاش قرارات رومانسية سريعة... الحاجات دي بييجي وراها ندم كبير

- رجلي على رجلك يا حضرة الظابط... مش هسيبك

- انتي بجد كنزي اللي طلعت بيه من الدنيا

وماذا قد يريد الإنسان أكثر من ذلك؟ حبيبة ستصبح زوجة، إنسان متفهمة ومقدرة لطبيعة عملي، هي لا تريد سوى سعادتي، تراني شخصًا مبهرًا قادرًا على كل شيء... و لكن إلى متى يستمر الإنسان مبهورًا؟

متي يسيح الثلج يا ريماس؟ أتذكرين تلك الجملة، و هل تعلم حبيبة شريف

تلك الجملة؟

***

في الواقع، لم يكن الأمر بهذا السوء! وقعت في حب أسوان منذ اللحظة الأولى، الحرارة شديدة ولكني لا أتصبب عرقًا، الهواء هناك لم يلوث بعد والأشخاص ما زالوا أنقياء مثل ماء النيل، الشقة التي أعطوني إياها تطل على كورنيش النيل، أستطيع أن أرى كل هذا الجمال من شرفة غرفتي، ريماس بدت عليها السعادة أيضًا وإنها تشاركني نفس شعوري، شعرت بالامتنان وطلبت منها أن تغير ملابسها لنخرج ونتناول الطعام...

لا يجب أن تكون رحلتك إلى مطعم الدوكة للأكل فقط، بل جهز نفسك لرحلة متكاملة وسط الطبيعة، يحيط بك النيل والجبال والآثار الفرعونية ورحلة نهرية أيضًا. المطعم يقع بجزيرة الفنتين المليئة بالآثار الفرعونية والنوبية، والوصول إلى هناك من خلال رحلة نهرية.

- مبسوطة؟

- بقالي سنين ما فرحتش كدا

بمجرد أن تدخل المطعم ستشعر بالكثير من الألفة والارتياح، فهو يعتمد على الديكور النوبي البسيط، اخترنا طاولة مجاورة للمنظر الخارجي للنيل، أكلنا وضحكنا كثيرًا، أنظر لها بحب ومن داخلي أقول لنفسي " قدامي كل سنين حياتي عشان أعرفك فيها"...

قررت أنه في أسبوعنا الأول بأسوان لن أرتبط بأي عمل كان، اتصلت بقائدي ووافق على طلبي متمنيًا لنا زواجًا سعيدًا، قررت أن لن أخذلها وأنني سأفعل كل شيء لأسعدها...

اتصلت بأحد زملائي من أيام الجامعة والذي يعيش في أسوان منذ أعوام كثيرة، يدعي هيثم، أخبرته عن زواجي وعن وجودي بأسوان، فأخبرني بأنه سيقيم لي ليلة نوبية أو حنة نوبية في النوبة كهدية زفاف لنا، لم أكن

متحمسًا في البداية ولكن للحق، كانت من أروع ليالي حياتي...

ارتديت في هذا اليوم جلبابًا أبيضًا أسوانيًا، فوقه سديري ذهبي اللون وطاقية أسوانية أو شبيكة كما يطلقون عليها، و ارتدت هي جلبابًا نوبيًا مرصعًا بالمشغولات اليدوية والورود الذهبية، كان الحب والسعادة حليفين في تلك الليلة، الوجوه سعيدة بحق، الناس مبتسمون ويغنون بصدق وبلا تكلف... و أنا في وسط كل ذلك لا أرى سوى عيون ريماس

"أيوه شمندورة من جنا... باري أنجس كريو من جنا

سجرى مالا واينا... ... مونت أنجلاه وانا"

- بعشق الأغنية دي... بس عمري ما فهمت معناها

- هيثم يقدر يفيدك أكتر مني في اللغة النوبي

- يا شمندورة، يا مركب يا صغيرة واقفة في وسط البحر، و حواليكي المراكب بتتدلع وترفرف، و ترفرف أكتر لما تكون جنبك...

- الله!!

ابتسمت كعادتي عندما أراها سعيدة ومبهورة، أقول في داخلي "قلبي اللي بيرفرف عشان بس انتي موجودة "

ضممتها إلى قلبي ومنير يغرد قائلًا:

"ع الشط استني رايحة فين، دا أنا ليكي بغني غنوتين، غنوة عن الآهة والحنين، وغنوة لعينيكي يا حنين"

الفصل العاشر

عصفورة وحيدة

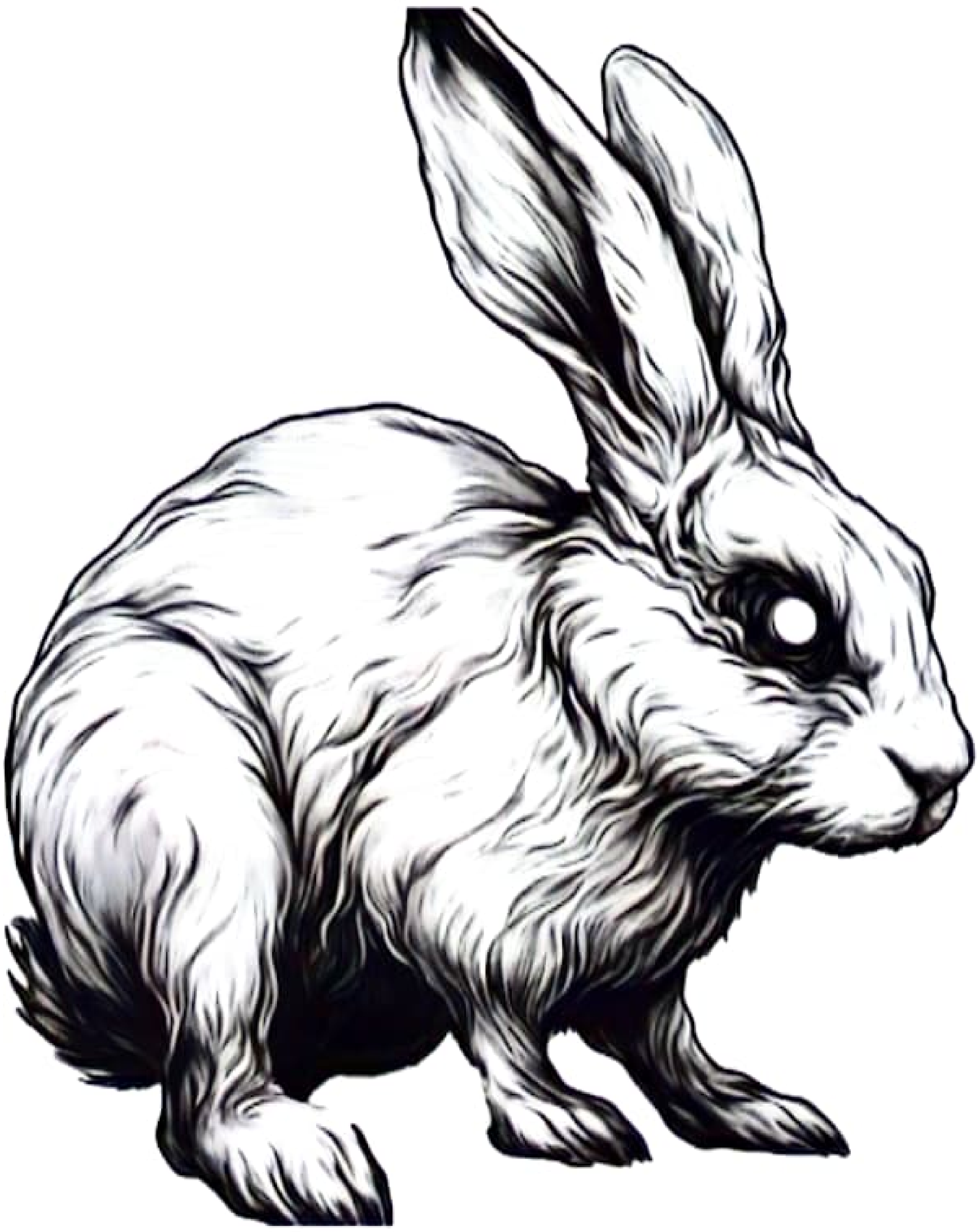

- احكي لي عن عصفورة... لما قريت جواباتك ودفاترك لقيتك كاتب عنها كتير... وراسمها كمان

- عصفورة هي الحدوتة اللي ندمت إني ما عشتهاش... خدت جناحتها وطارت بعيد...

- فاكر أول مرة قابلتها؟

- أنا مش ناسي أي تفصيلة تخص عصفورة... تسمع عن قرية السماحة؟

السماحة قرية مصرية تعيش فيها النساء فقط وغير مسموح للرجال دخولها، يقطنها ما يقرب من الـ ٣٠٠ سيدة، ومن تفكر في الارتباط تطرد منها فورًا، منازل القرية متناهية الصغر، طلاؤها طوبي يميل بعض الشيء إلى الأحمر، كنا قرابة الغروب فزادت حمرة المنازل كأنها نيران متأججة، أمام كل منزل مصطبة إسمنتية كبيرة يجلس عليها أصحابها كل مساء...

قرية خصصتها الحكومة المصرية للنساء والسيدات الأرامل والمطلقات، حيث تتبع مدينة إدفو، وتبعد عن مدينة أسوان جنوب مصر بنحو ١٢٠ كيلومترًا، وتضم مناطق زراعية قامت الحكومة بتخصيصها لتلك النسوة كي يقمن بزراعتها وتربية الدواجن والماشية فيها ومن ثم توفير مصدر رزق لهن...

أول جريمة قتل تحدث في تلك القرية منذ نشأتها، سيدة قتلت أخرى بسبب شعورها أن الثانية تأتي برجال متنكرين في زي النساء يزورونها في بيتها، تلك كانت مهمتي الأولى في الصعيد، في الواقع كانت القضية بسيطة، القاتلة معترفة والشهود كثيرون، أكثر ما أثار انتباهي وقتها كانت تلك الفتاة العشرينية التي سحرتني بجمالها منذ اللحظة الأولى، هي ابنة السيدة القتيلة والآن هي لا تمتلك في الحياة أحدًا بعد وفاة والدها ومقتل أمها، كان الخوف والإرهاق ظاهرين عليها، تحاول التماسك أمام أعين السيدات الشامتات والكارهات، ولكن إلى متى تظل متماسكة؟ إلى متى تظل قوية ؟

- البقاء لله...

- شكرًا يا سعادة الباشا

- اسمك إيه؟

- عصفورة يا باشا... اسمي عصفورة

- ما تخافيش، حق أمك هيرجع لها

- حق أمي عند ربنا يا باشا...

أذهلتني الإجابة في الحقيقة، تلك الفتاة البسيطة والتي تعيش فعليًا في اللا مكان، والتي قد خسرت أمها وكل ما لديها منذ ساعات، الإيمان يعمر قلبها ويظهر الهدوء والسكينة في ملامحها...

أشفقت على عصفورة وحزن قلبي لرؤيتها حزينة تأبى إن تظهر حزنها لأحد، أخذتها معي لمكتبي وأحضرت لها طعامًا وبعض العصير، عدة ساعات مرت وهي في حالة ثبات وحزن، إلا أنني فعلت كل شيء لأخرجها من تلك الحالة، و في الواقع هي أيضًا شعرت أنني أفعل المستحيل لإسعادها، فقررت في بداية الليل أن تتبادل معي أطراف الحديث...

- حضرتك كويس يا باشا؟

تعجبت من سؤالها، و تعجبت أنها كانت الجملة الأولى التي تنطق بها منذ جلوسها أمامي، فابتسمت ابتسامة يشوبها بعض القلق وأجبتها:

- الحمد لله يا عصفورة... شكرًا على سؤالك

وجدتها تخرج من حقيبة ظهرها القماشية، بؤجة صغيرة تشبه التي يضعون داخلها الثعابين الصغيرة، أخرجت من تلك البؤجة بعض الودع وأصداف البحر، ابتسمَت لأول مرة منذ رؤيتها صباحًا وقربت يدها فوق مكتبي وسألت:

- تحب أضرب لك الودع يا باشا؟

فكرت للحظات قبل أن أجيبها، "خليني وراها للآخر"، هكذا قلت لنفسي، فابتسمتُ لها مرة أخرى، وهززت رأسي بالموافقة؛ فتهللت أساريرها وقربت الودع إلى فمي وطلبت مني أن أخبر الودع عن أمنياتي وأسراري، كل ما كنت أفكر فيه وقتها كان زوجتي، لجاريتها وهمست قائلًا "بحبك يا كل حاجة في حياتي"، بعدت رأسي إلى الخلف مرة أخرى ورمت هي الودع على مكتبي ونظرت له في تركيز شديد...

- الخيانة وجع... بس زيه زي القدر

- مين علمك ضرب الودع بقى يا عصفورة؟

- زمان أمي أخدتني فوق الجبل... هناك علموني ضرب الودع

- هما مين دول؟

- مش كل الحاجات لازم تتقال وتتعرف يا باشا...

كان أداؤها مفتعلًا بعض الشيء، لكنها كانت حقيقية رغم كل شيء، لم تظهر عليها أية أعراض كذب على الاطلاق، ابتسمتُ لها مجددًا وسألت:

- احكي لي عن أهلك يا عصفورة

- أمي طول عمرها هي والطين اخوات، ما عرفتش غير الطين والزرع... سعيدة كانت بتحب الزرع كأنه عيل من عيالها، لما تعوز تدور على سعيدة هتلاقيها دايمًا في الغيط... أبويا بقى مات وأنا لسه بنت ١٣... كان قرداتي، الريس محروس القرداتي... كان هو وشفيق كل يوم ينزلوا من الفجر ويرجعوا المغرب... كنا وقتها لسه عايشين في أسوان نفسها.

- شفيق مين؟

- شفيق القرد بتاع أبويا الله يرحمه... كنت تحس إن أبويا بيحب شفيق أكتر مني أنا وأمي، كانوا يسافروا الموالد ويقفوا على الكورنيش، أبويا يطبل ويلعب ع الرق وشفيق يتشقلب ويرقص زي الحاوي، وفي يوم عربية داست على شفيق موتته، بعدها بأسبوع أبويا مات... ما قدرش على فراقه..

- أنا فرحان فعلًا إني اتعرفت عليكي يا عصفورة، و حق أمك هيرجع لها وقريب أوي

أخرجت لها كارتًا يحمل رقميًا وناولته لها

- و دا الكارت بتاعي... سواء كنت في أسوان أو رجعت القاهرة... أنا دايمًا موجود

رأيتها تخلع خاتمها من يدها وتناولني إياه، كان حجرًا غريبًا لم أره من قبل في حياتي...

- خلي الخاتم دا معاك يا باشا... أنا ما اتعودتش ألاقي حد يخاف عليا... أمي كان عندها الطين وأبويا كان عنده شفيق...

- إيه الخاتم دا يا عصفورة؟

- دا فيروز يا باشا... خدته هدية من أمير عربي من كذا سنة عشان قريت له الودع وكلامي فرحه... الفيروز دا مفيد ليك أكتر مني... هيحمي قلبك وبصرك... خليه دايمًا معاك...

في الواقع، ما جذبني للخاتم لم يكن الحجر نفسه ولا شكله، انجذبت أكثر لهذا النقش الغريب أو الرسمة التي نقشت على الحجر، سألتها إن كانت تعلم معنى هذا النقش ولكنها أجابت بالنفي، شكرتها وارتديته في إصبعي وأنا ما زلت أتأمل تلك السمراء الساحرة...

عزيزي ثيو،

لقد أرهقتني الحياة، و الموت أيضًا مرهق... أصبحت أفضل تلك المنطقة الرمادية، أبحث عنها وصدقني حينما أقول لك إنني آجلًا أو عاجلًا سأعثر عليها، الواقع أصبح غير مرضٍ بالنسبة لي والثبات، أنا أكره الثبات... عشته وتجرعت مرارته، أنا الآن في رحلة البحث عني، عن نفسي وعن وجودي... أتمنى أن أراك قريبًا...

فنسنت

تراودني تلك الكوابيس كثيرًا، كابوس محدد يتكرر كثيرًا، أراها جالسة في المزرعة تلاعب الحيوانات، ترتدي فستانًا أزرقًا جميلًا، أنادي عليها كي تأتي وتجلس معي قليلًا

- كفاية لعب مع الحيوانات، هدومك بقى كلها طينة

- مش إنت اللي قلت يلا نعيش في مزرعة؟ اتعود بقى على الطينة والقرف دا كل يوم

- أنا اللي جيبته لنفسي أنا عارف

نادى عليها مرة أخرى، لكنها لا تجيب، ناديت مرارًا وتكرارًا ولا استجابة منها، أركض نحوها فأرى أشخاصًا يرتدون أقنعة لحيوانات أليفة يقومون بربطها من عنقها ويلقون بها في حفرة عميقة، أحاول أن أسحبها وأحاول أن أساعدها ولكن هيهات، لا أقوى على إخراجها ولا أقوى على إلقاء نفسي بجانبها...

عزيزي ثيو،

أهي أزمة إننا كرجال نغار من قلوبنا؟ نغار على من نحب، فيظنون أننا نرهقهم، يظنون أننا مشتتون نخاف أن نفقدهم وفي الحقيقة نحن نغار لأننا نعلم تمامًا ما نريد، ولذلك نغار على ما نريد، ثيو هي لم تفهم أنني كنت أعشقها، لم تفهم أنني أعطيتها كل شيء... هي لم تفهم أن غيرتي هي برهان عشقي لها وخوفي عليها... لم ولن أكون رجلًا متحررًا...

فنسنت

- بتشوف الخيانة ازاي يا شريف...

- الخيانة ببساطة هي خرق للعهد، أيًا كان نوع العهد دا، مش كل العهود بتحتاج ورقة وقلم يا دكتور... بتبقى حاجة أكبر من كدا بكتير... الخيانة إني أدي لك كل اللي جوايا وأديك الأمان، أجي أقولك إن مشاعري وقلبي دول من النهارده أصبحوا ملكك وأطلب منك تحافظ عليهم... و تيجي إنت بمنتهي الأنانية ترمي كل دا وتعتبره ولا حاجة، الخيانة إني أديك مسمى في حياتي يخليك فوق كل الأشخاص التانيين وتعتبر إن المسمى دا أمر واقع ملوش أي أهمية... هي دي الخيانة...

- و هي؟

- كنت فاكرها غير أي حد.. بس دايمًا بيطلعوا في الآخر كلهم شبه بعض..

- شريف إنت بيجي لك كوابيس كتير؟

- أنا كوابيسي كلها بتبقى قبل النوم يا دكتور... كوابيس الصحو أوحش بكتير من كوابيس النوم... خصوصًا لما تبقى مش عارف هتخلص إمتى...؟!

***

بدأ حب ريماس للفيوم يزيد يومًا بعد يوم، تطلب الذهاب إلى هناك كثيرًا، أحيانًا تخبرني عن ذهابها إلى هناك عندما تعود، تخبرني إن المكان أصبح قريبًا من قلبها، تأخذ لوحاتها وألوانها وتعود كل ليلة بلوحة جديدة، اختلفنا في أشياء كثيرة أنا وهي ولكن يظل حب الرسم هو أكثر ما تشابهنا فيه...

- بقيتي تحبي تروحي هناك انتي...

- بلاقي نفسي هناك...

- انتي لسه بتحبيني؟

تقترب مني وتنظر لي بشفقة، تداعب ذقني بأناملها الرقيقة وهي ما زالت تنظر لي تلك النظرة الحانية، في الحقيقة هي لم تكن نظرة أفهمها مطلقا، هل هي نظرة الحب التي اعتدت عليها أم هي شفقة؟ أم تكون هي هلاوسي الشخصية الغير مفهومة أو غير مبررة...؟

أهي ما زالت ريماس؟

***

أعلم إنني أنشغل كثيرًا، العمل والمستقبل وأفكاره، هي في الأغلب أهم ما عندي، أنخرط في عملي لساعات أعجز في بعض الأحيان عن عدها، أسهو عن العودة إلى البيت، أتغافل عن واجباتي أحيانا كزوج، وأعود بعدها إلى رشدي أطالب بحقوقي كزوج وحبيب ورجل...

***

تغلق مريم أوراقها وتلملم أشياءها في حقيبتها وأنا أقرأ على وجهها علامات الرضا والارتياح عن مشروعها...

- تقريبًا كدا المشروع خلص، ولا إيه؟

- هتوحشني القعدة دي يا خالو والله

- تعالوا أي وقت يعجبكم... المهم زي ما قلت قبل كدا... زي ما دخلتم هنا زي ما هتخرجوا

- خالو يونس... ازاي أقدر أعرف إني مش بشوف هلاوس؟

- الهلاوس أعراضها بتبقى واضحة أوي يا مريم... مش هتحتاج منك أو من الناس اللي حواليكي إنهم يكتشفوها؟ طول ما في حواليكي ناس بيحبوكي زيي كدا عمرك ما هيبقى عندك هلاوس، عشان وقتها أنا هحميكي واخد بالي منك، في الأغلب اللي بيبقى عنده هلاوس بيبقى وحيد ومكروه....

- زي اللي بيدخل في bad trip كدا؟

- آه يا صايعة... صحيح هي فين تيا؟

- بقالها كام يوم مختفية... بكلمها مش بترد، هي كدا ساعات بتختفي وتظهر

- تمام... أنا بس حبيت أتطمن... سلمي لي عليها أما تشوفيها...

كنت أعلم جيدًا سبب عدم حضور تيا هذا اليوم، أعلم أنها في تلك اللحظة تواجه خوفها لأول مرة، وأنها ستنتقم ممن آذاها وشوه قلبها، اليوم فقط تيا ستتحول من فتاة إلى امرأة قوية...

أعلم أنها في هذه الساعة تقف أمام شقة هادي، ستفضحه وتفضح جميع قصصه مع كل الفتيات التي قام بخداعهن لأعوام... وعندها فقط ستكون قد شفيت تمامًا...

عزيزي شيو،

بدأ هذا الشعور يزيد داخلي، أرى الخيانة ولا أراها، أشعر بتغيرات كثيرة لا أفهمها... كل شيء مختلف حتى رائحة نفسها وابتسامتها... لم أعد أعرفها... أريد حلًا سريعًا قبل أن أجن...

فينسنت

الفصل الحادي عشر

حنين

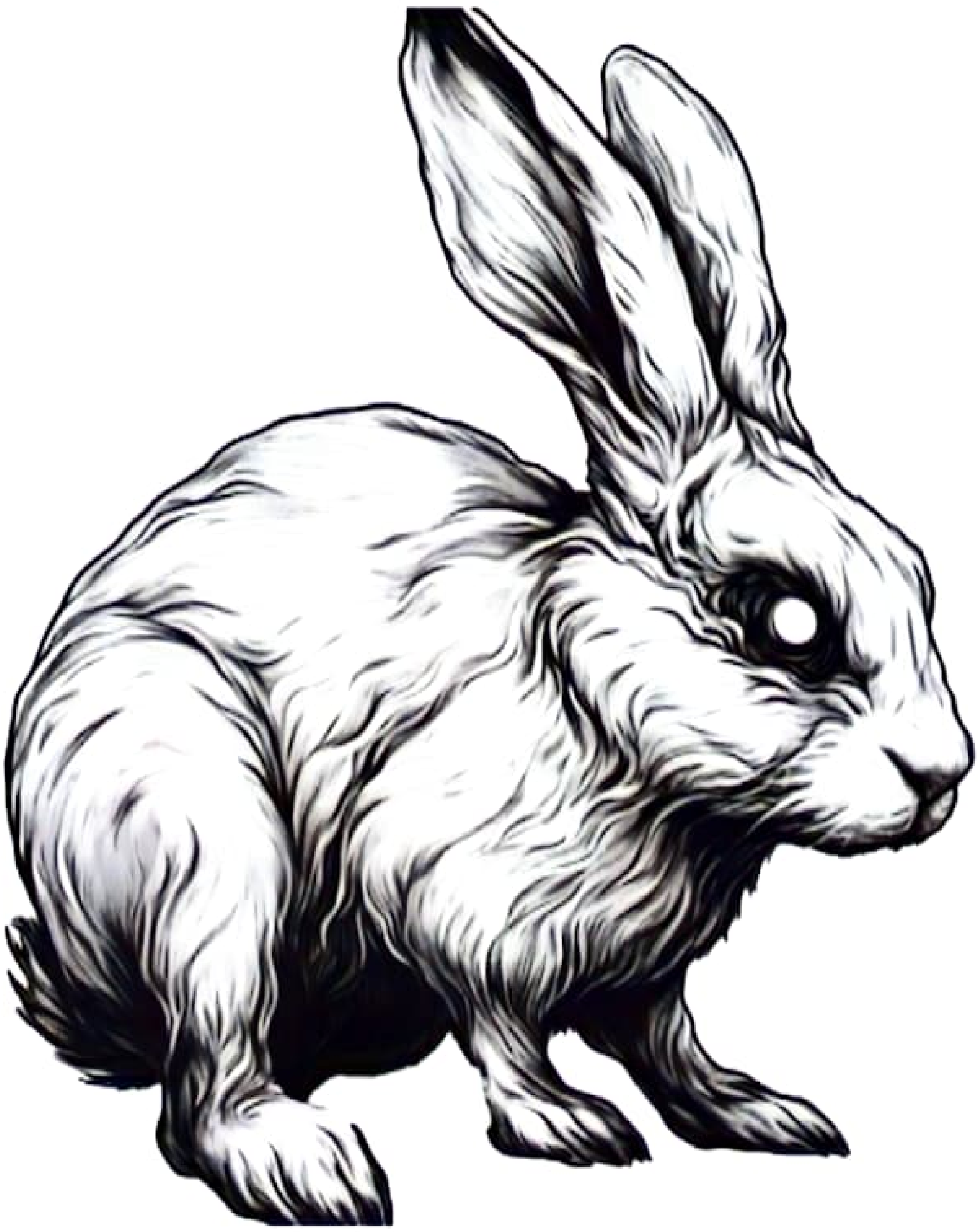

- كمل الحكاية يا شريف... إيه اللي حصل بعد كدا؟

- اتعلقت بأسوان فعلًا... بدأت أشوف إن قرار نقلي السنة دي كان من أكتر الحاجات الصح اللي حصلت في حياتي... حسيت إنه كان أفضل مكان لبداية حياة زوجية هادية ومريحة.. حاولت خلال السنة دي أخليها مش محتاجة حاجة... مش قصدي من الناحية المادية أكيد... كدا كدا دا شيء مفروغ منه... أنا أقصد كنت بحاول دايمًا ما اخليهاش تحس إنها لوحدها أو مثلًا أخليها زهقانة... دايمًا بعمل الحاجات اللي تخليها فرحانة... كانت فعلًا أحلى سنة في عمري...

- شريف إنت ليه ما بتحبش تقول اسمها...؟

- مش حاسس إني قادر أعمل دا دلوقتي يا يونس...

- دا هروب؟

- أنا عمري ما هربت يا يونس... عمري ما هربت...

- طب سيبنا من اسمها دلوقتي... ممكن تقولي إيه وجه الشبه بينها وبين حنين؟

- الاتنين كانوا محتاجين مساعدة يا يونس... الاتنين كانوا تايهين... الاتنين كانوا محتاجين اللي يلاقيهم

- احكي لي أكتر عنها... مراتك أو يعني اللي كانت مراتك

- هي الشجرة المحرمة، اللي شكلها ساطع وبيلمع بس أما تلمسها ترميك لنهايتك، هي فيلم سينما إعلانه يبهرك بس محتوى الفيلم لما تشوفه فاضي وضعيف... لو عندك خزنة مليانة فلوس وكل يوم تاخد من الخزنة دي من غير حساب أو شعور، هيحصل إيه للخزنة دي يا يونس...؟

- هتفضى...

- أنا فضيت يا يونس... فضيت وبقى مستحيل أتملي تاني...

***

أحيانًا أتخيل نفسي في الفراش مع كنزي، أجردها من ملابسها وأتجرعها كنبيذ أحمر عتق منذ عشرين عامًا، أراها تقترب إليّ عارية الجسد كما ولدتها أمها، تتحرك فتتحرك منحنياتها المنحوتة بعناية فائقة، أنهال عليها، أتذوقها مرارًا وتكرارًا حتى أنتهي منها، بعدها أُخرج مسدسًا من أسفل وسادتي وأفرغ الرصاص في قلبها؛ لكنها لا تموت، فهي بلا قلب فلا تتأذى، تضحك هي ضحكة مخيفة وأرتعد أنا خوفًا من هيئتها الشيطانية، أراها تقترب نحوي تحاول أن تقطعني بأنيابها، أصرخ فأفتح عيني لأجدني في عيادتي وعم أباظة ينظر لي في حزن...

- اهدى يا يونس... أنت كويس

- ما تخفش عليا... روّح انت يا عم أباظة...

- أروّح إيه بس وانت كدا؟

- يعني هي أول مرة... أنا بس هاخد الدوا وابقى تمام

- انت عارف إن الدوا مش هو الحل... بس براحتك

***

أصبح شريف، يشبه المجاذيب، لم يعد يهتم بهيئته الخارجية، أصبح مشوهًا من الداخل والخارج أيضًا، لم يعد يحلق لحيته، السواد أصبح ظاهرًا أكثر أسفل عينه، و أصبحت أنا أشعر بفشلي كطبيب معالج له، لا يتحسن وأنا لم أعد أفهم كيفية مساعدته...

- امتى حسيت إنك فضيت من جواك يا شريف؟

- الطوفان لما بييجي بياخد معاه الأخضر واليابس...

- امتى قررت تسيب الشغل؟

- حنين هي اللي خلتني أعمل كدا، شافتني إنسان فاشل، لقيتها بعد فوات

الأوان وما عرفتش أنقذها... يمكن عشان وقتها ماكنتش طبيعي... يمكن عشان طلاقي وقضية حنين كانوا تقريبًا في نفسي الوقت... فمعدتش عارف أبقى شريف الظابط الشاطر اللي قادر يدور... أنا مهمل وضعيف يا يونس

- كفاية تحسس نفسك بتأنيب ضمير إنت مالكش أي علاقة بإنه حصل... كفاية يا شريف! !

- لا مش كفاية... تقدر تقول لي أنا ليه لسه عايش؟ تقدر تقول لي ليه واحدة تموت بسببي؟

- وبعيدهالك يا شريف... إنت مش السبب... السبب كله في الناس اللي حبيناهم وما استاهلوش الحب دا...

***

عندما كنت أحكي لأي شخص عن شعوري الدائم بالخوف من أحلام الصحو أو مطاردة الكوابيس لي، كنت أستمع دائمًا لبعض النصائح التي أراها هزلية بعض الشيء، نصائح باهتة قد تسمعها من شخصٍ باهت يقدم برنامجًا تلفزيونيًا سطحيًا أو يكتب مقالة رخيصة من أجل حفنة من الجنيهات، مثل الاستماع إلى أصوات الطبيعة والبحر والعصافير قبل الخلود إلى النوم، حيث أن هذه الأصوات تكون آخر أصوات فى ذهنك أو لا تتناول الطعام قبل النوم مباشرة لأن تناول الطعام قبل النوم يجعلك أكثر عرضة للكوابيس، لا تنام على بطنك لأن النوم على البطن له أثار سلبية على المعدة ويجعلكِ تحلم بالكوابيس بشكل أكبر، الابتعاد عن الأفكار السلبية قبل النوم، وتجنب التفكير في مشكلات الحياة قبل النوم وتجنب أيضًا قراءة قصص الرعب أو الكتب التي تعطي تأثيرات سلبية عليكِ، لأنها تزيد فرص حدوث الكوابيس، "ماذا عن حواديت مرضاي؟"، تجنب عمل أشياء تصيبك بالقلق قبل النوم، مثل العمل في وقت متأخر، كتابة الواجبات المنزلية، لأن هذه الأمور ستجعلك تدمر أحلامك. قم بممارسة تمارين اليوجا أو التأمل قبل النوم باعتبارها من الأشياء ذات التأثير الإيجابي عليك.

"أنا أمارس رياضة الحزن في الواقع"، أحرص على الحصول على الراحة أثناء النوم باستخدام الوسائد المريحة والأغطية، فكلما حصلت على الراحة أثناء النوم كلما حصلت على الأحلام السعيدة "أنا لا أنام... أنا لا أنام... أنا لا أنام"....

***

كان كابوس الليلة مزعجًا حقًا، بعض الكوابيس يؤلمك صخبها أكثر من كونها مرعبة، كنت أقف على كورنيش النيل في أسوان، أشاهد مركبة شراعية جميلة تتمايل مع حركة النيل الانسيابية، فجأة سمعت هتافات وضحكات عالية تخترق أذني، كان محروس والد عصفورة يتمايل أمام المارة مبتسمًا ومن خلفه قرد عملاق، يشبه "كينج كونج"، كان محروس غاضبًا وهو يأمر شفيق أن يعود إلى حجمه الطبيعي، على الضفة الأخرى وقفت سعيدة تضرب الأرض بفأسها والعرق يتصبب من جبينها فيتحول لكل من الدماء تحت قدميها، رأيت شفيق يجري نحوي يحاول أن يدهسني بقدمه، نظرت حولي باحثًا عن أي مساعدة؛ فرأيت شريف مبتسمًا يمسك عصفورة من يدها ويقربها إلى موضع قلبه فتبكي هي وتختبئ في حضنه، أطلب منه المساعدة؛ لكنه لا يجيب، السماء تبدأ أمطارها في الهطول أم هي دموع حنين؟ المارة ما زالوا يضحكون ولا أمل من المساعدة، صوت الطبلة في يد محروس يكاد إن يفجر رأسي من شدة إزعاجها، أجري كثيرًا ولكني أكتشف إنني ما زلت في مكاني في حالة مخيفة من الثبات، الظلام يتخلل الحلم، سواد حالك من كل جانب، يقف فينسنت يحمل فرشاته وألوانه، يبتسم لي وكأنه يريد إن يقول "لا تخاف"، يبدأ في الرسم، فتهدأ الاصوات، يبدأ في الرسم فأعود للحياة مرة أخرى ، أفتح عيني لأجدني في غرفتي بالعيادة أتصبب عرقًا كحيوان بري يجري منذ أيام في صحراء حارقة....

***

- أصعب حاجة في الدنيا يا يونس، لما تحس إنك واقف بتحارب لوحدك

- حتى لو حرب متكافئة؟

- بس أنا حربي مفيهاش أي أساس من العدل، أنا مُطالب إني أحارب ذكريات بنيت عليها حياتي وقصتي، مطالب إني أصبر ودا المحنة الأعظم يا يونس... مفيش حد اتجرح وصبر وطلع من بعد صبره إنسان سليم...

- مفيش حاجة ملهاش أعراض جانبية، حتى الدوا اللي بناخده عشان يعالجنا بيبقى ليه أعراض جانبية...

- الحياة وحشة من غيرها... ووحشة بيها يا يونس...

أبتسم له ابتسامة صفراء بالطبع، لا أستطيع أن أتظاهر أن كلامه لا يؤلمني ولا يلمسني ويلمس ألمي، مشكلتي إنني أحببتها حقًا، جعلتها طريقي وملاذي وجعلتني هي مجرد استراحة في طريقها الطويل، استراحة تناولت فيها بعض الطعام، تجرعت الماء حتى ارتوت، أزالت الغبار عنها ومن ثم تحركت مرة أخرى في طريقها دون أن تدفع ثمن ما تناولت...

"حنين جوانا يحكي وشوق جوانا يبكي والدمع ساقية كبت"

***

- كنتي فين يا ريماس...

- بره...

- فعلًا؟... ما أنا عارف إنك كنتي بره، كنتي فين ومع مين؟

- كنت في الفيوم، حاتم كان عنده تصوير وقال لي أروح أتفرج وبعدها رجعت...

- انتي مش حاسة إنك بقيتي تشوفي حاتم نور كتير؟ ما تنسيش إنه حالة عندي في العيادة

- وانت ما تنساش إنك إنت اللي عرفتني عليه، بلاش دور الغيران دا يا يونس عشان مش لايق عليك...

- انتي حبيتيه يا ريماس؟ اللي بينا خلص يعني وبقيتي تحبي حاتم نور؟

- هو اللي بينا يا يونس؟ إيه اللي لسه فاضل؟ أنا حتى ما بقتش أفهمك... انت مش بتروح البيت غير عشان تستحمى وتغير هدومك، بقيت بتتعامل مع البيت على إنه فندق، عايش وسط حالاتك ومرضاك وكأنك عايز تثبت لنفسك كل يوم إنك دكتور مفيش زيه

- ليه دايمًا لازم تقلبي الترابيزة؟ ليه مفيش مرة في كلامنا قدرتي تواجهي نفسك وتقولي إنك غلطانة؟

***

الخبر احتل كل الجرائد والصحف ومواقع التواصل الاجتماعي، الخبر في كل مكان حرفيًا، "العثور على الفنان حاتم نور مقتولًا في قصره"...

- إيه اللي حصل يا حاج؟

- أستاذ حاتم الله يرحمه كان بييجي القصر كتير الفترة اللي فاتت، يقعد يوم ولا يومين ويرجع تاني القاهرة، المرة دي قعدته طولت فقلقت عليه، ولما خبطنا عليه وما فتحش كسرنا الباب ولقيناه غرقان في دمه زي ما سعادتك شايف كدا يا باشا...

- في حد جاله الفترة دي القصر؟

- الله أعلم يا باشا، حضرتك عارف إن أستاذ حاتم فنان فا بيزوره ناس كتير، وأنا راجل نظري على قدي فا مش بركز مين طالع ومين نازل...

- عمومًا لو افتكرت أي حاجة يا ريت تبلغني، نمري معاك...

الفصل الثاني عشر

خيبات أمل متكررة

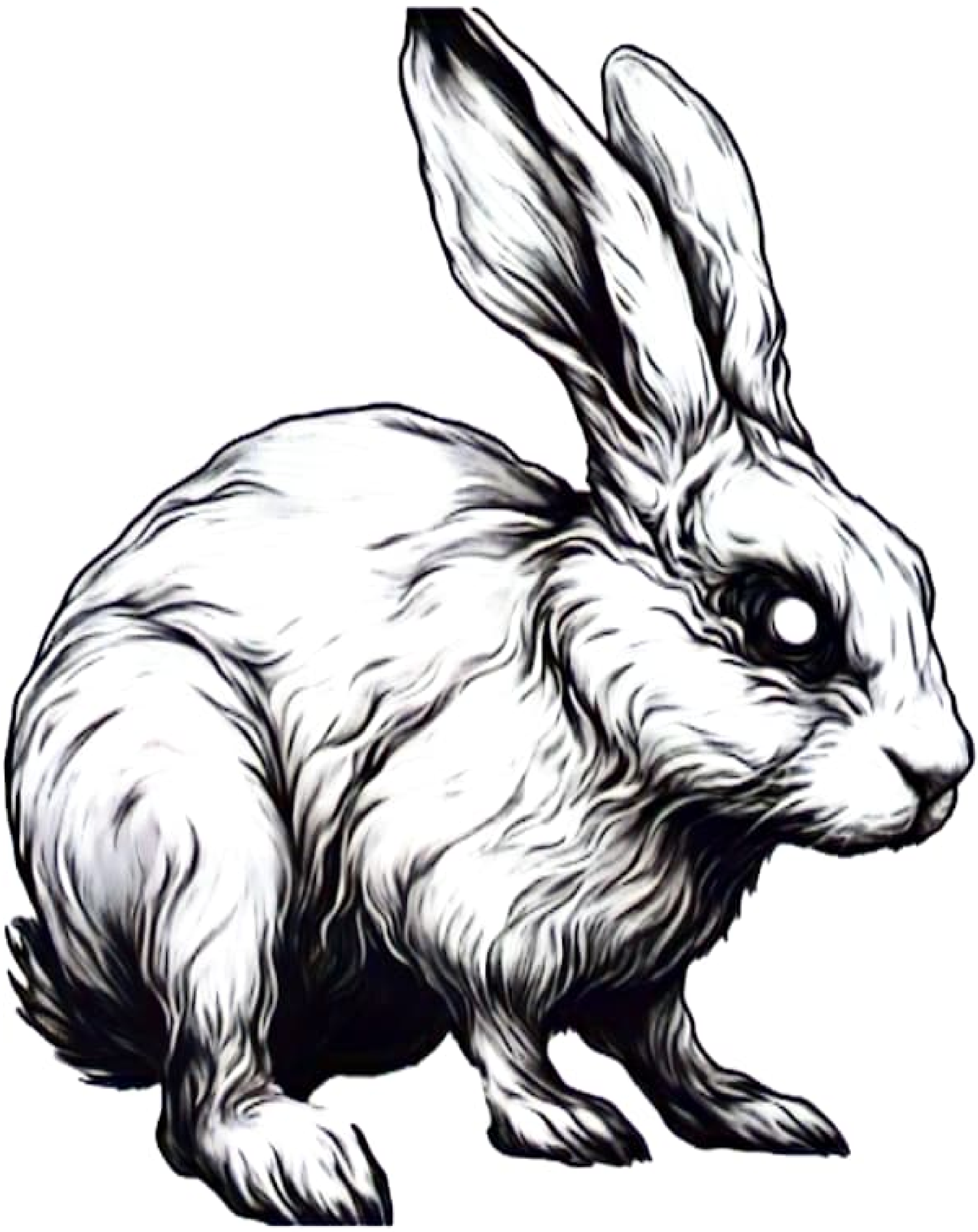

أجلس في العيادة وحدي أنا وأنفاسي المتلاحقة، الساعة تشير إلى الثالثة صباحًا، يداي ملطختان بالدماء، السكين التي قتلت حاتم بها أضعها أمامي على المكتب، الغرفة تدور وتدور بي، يكاد ألم رأسي أن يفتك بي...

أعيد المشهد مرارًا وتكرارًا داخل رأسي، أرى نفسي أتسلل مثل اللصوص، أحاول أن أتفادى كاميرات المراقبة، أرتدي نظارة شمسية وكاب كي أخفي ملامحي تمامًا، أرن جرس الباب فيفتح حاتم، يبتسم في قلق عندما يدرك أنني من على الباب، يدعوني إلى الدخول وأبدأ أنا الكلام...

- ليه يا حاتم؟... دا أنا كنت بعتبرك صاحبي وأخويا...

- حبيتها يا يونس... غصب عني لقيت نفسي بحبها

- وأنا؟ ما فكرتش فيا؟

- أنا ملمستهاش يا يونس... ضميري بيعذبني كل يوم...

- ما كنش لازم تلمسها عشان يبقى اسمك خنتني... أنا فتحت لك بابي ودخلتك بيتي... وفي الآخر تعمل كدا؟

- سامحني يا يونس...

- احكي لي كل حاجة يا حاتم... كل حاجة...

يقطع تذكري لما حدث صوت جرس باب العيادة وخبطات عنيفة متتالية على الباب، أقوم من مكاني متثاقلًا كالمخمور، أفتح الباب بصعوبة، فيعاجلني شريف بلكمة على وجهي تجعلني أتدحرج إلى الخلف، ما زلت لا أستطيع السيطرة تمامًا على نفسي، أتحامل وأقوم لأستعد للضربة التالية، شريف يبدو مثل الثور الهائج، يجذبني من رأسي ويرميني على الكرسي داخل غرفتي بالعيادة، يخرج مسدسه ويضعه أمام وجهي...

وقف شريف مهتزًا متوترًا وهو يصوب فوهة مسدسه إلى رأسي، يترنح مثل المخمور وشفتاه ترتعشان، العشرات من الأفكار والقرارات تدور بداخله ولا يستطيع إن يأخذ قرارًا واحدًا...

- كفاية أوي كدا... العبث دا لازم يخلص ودلوقتي

- ما توديش نفسك في داهية، نزل المسدس دا يا شريف...

- أروح في داهية بدل ما أنا عايش كدا... هيحصل إيه يعني؟ هيعدموني؟ برضه هيبقى أريح من اللي أنا عايشه دا...

كان ترنحه يزداد ولسانه يصاب بثقل أكثر في النطق، يحارب لكي تخرج كلماته صحيحة ومتزنة...

- طب نزل المسدس وخلينا نقعد نتكلم... أوعدك هريحك...

- فات وقت الكلام.. أنا هحرق قلبك واحرقك زي ما حرقتني كل يوم...

- أنا عمري ما أذيتك يا شريف... كنت دايمًا معاك... مفيش حد كان جنبك زي ما أنا كنت جنبك...

- انت استغليت كل اللي كنت بحكيهولك ونفذت جريمتك بخطوات حكايتي... ازاي هقدر أعيش بالذنب دا! ! أنت لازم تموت يا يونس؟ ! و أنا كان لازم أموت! !

- افهم بقى يا أخي! ! أنا بحكايتك أو من غيرها كنت هعمل كدا! ! وانت يا اللي اسمك راجل القانون، لما اتخانت نسيت كل اللي اتربيت عليه وقررت تطفي نارك بإيدك... جاي تلومني أنا ليه؟ !

بدأ شريف في النحيب، يبكي مثل الأطفال، أخفض مسدسه قليلا، فقمت من مكاني لأخرج وأهرب من العيادة، شريف ليس في حالته الطبيعية التي تسمح له أو لي بالمناقشة أو الحديث، شريف لم يعد يتناول أدويته، شعر بحركتي فعاجلني بلكمة أخرى أسقطتني أرضًا، مسح دموعه بكمه وحاول أن يصوب مسدسه عليّ مرة أخرة ولكني كنت أسرع منه وأمسكت بقدميه وأسقطته أرضًا، طار مسدسه بعيدًا عند سقوطه فأمسكت بيديه وأنا أصرخ به..

- خليني أحكي لك الأول... و لو موتي هيريحك، صدقني هسيبك تقتلني وأنا مبسوط

- احكي! !

***

هي قصة تقليدية تمامًا من قصص الخيانة التي نراها ونسمعها كل يوم من صديق أو غريب حتى، كنا كل شيء للآخر، و مع مرور الوقت أصبح الوضع أشبه بمنزل كبير ينهار ويتهاوى، ومع تزايد شعوري أنه أصبح كل ما لديها وكل ما تريد، بدأت أنا أيضًا أصبح إنسانًا آخر، أتأخر عن عملي وأثور لأتفه الأسباب، أصبحت أفرح وأبكي لأتفه الأسباب، أصبح الشك هو رفيقي الجديد، أسألها لا تجيب، ولا أستطيع أن أعثر على دليل واحد يثبت إن ريماس لم تعد تريدني، ومع ازدياد الشك ازدادت الكوابيس، أصبحت الكوابيس تمسك بي في صحوي ونومي، أنتفض منها مرتجفًا وغارقًا في عرقي، أحارب حربًا أعلم إنني مهزوم بها لا محالة مع المحاولات البائسة كي أقاوم تلك الكوابيس، أقوم من مكاني وأعتدل في جلستي، أحاول أن أضع قدمي على الأرض لكي أتأكد من صلابتها ولكني أسقط مرة أخرى في بحرٍ أسود لزج، أبدأ في الغرق وأنادي عليها ولكنها لا تجيب، "ريمااااس" أقولها بعلو صوتي ولكنه صوت مكتوم لا قوة فيه ولا أمل... أستسلم أخيرًا للغرق وأستقبل انقطاع أنفاسي بصدر رحب...

- خروجاتك زادت أوي يا ريماس

- انت يعني ولا عايز ترحم ولا تسيب رحمة ربنا تنزل... عايز مني إيه يا يونس؟

- عايزك... بحبك

- انت ما بتحبش حد غيرك يا يونس... واجه نفسك مرة واحدة...

***

هل أنا مريض اكتئاب؟ حقًا لا أعلم ولا أستطيع أن أدرك هذا بعد، الاكتئاب مرض يميزه الشعور الدائم بالحزن، فمشاعر الحزن الطبيعية نمر بها جميعًا من وقت إلى آخر، ولكن مع الاكتئاب يستمر الأمر أسابيع وقد يستمر لشهور، مع فقدان الاهتمام بالأنشطة التي يتمتع بها الشخص عادة، كما يقترن الاكتئاب أيضًا بالعجز عن أداء الأنشطة اليومية البسيطة والتي تشكل همًّا كبيرًا لمريض الاكتئاب، كذلك الشعور بالقلق، والشعور بعدم احترام الذات أو الذنب أو اليأس، وأفكار سلبية غير منتهية تجاه النفس والآخرين والتفكير في إيذاء النفس أو الانتحار.

ريماس تحولت من حبيبة لشبح يمتص كل ما بداخلي من حياة...

***

بدأت أهدأ قليلًا وأنا أسرد لشريف ما حدث...

- واجهته يا شريف، اعترف بمنتهى البساطة إنه خاين... اعترف إنه يحب مراتي وهي بتحبه...

- فا تقتله؟ أنا حكيت لك حكايتي عشان تساعدني مش عشان تعمل زيي...

- إنت كداب! ! اسأل زيتون هيقول لك إنك عملت اللي كان لازم يتعمل، هيقول لك قد إيه إنت راضي عن نفسك وإنك بتوهم نفسك بالذنب دا عشان ترتاح...

بدأ شريف في البكاء مرة أخرى، وقتها استغللت الفرصة وأمسكت بالمسدس كي أقتله وأتخلص منه إلى الأبد، لكنه عاجلني بضربة قوية جعلتني أترنح وسحب من يدي المسدس وصوبه إلى رأسي تمامًا...

- مع السلامة يا يونس...

كان الصوت الذي تلى الجملة الأخيرة صوتًا مدويًا اهتزت لأجله أرجاء البناية بالكامل، زجاج يتطاير في كل مكان وأصوات غريبة يصعب تمييزها،

وبعدها توقف كل شيء.....

***

في صباح اليوم التالي، كانت الفوضى تعم أرجاء العيادة، لا يوجد شيءٌ سليمٌ أو في مكانه، أشياء محطمة ومبعثرة في كل مكان، آثار دماء تعلو المكتب، أما عن المرآة الطويلة فتحطم زجاجها بالكامل إثر إطلاق عدة رصاصات عليها...

فتحت عيني بصعوبة والزجاج حولي في كل مكان، جروح طفيفة أصابتني، و لكن... ماهذا؟ كيف أكون على قيد الحياة؟ كيف لم أمت؟ ألم يطلق شريف الرصاص عليّ ليلة أمس؟ لماذا رأسي ما زالت قطعة واحدة؟... قمت من مكاني بصعوبة وذهبت إلى شاشة كاميرات المراقبة كي أشاهد ما حدث بالأمس لعلي أفهم ماذا يحدث...

ما رأيت جعل توازني يختل، ما رأيت جعل الدموع تنهمر من عيني، على الشاشة رأيت نفسي أقف وحدي تمامًا في الغرفة، أصيح إلى نفسي في المرآة، أقوم برفع الصوت فأستمع إلى نفسي، مرتين، بصوتين مختلفين، أقوم بضرب نفسي والتحدث إلى نفسي ومحاولتي مرارًا وتكرارًا كي أقتل نفسي، أين شريف؟ من يونس؟ أنا الاثنين؟...

تذكرت وقتها تلك القصة التي كانت تحكيها لي أختي وأنا طفل صغير...

- هحكي لك النهارده قصة الدكتور جيكل ومستر هايد

- هو كل يوم الحدوتة دي؟

- أنا بحكيها لك عشان كل مرة تتخيل للحكاية نهاية جديدة

احفظ أحداث الرواية عن ظهر قلب، احفظها أكثر من أي شيء آخر...

قصة رجل شرير بدرجة مرعبة، بحيث أنه داس على فتاة صغيرة بقدمه في الشارع، وقد أخذا منه تعويضًا لأسرة الفتاة، ولكن أصابتهما الدهشة

حين رأوا الشيك الذي كتب فيه المبلغ، فقد كان من أمامهما رجلٌ ملعون يشع الشر منه، بينما كان الاسم المكتوب في الشيك لرجل عظيم اللباقة والأهمية!

كان الرجل الذي دهس الفتاة يدعى هايد، وكان المستر أترسون محاميًا، وكان لعجبه قد رأى اسم ذلك الرجل الكريه في وصية رجل مرموق يدعى الدكتور جيكل، الذي أوصى أنه بعد وفاته تنتقل كل ثروته للمستر ادوارد هايد، هذا إذا اختفى الدكتور جيكل لمدة ثلاثة أشهر قمرية... شغل المستر أترسون بهذا الرجل الغامض الكريه هايد، وذهب ليسأل عن الدكتور جيكل طبيبًا صديقًا له يسمى الدكتور لانيون، فأخبره أنه تعرض لاضطراب عقلي، ودخل في بعض الهراء غير العلمي، مما جعله يبتعد عنه بعض الشيء.

أخذ المستر أترسون يراقب ذلك الباب الخلفي لبيت الدكتور جيكل، والذي كان قد دخل منه هايد لإحضار الشيك، وفي ليلة من الليالي وجد ذلك الرجل صغير الحجم عادي الثياب يتقدم نحو ذلك الباب الصغير وكأنه يدنو من داره الخاصة، تقدم إليه وسأله عن الدكتور جيكل وكيف أنه لم يذكره له، ولكن الرجل كان خشنًا، ثم فتح الباب ودخل وأغلقه وراءه في غلظة، بعد أسبوعين دعا الدكتور جيكل خمسة من أصدقائه القدامى، كان من بينهم المستر أترسون المحامي. كان الدكتور جيكل رجلًا ضخمًا، متين البنيان، في الخمسين، له نظرة ماكرة، برغم ما يظهر عليه من علامات الوجاهة والرقة، حاول أترسون إن يسأل الدكتور جيكل عن هايد والوصية الغريبة التي تركها له، فلم يلقَ قبولًا من الطبيب، ثم قال له: أرجو إن يلقى منك العدل، ولا أتوقع أن تحبه في يوم من الأيام.

بعدما يزيد على العام وقعت جريمة قتل لرجل يدعى كارو، وشهدت فتاة أن الذي قتله هو هايد بعد نوبة غضب اعترته، فحطم فوق رأس الرجل عصاه، وأخذ يدهسه بأقدامه حتى قتله، وكان هناك خطاب مع القتيل باسم المحامي أترسون، توجه مفتش الشرطة مع أترسون إلى منزل هايد ولم يجداه في المنزل، فقد كان من المعتاد أن يتغيب عن البيت شهرًا أو شهرين،

ذهب أترسون إلى منزل جيكل ليجده مريضًا جدًا، وأطلعه الطبيب على خطاب من هايد بخط رديء فيه اعتذار، وأنه سبب الأذى للدكتور جيكل، وعلم أترسون إن هايد هو الذي أملى شروط الوصية على جيكل، وخمن أنه كان ينوي قتل جيكل؛ ليحصل على الثروة، وكان جيكل يبدو عليه الندم ويقول: لقد تلقَّيْتُ درسًا لن أنساه.

أخذ أترسون الخطاب إلى مكتبه، وتشاور مع كبير كتبته في الأمر، وكان يثق برأيه، وفي هذه اللحظة وردت دعوة لأترسون للعشاء مع الدكتور جيكل، وأخذ الكاتب يقارن الورقتين المكتوبتين، فدهش أترسون وقال: لماذا قارنتهما؟ فقال الكاتب: لأن هناك تشابهٌ استثنائي بينهما، فاليدان متشابهتان، مع اختلاف ميل الكتابة، وظنًّا أن الرسالة ربما تكون مزيفة!

لم يُعثر على القاتل، فقد اختفى هايد تمامًا، وبدأ هنري جيكل يعود لحياة اجتماعية وعلاقات طيبة طالت لمدة شهرين، لكنه مرة أخرى عاد لمنع الناس من زيارته بحجة المرض، فذهب أترسون إلى صديقيهما المشترك الدكتور لانيون ليسأله عن جيكل، فوجده مريضًا أيضًا وقال: لقد التقيت بهذا المدعو جيكل، وأرجو ألا تسألني عنه مرة أخرى... بعد أيام توفي الدكتور لانيون، ووصل منه خطاب مختوم لأترسون، ففتحه، لكن وجد بداخله خطابًا: لا يفتح إلا بعد موت أو اختفاء د.هنري جيكل، وقاوم أترسون فضوله، وغلَّب شرفه المهني، فلم يفتح الخطاب، واحتفظ به في خزانته، لم يستطع أترسون الوصول إلى الطبيب المنعزل، وكان يمشي هو وصاحب له ووجدا أنهما وصلا إلى الشارع الخلفي الذي يطل على باب مختبر جيكل الخلفي، ووجداه يطل من نافذة منخفضة على الشارع، حادَثَ أترسون الطبيب الشاحب المريض ليستحثه على الخروج، لكن جيكل نظر لهما نظرة قنوط وهلع، أحس معها الرجلان بالرعب، وابتعدا عنه مذعورين وهما يقولان "فليسامحنا الله".

وجد أترسون كبير خدم الدكتور جيكل يهرع إليه خائفًا ليأتي معه ليرى ما حل بسيده الطبيب، ذهب أترسون ليجد كل الخدم في استقباله خائفين

وكأنهم مع شيطان في بيت واحد، قال الخادم: إن سيده كان يرسلهم للإتيان بمواد كيميائية معينة من المتجر، لكنها لم تكن بالنقاء المطلوب، وكان يرد عليه بصوت غريب وقد رآه مرة فوجده كأنه يلبس قناعًا مشوهًا ويصرخ كالفأر، وهو قصير كالقزم وسيده فارع البنيان، كان الخادم يشك إن سيده قد قُتل، وأن الشيء الموجود بالداخل هو مستر هايد! تعاون الخادم مع أترسون وكسرا الباب العتيق، ودخلا إلى المختبر، وأخذا يفتشان عن الطبيب، وجدا هايد ملقى على الأرض، كان ميتًا، وقد أعد العدة ليشرب الشاي، والسكر في القدح، وظنا أن الطبيب هنا أو هناك، فأخذا يناديان ولا مجيب، كانت هناك قارورة تغلي، وعلى المكتب أوراق، وكان هناك مظروف يحمل اسم أترسون، كانت هناك وصية أخرى، وبدلًا من اسم هايد كان هناك اسم أترسون، وورقة أخرى بخط الطبيب عليها تاريخ اليوم يدعوه فيها بأن يقرأ الخطاب الذي أعطاه له الدكتور لانيون ووضعه في خزانته، لأنه حين يقرأ هذه الورقة سيكون قد توارى، وكان هناك أيضًا طرد صغير مختوم.

قرأ أترسون الخطاب الذي كان عنده، كان من د. جيكل لـ د. لانيون يطلب منه أن يذهب إلى بيته ليأتي بمحتويات درج ما في مختبره، ويعطيه لشخص سيأتيه، ويخبره أن هذا الأمر تتوقف عليه حياته، فعل الدكتور لانيون ما طلب منه، وأعطى الأشياء للرجل القصير الذي جاء إليه، وأمام عيني لانيون المندهشتين المرتعبتين تناول هايد خليطًا من المواد التي أحضرت، وتحول ذلك الرجل الضئيل البشع بعد اهتزاز واضطراب إلى شخص أكبر حجمًا وأفضل شكلًا... إلى الدكتور هنري جيكل!

ترك الكاتب النهاية مفتوحة، هل سيموت هايد على مشنقة الشجاعة ويرجع جيكل مرة أخرى أم يستمر هايد؟ هكذا هو الصراع الدائم في نفس الإنسان بين الخير والشر، والذي يستمر معه إلى آخر الحياة، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها...

- أنا مين! !

قلتها صارخًا في حرقة وأنا أتهاوى وأجلس على مقعدي لأستعيد توازني، أمسك بزجاجة الماء من أمامي وأتجرعها كالمجذوب، الماء يتصبب فوق رقبتي وملابسي وأنا لا أفيق تمامًا بعد، في الماضي كنت أطلق على تلك الحالة، حالة مستر هايد، أما الآن كطبيب ،فالاسم الطبي لما يحدث هو، اضطراب الهوية التفارقي! ! !

أغمض عيني...

و أبدأ في التذكر، تذكر القصة من البداية...

يونس شريف الدين، ضابط الشرطة في البداية ومن ثم الطبيب النفسي...

كيف بدأ كل شيء؟

عزيزي ثيو،

أنا لم أعد أعلم حقًا من أنا...

فنسنت

الفصل الثالث عشر

الكابوس

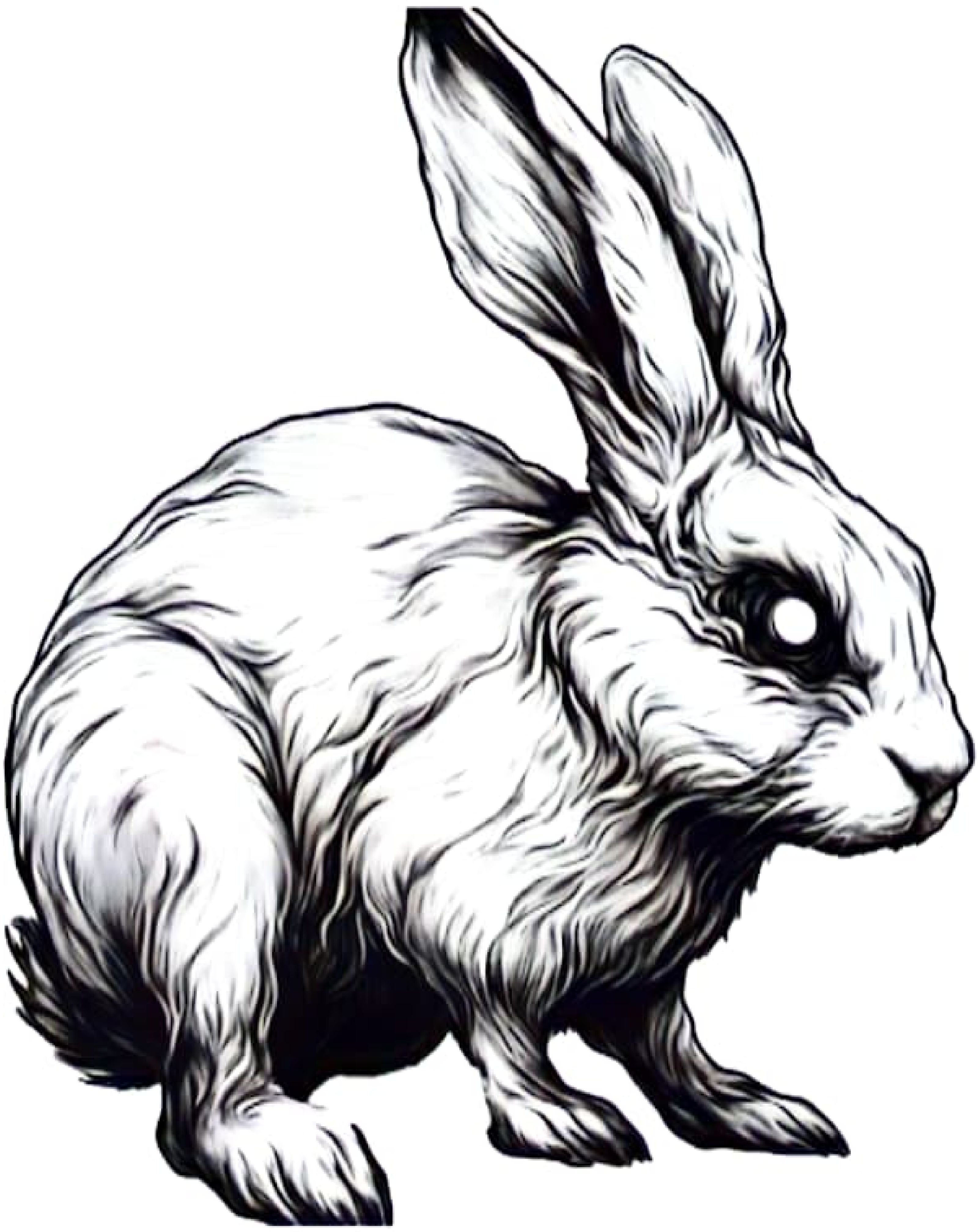

كنت ضابطًا ناجحًا، أتذكر هذا جيدًا، كان الجميع يطلق علي لقب "المخاوي"، يونس باشا شريف المخاوي، لقدرتي الفائقة على حل كل القضايا بسهولة ويسر، كنت أعشق علم النفس، أدرسه إلى جانب عملي كضابط، حصلت على ماجستير في علم النفس وعلم النفس الجنائي، أصبحت ألقي المحاضرات وأكتب العديد من الكتب عن علم النفس وخصائص النفس البشرية، حتى قابلتها ذات يوم... ابتسمت ومدت يدها لتصافحني...

- حنين، من أشد المعجبين بحضرتك وأفكارك

- شكرًا يا آنسة حنين وحقيقي نورتيني

- أنا فعلًا مبسوطة إن حضرتك بتقدر توصل لنا معلومات كبيرة زي دي بالطريقة البسيطة دي...

- حاسس إنك عايزة تقول لي حاجة تانية؟

- حاجات كتير... تشرب قهوة؟

كل شيء بدأ بفنجان قهوة، بعدها تم استبدال القهوة بشربات يوم تزوجتها، أخذتها ورحلنا إلى أسوان، تم الزواج هناك وعشنا معًا سنة من السعادة والحب...

- بابا الله يرحمه كان عايز يسميني ريماس، كان بيقول لماما إن بنتي دي شبه الألماس وهي بقى كانت عايزة تسميني كنزي، فضلوا يتخانقوا كتير على الموضوع دا وفي الآخر قرروا يسموني حنين...

- عارفة إني بحب اسمك أوي؟

- و أنا بحبك إنت يا يونس...

"إيه فعليًا اللي بيغير اللي جوانا؟ يعني إيه أنام واصحى أبقى ما بحبش الإنسان اللي المفروض هو كل حاجة بالنسبة لي..."

- ساعات بخاف من زعلك يا حنين، بتفتحي لي أوقات حضنك على

الآخر، وأول ما أقرب منك أوي تبعدي مرة واحدة وتسيبيني أغرق وانتي واقفة بتتفرجي...

- أنا عارفة إن زعلي كتير بيبقى وحش... بس عمري أبدًا ما هسيبك تغرق...

كاذبة هي، ليس فقط لأنها تركتني أغرق؛ بل لأنها سبب غرقي، هل السبب لكونها إنسان غريبة لم أعطِ لنفسي الوقت الكافي لكي أعرفها وأعاشرها؟ ولكن ألا تأتي العِشرة بعدد أعوام حبنا؟ هل تسرعت من فكرة الزواج منها؟ المهم، عدنا من أسوان وبدأت المشاكل مع العودة، أصبحت هي شخصًا آخر وأصبحت أنا أهمل عملي، لا تركيز ولا اكتراث، المخاوي أصبح مع مرور الوقت؛ الفاشل...

أصبحت في تلك الفترة أشبه موسيقيّ يعزف لحنه الأخير فوق التيتانيك وهي تغرق، معزوفة لن تعيدني إلى حياة، فقط ستجعل الموت يبدو أجمل...

ولكن أليس الموت هو الموت؟

- إنت ما بقتش يونس شريف بتاع زمان... مفيش قضية واحدة عارف تحلها؟

- أنا آسف يا افندم... أنا فعلاً بقالي فترة مش كويس

- اعتبر نفسك من النهارده في إجازة مفتوحة... لما تقدر تشيل مسئولية المسمى الوظيفي بتاعك؛ أنا مكتبي مفتوح ليك...

تركت المنزل وسافرت إلى الإسكندرية، أخبرت حنين أن لدي مأمورية لمدة شهرين هناك، أردت أن أعيد ترتيب أوراقي والتفكير في الخطوة التالية، أردت أن أبتعد حتى يتسنى لي التفكير...

يونس شريف الدين، العاطل الآن... الزوج المحب والذي يجب عليه أن يبذل كل جهده لكي يوفر لزوجته كل شيء، حتى وإن كانت هي سبب

ما هو فيه، حتى إن كانت هي من غيرته، حتى لو أنه لن يصبح هو مجددًا بسببها... اخترتها بإرادتي... لا مجال للهروب الآن... لا مجال كي أعيد كل شيء للحظة البداية وأبتعد... ويبقى السؤال... أهي تستحق كل ما أفعل لها؟ ولماذا...؟

***

في الإسكندرية، وقفت كثيرًا أمام البحر، لا أعلم حقًا كم من الوقت مضى وأنا متيبس في مكاني كشجرة عجوز قاربت على الموت، أتأمل الموج وهو يصارع من أجل الوصول إلى الشاطئ، كم لبثت تلك الأمواج في البحر؟

"مفيش حاجة أصعب من إنك تكون بتبني سعادتك على شخص معين، وبترسم كل مستقبلك معاه وفي الآخر يشوفك شخص فاشل... عديم الجدوى والأهمية..."

أنا لم أكن يومًا من المصنفين كملائكة، لم يدرج اسمي يومًا في قائمة الطيبين أو حتى الطبيعيين، هناك دائمًا هذا الجانب الأسود اللعين الذي يلتهم كل بياض القلب والروح، أنا لم أكن متحكمًا في أشياء وأفعال كثيرة أقدمت على فعلها وندمت كثيرًا عليها...

جلست أمام البحر، غفوت قليلًا وتمنيت ألا أعود إلى الواقع مرة أخرى، في تلك اللحظة قررت أنني سأتجه إلى بداية جديدة، وأنني سأصبح طبيبًا نفسيًا، قررت أن أجد حلًا لكل ما بداخلي من أوجاع من خلال مساعدتي للناس، و القواعد بسيطة... الأمانة في تقييم المريض، احترام الكرامة الإنسانية، التزام السرية، احترام جنس المريض، نبذ العنصرية ونبذ التمييز العرقي...

أدركت تمامًا إن أساس نجاح الطبيب النفسي يعتمد على قدرته على بناء علاقة علاجية سليمة بينه وبين المريض، ولذلك يجب إن ترتكز العلاقة بينهما على الثقة، والتفاهم، والموضوعية من طرف الطبيب النفسي أي أنا،

والتقدير المتبادل بين المريض والطبيب، وتبدأ هذه العلاقة بين الطبيب النفسي والمريض منذ لحظة دخوله إلى غرفة الطبيب...

وقتها قررت إن تصبح عيادتي هي الأفضل والأبسط والأريح للجميع، عيادة تناسب كل الأعمار والفئات والمشاكل، كل ما قد ادخرت من مال في حياتي وضعته في العيادة وبدأ مشواري....

قبل أن أترك الإسكندرية تلك الليلة، و بينما أنا جالس أمام البحر على تلك الدكة الإسمنتية، جائني صديق قديم ليجالسني، صديق ظننته لن يعود مرة أخرى، زيتون....

- وحشتك؟

- انت عارف إجابتي يا زيتون... فا بلاش السؤال دا...

- خلاص؟ يونس باشا هيبقى الدكتور يونس؟

- أنا لسه بفكر... وبعدين مش من حق أي حد إنه يتدخل في أفكاري!

- حتى أنا يا يونس؟ والله عيب... مش كان بيبقى حقي زمان لما كنت بدافع عنك وأساعدك في القضايا اللي كنت بتحلها؟ مش كان بيبقى حقي زمان وانت عيل صغير لما كنت باخد لك حقك؟ ولا عشان بعدت عنك شوية خلاص أنا كدا بقيت غريب؟ أنا عمري ما هسيبك على فكرة... بس وجودي الدائم مالهوش لزوم صدقني...

- آه يا زيتون... هفتح عيادة... و هبعد عن وجع القلب والهم شوية... شغلانة بسيطة وحاجة أنا بحبها

- وأنا من إمتى ما كنتش عايز لك الخير يا يونس... أنا أفرح لما أعرف إنك مبسوط ومرتاح... ساعتها أنا كمان أبقى مبسوط ومرتاح...

- شكرًا يا زيتون... شكرًا

***

"هو انت ليه سبتها... هو انت ليه عذبتها؟ مش دي اللي عشقها خيالك... وحكيت عنها للناس هو انت إيه اللي جرالك... بتبيع وتخون وخلاص"

هي تسألني عن سبب تغيري الفترة الاخيرة، ولكني لم أتغير، أم أنني تغيرت ولا أرى ذلك؟ أم أنني أصبحت شخصًا آخر غير كافي ولا مناسب لها...

- مشكلتك يا حنين إنك بقيتي عايزة راجل معمولك خصوصي

- تقصد إيه؟! !

- يعني انتي عايزة رسام وموسيقي وشاعر وطبعًا دكتور، عايزاهم كلهم في راجل واحد... عايزة يونس يرسمك كل يوم بشكل جديد، عايزة يونس يبقى مزيكاتي وانتي الملهمة، عايزاه شاعر يكتب لك كل يوم قصيدة ويتغزل فيكي وعايزاه الدكتور اللي يسمع ويفهم ويداوي...

- أنا ما طلبتش كل دا...

- مش محتاجة تقولي كل الكلام عشان تبقي بتطلبيه... ساعات السكوت بيوصل المعاني أحسن بكتير من شوية كلام...

وكأنك إن ضعفت في يوم من الأيام، ستنهال عليك الخناجر من كل مكان، تقطع أوصالك وشرايينك، فقط لأنك أخفقت... مرة واحدة....

***

عندما جاء حاتم إليّ أول مرة في العيادة، وكان يعاني من أزمة شديدة في فعل الحب بحياته، شعرت إن في وجوده أمل لإحياء حبي أنا وحنين، هي فنانة وتحب النجوم وتحب حاتم نور على وجه التحديد كثيرًا، سأساعده كي يكون في أفضل حال وسأجعله مفتاحًا لإنقاذ زوجتي التي تسقط في بحر الظلام...

- شكلك مش كويس يا يونس

- أنا زي الفل، سيبك مني بس وطمني عليك يا فنان، هتخلص تصوير الفيلم الجديد إمتى؟

- يونس أنا بتكلم بجد، يا حبيبي إنت بقيت شبه المدمنين... إنت مش بتنام كويس طيب؟

- ههههه، بالعكس... أنا ببقى تمام لما بنام... المشكلة كلها بقى وانا صاحي...

- مشاكل؟

- كوابيس يا حاتم... كوابيس بعيشها في كل ثانية...

عزيزي ثيو،

أكره تلك المصحة رغم أنها أكثر مكان أرتاح فيه منذ سنوات، لا أحد يسأل عن الماضي، باستثناء الطبيب بالطبع، الكل هنا مريح في المعاملة، وجوه عابسة ولكنها قلوب نقية، لا تعلم حقًا إن كانوا أحياءً أم أمواتًا، فلا كل الأحياء أحياء ولا كل الأموات أموات، الكل يسبح في ملكوته لا يبالي إلى أي شيء، الكل غير مكترث ولا حتى لنفسه، أعتقد أنني أريد البقاء هنا، أعتقد إنني وجدت مكاني أخيرًا...

فنسنت

ما زلت لا أقوى على الحركة جيدًا، أنزع بعض شظايا الزجاج من لحم يدي، فأنزف قليلًا ولكني لا أبالي، أريد أن أتذكر، أريد أن أستعيد الشريط من بدايته حتى النهاية دون أن أنسى شيئًا، أخرج من درج المكتب جهاز تسجيلٍ صغير أستخدمه في جلساتي كأي طبيب نفسي، أعبث بين علب الشرائط فأجد واحدًا يحمل اسم "حنين"، أضعه وأستمع إليه...

يخرج صوتي من الجهاز ضعيفًا حزينًا، كمن خسر الحرب للتو...

"أنا عمري ما بطلت أحب حنين، ومش عارف إيه اللي غيرني فعلًا بس أنا بقيت بشوف حاجات، كل يوم من بعد ما رجعنا من أسوان وأنا بشوف حاجات، في الأول كنت بقول إن دا ضغط الشغل وعشان أنا عمري ما كنت باخد أجازات، بس حتى لما أخدت أجازة واتنين وكنت بقعد في البيت بالأسبوع، كل يوم كان فيه حاجات جديدة بشوفها، أوقات كتير كنت بشوف أطفال وستات قاعدين معايا في البيت، لابسين وشوش حيوانات أليفة، عمرهم ما اتكلموا أو عملوا حاجة... بس وجودهم نفسه كان شيء مخيف، كان دايمًا في الهلاوس دي بشوف أطفال شكلهم مخيف جدًا... وحيوانات أليفة كتير... أرانب أو خرفان... ساعات قطط وعصافير، كانوا دايمًا بيبقوا ساكتين بشكل يتعب النفس، وكان في كل الهلاوس دي دايمًا في صوت ست بتصرخ، لما كنت بفوق من الهلاوس دي كنت ببقى عرقان وخايف ومش عارف حتى أتعامل مع حنين... بقيت بشوف الخوف مني في عيونها... بحاول أحضنها بس كنت بشوف برضه خوف حتى من حضني... فكرت حتى إني أسيبها بس حبي ليها كان بيمنعني... حبي ليها كان دايمًا بيخليني أحس إن فيه أمل..."

نعم... أتذكر جيدًا تلك الأيام، تلك الأيام الذي كنت أتحول فيها لهذا الكائن المرتجف والذي لا يملك بيده حيلة أو حل، كنت أُشبه بفأر صغير دخل إلى منزل كبير، لا يريد الأذى لأي أحد، فأر مذعور يبحث عن الملاذ، عن بقعة مظلمة باردة بعيدة عن أعين القاطنين بالمنزل، الكل يطارده ويريده بالخارج، و الفأر لا يملك سوى أظافره الصغيرة والتي سيحفر بها في

الأرض حفرة ليختبئ أو سيدافع بها عن نفسه، كنت أنا هذا الفأر، أتذكر ذات صباح، كنت جالسًا في المنزل أنا وحنين، نتناول الفطور، حتى رأيت إلى جانبها امرأة ترتدي رأس أرنب وتحمل في يدها سكينًا، قمت من مكاني مندفعًا لأبعدها عن حنين ولكني كنت أدفع حنين نفسها، فأسقطها أرضًا وسببت لها جرحًا في رأسها...

- حنين... أنا... أنا آسف

و حاولت أن أساعدها على الوقوف، لكنها دفعتني بيدها

- ابعد عني يا يونس...

- ماكنش قصدي والله... أنا آسف

- خلاص يا يونس قلت... انزل بقى من فضلك...

- حاضر... أنا آسف تاني

***

تعرف الهلوسة أو الهذيان أنها أحاسيس تبدو حقيقية لكنها من إنتاج العقل وليست موجودة فعلاً. تؤثر الهلوسة على الحواس الخمس، فعلى سبيل المثال قد يسمع المريض صوت شخصٍ رغم أنه يكون وحده في المكان، أو يرى صورة غير موجودة أصلاً...

الهلوسة قد تكون في العديد والعديد من الأشكال والمواقف، في الأغلب قد مررت بهم جميعًا، أصبحت في أغلب الأوقات لا أغادر العيادة حتى لا أتسبب في الإحراج لنفسي، أعيش على الكثير من المهدئات حتى أتمالك أعصابي، سري كان مع أباظة العجوز، يعلم متى يجب عليه إن يعطيني الدواء ومتى يكتفي فقط بالنسكافيه، يعلم متى يجب عليه إن يلغي كل مواعيدي ومتى يكتمل اليوم بشكل طبيعي...

- زيتون زيه زي حنين يا شريف.. الاتنين ما ينفعوش يفضلوا جواك..

- لو الاتنين مشيوا... أنا هبقى لوحدي يا يونس...

- مش هتبقى لوحدك... أنا هبقى دايمًا معاك

" كنت دايمًا بقول الجملة دي لما أحس إن شريف اللي جوايا بدأ يضعف، لما شريف كان يحس إنه وحيد كنت دايمًا بفكره إن يونس موجود، كنت دايمًا بفكره إن يونس مش هيمشي حتى لو التانيين مشيوا، إنه مش محتاج يبقى حد تاني عشان أنا ما امشيش، كان نفسي يفهم إن احنا الاتنين واحد، احنا الاتنين بنكمل بعض وهنفضل نكمل بعض مهما حصل... كانت الهلاوس كل يوم بعد يوم بتزيد أكتر وأكتر، ولما بيبقى أحسن حتى لو لحظات، زي اللحظة دي، بمسك جهاز التسجيل وأحكي، أفكر نفسي أنا مين، أفكر نفسي إن يونس هو شريف وشريف هو يونس ... أفكر نفسي إن شخصية ريماس هي الجانب الحلو اللي كنت بتمنى أشوفه في حنين... و إن شخصية كنزي هي الجانب الإسود في حنين، بس على الأقل هو جانب متكلم... مش جانب جبان... "

ذاكرتي في الوقت الحالي، تشبه إلى حد كبير العين وقت الاستيقاظ، مترددة ورؤيتها غير واضحة أو متزنة تمامًا، العقل لا يعمل جيدًا تمامًا بعد، ذاكرتي تشبه بطارية ريموت تم عضها حتى قاربت على الصراخ....

- أستاذة حنين كانت بتحب الرسم أوي يا باشا، بس كانت دايمًا حزينة...

- ازاي كانت بتحب الرسم وبتسمع أغاني وبتقول عليها حزينة...

- مش كل الرسومات وشوش بتضحك وألوان فرايحي... ولا كل الأغاني حب وهيصة يا باشا

مثل فان جوخ؟!

في عام ١٨٩٠ انتقل فان جوخ إلى قرية "أوفرسرواز" الواقعة في إحدى ضواحي باريس حيث أمضى فيها عامه الأخير.

في تلك القرية اشتد نشاط فان جوخ الفني لدرجة أنه كان يرسم لوحة كل يوم. على الرغم من ذلك، كان فان جوخ يعاني من انتكاسات متتالية، فلا يكاد يخرج من المصح العقلي حتى يدخل مرة أخرى. في شهر يوليو أطلق فان جوخ على نفسه الرصاص، لم تكن الرصاصة قاتلة لكن تلوث الجرح أدى لوفاته بعد ذلك بأيام. قبل محاولة الانتحار بعدة أيام قليلة رسم فان جوخ آخر لوحاته وهي (على أعتاب الخلود)

- مش كئيبة اللوحة دي يا يونس يا حبيبي؟

- مش عجباكي؟ دي فان جوخ يا روحي

- ما هو عشان كدا بقولك دي كئيبة أوي يا روحي.. مش عايزني أجيب لك لوح عليها ورد مثلًا أو عصافير.. أرسم لك لوحة أنا طيب؟

- ارسمي لي حاجة لفان جوخ يا روحي... سيبيني أنا في عيادتي وسط العيانين والكآبة وخليكي انتي مع الورد والعصافير

"دايمًا كنت بلاقي رابط بيني وبين فينسنت، كان شايف إن الحياة ملهاش قيمة من غير حب وفي الواقع هو عمره ما لقي الحب دا، كان شايف نفسه عجوز ورسم نفسه عجوز رغم إنه كان وقتها في التلاتينات، فينسنت شاف كتير، فقر ومرض عقلي وفشل في العلاقات وما حدش عرفه ولا قدر فنه إلا بعد موته... كتير بخاف تبقى نهايتي زي نهايته، كتير بخاف إن الهلاوس والوجع اللي بعيشه كل يوم يبقى سبب لنهاية حياتي اللي ما عدش ليها سبب أعيش ليه..."

***

- يونس... حضرتك كويس؟

- أنا تمام يا تيا... ما تخافيش... شوية لخبطة في حياتي كدا وبعدها هبقى تمام

- ممكن تخليني أساعدك؟

- أنا طول عمري بساعد الناس... وعمري ما عرفت أساعد نفسي

- خليني أحاول... مش يمكن؟

***

كل الذكريات تعود إليّ بالتدريج، العرق والدماء يمتزجان فوق جسدي، قطرات العرق تسيل حتى فمي، مالحة مثل البحر، يقشعر جسدي كله، وأنا أحاول أن أضغط بيدي على رأسي كي أتذكر المزيد، أفكاري في الوقت الحالي تشبه الذباب المحبوس في كوب زجاجي، لا تقدر على الفرار وفي الوقت نفسه ترتطم مرارًا وتكرارًا بالزجاج فيختل توازنها...

" كنت عارف إنها بتروح الفيوم كل يوم، في الأول كانت بتروح عشان تقابله في القصر بتاعه هناك، كنت كتير بقول إن دي مجرد هلاوس، وإن دا جزء من اللي بيجرالي... بس كنت براقبها... بسمعها بتقول لي إنها خارجة تعمل مشوار أو تقابل حد من صحابها وتروح له... مريم نفسها قالت لي إنها شافتهم في يوم في الفيوم، وقلت لها إن حنين بترسم له لوحات للقصر بتاعه وإن في بينهم شغل... بتخونّي ولسه بخاف على شكلها "

عزيزي ثيو

وظيفة الفن هي تقديم المواساة لمن حطمتهم الحياة، وظيفة الفن هي إن تخلق من ضلوع أحزاننا البدايات الجديدة التي تليق بقلوبنا الهشة...

فنسنت

- اسمعتي أنغام يا حنين؟

- عشان بحسها بتغني لي أنا وبس...

- ازاي يا فيلسوفة

- أنغام صوت العقل والقلب... التوازن اللي احنا عمرنا ما فهمناه يا يونس...

- في حاجات كتير مش بنفهمها يا حنين... مش بس التوازن دا اللي بيبقى بالنسبة لنا شيء مبهم...

الفصل الرابع عشر

لعنتي

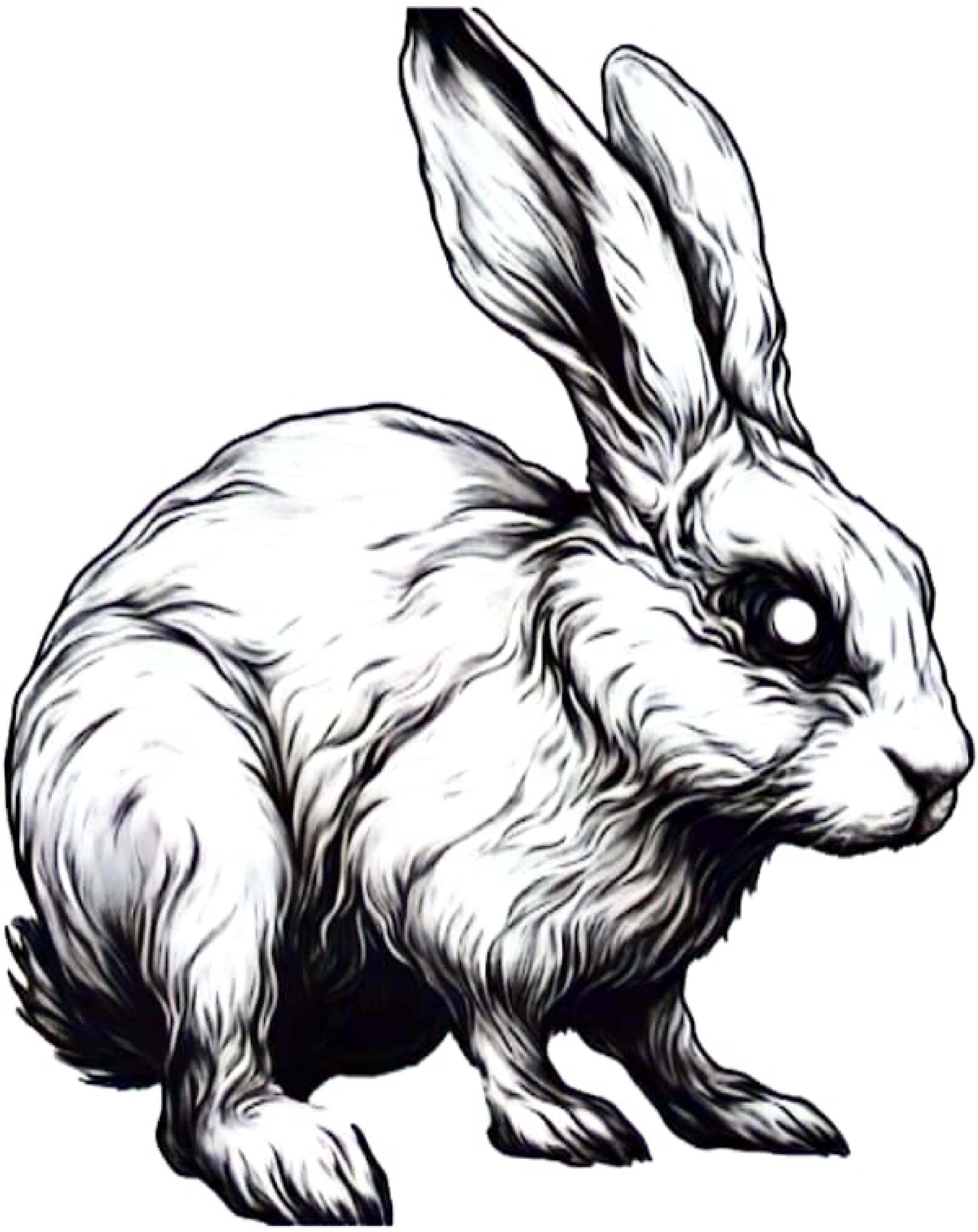

كانت خطتي تتضمن الآتي، سأتخلص منه هو في البداية، لا لن أقتلهما هما الاثنين كي يعيشا سويًا في عالم آخر أو لكي ترتاح أرواحهما القذرة، سأقتله هو أولًا كي أراها تتألم وتتعذب، سأريها كل يوم أنني أراها خائنة رخيصة، ولن يمسها مكروه، يكفيني استحقارها لنفسها، يكفيني بؤسها وكرهها للحياة، يكفيني إنها تتنفس هواءً مسمومًا وتعيش في أيام ملعونة، يكفيني أنها لا تعلم ما يجب عليها انتظاره، إن الغد بالنسبة لها يحمل الكثير والكثير من الاحتمالات والتي ستؤدي كلها إلى لقاء الجحيم... جحيمي أنا الشخصي...

عملي السابق كضابط جعلني أكتسب الكثير من العلاقات، والتي لا نعرف أهميتها حتى نحتاج إليها في وقت ما، مثل علاقتي بالريس نونو، والذي عرفته في شبابي حينما كنت أخدم لعدة أشهر في الفيوم، كان بالفعل يصطاد ويطهو أفضل وجبة سمك يمكنك تناولها في حياتك، ولكن الوجبة التي أردته إن يحضر لها لي هذه المرة، كانت مختلفة بعض الشيء...

- اسمع يا نونو، أنت هتجي لي وتبلغ عن اختفاء حنين

- مدام حنين ؟ يا ساتر يا رب... دي كانت لسه عندنا في الفيوم من يومين

- نونو! ... فتح مخك وركز معايا... اللي هقوله ليك دلوقتي عايزك تعمله بالحرف الواحد، و اللي هقوله دا لو طلع لمخلوق تاني... أنا مش محتاج أقولك أنا هعمل إيه

- من غير ما تقول يا يونس باشا... أنا طول عمري الراجل بتاعك ومعاليك عارف دا كويس...

- جدع يا نونو... هو دا العشم يا كبير

***

في دفتر المذكرات الخاص بحنين، تحدثت عن حبها للفيوم، كتبت عن رحلتها اليومية إلى هناك، وعن روحها التي لا تغادر هذا المكان...

بقايا أوراق محروقة لسبب ما لا أعلمه، بعض الأوراق المتبقية تحمل في أحضانها كلمات كفيلة بتعذيبك لأعوام وأعوام...

"في الأول، المكان دا كان بالنسبة لي باب الحياة، اللي لقيت فيه السعادة الحقيقية لأول مرة في حياتي مع حاتم، معاه عرفت يعني إيه أضحك من قلبي، عرفت يعني إيه أعمل كل حاجة في الدنيا بـ **passion**... عمري ما كنت بشوف نفسي إنسانه وحشة أو خاينة عشان دورت على سعادتي مع حد تاني غير يونس باشا شريف، أنا برضه ما أقدرش أقول إني ما حبتش يونس ولا إني ما عشتش معاه أيام حلوة، بس أنا ماكنتش عايزة حد يحبني بطريقته الخاصة على قد ما كنت بحلم بحد يحبني بطريقتي أنا اللي هتخيليني مبسوطة بدماغي وأحلامي... يونس كان ليه طريقته الخاصة في الحب، التفاصيل اللي مش شبه تفاصيل الناس التانية... الكلام اللي كان في أوقات كتير مش بفهمه ولا أستوعبه... وقتها بس عرفت يعني إيه "كيميا"... ساعات العناصر لما تركب على بعض بتنفجر... كل حاجة في قصة يونس كانت مدروسة ومكتوبة بالورقة والقلم... و متحدد ليها كمان ميعاد للرحيل، لما حاتم اختفى من حياتي، أصبح مكانه اللي جمعني بيه هو مكاني بعد كدا، روحه في كل حتة في الفيوم، كنت كل يوم آخد مركب صغيرة وارسم في نص البحيرة وعيني متعلقة على بلاكونة قصره، كان دايماً جوايا إحساس إنه هيفتح الشباك في مرة ويضحك لي... مش محتاجة حاجة أكتر من الضحكة دي..."

***

أنظر أمامي على المقعد الذي يقابل مكتبي، فأراها جالسة في سكون، ترتدي فستانًا أسودًا طويلًا، تنظر إليّ بعينيها التين كثيرًا ما تغزلت بهما، أراها قبيحة رغم جمالها، أراها أشبه بمسخ لا يستحق أن يعيش وسط النقاء، قامت من مجلسها وجلست فوق المكتب، أشعلت سيجارة وسألتني في هدوء

- ليه عمرك ما لبست الدبلة في إيدك؟

- انتي عارفة إني مش بحب ألبس حاجة في أيدي... بتخنق وبعدين أنا لابسها في سلسلة أهو...

- انت بتتكسف من حبك ليا يا يونس؟

- حبك هو الشيء الوحيد اللي عمري ما فكرت أداريه ثانية واحدة

- طب واشمعنى الخاتم دا بتلبسه؟ عشان من عصفورة؟

لم يكن بيني وبين عصفورة شيء، هي بالفعل عصفورة ضلت الطريق عن مكان العش والأسرة، أصبحت وحيدة في عالم موحش لا يرحم، كانت دائمة السؤال عني وكنت أحدثها مرة أو مرتين في الأسبوع، فقط بدافع الشفقة، لم أخنك يومًا يا حنين ولم أفكر حتى في خيانتك...

في كوابيس الصحو كانت عصفورة تبكي وحدها في غرفة زجاجية بلا أبواب أو نوافذ، أرى الهواء ينفذ من غرفتها رويدا، أرى دموعها وهي تطلب الاستغاثة بلا صوت، مجرد أنين تشعر به ولا تسمعه، أحاول في كوابيسي أن أساعدها على الهرب والحياة، أجرب كسر الزجاج مرارًا وتكرارًا ولكن محاولتي دائمًا تنتهي بفشلٍ مخزٍ...

عزيزي ثيو

إن الأشخاص الذين لا يقومون بشيء في حياتهم سوى الوقوع في الحب، هم وحدهم الجادون بشأنه، باعتباره واجبًا مقدسًا، أكثر من هؤلاء الذين يضحون بالحب وبقلوبهم من أجل فكرة طارئة، فكن مثلهم ما استطعت....

فنسنت

عانى فان جوخ طوال ١٨ شهراً من اضطرابات نفسية وعقلية بدأت بحادثة قطع أذنه اليسرى، وانتهت بانتحاره في حقول القمح، بإطلاق الرصاص على نفسه، إلا أن الحادثين قد مرا بغموضٍ مثيرٍ للفضول، وحالة من الهذيان رفض على إثرها الإفصاح عمَا حدث...

تم تشخيص حالته عقب الحادثة الأولى بالفصام والاكتئاب وهوس حاد مصحوبًا بهذيان، كما تم تشخيصه بالصرع خلال حياته، ووضع تحت الرعاية النفسية في مستشفى أرل، حيث أمضى فيها الأشهر التالية من حياته، حتى خرج منها طوعًا إلى مصحة مدينة سانت ريمي دو بروفانس، حيث رسم هناك واحدة من أشهر أعماله على الإطلاق، لوحة ليلة النجوم....

أمن الألم يولد الإبداع؟ أمن الحزن يولد الفن؟؟

حتى الأوجاع تحمل داخلها الأسرار؟

***

كان قتله سهلًا حتى وإن كانت المرة الأولى لي، تعاملت مع حاتم كما يتعامل الفنان مع لوحة جديدة لم يمسها لون بعد، تلذذت كثيرًا في قتله، برصاصتين في قلبه، رصاصة من الزوج المكسور ورصاصة أخرى من الصديق المخدوع، قمت بتقطيعه إلى أجزاء كثيرة، أصبح بلا ملامح ولا تكوين، أصبح أي شيء قد نتصوره غير كونه كيانًا بشريًا، كنت سعيدًا وأنا أفعل ما فعلت، حتى أني كنت أدخن وقتها وأستمع إلى الموسيقي، كانت عملية قتله وتشويه كيانه أقرب إلى رسم لوحة سريالية مريضة...

لو كان ما حدث ليلتها مصورًا، لحصل حاتم على الأوسكار التي طالما حلم بها، لو إن مخرجًا كبيرًا شاهده وهو يطلب الرحمة ويبكي ويتمنى فرصة أخرى، لكان قد حصل على عقد احتكار لأفلامه طوال حياته، ولكنه في تلك اللحظة كان وحيدًا مثلما كان يشعر قبل أن يحب زوجتي، وحيدًا مثلما سيكون في البحيرة والتي ألقيت بها ما تبقى منه فيها، وحيدًا كما جعلني وحيدًا...

***

- بس انتي وعدتيني إنك عمرك ما هتمشي... وعدتيني إنك عمرك ما هتبطلي تحبيني

- وانت وعدتني إن التلج عمره ما هيسيح...

- مفيش تلج مش بيسيح... الموضوع متوقف على كمية التلج يا حنين...

***

قتلته في تمهل واستمتاع كالمجنون وفي الليل حملت أشلاءه، كان النونو قد ترك لي مركبًا أمام الشاطئ، أخذتها إلى بقعة خالية من البشر والصيادين، و في أحضان البحيرة استقرت جثة حاتم نور لمسكنها الأخير... إلى الأبد...

"ماكنتش عايز أقتله، ولا كنت في يوم من الأيام عايز أقتل أي حد أصلًا، مين أنا عشان أسرق من أي مخلوق عمره؟ أنا حتى عمري ما أذيت حيوان أو حشرة ومش عشان أنا ضعيف، بالعكس... بس عشان أنا أقل بكتير من إني آخد خطوة زي دي، حبي لحنين خلاني أعمل حاجات ما تخيلتش في يوم إني ممكن أعملها، حبي لحنين أصبح مع الوقت أذى نفسي؛ ليا ولحياتي ومستقبلي، بعد ما كانت هي في يوم من الأيام حياتي ومستقبلي... فضلت في مكاني بشوف الكيس اللي فيه جثة حاتم بتتحرك لتحت، ببطء وهدوء... و بعد لحظات... أصبح الفنان حاتم نور مجرد كيس اسود مرمي تحت المياه..."

- انت عملت إيه...؟

- انتي عارفة كويس أوي أنا عملت إيه...

- قتلته؟ قتلته يا يونس! ! وما قتلتينيش أنا ليه؟ اقتلني يا يونس باشا! !

توقعت صمتي، توقعت ضعفي تجاه حبها كالعادة، توقعت أن الصياح والغضب سيجعلاني أرتعد خوفًا وهربًا من مواجهتها، و لكني قبلت التحدي في تلك اللحظة، فقط سنتيمترات قليلة تفصلني عنها، ابتسمت تلك

الابتسامة المرعبة وقلت لها:

- هقتلك يا حنين... بس لسه دورك ما جاش...

لم أرَ الخوف في عينيْ حنين من قبل، كانت تلك هي المرة الأولي... وأعتقد الأخيرة أيضًا...

أيام وأسابيع تمر، فصول تتغير وأحداث تحدث للبشر، حنين تفعل نفس الشيء كل يوم، روتين لا يتغير، تستقل سيارة أجرة في صباح كل يوم إلى الفيوم، تذهب إلى عم نونو، تستأجر مركبًا وتظل ترسم حتى الغروب وتعود بعدها إلى المنزل، نعيش تحت سقف واحد وكأن بيني وبينها آلاف الكيلومترات، لا نلقي حتى السلام على بعضنا، ونتحاشى دائمًا النظر في عين بعضنا، أنا أصبحت معتكفًا ما بين المنزل والعيادة، أطلقت لحيتي بفعل الملل وعدم الاكتراث، فأصبحت أشبه برجل خمسيني يواجه الزمن والعمر...

أصبحت كمن يذهبون إلى الحفلات وهم مرغمون على الذهاب، ولكني في تلك الحفلات أقف وحدي دائمًا، لا أواجه الحضور وفي الأغلب أعطيهم ظهري، أحدق في السقف ربما أو أحدق إلى نفسي التي لم أعد أرى انعكاسًا لها في المرايا، وأسأل نفسي هذا السؤال مرارًا وتكرارًا... متى ينتهي كل هذا ؟؟ لماذا لا أقتلها الآن وأستريح...؟!

في يوم من الأيام قرأت قصيدة لم أكن قد قرأتها من قبل لهشام الجخ، شاعري المفضل على الإطلاق، وكأنه كان يحكي قصتي مع حنين من خلال كلماته، قصيدة "لقطة الفراق"...

"ورغم الاختلاف الكلي في المظهر وفي المضمون... لكنه حبها بجنون كان عاشق وكان مهووس... وكلمة حب أياميها كانت بفلوس"

- ما بتحسش ساعات إننا مش شبه بعض يا يونس؟

- انتي فيكي كل الحاجات اللي كنت برسمها في فتاة أحلامي... عمري ما

اتمنيت أكتر من كدا...

"يا بنت النعمة... كان عاشق ما تخسريهوش... مش هتحسي وانتي فى ضله دلوقتي. ما تتغريش بضحكه يوم ما فارقتي... دي بس وشوش... ما تسيبيهوش"

- كل يوم بيعدي معاكي بيخليني أتأكد أكتر وأكتر إن كل قرار خدته زمان كان غلط وإن وجودك هي الخطوة الأولى الصح في حياتي...

- مش هتندم؟

- أنا هندم لو ما اتجوزناش دلوقتي حالا... بحبك أوي

"ساعة الفرقة كان هو عينيه أحزان وواقف هادي وبيضحك ومن جواه حمم بركان و كانت هي مبتسمة... كانت عيلة لسه... و بتدور ما بين أصحابها فى الجامعة على الفرسان"

- كفاية بقى يا حنين ! كفاية! ! ! !

الفصل الخامس عشر

البداية

أصرخ! ! فأفيق مرة أخرى ! ! ولكن تلك المرة في مكان آخر! ! ليس المنزل ولا العيادة... أهي مستشفى؟ سجن ؟ أهي مصحة! ! ! ! ! مصحة! !

لا أتذكر تحديدًا متى جئت إلى هنا، أسأل نفسي، كيف انتهى بي المطاف في تلك الغرفة الموحشة، سرير بالٍ، مقعد ملتصق بالأرض، كوب معدني فارغ وطبق معدني به شيء أشبه بالطعام، أنظر إلى يدي، لا يوجد آثار للدم، أرتدي زيًا أشبه بملابس المختلين عقليًا، على الأرض لا يوجد سوى دلو كبير والكثير والكثير من أقلام الطباشير، قلم صغير من الرصاص والكثير من الأوراق والتي تم طي معظمها على شكل جواب، كيف أتيت إلى هنا؟ ماذا أفعل في هذا المكان؟... ألم أنفذ الجريمة الكاملة؟... أغمض عيني مرة أخرى وأحاول أن أتذكر يوم الانتقام...

كانت الخطة محكمة، ذهبت هذا الصباح وراءها إلى الفيوم، كنت قد غيرت كل الأوراق الرسمية الخاصة بها إلى اسم آخر "ريماس"، البطاقة وعقد الزواج، حتى إنني وضعت اهتمامي في كل التفاصيل الصغيرة، قلم صغير ابتعته ونقشت عليه اسم ريماس، نسخ من كتبي في علم النفس تحمل إهداء إلي "من علمتني معنى الحياة... زوجتي ريماس"، تذكرة سفر باسم ريماس إلى أسوان، اهتممت بكل شيء، يعلم النونو ما عليه فعله، سأذهب خلفها إلى الفيوم، سأقتلها بيدي، سيخفي النونو جثتها لعدة أيام، سيهرول إلي في العيادة، يطلب مساعدتي كمعرفة قديمة وكوني ضابطًا سابقًا، سأطمئنه وأخبره إنني سأفعل ما في وسعي لمساعدته، ستظهر فتاة في يوم من الأيام تدعى "تقى" تخبرني إنها أخت حنين، ستكون تلك الفتاة هي "تيا" والتي اتفقنا ذات ليلة إننا سننتقم ممن آذونا وسلب منا السعادة والحياة، سأساعدها في التخلص من هادي، وستساعدني بفقرة صغيرة في الظهور كضيفة شرف في فيلم "نهاية حنين" فقط لتبدو القصة واقعية أكثر وأكثر، سأطلب صديقًا قديمًا، ضابطًا في الشرطة اسمه هيثم، كان قد أقام لي ليلة نوبية بمناسبة زواجي ذات يوم، والوحيد الذي يعرف قصتي وقرر مساعدتي، سأطلب منه أن يبحث في السجلات عن فتاة تدعى "حنين"، سأعطيه رقمها وصورتها لكنه بالطبع لن يعثر على أي شيء، بعد عدة أيام سيجد النونو جثة

حنين أمام البحيرة، ملامح مشوهة، وأنا في الواقع لم أكن مطلقًا قريبًا مما يحدث، ستعثر القوات عليها، سيقيد الحادث ضد مجهول، أخيرًا سيشفى غليلي وأعود إلى حياتي وسعادتي مرة أخرى .... أخيرًا...

و لكن، كيف أكون في هذا المكان الآن؟ كيف وقد نفّذت خطتي بالكامل، أضرب باب غرفتي الزجاجي بالمصحة بيدي وقدمي، أصرخ كثيرًا حتى يظهر أمامي شاب يرتدي بالطو أبيض ويبدو أنه حديث التخرج من هيئته، ينظر إليّ بلا اكتراث وينتظرني أن أقول شيئًا...

- انا بعمل إيه هنا؟

- مالك يا عم فينسنت، ما انت كنت حلو الأسبوع اللي فات كله وقاعد بترسم وجميل

- فينسنت مين؟ أنا اسمي يونس...

- يا سيدي عارفين إنك اسمك يونس وكنت دكتور قبل ما تيجي هنا، بس انت اللي بتحب اسم فينسنت دا... ما تصدعنيش بقى، كنت عايز حاجة؟

- أنا بعمل إيه هنا؟! !

- بتصيف! ! روح نام بقى ولا تخبط لك شوية على الحيطة! !

تركني هذا اللعين ورحل، رحل تاركًا علامات استفهام كثيرة وعقلًا يستشيط غضبًا وخوفا! ! هل كُشف أمري؟ هل هناك من يراقبني؟ أفعلت تيا أو هيثم أو ربما النونو أي شيء قد يضرني؟ أريد أن أعرف! ! أريد الإجابات! ! أين أنت الآن يا زيتون عندما أريدك حقًا! !

- و أنا من إمتى مشيت يا يونس؟

- أنا إيه اللي جابني هنا؟

- انت يا يونس... إنت اللي جبت نفسك هنا مش أي حد غيرك...

- بلاش ألغاز دلوقتي يا زيتون وفهمني... أرجوك

لا أشعر بأطرافي كما ينبغي، قدماي ترتعشان وأنا في مجلسي، يدي ضعيفة واهنة، وعقلي يجاهد نفسه لكي يتمكن من مساعدتي، المكان قاتم، الإضائة النيون بين كل غرفة وغرفة تصيبني بالجنون وألم قاتل في عيني، زيتون يجلس أمامي في كل ثقة، يدخن سيجاره الفاخر في هدوء، قال إن عليه الرحيل، قال إن دوره في قصتي قد انتهى، قال إنني أحتاج إلى نفسي أكثر من أحتياجي إليه، أنظر حولي فأجد العشرات من الرسومات على الحائط، أبدأ في قراءة الأوراق التي تغطي الغرفة، كلها موجهة لشخص ما يدعو "ثيو" وكلها موقع بخطي الذي أعرفه جيدًا ولكن باسم آخر، موقعة باسم "فينسنت"... فينسنت؟...

طوال حياتي وأنا لم أعشق فنانًا أو رسامًا على وجه التحديد مثلما عشقت فينسنت فان جوخ، كنت دومًا أرى نفسي وألمي في حياته وأوجاعه، في طفولتي كان لكل منا في المدرسة اسمًا، طفل يسمي نفسه الملك على سبيل المثال لولعه بمحمد منير، أحدهم يسمي نفسه الزعيم لاعتقاده أنه يشبه عادل أمام، أما أنا فقد أسميت نفسي "فينسنت"، يونس الذي يريد أن يصبح فنانًا ويعشق هذا الرجل الغريب والذي لم أكن أعرف شيئًا عنه وقتها غير أنه الرسام المختل الذي قطع أذنه وأهداها إلى واحدة من حبيباته، رأيته شخصًا مختلفًا يعشق بطريقة مختلفة، كان لفان جوخ أخًا يدعو "ثيو" كان هو كل شيء له في الحياة تقريبًا وكتب له العديد والعديد من الرسائل في أعوامه الأخيرة، تعتبر رسائل فان جوخ خير شاهد على جميع لحظات ومراحل حياته، أخوه ثيو الذي كان يساعده بلا كلل ولا ملل وبجميع الطرائق الممكنة، والذي لم يفقد الثقة به يومًا من الأيام، والذي لم يتحمل البقاء بعده حيًا، فمات بعد أقل من ستة أشهر من موت أخيه بعد أن تدهور عقليا وبدنيًا...

لماذا لم تحبني مثلما أحبّ ثيو أخيه؟

لماذا فقَدتِ الإيمان بي؟

***

مرت عدة أيام وأنا لا أغادر غرفتي بالمصحة، أفقد الشعور بالوقت والأيام، أفقد الشعور في المطلق حتى، لا أتناول الطعام ولا أنام، فقدت الكثير من وزني، أصبحت شاحب اللون، لا يكلمني أحد، حتى هذا الممرض الأصلع، يضع الطعام والمياه في صمت ويغادر...

يخرجونا من الغرف مرة واحدة في الأسبوع إذا كانت حساباتي صحيحة، أرى هؤلاء المرضى البائسين والذين تركهم أهاليهم في هذا المكان المخيف البارد، مكان حتى كوابيسي تعجز عن خلق مثله في خيالي، ما إن ترى إطلالة حتى تقفز إلى ذهنك فورًا جميع قصص الرعب والأشباح التي قرأت عنها أو شاهدتها في حياتك. مبنى قديم تحول هو نفسه إلى شبح...

جدرانه الكئيبة المظلمة اعتصرت أرواح آلاف البشر، وتمضي هائمة على وجهها بين الطوابق والردهات الخاوية التي تنبعث منها رائحة المرض والموت، أشباح حائرة طالما أدخلت الهلع إلى قلوب المرضى الحاليين الذين ينتظرون نهايتهم بفارغ الصبر.

أسمع أحاديث المرضى في الفناء، يحكون فيما بينهم أنهم سمعوا أصوات أطفال تصدر من سطح المبنى، أصوات تترنم بأغانٍ غير مفهومة وضحكات مرعبة كأنها صادرة عن مجموعة من الأطفال يلعبون ويمرحون، أحاول ألا أكترث لما أسمع وأن أحاول جاهدًا أن أدرس المكان جيدًا، أحاول أن أكتشفه عندما تسمح لي الفرصة...

بعض الأعمال القبيحة تحدث في تلك المصحة، أشخاص يختفون وجثث تتبخر بين ليلة وضحاها، أرى من نافذتي سيارة قديمة سوداء من النوع الذي كان يستعمل لنقل الجثث، تظهر في بعض الليالي، ثم يظهر رجلان يبدآن برمي التوابيت إلى داخل السيارة، أرى أموالًا تدفع وابتسامات تلمع في ستر الليل، هناك أعمال قذرة تحدث في هذا المكان اللعين...

مرت عدة أيام أخرى ، وجدت هذا الطبيب البغيض مرة أخرى ، يدق الباب الزجاجي بيده ويخبرني أن لدي زائر يريد مقابلتي، قمت من مكاني بصعوبة ومشيت أمامه حتى أدخلني غرفة مظلمة لا توجد بها سوى لمبة

صغيرة، جلست حتى فتح الباب مرة أخرى ودخلت هي وجلست أمامي، ابتسمت في شر، ابتسامةً أتذكرها جيدًا، ابتسامة تعلّمتها هي مني، عيني ثابتة في خوف وعدم فهم، حلقي أشبه بصحراء ميتة، ابتلعت ريقي بصعوبة وأول ما نطقت به كان اسمها...

- حنين! !

هي مازالت على قيد الحياة؟ كيف؟ كيف ؟؟

- مستغرب ؟ ما تخافش انت ما بتحلمش

- هو... هو مش انتي........؟

- اتقتلت؟ مش كل كوابيسك مكتوب لها تموت أوام كدا يا يونس باشا

"الهلوسة هي الإحساس بمحسوس مش موجود... الهلوسة هي أكتر حاجة بترعبني في الحقيقة"

قامت من مكانها وأخرجت من حقيبتها العشرات من علب الأدوية المختلفة، أدركت على الفور إن جميعها أدوية نفسية، عقار الدوكسيبين لعلاج الاكتئاب، الديفينهيدرامين الذي يساعد على النوم، الكيتامين، عقار أوكسي بوتينين لعلاج سلس البول وغيرهم، كلها عقاقير يجب التعامل معها بحذر وتحت إشراف الطبيب، الإفراط في تلك الأدوية وعلى المدى البعيد يؤدي إلى هلوسة وانفصام واكتئاب ويؤدي إلى الانتحار في بعض الحالات...

- إيه الأدوية دي؟ بتعملي بيهم إيه؟

- دي أدويتك يا حبيبي

تقسم المواد المحرضة للهلوسة عادة إلى فئتين، محرضات الهلوسة الكلاسيكية، والأدوية التفارقية وهي أدوية تشوش إدراك المتعاطي للصورة والصوت وتولد إحساسًا بالانفصال عن المحيط والذات، وقد تولد اضطرابات نفسية مثل اضطراب تعدد الشخصية والسكيزوفرينيا...

- أدويتي يعني إيه؟... أنا مش فاهم...

- يعني انت بتاخد الأدوية دي من يوم ما رجعنا من أسوان، في أكلك وشربك دايمًا فيه جرعة من الأدوية دي، كل كوابيسك وجنانك دا إنا السبب فيه، وطبعًا مش بديلك أي معايير وخلاص، أنا برضه مش عايزاك تموت زي ما انت كنت عايز تموتني، أنا مبسوطة أوي كدا وانا شيفاك زي المجانين اللي مش عارفين هما مين ولا بيعملوا إيه... معظم الأحداث اللي بتحصل لك من يوم ما رجعنا من أسوان هي أحداث بتحصل جوه دماغك، أنا اللي خليتك تخسر شغلك وخليتك تشوف حاجات مش بتحصل غير في خيالك المريض... إنت بقيت هش يا دكتور يونس، بقيت مكسور...

- عشان كدا بدأت أفتكر اليومين دول؟ عشان انتي بعيد والجرعة بقالها فترة مش بتتاخد، ازاي عمري ما خدت بالي...

- آخر واحد بيعرف إنه مريض...

- هو المريض نفسه... صح... بس ليه؟ أنا عملت لك إيه؟

ضحكت هي والدموع تسيل من عينيها، لملمت العقاقير في حقيبتها وأخرجت صورة وضعتها أمامي، بدأت دقات قلبي في التزايد عند رؤيتي الصورة، صورة قد محيتها من حياتي وذاكرتي منذ سنوات، صورة ياسمين...!!

- فاكر اللي في الصورة دي؟ فاكر ياسمين؟

- انتي جبتي الصورة دي منين؟ انتي مين؟! !

- إيه يا دكتور يونس، أنا مراتك... يمكن دي الحقيقة الوحيدة في حياتك المريضة، و اللي في الصورة دي ياسمين... مراتك برضه! ! ولا نسيت؟

***

ياسمين الفخراني، حبي الأول والشخص الذي لولاه لما درست علم النفس واهتممت به، كانت تعشقني حق العشق وتضعني في منزلة أعلم جيدًا أنني لا أستحقها، كنت ضابطًا حديث التخرج وكانت هي الصدفة الأجمل في حياتي، لا أعلم حقًا ارتباط علاقاتي بالقهوة، كنت في هذا الكافيه صباح أحد الأيام أتناول النسكافيه اليومي قبل ذهابي إلى القسم، رأيتها جالسة تقرأ كتابًا عن علم النفس، لا أعلم حقًا كيف فعلت هذا ولكني ذهبت إليها وابتسمت، وسألتها عن محتوى الكتاب، تعجبت أنها لم تصدني أو توبخني، كانت ياسمين تفترض حسن النية في كل الناس وكل الأفعال، تحدثنا كثيرا وفي نهاية حديثنا أدركت أنني لن أستطيع أن أعيش يومًا واحدًا بدونها...

أخبرتني أنها تعشق الريف، كل ما تتمنى في حياتها هو أن نعيش في منزل في الريف، نرعى الحيوانات ونزرع ونحيا حياة بسيطة لا تشوبها أي نوع من المشاكل...

- في يوم من الأيام هيبقى عندنا مزرعة زي اللي على الطريق دي

قلتها وأنا أشير إليها على مزرعة شديدة الجمال، كانت هي تسرح في تفاصيل تلك المزرعة كلما مررنا من هناك

- هتسيب شغلك وحياتك وتقعد تزرع وتربي فراخ وبقر وكلاب؟

- دي حاجة نفسنا فيها أنا وانتي من زمان... وبعدين كفاية إننا هنبقى مع بعض

- فعلًا هتعمل دا عشاني؟

- أنا مستعد أعمل أي حاجة عشانك يا ياسمين

كانت رقيقة، طيبتها لا وصف لها وحنانها يملأ ويشمل كل شيء، ولكني ما زلت لا أفهم ماذا يحدث؟! !

- مشكلتك يا يونس إنك فاكر نفسك العبقري الوحيد في الكوكب دا

- ياسمين تبقى أختي يا يونس... أختي اللي انت دمرتها... كل اللي بيحصل فيك دا عشان حق ياسمين اللي ضاع...

- أنا حبيت ياسمين.... وحبيتك...

- انت عمرك ما حبيت حد يا يونس، إنت عندك هوس الامتلاك... بتتعامل مع البشر على إنهم ممتلكات خاصة مش أرواح من لحم ودم

نعم، إنها لا تكذب، يونس شريف تعود أن يعامل البشر كممتلكات، ليس لأنه شخصٌ سيء، فقط لأنه يقدر قيمة الأشخاص، فقط لأنه يعلم إن الحب غالٍ ونادر الوجود، تزوجت من ياسمين، أخبرتني قبل زواجنا إن لديها أختاً واحدة تعيش في الخارج، لم أهتم ولم أكترث لمعرفة أختها حتى أو التعرف عليها، تزوجتها واشتريت لها المزرعة التي كانت تحلم بها، حيوانات أليفة في كل مكان...

حيوانات أليفة تشبه تلك الأقنعة التي كانت تراودني في كوابيسي، ، تذكرت لحظتها تلك المرة التي رأيت إلى جانب حنين امرأة ترتدي رأس أرنب وتحمل في يدها سكيناً، كانت تراودني أحلام رؤوس الحيوانات كثيراً والآن فقط عرفت سببها، هم تلك الحيوانات التي كانت تحبهم ياسمين، الأرانب والكلاب والقطط وغيرهم، أرى تجسداً لضميري في هؤلاء المقنعين، أرى كوابيسي تتحول إلى واقع حاولت كثيراً الفرار منه...

تزوجتها وعشنا حياة جميلة بسيطة، كانت لا تتمنى سوى إرضائي، لا تبحث إلا عن سعادتي، ولكن أليس الملل هو عدو كل العلاقات السعيدة؟ هي أرادت أن يصبح لها حياة، أرادت أن تعمل وتعيش حياتها كإنسان، وأنا الذي اعتاد على العودة كل يوم فأجدها بانتظاري لا يوجد شيء في حياتها سواي، فتعاملت مع الأمر كأنه أمر واقع، بدأت المشاكل، بدأت الوردة في الذبول والحزن، لا أكترث ولا أبالي، أقيدها باسم الحب، أقسو عليها باسم الحب وأجرحها باسم الحب...

- فضلت حابسها في المزرعة يا يونس، كانت بتطلب منك إنها تنزل

وتعيش حياتها زي أي حد، بس إنت بقى وجودها جنبك دا أمر واقع مستحيل تغيره، كانت كل يوم بتكلمني وهي لوحدها وتعيط بالساعات، كانت بتحبك وكانت بتكره حياتها بسببك، قبل ما ياسمين تموت بيوم واحد كلمتني وقالت لي إنها حاسة إن النهاية قربت أوي، كنت مرعوبة عليها وعايزة أطمنها بس ما عرفتش... كل اللي عرفته بعد كدا أو اللي قدرت أوصل له إنك لما روحت البيت اليوم دا لقيتها واقعة جوه البير... التقارير كلها بترجح إنها داخت ووقعت... دلوقتي فرصتك عشان تقول الحقيقة...

- أنا ما قتلتش ياسمين... مستحيل أعمل كدا

- إيه اللي حصل اليوم دا يا يونس...؟

- رجعت من الشغل... لقيت ياسمين لمت هدومها ومستنياني عشان تقول لي إنها هتمشي ومش راجعة، فضلت أتكلم معاها كتير بس هي كانت رافضة إنها تسمعني، طلعت تجري، مسكت إيدها وقلت لها إني بحبها، طلبت منها إنها ما تمشيش وتسبني، فضلت تزعق فزقيتها، اتخبطت رجلها في البير ووقعت جواه، لما خرجتها كانت ماتت...

- قتلتها عشان تعبت من العيشة معاك...

- ما قتلتهاش... والله كان غصب عني

- عارف يا يونس... أنا لما رجعت وقررت إني أنتقم ليها... إديتك فرصة بجد وفي أوقات كتير كنت بشوفك إنسان بجد، بس إنت دايمًا بتحب نفسك أكتر من أي حاجة تانية، مشاكل يونس وأحلام يونس وكوابيس يونس... يونس عمره ما حب إلا يونس. حتى لما قرر إنه يعالج حد بجد... قرر برضه إنه يسمع ليونس وخلق له شخصية شريف عشان مايحسش إنه مختل...

- أنا حبيتك... وانتي خنتي...

- إنت لسه مقتنع إني خنتك يا يونس؟ يونس كل دي هلاوس جوه خيالك! ! أنا خليتك تشوف اللي أنا عايزاك تشوفه! ! حاتم نور صاحبي

وأخويا من زمان، أنا اللي أقنعتك إني بحبه وأنا اللي قلت له يجيلك العيادة ويعمل فيها مريض، كل دا كان ترتيبي...

- أول مرة آخد بالي إن عينيكي تشبه عينيها...

- إنت حبيتني عشان كنت بفكرك بيها يا يونس

ابتسمت لها في ذهول وصفقت لها، صفقت لهذا العقل المدبر العبقري، صفقت لها على هذا الدهاء والمكر، صفقت لها لأنها حاربتني بنفس أسلحتي...

- عيشتي معايا الكام سنة اللي فاتوا دول عشان تاخدي حق أختك؟ أختك اللي أنا ما قتلتهاش...

- تقدر تقول كنت بوفيها حقها، كفاية إني كنت بعيدة عنها سنين، كان سهل إني أعمل أي شيء يوجعك أو حتى أخلي حد يقتلك، بس أنا قلت أخليك تعيش في كوابيس وانت صاحي يا يونس، تشوف نفسك وانت بتخسر كل حاجة قدام عينيك، الأول شغلك وبعدها قلبك وبعدها عيادتك ودلوقتي عقلك اللي مافضلش فيه كتير

- إزاي ماخدتش بالي... ازاي خبيتي كل دا جواكي وانتي في حضني؟

- سر التلاتة سر الجميع يا دكتور... و شكرًا على إنك اتنازلت عن كل حاجتك ليا، أدوية الهلوسة دي عظيمة بصراحة، البيت والعيادة والعربية... بس ما تخافش أنا هفضل أدفع لك فلوس المصحة... وخارجتك كان عليا قريب أوي...

اقتربت مني وابتسمت في انتصار، وقفت أمامها وانحنيت لها في تبجيل، نظرت في عينيها وشبح ابتسامة يظهر على وجهي، تذكرت في تلك اللحظة كل ما مر بي وبها في قصتنا الحزينة، أحداث تمر أمامي مثل شريط السينما، فيلم سينما مدته عدة سنوات، لا استراحة به ولا وقت مستقطع لالتقاط الأنفاس من الأحداث المتلاحقة، أتذكر فنجان القهوة اللعين

والذي بدأت كل تلك القصة معه، أتذكر ابتسامتي الراحلة وضحكتي التي لاقت حتفها منذ فترة، أتذكر حتى ياسمين، النسخة الأصغر والأنقى والأطهر من حنين، احتضنتها رغم كل شيء كأني أودعها الوداع الأخير.

ضممتها إلى صدري وأنا أغني لها في حزن، تلك الأغنية التي غنيتها لها يوم زفافنا

"ع الشط استنى رايحة فين، دا أنا ليكي بغني غنوتين، غنوة عن الآهة والحنين، وغنوة لعينيكي يا حنين"

أخرجت من جيبي القلم الرصاص الصغير الذي أرسم به في غرفتي وطعنتها به في رقبتها الجميلة، سقطت على الأرض تنظر لي وهي غير مصدقة والدماء تنبثق من عنقها، تلك المرة الدماء حقيقية تمامًا، والتي لم أقتلها لكونها خائنة، أقتلها الآن لعشرات الأسباب...

أنظر إلى آخر الغرفة، أراه جالسًا في سعادة وينظر إلي في فخر، ابتسمت له وأنا أمسح الدماء من على وجهي

- كنت عارف إنك مش هتسيبني

- احنا قدرنا واحد يا يونس... ملناش غير بعض

***

خرجت من الغرفة وكل جزء مني مغطى بالدماء، القلم ما زال في يدي وقد تحول لونه إلى الأحمر الداكن، لابد وأننا في الليل، لا توجد آثار لأي شخص مستيقظ، لا أثر لصوت جهاز الكهرباء ولنحيب المرضى...

كان الهروب من المستشفى أسهل مما تخيلت، لا حراسة ولا طاقم تمريض مسائي، كم تمنيت أن ألتقي الطبيب البغيض أثناء خروجي، لكان قد تذوق طعم القلم الرصاص في عنقه هو الآخر، لن يموت اليوم ولكن سيكون لديه الكثير ليحكيه ويبرره للشرطة...

- عايز أبلغ عن مصحة شغالة في سرقة الأعضاء البشرية... فاعل خير...

***

بدأت قدماي في التحرر من مرضها في غضون ساعات، يداي تساعداني فأتحرك أسرع، جريت في الشارع ولم يكترث أحد لي، نعيش في مجتمع لا يبالي كثيرًا بالمجاذيب، مجتمع لا يهمه هؤلاء الجالسين على الأرصفة يكلمون أنفسهم ويلقون الحجارة على الناس ويأكلون من صفائح القمامة، أصبحت أشبههم، لم أشعر بنفسي إلا عندما دلفت القطار المتجه إلى أسوان وجلست لأستعيد توازني وألتقط أنفاسي، لم يسألني الكمسري حتى عن تذكرة أو مال، تركني لحالي وأنا أضحك في داخلي...

وصلت إلى أسوان صباح اليوم التالي، قدماي متشققتان بسبب كوني حافي القدمين ومشيت لساعات تحت الشمس الحارقة حتى وصلت إلى مدخل قرية السماحة، رأيتها جالسة أمام منزلها تنظر إلى السماء، انعكاس ضوء الشمس على بشرتها زادها جمالًا وسحرًا، ما زالت جميلة لم يتغير بها شيئًا حتى بعد مرور تلك السنوات، تلاقت أعيننا، أظنها عرفتني حتى بعدما تغير شكلي وحالي، ذقن طويلة وجسد شديد النحافة ولكن عيني لم تتغير، قلبي يريد قبلة الحياة وعقلي يطلب العون والمدد، وهي... حور عين ضلت طريقها في السماء لتصبح هنا أمامي، قامت من مكانها وعيناها معلقتان بي، اقتربت منها، أريد أن ألقي بنفسي في أحضانها ولكن لا بأس، سأنتظر الوقت المناسب؛ لأحكي لها أيضًا عن كل شيء، سأحكي لها عن حنين وقصتنا، سأحكي لها عن مريم وتيا ومشروعهما، سأحكي لها عن ياسمين، و سأحكي لها عن زيتون، سأحكي لها عن الضابط الذي أصبح طبيبًا والطبيب الذي بدأ يتعلم كيف يصبح إنسانًا، سأحكي لها عن الأوائل وعن البدايات...

- يونس باشا... أنا افتكرتك نسيتني...

- بقالي سنين فاهم إني بعرف أطير... ما كنتش عارف إن عصفورة بس اللي جناحتها تقدر تخليني أطير...

- أنا مش فاهمة أي حاجة

- هتفهمي... هحكي لك حكاية طويلة أوي... فضي لي نفسك بقى

- محتاجني قد إيه؟

- يا ريت تفضي نفسك العمر كله...

عزيزي ثيو،

اعلم الآن أنني لست بفينسنت وأن كل تلك الرسائل كتبتها كيونس إلى نفسي ليس إلا، بدأت في التعافي، وجدت نفسي هنا في أسوان، أستعيد حياتي مرة أخرى ، حياتي التي قد نسيتها ووضعتها في صندوق من الجليد حتى تجمدت، لم أعد أستمع إلى أنغام، سآخذ عصفورة الليلة إلى السينما، ستكون هي المرة الأولى لها لتشاهد فيلمًا في دار عرض، فيلم بطله فنان أحبه كثيرًا اسمه حاتم نور، أصبح نجمه ساطعًا للغاية، و لكني أعلم إن هذا لن يدوم طويلًا، سأبقى هنا لبعض الوقت، و لكني سأعود مرة أخرى ، سأعود "يونس باشا شريف المخاوي" مرة أخرى ووقتها سيكون للانتقام مذاق آخر، سأعود إلى تلك المصحة لكشف سرها... أما الآن، سأغرد مع عصفورتي في سماء الربيع...

يونس شريف

عن الكاتب:

- كاتب مصري من مواليد الإسكندرية ١٩٩٢
- تخرج من كلية الإعلام قسم إذاعة وتلفزيون
- حاصل على بكالوريوس الإعلام من جامعة **Bedfordshire** البريطانية
- صدر له ١٠ أعمال أدبية
- يعمل في مجال التسويق والإعلانات كمدير ابداعي ومعد للبرامج
- كتب للتلفزيون (المخبر - راجل و٢ ستات)
- كتب برامج اونلاين (كراكيب - حواديت نص الليل)
- كتب واخرج العديد من الإعلانات
- كتب مقالات في بعض الصحف الإلكترونية
- تصدرت روايته "كوابيس قبل النوم" قائمة الأكثر مبيعا وتُرجمت الى الانجليزية
- تصدرت رواياته في حضرة الموت والسكان الأصليين للقلب قائمة الأكثر مبيعا

صدر للكاتب:

- حنين اضطراري
- آخر أيام آدم
- زي كل سنة
- كوابيس قبل النوم ١ (تُرجمت للإنجليزية)
- كوابيس قبل النوم ٢

- في حضرة الموت

- بتوقيت الفراق

- السكان الأصليين للقلب

- اختفاء السيد ديفينهايم (ترجمة)

- كوابيس قبل النوم ٣

للتواصل مع الكاتب..

http://elrasm-blkalemat.com
FB.com/elrasm.blkalemaat
Instagram.com/elrsmbkalemat
01061419555
http://elrasm-blkalemat.com

عنوان الكتاب:	كوابيس قبل النوم (الجزء الثاني).
المؤلف:	عبد الرحمن حجاج.
الطبعة الأولى:	٢٠٢١.
المراجعة اللغوية والإخراج الداخلي:	Dr.Right
تصميم الغلاف:	إسلام مجاهد.
رقم الإيداع:	2021/3126
الترقيم الدولي:	978-977-6803-11-4

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يُعرِّض صاحبه للمُساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

كوابيس قبل النوم ٢

مصحة الموت الأسود

الجزء الثاني

رواية

عبد الرحمن حجاج

إهداء

إلى الأشياء التي نفتقدها كثيرًا..

إلى كل شيء لم يكتمل..

وإلى ساكِني المَصحّات الذين نُلقِبهم بالمجانين:

أنتم العُقلاء وليس نحن.

إهداء خاص

إلى كُل شخص خَصَّصَ جُزءًا مِن وَقتِه وتفاصيل يومه عشان يقرأ الرواية:

الرواية دي ليك.. للأبد.

المقدمة

انطرِدِي الآنَ من الجدولْ

مُوتِي فالكلُّ هُنَا ماتوا

وأنا اعتدتُ حياتي أَرْمَلْ

واعتدتُ الهَجْرَ بلا سببٍ

وبرغمِ الحيرةِ لمْ أسألْ

وظلَلْتُ أسجلُ أسماءً

وأسطِّرُ خاناتِ الجدولْ

ضُنِّي إحساسَكِ ما شِئْتِ

فأنا مَلِكٌ لا أتوسَّلْ

لا أبكي لفراقِ حبيبٍ، أو أترجّى، أو أتذلّلْ

حَنين جوانا يحكي

وشُوق جوانا يبكي

والدَّمع ساقية كبْت..

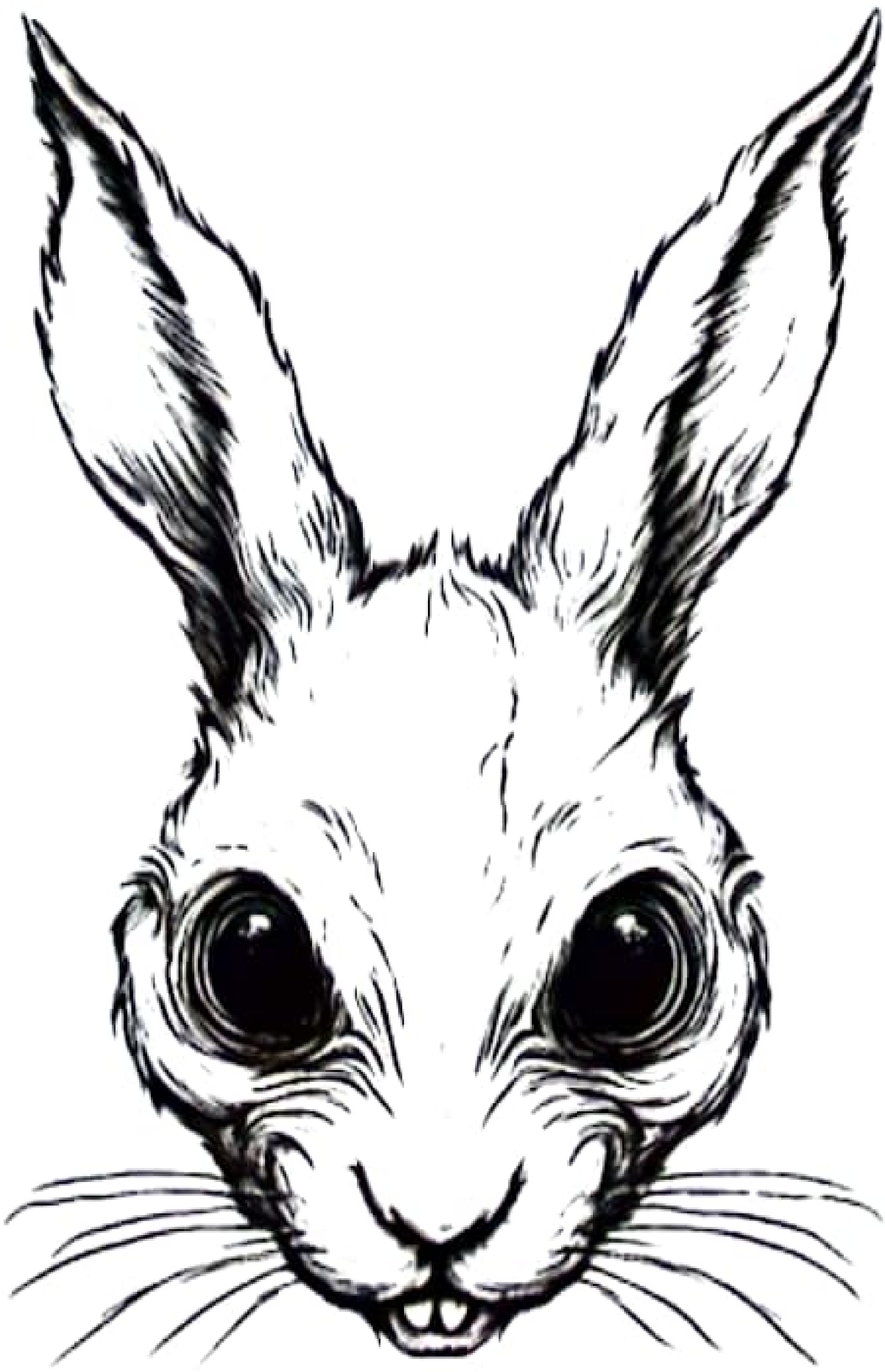

صياحٌ مُتداخل، أصواتٌ كثيرة ما بين نواح وهمهمة تتداخل في رأسي بلا رحمة، لا أستطيع أن أُميّز الأصوات ولا الكلمات، ولكنّها حقًا تُرهقني، تنتزع مني ما تبقّى من روحي. تتشكَّل تلك الأصوات وتأخذ شكلًا بشريًا رغم كونه بعيدًا كُل البُعد عن كونه بشريًا، تمسَّك الأصوات بذراعيّ وتستدرجني إلى غُرفةٍ صغيرةٍ لا هواء فيها، أصوات سوداء كتلك القطة التي كانت تسكن شارعنا في الماضي.

الغرفة لونها يتغير، تتحول الأضواء النيون إلى الأخضر ومِن ثَمَّ إلى لونٍ بنفسجيّ مزعج للعين. أسمع عزفًا شديد القبح للسيمفونية الخامسة لبيتهوفن، يعلو إيقاعُها تدريجيًا بشكلٍ مُخيف ومُقبِض للروح، وكأن الكوابيس كانت مصدر إلهام تلك المقطوعة. أُحاول أن أتماسك، أتكهَّن في عقلي الباطن أنّ كان ما أراه وأسمعه الآن حقيقيًا أم أن كل هذا مِن صُنع خيالي!

الموسيقى تعلو وتتخلّل أوصالي فأستفيق للحظات، أراه أمامي، أراه الآن بصورةٍ كاملة للمرة الأولى؛ بحُلّتِه البالية وشعرِه الأحمر المائل إلى قليلٍ من الاصفرار، يقترب مني وفي يدِه اليُسرى قناع لأرنب كثيرًا ما رأيته في كوابيسي، أمَّا في يدِه اليُمنى فيحمل سكينًا يصوِّبها نحوي.

أصوات الأنفاس تتزايد، ولا أعلم حقًا لمن تلك الأنفاس؛ أهيَ أنفاسي أم أنفاسه هو؟!

- يونس، اِنت لازم تمشي من هنا دلوقتي حالًا.. أرجوك!

- مش هسيبك هنا، إحنا خلاص ما بقاش لينا غير بعض!

- يا يونس، عشان خاطري سيبني وإمشي..

- مستحيل، اِنتِ علمتيني أحبِّك في الوقت اللي ما كُنتش عارف حتى أحِب فيه نفسي.

كانت الصرخة التي تبعتْ الجملة الأخيرة تفوق دَوِيَّ الرعد، سكن كل شيءٍ للحظات، وبعد ثوانٍ معدودة بدأتْ تلك المخلوقات ذات وجه الأرنب تبزغ من باب الغرفة في تدافعٍ عجيب، منهم من يمشي على قدميه ومنهم من يمشي على أربع مثل الكلاب، ملامحهم يصعب رؤيتها من كثرة الدماء التي غطتْ عيني، والآن فقط أستقبل الموت كحبيبةٍ طال غيابها..

القاهرة – 1995.

في ملعب المدرسة الكبير، اجتمع عشرة أطفال لتقسيم فريقين مباراة كرة القدم لهذا اليوم، بينما وقف في أحد أركان الملعب طفلٌ صغيرٌ يبدو عليه الوحدة والحزن، طفل عادي لا يميزه شيء ولا ينقص منه شيء، لا يتحدث إلى أحد، فقط قبع في مكانه يتأمل الآخرين وهم يلعبون ويضحكون غير مبالين لوجوده من الأساس. كثيرًا ما تساءل هذا الطفل عن سبب ابتعاد الجميع عنه، عن شعوره الدائم بأنه غير مرغوب في وجوده من الجميع، يتذكر كل المرات التي حاول فيها التقرب لزملائه ولكنهم دومًا كان ردهم يحرجه ويجرحه. وبينما هو غارق في تفكيره اقتربتْ منه مُدرستُه، نظرتْ إليه بحنانٍ وهي تسأله:

- مالك يا حبيبي؟ قاعد لوحدك ليه ومش بتلعب مع صحابك؟!

أجابها الطفل متلعثمًا في خجلٍ على استحياء:

- هما مش بيحبوني ألعب معاهم.

- لأ، تعالى أنا هخليهم يلعبوا معاك.

أمسكتْ بيد الطفل وأخذتْه إلى داخل الملعب حيث كان الأطفال قد بدأوا مباراتهم. توقفوا جميعًا عن الركض واللعب عندما اقترب منهم، تغيرتْ حتى ملامحهم عندما سألتْ المُدرسة سؤالها للجميع:

- سايبين صاحبكم لوحده ليه ومش بيلعب معاكم؟!

صمتَ الجميع للحظاتٍ احترامًا للمُعلِّمة، ولكن قطع صمتَهم أحد الأطفال، والذي بدا أنه أكثرهم قوة وهيمنة عليهم، كان يُدعي (فكري):

- مش صاحبنا يا ميس.. إحنا بنخاف منه.

- عيب الكلام دا يا فكري! انتم كلكم أصحاب واخوات!

- والله يا ميس دا بيقعد يكلم نفسه.. غريب أوي!

- خليكم كويسين مع بعض قولت!

ابتسمتْ مرة أُخرى إلى الطفل وقالت:

- روح يا حبيبي اِلعب مع صحابك.

أمسك فكري بالكرة في يدِه وهَزَّ رأسَه للمُدرسة بالموافقة، فابتسمتْ لهم وتركتهم.

وفور أنْ غابتْ عن الأنظار، نظر فكري إلى الطفل الوحيد وألقى الكُرَةَ في وجهه، فسقط على الفور والدماء تنبثق من أنفه، ووقف جميعهم يسخرون منه وهو مُلقى على الأرض حزينًا، مختلطة دموعه بدمائه. حاول الطفل أن يقف ويُلملم ما تبقَّى من

كرامتِه ويرحل، ولكن فكري لم يُمهله فرصة وركَله في معدتِه وهو ينظر إليه بكل تحفّظ وسخرية قائلًا:

- ابقى خلّي العفاريت اللي بتقعد تتكلم معاهم ينفعوك.

***

في المساء، جلس الطفل في غرفتِه الصغيرة يبكي حزنًا على ألمِه ووحدتِه، يتساءل بينه وبين نفسه:

"ماذا لا يُحبه الأطفال الآخرون؟!".

هو ليس مخيفًا مثلًا أو غريب الأطوار، قد يكون هادئًا أكثر من اللازم، ولكن هذا لا يجعله غريب الأطوار.

قام من فراشِه بعدما فرغ من البكاء، وقف أمام المِرآة بغرفتِه يتأمل هذا الجرح بأنفِه والذي قال لأهله أنه بسبب تعثرِه على سلَّم المدرسة.

في أحد أطراف غرفته وقف شخصٌ يرتدي عباءة سوداء غطتْ كل جسده ووجهه، مُجرد توهج يشبه كُتل النار تتحرك مكان العين. لم يظهر على الطفل الاندهاش لوجود هذا الشخص، نظر إليه وأكمل تأمله لأنفِه. اقترب الشخص الملثَّم من الطفل حتى أصبح خلفه مباشرةً وبدأ التحدُث بصوتٍ أشبَه إلى الفحيح:

- ما تزعلش.. مش كل الناس هيحبوك.

- أنا مش عايز كل الناس تحبني، أنا بس عايزهم ما يضيقونيش!

- أوعدك إن دا مش هيحصل تاني.. أبدًا.

- يعني إيه؟!

- أُدخُل نام بس وارتاح وبكرة نبقى نتكلم في الموضوع دا.

ظلَّ هذا الكائن ثابتًا بجوار فراش الطفل حتى تأكَّد أنه غَطَّ في نومٍ عميق، وبعدها اختفى تمامًا من الغرفة.

في صباح اليوم التالي، وقف مدير المدرسة والخوف يتملَّك من صوته وأنفاسه، ينعي وفاة 10 أطفال توفوا بالأمس في منازلهم، كل واحد منهم بطريقةٍ مختلفة. 10 أطفال كانوا يلعبون كرة القدم في المدرسة بالأمس، أحدهم وُجد محروقًا بالكامل في غرفته، وآخر وُجد مشنوقًا في شرفتِه، والثالث وجدتْهُ أُمّه مخنوقًا في دورة المياه وقد تحوّل لون وجهه إلى الأزرق، كل واحدٍ منهم مات بطريقةٍ مختلفة والشيء الوحيد المشترك بينهم هي نظرة الرعب التي اعتلتْ وجوههم عندما تم العثور عليهم.

وقف الطفل المُصاب في الطابور يستمع لما حدث لزملائه المتنمرين ومِن ثَمَّ نظر خلفه إلى شيءٍ لا يراه سواه، وقال له بصوتٍ خافتٍ أقرب إلى الفحيح:

- ما كانش لازم تموّتهم يا زيتون.. ما كانش لازم تموّتهم!

الفصل الأول

يونس يولد من جديد

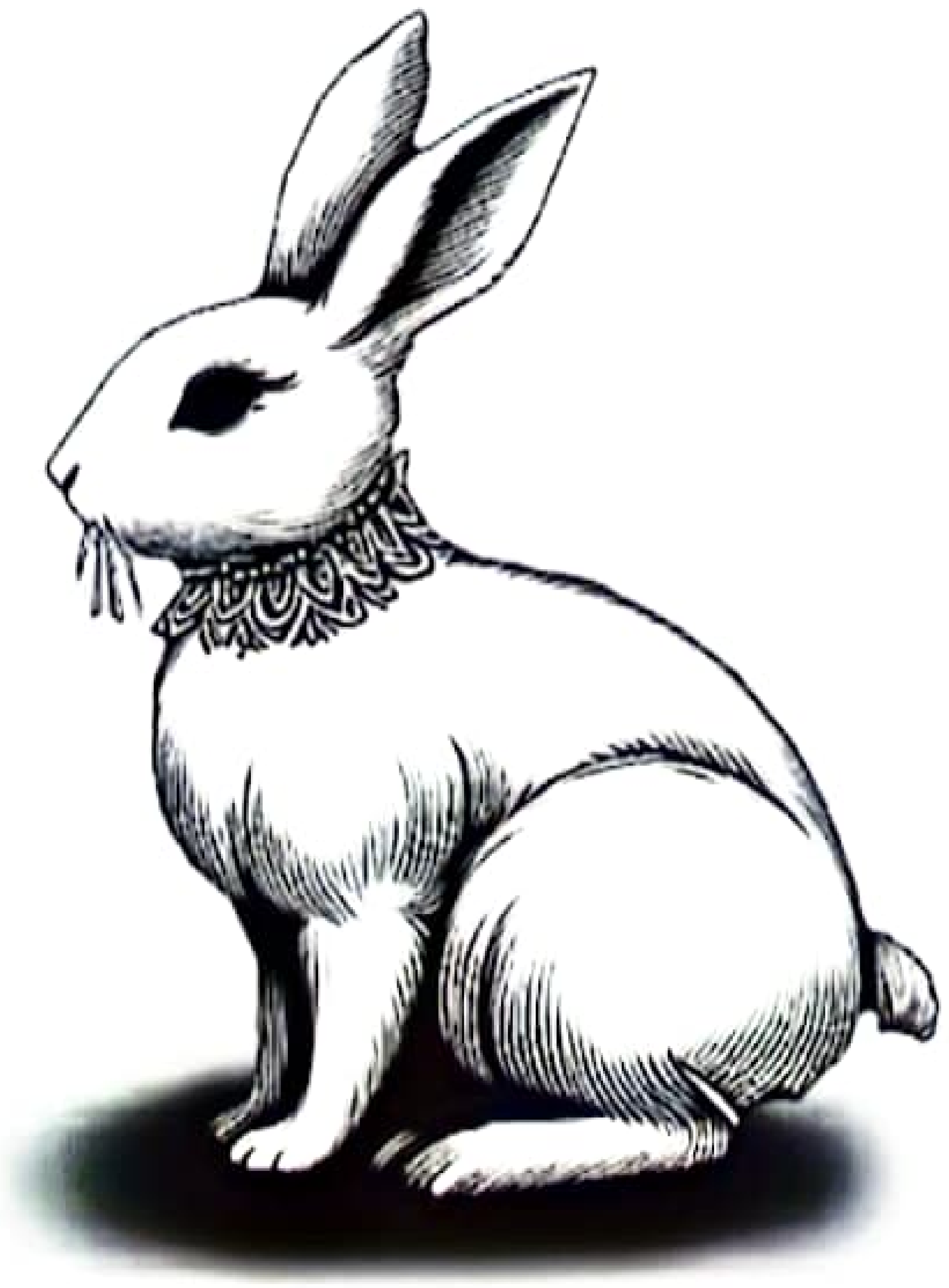

أسوان – 2020.

أطلُ برأسي من الشرفة، السماء تبدو قريبة من الأرض اليوم؛ أشعر بأني إن بذلتُ بعض الجهد سوف ألمِس السحاب بيدي. أنظر إلى شمس المغرب بلونها الأحمر العنيد بينما هي تغوص في أحضان النيل في سعادة وتجلّي، أرتشفُ بعض الشاي المطعّم بالقُرنفل مستمتعًا بهذا المنظر الخلّاب الخالي من الصَخَب، بينما جلس على مقربةٍ من البيت بعض الشباب يعزفون الربابة ويتغنّون ببعض الأغاني النوبية المُحبَّبة إلى القلب بصوتٍ عذب.

أعود إلى داخل المنزل بعدما ينتهون من غنائهم لأجد التلفاز يعرض فيلمًا جديدًا للفنان (حاتم نور)، أُمعِنُ النظر في ملامحه -والتي استطاعتْ بهذا الوجه البشوش أن تخدعني- ولكن، مَن مِنَّا لا يُمكن خداعه؟!

كل شيءٍ الآن تتخلَّله الفرحة ويفوق الكمال بمراحل كثيرة؛ الطفل الجبان الذي تعرض للتنمر كثيرًا في طفولته أصبح بعد خمسةٍ وعشرين عامًا من الواقعة شخصًا أكثر سعادة، أصبح يونس جديد، يونس الذي نسيَ مَن تنمَّر على جسده مثل (فكري) ونسيَ

مَن تمر على قلبِه مثل (حنين). ولكن، هل نسيتُها حقًّا أم أنني أتصَنَّع النسيان كي أمضي إلى الأمام في حياتي؟!

في الواقع، أنا لا أريد أكثر من هذا، مِن الذي أعيشه الآن.

ستة أشهرٍ مرُّوا مرور السحاب في يومٍ مُلبَّدٍ بالهواء والأعاصير على موت حنين، الشعيرات البيضاء في رأسي زادتْ قليلًا، أصبحتُ أُفضِّل هَيئتي باللحية. قالت لي عصفورة أنها تُعطيني هيبة كِبار السِّن وجمال الشباب.

كنت قد فوضتُ (عم أباظة) في بيع كل ممتلكاتي بالقاهرة، سواء المنزل أو العيادة وحتى السيارة، تحدثتُ إلى أختي يارا ومريم ابنتها وأخبرتهما أنني قد سافرتُ إلى خارج مصر لمشروعٍ أقوم به، وأنني سأتصل بهما فور عودتي. قررتُ أن أقطع صِلتي بالماضي كُلّه؛ اشتريتُ منزلًا جميلًا في أسوان يطل على النيل، منزل تدخله الشمس طوال اليوم من جميع الاتجاهات، ألوانه وزخارفه يُشعرونك بالسعادة كأنك تحيا بداخل لوحةٍ فنية لرسامٍ نُوبيّ مُخضرم لم يعرف في حياتِه سوى الفن والبراح والسعادة، حتى أنني علقتُ (الدريم كاتشر) به لأتذكر الماضي الذي لا أريد له عودة.

- تفتكر البتاعة دي بتمنع الكوابيس فعلًا يا يونس!

- آهو يا ستي على الأقل تأجلها شوية حتى لو مش هتمنعها.

عُرِف عن أسوان قديمًا أنها (مدينة الإله خنوم)، والذى قيل عنه أنه يخلق البشر من خلال عجلته الخاصة بصناعة الفخار،

ويُشكِّل الأطفال الصغار من طَمي النيل المتوفر في أسوان ويضعهم بعد ذلك في أرحام أُمهاتهم، وكان يقضي معظم أوقاته بمنطقة الشلال بجوار معبد الفيلة. كل أساطير تلك المدينة كان مصدر إلهام إلى قلبي وروحي التي أدركتْ معني البراح بعد سنواتٍ طويلة من تلك الأصفاد التي حبستْني في أحراش الموت، تيقنتُ أنني لم أشعر بالسعادة من قبل في حياتي بدون عصفورة، كل ما يهمها ويشغل بالها هو سعادتي، أحيانًا تبقى صامتة لا تتحدث، أحيانًا تشرد بخيالها، وأحيانًا تكون ابتسامتها مصدر إلهامي وسعادتي، أقضي معها معظم أوقاتي وساعات يومي، نتقاسم السعادة والساعات. المهنة الوحيدة التي أقوم بها منذ أشهر هي مهنة الاسترخاء مع محاولات عديدة فاشلة للنسيان، نسيان الماضي، ونسيان الألم، ونسيان الحنين. أشعر ببعض الغرابة و التخبّط عندما أتذكر أن تلك المدينة شهدت بداية حياتي مع حنين في الماضي، ولكنني سرعان ما أتناسى هذا وأضع كل تفكيري وأحلامي في جعبة عصفورتي ذات الجناحين.

الصيد أصبح من عاداتي الجديدة، أجلس في إحدى البقع الجميلة بغرب سهيل، أحتسي بعض القهوة التي تعدها لي عصفورة في كوبٍ حراري، لا أكترث للسمك قدر اكتراثي للسلام في مجلسي، أرتدي الجلباب النوبيّ المريح، أُريح ظهري على صخرةٍ حنونة وأترك للسنارة باقي العمل، أجتلس الحصير وأبدأ في مراقبة المارة وأنا أقوم بهوايتي المفضلة على الإطلاق (تحليل الأشخاص من أشكالهم)؛ أتأمل وجوههم وحركاتهم وأبدأ في تخيّل قصة كل واحد منهم، أُحللهم في سرِّي وأبني قصصًا

وروايات. هذا الرجل على سبيل المثال أعتقد أنه فقد شخصًا عزيزًا عليه منذ وقتٍ قريب، الحزن يبدو حتى على طريقتِه في السَّير. هذه السيدة على الأغلب تنتظر خبرًا مُهمًّا، يبدو عليها القلق ولكنه قلق لا يشوبه أي حُزن. أتأمَّل الناس لساعاتٍ وساعات، وفي الواقع أنا مَن يريد أن يتأملني!

تلك البقعة مِن النِّيل تُذكرني بكوبري (ستانلي) كثيرًا، البحر، الذكريات والأغاني التي أَتردَّد كثيرًا قبل الاستماع إليها. تلك البقعة تذكرني بـ (أنغام) وأغنياتها.

أغمضتُ عينيّ وتذكرتُ يومَ ذهبتُ أنا وحنين إلى الإسكندرية، جلسنا نحن الاثنين فوق حقيبة سيارتي نتأمل الغروب، تشاركنا سماعات هاتفها بينما نستمع إلى playlist كانت خليطًا من أغاني أنغام وموسيقى عمر خيرت، وما زال عقلي الباطن يُدندن تلك الألحان في أسى أحيانًا...

- انتَ بقيت بتسمع أنغام أكتر مني!

- أنا حبيتها عشان اِنتِ بتحبيها.

يوم الجمعة من كل أسبوع نقضي اليوم كله في بيت الجدة (ونجي)، الجدة ونجي هي آخر شخص على قيد الحياة من عائلة عصفورة، سيدة نوبية جميلة عمرها يقارب التسعين عامًا، ولكنها ورغم طعونها في العمر إلا أنها شديدة الذكاء والحكمة، صلبة كالجبال والجميع من أهل النوبة يذهبون إليها لحل مشاكلهم ومساعدتهم في شتى أنواع الأزمات.

اسم (ونجي) يعني (النجمة) باللغة النوبية، وبالفعل هي كانت نجمة ساطعة في سماء غرب سهيل، لم أذهب يومًا إلى منزلها إلَّا وأجد العشرات من الضيوف لديها يستشيرونها في مشاكلهم وأمور حياتهم، أو حتى يتناولون الطعام في بيتها الفسيح. لديها الكثير من التماسيح، يعيشون في منزلها كما يعيش الكلاب والقطط في منازلنا، لكل تمساح منهم اسم وشخصية خاصة به، فقط ونجي من تستطيع التعامل معهم، بل وفي بعض الأحيان تستطيع التحدث مع هؤلاء التماسيح!

أُحبها وأحترم حكمتها رغم كونها لا تقرأ أو تكتب، ولكن خبرتها الحياتية فاقتْ الكثير من العلماء والفلاسفة.

- صباح الفل يا جدة ونجي!

قلتُها بعدما قبلتُ يدها. لم أكن من الأشخاص الذين يُقبِّلون أيدي أي أحد ولا حتى أهلي في الماضي، ولكنني أحببتُها بصدق، أحببتُها كأُمٍ لم أعرف حنانها من قبل.

- إزيَّك يا يونس يا حبيبي؟ حزَّر فزَّر النهاردا طبخالكم إيه!

أجبتُها وأنا أُمازحها ضاحكًا:

- إوعي تكوني شَويتِ تمساح من تماسيحِك!

أمسكتْ بواحدٍ من تماسيحها وقرَّبتْه إلى صدرها كَمَن يحمل قطة وقالت بِانفعالٍ لا يخلو من المزاح:

- لا، كله إلّا تماسيحي. أنا عاملالَك (ويكا نوبي) تاكل صوابعك وراها، وبعدها شوية كركدية متلّجين.. حاجة آخر دلع.

- والله يا جدة اللي بتعمليه معايا دا كبير أوي.. ربنا ما يحرمني منك!

- أنا حبيتك الأول عشان عصفورة بتحبك، بس دلوقتي بحبك كأنك ابني تمام.

كان يومًا جميلًا حقًا، اليوم معها مليء بالسعادة والحب الذي طالما افتقدتُه في حياتي لسنوات؛ أَنظر حولي فلا أرى غير الحب، الجدة بحكمتِها وطِيبة قلبها، وعصفورة ببراءتها وبساطتها، ومعارف وأصدقاء الجدة الذين لا تعرف قلوبهم سوى الحب، يومًا أصطاد لهم بعض السمك، ويومًا يعدُّون لي زجاجةً من عصير القصب الذي أُحبه؛ أُناس بُسطاء لا يحملون في طيّات روحهم سوى الحب، ولا شيء آخر.

في أعوامي السابقة، نزعت الحياة مني فيشة السعادة، انقطع عني كل ما قد يجعلني سعيدًا، انقطع عني كل ما قد يجعلني إنسانًا، ظننتُ يومًا أن السعادة تجسدَتْ في (حنين)، وكم كنتُ مُخطئًا غبيًا في ذاك الوقت.

الكثير من الناس أكبر أحلامهم فتاة رائعة الجمال تشاركهم حياتهم والكثير الكثير من الأموال أو السُلطة، وأنا قد رأيتُ وتمنيتُ تلك الحياة في يومٍ من الأيام؛ تجرعتُها حتى فقدتُ غريزة العطَش، اِلتهمتُها حتى ما عدتُ قادرًا على تناول الطعام مرة أخرى. تلك الحياة التي تحلمون بها لاشيء بها.. لا شيء على الإطلاق!

الأيام تمُر والأسابيع، وقد أقسمتُ لعصفورة أني لن أعود إلى بحور الماضي مرةً أُخرى، أقسمتُ أن أعيش معها حياةً طبيعية، أقسمتُ كثيرًا حتى ما عدتُ أُصدِّق نفسي، ولكنني يجب أن أُحافظ على هذا القسم.

طالما أقسمتُ كثيرًا في الماضي وكانت النتيجة غير مُرضيَة لي على الإطلاق. في الماضي أقسمتُ أن أُصبح طائرًا فسقطتُ، أقسمتُ على أن أكون مُحاربًا فخسرتُ، أقسمتُ على أن أُصبح وحشًا أُسطوريًا أنفث النيران وأحرق كل شيء فأحرقتُ نفسي بنفسي، حتى حينما أقسمتُ على أن أُصبح دودة قَز تتشرنَق لتُصبح فراشة، حطمني الناس قبل أن تخرج لي الأجنحة وأطير بعيدًا عنهم.

الجدة (ونجي) كانت تفهمني، تشعر بحزني إذا تذكرتُ أحداث الماضي التي حكيتُها كلها لها بلا تردد، تشعر بكل ما يدور في عقلي وقلبي، تشعر بكل شيء؛ الألم، الخوف، الغضب وحتى اللا منطق الذي أعيشه، ترى بداخلي ما لا أراه في نفسي من شغف، قوة، طيبة وصفاء.

ذات مساء، جاءتْ مُتكئة على عصاها العجوز، جلستْ إلى جانبي وقالت في حنان:

- يونس!

- تحت أمرك يا جدة ونجي! محتاجة أي حاجة؟!

أمسكتْ بيدي وقالت:

- فلتل ملي نوبري من.

لم أفهم ما قالته، مطيتُ شفتيّ فابتسمتْ وتذكرتْ أنني لا أتحدّث اللغة النوبية.

- يعني مش كل اللي بيلمع دهب يا يونس، وإنتَ مش مُغفَّل ولا عبيط عشان تمشي ورا حاجة لمعتها كدابة. مش عايزاك تمشي ورا وهم وتندم على صفحة اتفتحت تاني بعد ما قفلتها.

- ما تخافيش عليا. صدقيني ساعات بنمشي ورا الحاجات وإحنا عارفين إنها مش دهب، بس بنمشي وراها عشان نرتاح في الآخر.

كل شيء في حياتنا كان جميلًا لا يشوبه حزن، حتى زيتون توقف عن الظهور منذ تزوجتُ بعصفورة، ومع مرور الوقت في حياة الناس ينسون، أو يتناسون، ولكنني لم أنسَ!

لم أنسَ مجلسي في تلك الغرفة المخيفة لشهور، لم أنسَ جلسات الكهرباء وأشكال التعذيب التي رأيتُها، لم أنسَ تلك الأصوات إن كانت لأطفالٍ خياليين كانوا أو حقيقيين أو عَجَزة ينوحون كالفئران في المصيدة يتعذبون ويتألمون، لم أنسَ هذا الطبيب الذي كان يتلذّذ لرؤيتي أتألم وأتعذّب، لم أنسَ آخر مرة زارني فيها زيتون، كان في تلك الليلة التي قتلت بها حنين، ظل يُشجعني ويدفعني لأُقدم على فعلتي، ظل معي حتى خرجتُ من المصحة، ظل معي حتى استقلّيتُ القطار، وفي اللحظة التي شعر فيها زيتون أنني عبرتُ إلى بر الأمان اختفى ولم يعد من وقتها، أما أنا لم أنسَ أنّه وجب عليَّ الانتقام، وأن السعادة التي أعيش فيها الآن ليستْ إلا فترة وسأعود مرة أخرى إلى كوابيسي، وأني شئتُ أم أبيتُ

سيعود إلى حياتي هؤلاء المقنعون ذوي وجوه الأرانب.

منذ أيام أو ربما أسبوع وأنا يراودني نفس الكابوس يوميًا في نومي؛ تستيقظ فتاة عشرينية في منتصف الليل مذعورة وخائفة من شيءٍ ما، تتحرك مثل المجاذيب وتتجه لا إراديًا نحو سلّم عتيق، تصعد درجاته بسرعة يشوبها الخوف، ويتصاعد من أخشاب السلّم صريرٌ مُزعج لا يكترث له أحد، في الأغلب صرير أرواحهم المظلمة يعلو كل شيء!

لم تتوقف قدميها عن الحركة حتى وصلتْ إلى سطح المبنى، نظرتْ إلى أسفل في حزن، نظرتْ إلى الموت الذي رأتْه يبتسم لها في رضا، وبينما دقتْ الساعة العتيقة مُعلنة انتصاف الليل، أغمضتْ عينيها وألقتْ بنفسها بلا تلجلجٍ ولا ارتباك لتسقطت جُثَّةً هامدة تَسيل من جسدها الدماء بلا رحمة.

أرى نفسي في الحلم أقترب من جثتِها، أجثي على ركبتيّ إلى جانبها، تقترب يدي من وجهها، أتفقدها فتفتح هي عينيها على مصراعيهما وتقول: "اِلحقني يا يونس!".

في نفس اللحظة أستيقظُ أنا من نومي مفزوعًا والعرق ينهمر مني، أبحث في الظلام عن مفتاح الأباجورة لأقوم وأتناول بعض الماء، أشعر بيد عصفورة من خلفي تمسك بي وتُهدئني في حنان:

- يونس! مالك يا حبيبي؟!

- مافيش حاجة.. كملي نوم يا عصفورة.. أنا تمام.

- نفس الحلم برضه؟ البنت اللي بتنتحر!

- مش حاسس إنه مجرد حلم، حاسس إني شوفتها قبل كدا بس مش قادر أحدد فين ولا إمتى!

- نام وارتاح وبكرة اِبقى فكَّر على مهلك.

- حاضر. تصبحي على خير حبيبتي.

أيام وأسابيع تمُر وأنا تائهٌ في أفكاري، أُفكِّر في الخطوة القادمة، أُفكِّر في خطة عودتي إلى المصحة؛ الطبيب يشغلني، فتاة الحلم تشغلني، أشعر بأشياءٍ تجذبني إلى هذا المكان ولا أعرف تحديدًا ما هي!

أثناء هروبي وتحرري من حبستي، لم أنسَ أن أتذكَّر جيدًا مكان المصحة، رغم الإعياء والصدمة إلا أنني قد أرسم خريطة ذهاب وعودة لهذا المكان اللعين، وقد فعلتُ، في الفص الصَّدغي من المخ، أو ربما يكون زيتون هو مَن فعل هذا!

ربما تكون المشكلة ليستْ في رغبة الانتقام، قد تكون بسبب الملل، بسبب جلوسي في هذا الهدوء الذي لم أعتَد عليه أبدًا في حياتي، حياتي التي طالما كانت مليئة بالمغامرات من بدايتي كضابط وحتى أصبحتُ طبيبًا نفسيّ.

في صباح أحد الأيام، وبينما أنا جالسٌ أمام النيل أحتسي بعض الشاي، اقتربتْ مني عصفورة والسعادة مرسومة على وجهها المشرق، قبَّلْتني وجلستْ إلى جانبي وقالت:

- عندي ليك مفاجأة!

نظرتُ إليها بنفس النظرة المللولة التي تُسيطر على وجهي، أُحاول

أن أصطنع الاهتمام قائلًا بربع ابتسامة:

- خير؟!

لم يظهر عليها تأثرًا بروحي الباهتة وقالت بنفس الحماس والسعادة التي طالما تميزتْ بهما:

- لا، مش هينفع أقولك.. قوم تعالى معايا أوَريك!

استقلّينا سيارة أُجرة إلى شارعٍ قريبٍ من سوق أسوان، مشينا في شارعٍ شديد الجمال مليء بالبزارات والمحلات السياحية. تبعتُها كالمجذوب حتى دخلنا إلى إحدى البنايات الراقية، صعدتُ خلفها إلى الدور الثاني وأنا ما زلتُ لا أفهم أي شيء، حتى استقرتْ عينيّ على لافتة جميلة كُتبتْ بخط اليد أمام إحدى الشقق مكتوب عليها:

"دكتور يونس ليل - طبيب نفسي".

- إيه دا؟ أنا مش فاهم حاجة!

- فاكر الفلوس اللي طلبتها منك من فترة وقولتلك هنزل السوق أشتري لبس؟ بصراحة أخدتهم منك عشان أدفعهم لصاحب العمارة اللي هتبقى فيها عيادتك الجديدة كمُقدم إيجار. مبروك عليك يا حبيبي!

اندهشتُ قليلًا لطريقة تفكيرها والتي لم تكن متوقعة من شخصٍ بسيطٍ مثل عصفورة، وأجبتُها وأنا ما زلتُ غير مستوعبٍ تمامًا:

- ما كانش لازم تتعبي نفسك يا عصفورة! وبعدين مين قالك

إنّي كنت عايز أرجع تاني أشتغل في الطب النفسي؟

ابتسمتْ لي في حنانْ وقالت وهي تُمسك بيدي:

- يونس، أنا عارفة إنك زهقان، ودا طبيعي.. وعارفة كمان إنك بتحب شغلك جدًا. اعتبرها بداية جديدة.. أنا عارفة إنك قدها، ولو ما ارتحتش نقفل العيادة، إحنا مش ناقصنا فلوس..

في الواقع، عملي كطبيبٍ نفسيّ يجذبني مثل النداهة، اشتقتُ إلى القصص والمرضى، اشتقتُ إلى كوني أنا رغم كل شيء. الأزمة ليستْ في كوني شخصًا **expired** بل في كوني على رفِّ الصالحين، أخاف أن أُفسدهم، أخاف أن أُوذيهم، أخاف أن يراهم الناس معي فيظنوهم مثلي، أرى نفسي وباء لا علاج له، مرض لم يُخلَق له ترياق على وجه الأرض، وأشد أنواع الأمراض هي التي لا نراها بالعين المجردة، الأمراض التي ليس لها رائحة ولا سابق إنذار قبل أن تفتك بالمريض. أرى دومًا نفسي العدو الأكبر لي، أنا مَن سمحتُ لمَن لا يستحق بأن يسكن قلبي، أنا من عشتُ كفيفًا وأنا أرى، أنا مَن عاشَ في ألمٍ متجددٍ من الغرقِ بينما اليابسة على بُعد خطواتٍ مِنّي.

بدأتُ في تجهيز العيادة بحماسٍ لم أعهده من نفسي، قررتُ هذه المرة أن أشتري (شيزلونج) كنوعٍ من التغيير، حاولتُ أن أبتعد عن لوحات (فان جوخ) ولكنني وجدتُ نفسي -لا إراديًا- أشتري لوحات لرسوماته، وفوق مكتبي بالعيادة استقرتْ لوحة (ليلة النجوم) لفينسنت. كثيرًا ما توقفتُ أمام تلك اللوحة محاولًا أن أفهمها وأن أفهم ما وراءها؛ اللوحة بها حركة كبيرة وسكون

في نفس الوقت، حركة ضربات فرشَتِه الدائرية والحلزونية وسكون المدينة بخطوطها الحادة وأنوارها البسيطة، وكأن آكِلوا البطاطا في بيتٍ من البيوت، أيضًا الألوان لها دور في التناقض، مثلًا ألوان السماء المضيئة وألوان المدينة القاتمة، الرابط بين السماء والأرض (شجرة السرو) بخطها الرأسي وضربتها المُنحنية، شجرة السرو بالنسبة لي هي رمز للموت، وفان جوخ كان يرى أن الموت هو القطار للوصول إلى النجوم المضيئة، وهذا من أسباب اعتبار الأطباء بمثابة رسائل انتحار.

كم أكرَه تحليلي لكل شيء!

أحيانًا أرى نفسي أُشبِه لوحة ليلة النجوم، وأحيانًا أخرى أرى نفسي معاناة فينسنت وألمه.

أسبوعان وكانت العيادة مستعدة لاستقبال الحالات. في يوم الافتتاح حضرت الجدة ونجي و قرأت بعض آيات القرآن لتبارك المكان، وفي السابعة مساءً دلفَ إلى العيادة ثلاثة وجوه كنتُ بالفعل أشتاق إليهم، (تيا) صديقة (مريم)، ومريم ابنة أختي، وأخيرًا أختي الكبيرة يارا.

تيا بدتْ أكثر إشراقًا وسعادة، الانتقام يُريح في بعض الحالات. مريم كما هي بسيطة وهادئة، ويارا بدا عليها عدم الارتياح رغم نظرة الاشتياق في عيونها. يارا تشبهني كثيرًا، أقصر بعض الشيء، تميل إلى الطابع الكلاسيكي في ملابسها، شعرها قصير، عيونها حادة رغم كونها شديدة الطيبة إلا أنها تعطي الناس انطباعًا أوليًا بغير ذلك.

- كنت حاسس إنكم مش جايين!

- والله تصرفاتك دي هتموتني في يوم يا يونس.

- ليه بس يا حبيبتي؟!

قلتُها بشيءٍ من السُخرية، أعلم أن يارا تعاني من تصرفاتي منذ نعومة أظافري.

- ليه بس يا حبيبتي!

- قالتْها مُقلدة صوتي..

- تختفي شهور وماعرفش حاجة عنك من ساعة مشروع التخرج بتاع مريم وتيا، وبعدها تكلمني تقولي أنا سيبت حنين، وبعدها أنا اتجوزت وعايش دلوقتي في أسوان؟ هو انت مش ليك أهل بيخافوا عليك؟!

- معلش يا حبيبتي، من إمتى يعني وأنا تصرفاتي طبيعية؟! تعالي أعرفك على عصفورة... عصفورة، دي يارا أختي..

كان يومًا هادئًا، تعارف الجميع وقد ارتاح قلبي لما تحسَّستُه من قبول وتفَهم بين يارا وعصفورة، إلّا أنني رأيتُ شيئًا من عدم الارتياح في عيون أختي. يارا هي من ربَّتني بعد وفاة والدينا، هي مَن اهتمتْ بي وعلَّمتْني كل شيء، أدين لها بكل شيء.

أتذكَّر يوم وفاة والدتنا، كنتُ تقريبًا في السادسة عشر من عمري، يومها احتضنتْني يارا -والتي كانت وقتها تبلغ من العمر الثالثة والعشرين عامًا- ونمتُ بين ذراعيها كطفلٍ رضيع، هي

أمانيَّ ودُنيتي مهما بعدتُ عنها واختفيتُ لفتراتٍ طويلة.

سألتْني عن حنين وأخبرتُها أنها طلبتْ الطلاق وذهبت إلى حال سبيلها. في الواقع هي تحمل في جعبتِها الكثير والكثير من الأسئلة التي تريد طرحها عليَّ، ولكنها في الأغلب تُشفِق عليَّ ولا تريد أن تكسر فرحتي بحياتي الجديدة والربيع الذي زار حياتي أخيرًا بعد ليالِ الشتاء الطويلة.

تمسَّكتْ عصفورة ببقاء يارا ومريم وتيا في منزلنا لعدة أيام على سبيل الضيافة. أخبرتْهم عصفورة بأنها ستكون مرشدتهم السياحية في النوبة وأسوان، وكان هذا تقريبًا هو الأسبوع الأفضل في حياتي على الإطلاق وأكثرهم سعادة؛ عصفورتي وأختي والفتيات وبالطبع الجدة ونجي والتي عشقتْها يارا من أول لحظة، ومابين غرب سهيل حيث يقع منزلنا مرورًا بجزيرة هيسا وحتى جزيرة فيلة كان الجميع في أشد فرحتهم بجمال بلاد الذهب التي لم أرَ يومًا أجمل ولا أنقى منها.

ولكن لماذا عُمر السعادة قصير؟!

مَرَّ الأسبوع سريعًا، ووعدتُ يارا أنني سأزورها في القاهرة قريبًا، ووعدتْني مريم وتيا بتكرار الزيارة لأسوان قريبًا.

- خلي بالك على نفسك يا يونس.. عشان خاطري!

- ما تخافيش على أخوكِ.

- عايزة أبقى متطمنة عليك، وبطَّل تختفي كل شوية، إنتَ مش عايش في الدنيا لوحدك!

- حاضر والله يا يارا. ربنا يخليكِ ليا يا أغلى أُخت في الدنيا.

مَرَّ أسبوع اللهو والسعادة وبدأ العمل، أذهب إلى العيادة يوميًا من الساعة الرابعة وحتى العاشرة من كل يوم، الأيام تمُر ولا يدُق بابي أحد. وكيف لشعبٍ يعيش في هذا النقاء وهذه السعادة أن يُصاب بأي مرضٍ نفسيّ؟!

أيامٌ تمُر مرور الكِرام وكابوس الفتاة يتكرر في الصحو والنوم. وفي مساء أحد الأيام، وبينما أنا جالس في العيادة أُتابع المارَّة من النافذة، وجدتُ شخصًا ما يدق الباب بشكلٍ عجيب، قمتُ من مكاني مُسرعًا، فتحتُ الباب لأجد فتاة تتصبَّبُ عرقًا، ملابسها مُتَّسِخة، آثار الكدمات تحتَّل جسدها بالكامل.

نظرتُ إليها في ذُعرٍ وهَلَع، نطقتْ بصعوبةٍ شديدة حروف اسمي:

"يو... نس".

بعدها فقدتْ الوَعي بين ذراعيّ وأنا لا زلتُ في حالة عدم إدراكٍ لما يحدث.

حملتُها بين يديّ، وضعتُها على الشيزلونج لتنام، وأخرجتُ حقيبة الإسعافات الأولية، حمدتُ الله أن جروحها كلها بسيطة وسطحية. تركتُها لتنام بعدما تأكدتُ أنها بخير وجلستُ على الكرسيّ المُقابل لها أنتظر إفاقتها لأفهم ماذا يحدث.

ساعات مَرُّوا كالسنوات في انتظارها أن تعود إلى وعيها، ومع انتصاف الليل فتحتْ أعيُنها تجول بنظرها في أرجاء الغرفة، عدلتْ

من جلستها بصعوبة وطلبتْ بعض الماء، شربتْ ثم ابتسمت قائلة:

- ياسمين.. ياسمين عايشة يا يونس!

ياسمين! ولكن كيف؟ كيف تكون على قيد الحياة؟!

رأيتها تقع في البئر، رأيتها وهي تتحول إلى زهرة ياسمين جافة في طيات أوجاعي!

- ياسمين مين اللي عايشة؟!

قُلتُها وأنا أرتجف خوفًا من ردها.

- ياسمين يا يونس.. ياسمين مراتك!

جربتُ جميع أنواع الصدمات والأوجاع في حياتي، ولكن هذا النوع جديد، هذا النوع حصري في وجعِه وتأثيره.

- ياسمين!

أغمضتُ عينيّ وتذكرتُ هذا اليوم، يوم اشتريتُ لها المزرعة...

- في يوم من الأيام هيبقى عندنا مزرعة زي اللي على الطريق دي.

- هتسيب شغلك وحياتك وتقعد تزرع وتربي فراخ وبقر وكلاب؟!

- دي حاجة نفسنا فيها أنا وإنتِ من زمان، وبعدين كفاية إننا هنبقى مع بعض.

قلتُ جُملتي الأخيرة وأنا أبتسم لها ثم أكملتُ في مساري لعدة

كيلو مترات على طريق القاهرة-الإسكندرية الصحرواي، بعدها انحرفتُ في طريقٍ صغير غير مُمهَّد وتوقفتُ بالسيارة أمام إحدى المزارع وطلبتُ من ياسمين أن تُغمض عينيها:

- غمضي عيونِك!

- إوعى تكون خاطفني!

ضحكتُ وأنا أُساعدها على إغلاق عيونها وقلتُ:

- لا يا ستي مش خاطفِك ولا حاجة، يلا تعالي معايا واحدة واحدة..

أبعدتُ يدي عن عينيها بعدما مشينا عدة خطوات وأخبرتُها أن تفتح عينيها، كنّا أمام مزرعة شديدة الجمال، تتوسطها (فيلا) من دورين لونها زهري ويُحيطها سورٌ بُنّيّ جميل، أمام الفيلا بحيرة صغيرة يعوم بها بعض البط والإوَز، وإلى جانب البحيرة بئر ماء شديد الجمال يجلس أمامه كلب (لبرادور) بني اللون يتثائب، وفي إحدى أركان المزرعة كان هناك بيتًا صغيرًا يمتلئ بالدجاج وآخر بالأرانب، بالإضافة إلى إسطبل صغير جلس بداخله فرسٌ صغير وحمارٌ أبيض اللون يأكلان سويًا في هدوء، ورغم جمال المكان بأكمله إلا أن جمال ابتسامة ياسمين في تلك اللحظة فاق كل شيء، نظرتْ إليَّ في فرحةٍ ولهفة وقليلٍ من التردد وسألتْ:

- يونس.. إيه المكان الحلو أوي دا؟!

أخرجتُ من جيبي مفتاحًا ووضعتُه في راحة يدها وقلتُ مبتسمًا:

- المكان الحلو أوي دا يبقي بيتنا يا حبيبتي، تحبي ندخل أفرجك على الفيلا؟

- إمتى وإزاي؟! يونس.. دا بجد؟!

- طبعًا بجد، عشان تعرفي بس أنا بحبك قد إيه.

أحاطتْني بذراعيها الصغيرتين واجهشَّتْ في البكاء، لم ولن أنسى تلك اللحظة طوال حياتي.

أفقتُ على صوت تلك الفتاة وهي تنظر إليَّ:

- أستاذ يونس! اِنتَ كويس؟

- أنا عايز أفهم كل حاجة.. وخلينا نبدأ بإني أعرف اِنتِ مين قبل أي حاجة!

- أنا اِسمي لؤلؤ، كنت مع ياسمين في المصحة، اتقابلنا هناك من سنة، كانت دايمًا بتحكي عنك وعن حبها ليك وعن المزرعة.

قمتُ من مكاني أبحث في الأدراج عن دوائي، أخاف أن أكون متوَّهمًا، أخاف أن أكون قد عدتُ إلى الهلوسة مرة أخرى، أبحث كالمجنون ولا أستطيع أن أستشِفَّ مكان الدواء. تنظر إليَّ لؤلؤ باستغراب، هذا إن كانت موجودة من الأساس معي بالغرفة..

- أستاذ يونس..!

- أنا كويس.. كويس.. كملي بعد إذنك!

- عمري ما فهمت هي موجودة ليه في المصحة، عمري ما فهمت مين دخَّلها المصحة، هي الوحيدة اللي كانت بتحبني هناك وهي اللي ساعدتْني إن حالتي تتحسّن وأخرج، بقالي شهر خارجة من المصحة ومن ساعتها وأنا بدور عليك..

- المصحة دي فين يا لؤلؤ؟!

تتحدث هي وأنا لا أسمع جيدًا، تشويشٌ أصاب عقلي من الصدمة، أتحرك في الغرفة كالمجنون، تتحدث هي ولا أسمع سوى الهمهمات، أنظر إلى زجاج شباكي فأرى انعكاس صورتي وخلفي يقف هو بعباءتِه السوداء، يهمس في أذني:

- هتروح تدوّر ورا وهم يا يونس؟

- انت إيه اللي جابك دلوقتي؟!

- هتسيب عصفورة؟ بعد كل اللي عملته عشانك؟

- اطلع مني يا زيتون!

- أنا مش جواك عشان أطلع منك يا يونس.. أنا حواليك.. أنا في كل مكان..

وقبل أن أُحطِّم الزجاج بيدي تذكرتُ أنَّها جالسة، هدأتُ قليلًا ونظرتُ إليها، لا يبدو عليها الاستغراب مما رأتْه، مَن يسكن المصحات النفسية يعتاد على أي شيء، وعمومًا هي كل ما رأتْه هو شخص يتحدث إلى نفسه ليس أكثر.

- متأسف، تقدري تقوليلي إزاي ألاقي ياسمين؟ وقبل كل دا،

إيه اللي يثبتلي إنك مش كدابة؟

في الأغلب كانت تتوقع سؤالي لها، فتحتْ حقيبة يدها وأخرجتْ منها سلسلة ذهبية، نقش على دلايتها حرف الياء!

أتذكّر تلك السلسلة جيدًا، تلك التي أهديتُها إلى ياسمين في يومٍ من الأيام...

- كل سنة وانتِ طيبة يا حبيبتي!

- وانتَ طيب يا حبيبي.. بس بمناسبة إيه؟!

- مِن غير أي مناسبة، بس بقالي فترة عايز أجيبلك هدية.. يا رب تعجبك!

ما أن رأتْ السلسة حتى تهللتْ أساريرها واحتضنتْني مثل الأطفال كعادتها.

- حلوة أوي يا حبيبي، بس اشمعني جايبها عليها حرف اسمك وأنا لأ؟

- انتِ عبيطة يا ياسمين؟ دا على أساس إن اسمك جولفدان!

الفصل الثاني

ضبع وأرنب

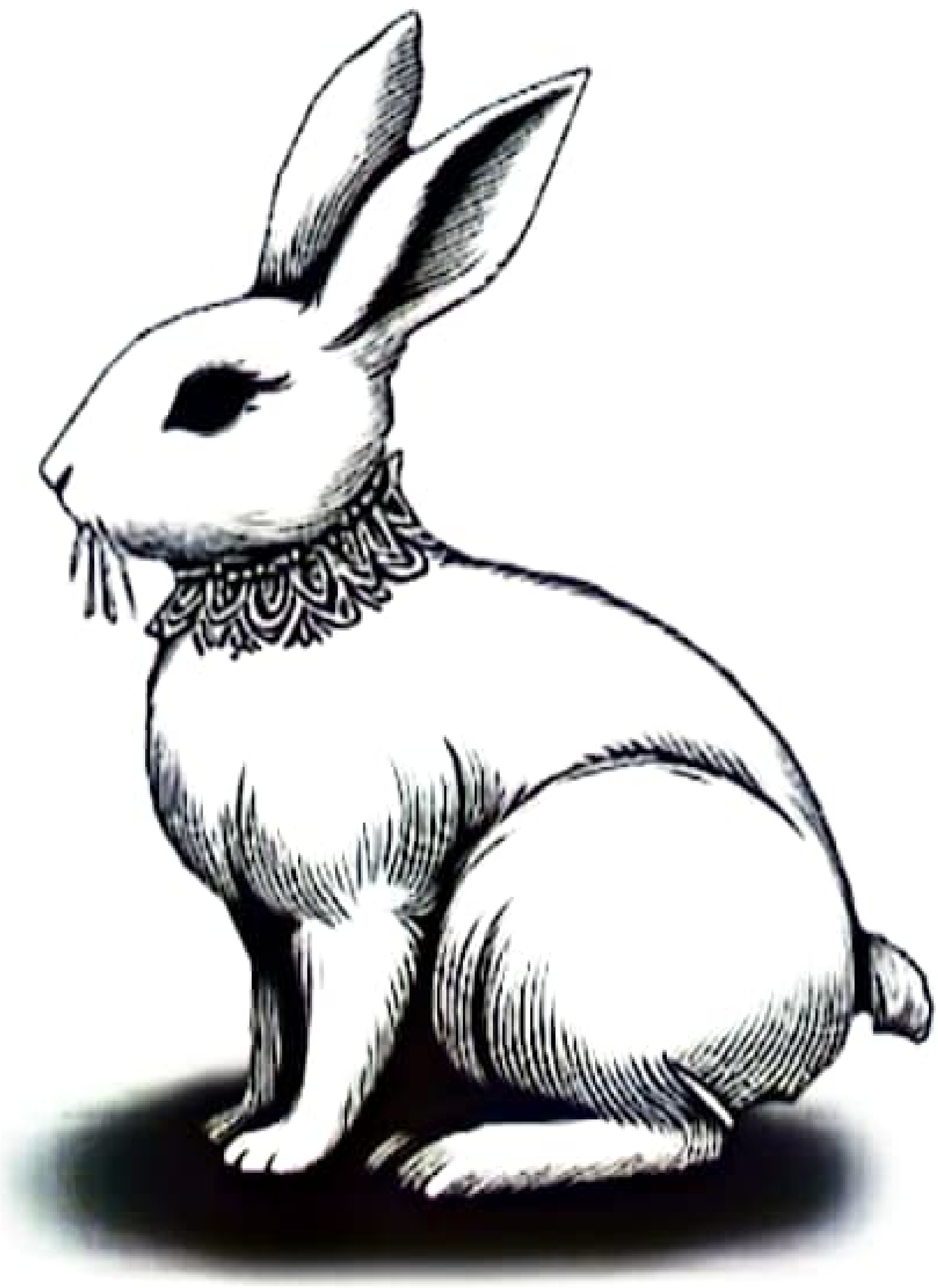

أمسكتُ بالسلسة في قبضة يدي اليمني وبيدي الأُخرى أمسكتُ بذراع لؤلؤ حتى أوشكتُ أن أكسرها في يدي، صرختُ بها قائلًا:

- انتِ جبتِ السلسلة دي منين؟ اتكلمي بدل ما تموتي في إيدي!

- يا يونس أنا جاية أساعدك! سيبني وهحكيلك كل حاجة.. أرجوك!

تركتُها وعدتُ إلى مقعدي مرة أُخرى، فتحتُ خزانة مكتبي، أُفتّش عن دوائي مثل المجذوب، ثوانٍ حتى عثرتُ عليه أخيرًا، (أريبيبرازول).. ألقيتُ بقُرصين منه في فمي وتجرعتُ بعض الماء.

- حضرتك كويس؟ إيه الدوا دا؟

- ماتخافيش.. دا (أريبيبرازول)، مضاد للذهان، بقالي فترة مش متأكد من حاجات كتير بتحصل في حياتي فباخد الدوا دا عشان أتأكد إني واقف على الأرض.

- أنا مش جاية هنا عشان أخدعك.. والله ياسمين عايشة.

نظرت إليَّ نظرة لم أفهمها، لا أعرف إن كانت نظرة شفقة أم حذر، ولكنها أخرجتْ من حقيبتها ورقة مطوية وناولتْني إياها..

- دا عنوان المصحة. ممكن أشرب؟

أخذتُ منها الورقة، وضعتُها في جيبي وقمتُ لأُحضر لها بعض الماء، وعند عودتي كانت قد تركتْ العيادة ورحلتْ.

أخرجتُ الورقة من جيبي فقط لأتأكد من أنها كانت موجودة هنا حقًا وأني لم أكن أهذي أو أتخيل وجودها، وبالفعل، وجدت الورقة والسلسلة، فأخرجتُ ورقة من دفتري و كتبتُ:

عزيزي ثيو،

الراحة لم تُخلَق لأمثالي، أنا لم أسعَ يومًا وراء المتاعِب.. صدِّقني.

فينسنت.

في المساء، عدتُ إلى المنزل حيث كانت عصفورة تنتظرني لنتناول الطعام سويًا. تتفنَّن هي في إسعادي، ولا أُريد أن أجرحها، لا أريد أن يُصيبها مكروه من عبثي وظلامي، أعلم شديد العلم أن قبل وجودها كنتُ مثل البيت المهجور، وبوجودها دبَّتْ الحياة في أوصال أيامي الذابلة، لا أعرف حقًا من أقوى، الثلج أم النار، ولكن ورغم عدم إدراكي إلا أنني أتحاشى إخماد نيران حبها لي بثلجي القاتل.

- أنا مش عايزك تزعلي مني لأي سبب.

- عمري ما بزعل منك. ليه بتقول كدا بس؟!

- بقول كدا عشان ما حدِّش يعرف أنا عديت بإيه عشان أبقى الشخص اللي أنا عليه دلوقتي.

- يونس.. إنت إديتني حياة عمري ما كنت أحلم بيها، أنا هفضل طول عمري بحمد ربنا على وجودك، عصفورة البنت الغلبانة اللي عايشة مع أمها في قرية السماحة، اللي أبوها قُرداتي على قد حاله، انت بنفسك تفكر فيها وتحبها!

- إيه اللي انتِ بتقوليه دا يا عصفورة؟! أنا اللي مفروض أقولك شكرًا على إنك مستحملاني، مستحملة كوابيسي وإني بصحيكِ كل يوم في وسط الليل على صريخي، مستحملة واحد هو نفسه مش مستحمل نفسه. إنتِ جيتي بجناحاتك ولحقتيني قبل ما أغرق. عارفة.. يوم ما خرجت من المصحة لقيت نفسي بجري في الشوارع زي المجانين، ما فكَّرتش في أي معارف عندي ولا حتى أختي الوحيدة، صورتك كانت قدامي ومش بتغيب عني، لما رميت نفسي جوا القطر اللي رايح أسوان كنت بحسب الدقايق جوا عقلي لحد ما وصلت ليكِ.

احتضنتُها حتى أصبحنا جسدًا واحدًا، تلامسنا، تناولتُ شفتيها كَمَن يتذوَّق الفاكهة للمرة الأولى في حياته، يتذوقها بنَهَمٍ وفضول. جلسنا سويًا نتحدث عن كل شيء، أخرجتُ لها من حقيبتي السلسلة وحكيتُ لها عن ما دار بيني وبين لؤلؤ في العيادة، حكيتُ وانتظرتُ منها ردًا أو إشارة. في نهاية حديثي ابتسمتْ لي وهي تُداعب ذقني والدموع تبلل عيونها السمراء وقالت:

- عايز تسيبني؟

- عمري ما هعمل كدا.

- أنا مش عارفة المفروض أقولك إيه!

ابتسمتُ لها والدموع في عيني:

- أنا محتاجك انتِ اللي تقوليلي المفروض أعمل إيه!

تنهدتْ عصفورة وقالت:

- لو كنت أنا اللي محبوسة في مصحة، أو حتى عندك شك إني ممكن أكون عايشة ما كُنتش هتسيبني وكنت هتفضل تدوّر عليا. روح يا يونس، روح يا حبيبي دوّر على مراتك.. ماتخافش عليا أنا هبقى كويسة، الجدة وِنجي موجودة والمعارف هياخدوا بالهم مننا لحد ما ترجع..

- مننا؟! عصفورة.. انتِ..؟!

- حامل، في الشهر التالت.. كلها شهور وابنك أو بنتك هينوّروا الدنيا. خلي بالك من نفسك يا يونس، أيًا كان اللي ناوي تعمله، اعمله وانت واخد بالك على نفسك.

- أنا مش عايز أبقى رايح للمجهول وأنا سايبك هنا، مش مستعد أخسرك لأي سبب!

- يعِز عليا فراقك يا يونس.. حتى لو فراق يومين. خلي بالك على روحك وارجع أوام.

أعددتُ حقيبتي؛ بعض الملابس، بعض المال، والكثير من أقراص الدواء. استقليتُ قطار القاهرة، أحمل في يدي ورقة صغيرة تحمل عنوانًا لا أعرف مكانه بعد.

عدتُ برأسي إلى الوراء، نظرتُ من النافذة.. لا أعلم لماذا ولكنني تذكرتُ حنين، تذكرتُ هذا اليوم بعد تلك الندوة عندما أخذتْني لنتناول القهوة..

***

- تشربي إيه؟

- ممكن أطلب لاتيه.

نظرتُ إلى النادل وطلبتُ لها (لاتيه) ولنفسي قهوة مضبوطة.

- شكلك مكسوفة.. أنا مُسالِم والله!

قلتُها بابتسامةٍ ودودةٍ كمحاولة مني لتلطيف الأجواء.

- اللي أنا بعمله دا أول مرة أعمله في حياتي، أنا في العادي إنسانة بتتكسف من خيالها.

- تفاصيلك بتقول إنك أول مرة تعملي كدا، ودا اللي شجعني إني أوافق.

- تفاصيلي؟!

قالتها في تردد.

- أقصد كسوفِك وتوترك المُبالَغ فيهم.

- دكتور نفسي بقى وبتفهم الناس!

- اعتبريني مش دكتور دلوقتي واحكيلي شوية عنك!

- مش حاسة إني عايزة أتكلم عن نفسي على قد ما عايزة أعرف كل حاجة عنك!

- زي إيه مثلًا؟

- احكيلي بتشوف نفسك إزاي؟

- أنا عامل زي المحارب اللي بقاله سنين وسنين بيحارب وقرر بعد السنين دي إنه يقعد على جزيرة يرتاح في السنين الباقية من حياته.

- ولقيت الجزيرة اللي هترتاح عليها؟

- بدوّر.. لسه بدوّر عليها.

لماذا نفتح أبوابنا لِمَن بنوا أسوارًا حولهم ومنعوا عن أنفسهم الهواء والماء؟ لماذا نعطيهم من إشعاع شمسنا وهم المظلمون لا ينيرون؟

وصل القطار في موعده، وخطتْ قدمي أرض القاهرة في حوالي الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، القاهرة التي حاولتُ كثيرًا أن أنساها، أنسى ذكرياتي بها وأيامي، قاهرة أيامي وكوابيسي!

استقليتُ سيارة أُجرة فَور وصولي إلى العنوان الذي كتبتْه لؤلؤ في الورقة، وكلما تحرك السائق في الشوارع كلما زاد هذا الشعور بداخلي حتى تأكدتُ منه؛ نحن ذاهبون إلى نفس المصحة التي كنتُ بها، نفس المصحة التي قتلتْ حنين بها!

فور أن تأكدتُ من هذا طلبتُ من السائق أن يأخذني إلى الفندق الذي كنتُ قد حجزتُ غرفةً به وبدأت في الاستعداد لخطتي.

في لَيلتي الأولى بالفندق، وبعدما انتهيتُ من رسم خطتي خلدتُ إلى الفراش، أُفكر في ماهية تلك الحياة. قبل صعودي إلى الغرفة

أعطاني عامل الفندق ورقة بها كلمة السر للواي فاي الخاص بهم، لا أتذكر أنني في يوم من الأيام كان لي حسابًا على أي موقع من مواقع التواصل الاجتماعي؛ فكرتُ كثيرًا أن أخوض التجربة ولكنني لم أعرف مَن قد أُضيف في قائمة الأصدقاء، لم يكن لي في يوم من الأيام أصدقاء حقيقيون، زملاء ومعارف ولكن لا أصدقاء، في الأغلب صديقي الوحيد الذي أكترث لأمري هو زيتون.

لمدة يومين متتاليين، استأجرتُ سيارة لأذهب بها خارج حدود القاهرة بعدة كيلومترات لمُراقبة المصحة.

كُتبَ بخطٍ يصعب رؤيته على السور الخارجي لقِدَمه الشديد «مصحة الدكتور أسود النفسية والعقلية».

دقائق من البحث في جوجل وعرفتُ أن الاسم الشهير بين المرضى للمصحة هو (الموت الأسود)!

بناية كبيرة تبدو من الخارج أنها مهجورة، لها أسوار ضخمة، كما يُحيطها من كل جانب أشجار عملاقة تجعلك لا تستطيع أن ترى ما خلفهم إلا إن كنت بالداخل.

قطعة مسوَّرة من الأرض تبعث شعورًا بالخوف وانقباض القلب من مجرد مرورك من جانبها، لم يكترث مسؤول أو جهة بالاقتراب من المبنى، فقط تقبع في مكانها هذا منذ نشأتها عام 1980 وحتى توقفها رسميًا عن العمل بعد انتحار الدكتور نجيب أسود عام 2001.

جلستُ في مكاني لساعات حتى عثرتُ على ضالَّتي المنشودة.

في صباح اليوم الثاني من مراقبتي للمصحة، رأيتُ شخصًا أتذكره جيدًا.. رأيتُ الطبيب اللعين الذي كان مسؤولًا عن حالتي في المصحة والذي كثيرًا ما عذبني بجلسات الكهرباء، رأيتُه يقترب من أسوار المصحة، يُخرج من جيبِه مفتاح المدخل، ينظر حوله ليتأكد أنه لا يوجد مَن يراه، وبعدها دَلَف خلف الأسوار العالية.

لحُسن حظي أني ركنتُ السيارة أعلى تَلٍّ يبعد بعض الشيء عن المصحة، وساعدتْني نظارتي المُكبرة على رؤية ما أريد رؤيته بوضوح ودون أن يراني أحد.

أسبوع بالتمام والكمال وأنا أُراقبه من نفس المكان، روتينه اليومي لا يتغير، يصل إلى المصحة في تمام العاشرة صباحًا ويخرج من هناك في تمام السابعة، يعود إلى منزله في تمام الثامنة ولا يخرج منه حتى صباح اليوم التالي، لا يزوره أحد باستثناء عُمال توصيل الطلبات من مطاعم مختلفة، وعرفتُ أخيرًا أن اسمه "الدكتور أنس عبد المجيد".

متى كانت المرة الأولى التي خطَّت فيها قدمي داخل مصحة نفسية؟

بالطبع ليستْ تلك المرة التي قتلت بها حنين، المرة الأولى تعود إلى أعوامٍ كثيرة ماضية، تحديدًا بعد حادثة وفاة زملائي في المدرسة على يد زيتون.

كانت تراني أمي وأنا أتحدث إلى نفسي كثيرًا في غرفتي،

أصرخ وأُعاتب وأحيانًا أضحك مع شيءٍ لا تراه هي، وقتها لم أكن قد عرفتُ زيتون حق المعرفة، كان كل ما يُمثله لي وقتها هو كونه شخص مُخيف بعض الشيء، ملامحه كانت تثير الذُعر لي في بداية معرفتي به وبعدها اعتدتُ وجوده، يظهر ويختفي وقتما يشاء.

في البداية ظنتْ هي أن الأمر لا يتعدى وجود صديق خيالي أتحدث وألعب معه، ولكن مع الوقت، أصبح الخوف هو سيد الموقف في كل ما تراه هي من أفعالي، بدأ الأمر معي ببعض الرسومات البسيطة التي كنتُ أرسمها في كراسة الرسم، أرسم نفسي وخلفي هذا الشيء، وعندما كانت تسألني عن ماهية هذا الشخص كنتُ أُجيبها بكل بساطة وبراءة:

- دا زيتون يا ماما.. العفريت بتاعي.

بالطبع أصابها الهلع، كلمة عفريت قد تخيف الكثيرين. طلبتْ كثيرًا مني أن ترى زيتون هذا ولكنها لم تكن مدركة بقواعده، زيتون لا يظهر إلا لي، لا يراه أو يسمعه غيري، وأخيرًا قررتْ هي ووالدي أن يأخذوني إلى طبيبة نفسية ذات صيت واسع وشهرة كبيرة تُدعى (الدكتورة رحمة منير)، كانت هي ملاك الرحمة بالفعل في طفولتي، وصاحبة فضل كبير في مساعدتي لاجتاز الكثير.

أتذكر اليوم الأول لي في عيادتها، عيادة بسيطة ولكن شديدة الأناقة، مكتب وبعض الكراسي ولا يوجد لديها شيزلونج.

تحدثتْ قليلًا مع أبي وأمي وبعدها طلبتْ منهم أن ينتظروني

بالخارج لتجلس معي وحدنا ونتحدث..

- إزيك يا يونس؟

أجبتُها وأنا أبتلع ريقي بصعوبة:

- كويس..

- انتَ عارف ليه بابا وماما جايبينك تشوفني النهاردا؟

- عشان خايفين من العفريت اللي في أوضتي.

- انتَ بتصدق في العفاريت يا يونس؟

- حضرتك بتصدقي فيهم؟

رغم صِغر سِنِّي حينها إلّا أنني اسشفيتُ تعجبها من ردي عليها. ابتسمتْ هي وقتها وأومأتْ برأسها وقالت في هدوء:

- اللي مش بيصدق في وجود العفاريت يبقي عبيط يا يونس.

وقتها فقط، وحينما قالت تلك الجملة، وقعتُ في حُبها بلا تردد، اعتبرتُها صديقة قديمة وستظل صديقتي إلى الأبد.

- طيب هما ليه خايفين؟

- كلنا بنخاف من حاجة يا حبيبي، أنا مثلًا بخاف من الحشرات، دي مش حاجة تخليني غريبة. انتَ مثلًا بتخاف من إيه؟

- مش عارف.. مافيش حاجة بخاف منها.

- شاطر.. عشان كدا إحنا هنبقي صحاب. عايزاك تحكيلي بقي عن العفريت بتاعك وإمتى أول مرة شوفته!

يومها فكرتُ قليلًا، أنا حقًا لا أتذكر متى كانت المرة الأولى التي رأيتُ زيتون بها، لا أتذكر البداية ولا أعلم لماذا، كل ما علمتُه وقتها أني أريد أن أرى رحمة مرة أخرى؛ نسعدُ بمَن يُشبهنا، نسعد بمَن يرانا كما نحن بلا تكلّف أو تزييف، نسعد بمَن يرى طبيعتنا شيء مختلف وليس بعَبَث.

لذلك اعتبرتُها صديقة قريبة إلى قلبي.

***

الدكتور أنس عبد المجيد، نحيل بغيض يشبه الضباع في أشكالهم وطباعهم؛ يتميز حيوان الضبع بأنه يمتلك يدين طويلتين وعُنُق قوي وكتف لتمزيق الفرائس وحملها، وبالإضافة لامتلاكه أقدام لا تتعب فإنه يتميز بنظرِهِ الثاقب والسمع القوي وحاسة الشم التي تُمكنه من تحديد موقع اللحوم، وبالتالي فإنه يعد صائدًا بارعًا، كما تتميز جميع أنواع الضباع بأنها أكثر أو أقل نشاطًا أثناء الليل بالإضافة إلى كونهم حيوانات تعيش في الأغلب على فضلات الصيد، أو بمعنى آخر الحيونات الميتة أو التي قاربتْ على الموت، هكذا كان أنس عبد المجيد؛ ضبع بشري حقير يعيش على بقايا الحياة.

درستُه جيدًا وعرفتُ روتينه كمَن يعيش معه، وذات مساء اتصلتُ بصديق قديم لأطلب منه شيئًا قبل تنفيذ خطتي...

- إزيك يا عم نونو؟

- أحلى يونس باشا شريف في الدنيا! واحشني يا باشا!

- والله انتَ اللي واحشني وقاعدة الشوي بتاعة زمان وحشاني. المهم اسمع.. أنا عايزك تيجي تقابلني وتجيبلي معاك مسدس صوت. اكتب عندك العنوان...

خطتي كانت بسيطة، سأتسلل إلى منزل أنس في الليل، أُهدده لأعرف منه معلومات عن صحة وجود ياسمين في المصحة، سنذهب ونخرجها وتنتهي القصة، ولكنني أدركتُ أني لا أفقهُ شيئًا عن القصص الواقعية!

في مساء الليلة التالية تسللتُ بالفعل إلى منزله، ساعدتني (طفاشة) النونو على الدخول إلى الشقة، ولكن ما رأيتُه في تلك الشقة جعلني أُعيد ترتيب خطتي في ثوانٍ معدودة...

الشقة أقرب إلى معملٍ طبي لمخترع مُختل، الشقة تحتوي على العشرات من الجُثث البشرية، الكثير من القوارير التي أدركتُ على الفور وجود أعضاء لأشخاصٍ بداخلهم!

أشعر وكأني قد سقطتُ سهوًا في واحدة من كوابيس صحوي، أخرجتُ هاتفي وبدأتُ في تصوير كل شيء في حذر. لم أرَ أنس بعد ولكني أسمع صوت (شخيره) في غرفةٍ أُخرى وكأنه لم ينَم منذ زمن.

أخذتُ الكثير والكثير من الصور، ثم اقتربتُ من غرفتِه فوجدتُها هي الأخرى تشبه الكوابيس المقيتة؛ على الفراش إلى

جانبه كانت تقبع جثة لفتاةٍ عشرينية، ينام هو إلى جانبها وكأنها زوجته أو حبيبته. يداي ترتعشان ولكني تماسكتُ والتقط صورًا عديدة له إلى جانب تلك الجثة.. هذا اللعين!

هناك أشخاص لا يخشون جُثث الموتى بل يعشقونها، يستمتعون في أحضانها الباردة العفنة، يُقلّبونها ويُقبِّلونها، يُفرغون فيها شهوتهم الحيوانية، إنها بالنسبة لهم الشريك الأمثل، فهي لا تتكلم، لا تتألم، ولا تُحدِّق باشمئزازٍ إلى وجوههم الكالحة المكفهِرة.

نيكروفيليا!

نظرتُ إليه باشمئزاز، أغمضتُ عيني مُتذكرًا تلك القصة التي قرأتُها كثيرًا ولم أكن أُصدقها، قصة فتاة دار الجنائز..

تحكي القصة أن في أحد أيام عام 1979 كانت الفتاة الشابة التي تعمل بدار جنائز في كاليفورنيا تقود عربة الموتى باتجاه المقبرة من أجل تسليم جثمان رجل ثلاثيني مات حديثًا، كانت والدة الميت وأفراد عائلته ينتظرون بعيون دامعة بجوار القبر المُعَد للدفن، انتظروا طويلًا، لكن لا أثر لعربة الموتى، اتصلوا بدار الجنائز الذي قامت بتهيئة الجثة للدفن متسائلين عن سبب عدم وصول التابوت، لكن العاملين هناك أخبروهم بأن سيارة نقل الموتى غادرت مع التابوت منذ عدة ساعات وكان من المفترض أن تصل إلى المقبرة منذ زمن بعيد.

"ماذا جرى لعربة الموتى؟" تساءل الجميع بحَيرة.

حل المساء ولم يظهر لها أي أثر، فاضطر الجميع لمغادرة المقبرة

لأنهم يأسوا تمامًا من وصول تابوت الرجل الذي اجتمعوا لدفنه.

عائلة الميت تقدمتْ بشكوى إلى الشرطة تُطالب فيها باستعادة جثة فقيدهم، لذلك توجّه المحُققون إلى دار الجنائز لمعرفة ملابسات الحادث، وقد أخبرهم العاملون هناك بأن إحدى العاملات في الدار وتدعى (كارين غريتلي) غادرتْ صباحًا وهي تقود سيارة نقل الموتى بمفردها متوجهة صوب مقبرة المدينة لتسليم التابوت، وقد كان من المفروض أن تصل إلى هناك خلال أقل من نصف ساعة، لكن كارين والسيارة اختفيا تمامًا ولا أحد يعلم مصيرهما.

بعد يومين من اختفاء الجثة عثرتْ الشرطة على عربة الموتى متوقفة عند مدخل أحد المنازل التي لا تبعد عن دار الجنائز سوى بضعة شوارع، طرقوا الباب طويلًا من دون أن يجيبهم أحد، وفي النهاية قاموا باقتحام المنزل ليعثروا في إحدى الغُرَف على ما لا يخطر على بال أو خيال..

كانت كارين غريتلي تستلقي عارية تمامًا داخل التابوت المفقود إلى جوار جثة الرجل الميت والتي كانت عارية تمامًا هي الأخرى! كانت كارين فاقدة للوعي تقريبًا إثر تناولها لجرعةٍ زائدة من (الكودين) وهو مسكن للألم ودواء للسعال، وإلى جوارها داخل التابوت عثرتْ الشرطة على رسالة طويلة كتبتْها كارين على أربعة صفحات اعترفتْ خلالها بممارستها للجنس مع جثث أكثر من عشرين رجلًا خلال عملها في دار الجنائز، كما أبدتْ ندمها على نزواتها الجنسية الشاذة تلك وكتبتْ تقول:

"لماذا أفعل هذا؟ لماذا؟ لماذا؟ خوفًا من الحب، من الدخول في علاقة؟ لا يوجد عشق مؤلم كهذا. أنا فأر مشرحة، هذا هو جُحري، وربما يكون قبري".

فتحتُ عيني على صوت الدكتور أنس وهو يصرخ:

- انتَ مين؟

ابتسمتُ له وأنا ما زلتُ مُمسكًا بهاتفي وأجبتُه:

- مش هستغرب إنك ناسيني.. أكيد اللي عملته فيا بيتعمل كل يوم في ناس كتير!

- أنا مش فاهم انتَ بتتكلم عن إيه بالظبط!

أخرجتُ مسدس الصوت الذي أعطاني إياه النونو وأشرتُ إليه به والابتسامة ما زالتْ تعلو وجهي:

- لو مش فاكرني فأحب أفكرك بنفسي، أنا (فينسنت).. كنت في المصحة من كام شهر. لسه برضه مش فاكرني؟

- انتَ.. انتَ اللي قتلت مراتك! أنا ماليش أي ذنب.. هي اللي كانت بتطلب مني أزوّد جلسات الكهربا وأحطلك الأدوية في أكلك.. أنا عبد المأمور!

- كل الكلام دا ما يفرقش معايا. اسمع كلامي كويس أوي يا أنس.. عندك قهوة في البيت دا؟

في الأغلب أصابه الاندهاش من طلبي، فسأل ليتأكد من طلبي:

- عندي إيه؟!

- قهوة.. إيه مش عارف القهوة؟

- عندي آه.. تشرب قهوة؟

- لا، القهوة دي تقوم تعملها لنفسك عشان تفوق معايا وتسمع اللي أنا عايز أقوله، وما تنساش منه ولا حرف.

قام من مكانه كالمُنَوَّم مغناطيسيًا، أعَدَّ إلى نفسه كوبًا من القهوة بعدما ارتدى بنطاله، وجلس أمامي وهو ما يزال مذعورًا.

- نيكروفيليا يا دكتور!

تردد قليلًا قبل أن يُجيبني قائلًا:

- هو الدكتور ما ينفعش يبقي مريض؟

- بس بلاش كلمة (دكتور) دي خسارة فيك. وفي طريقي لأوضتك شوفت أعضاء بشرية وجثث، طبعًا جثث مرضى المصحة اللي بيموتوا من تعذيبك ومفيش عندهم قرايب يسألوا عنهم.. كان زماني واحد منهم دلوقتي!

فتح حقيبة سفر ضخمة كانت تقبع على الأريكة بجانبه وأخرج منها الكثير من الرُزَم المالية وسألني:

- عايز كام؟

- فلوسك ما تلزمنيش يا أنس.. اللي أنا عايزه هو إنك تخليني أشتغل في المصحة، تقدمني على إني دكتور جديد من صحابك،

وتاني يوم تقدم استقالتك.

بدأ أنس في الضحك بطريقة هستيرية بعدما سمع جملتي الأخيرة، ضحك كثيرًا حتى أصبح من الصعب عليه أن يلتقط أنفاسه، وقال:

- الاستقالة دي أقدمها لما أكون شغال موظف.. اللي بيدخل مصحة الدكتور أسود مش بيسيبها، بتبقي عاملة كده زي الوشم يا أستاذ يونس، بتبقى جزء منك وبتبقى جزء منها. اللي سموا المكان دا (الموت الأسود) مش العيانين.. الدكاترة هما اللي سموها كدا، لأنه ببساطة بيقتل كل اللي جواه واحدة واحدة. ونصيحتي ليك بلاش تدخل المكان دا وروح كمل حياتك. انت قتلت مراتك في المكان الوحيد اللي ماحدِّش بعدها هيحاسبك، لأن ببساطة لو حد شم خبر إن المكان دا موجود هتبقى نهايتنا كلنا.

- قصة جميلة.. بس صدقني كل اللي انت قولته دا مش هيغير حاجة. من بكرة أنا هبقى الدكتور الجديد في المصحة، وتسيب الشغل وتموت براحة أحسن ما تموت دلوقتي بسرعة.. على الأقل وقتها هيبقى في احتمال ولو واحد في المية إنك تعيش. دا طبعًا غير الفيديوهات والصور اللي على تليفوني واللي برضو هتكون سبب في موتك. فما دام كدا موت وكدا موت اعمل أي حاجة صح.

كنتُ أعلم أنه سيأتي تلك الليلة، بعدما تركتُ أنس وعدتُ إلى غرفتي بالفندق، كان هو هناك في انتظاري جالسًا في شرفة الغرفة يبدو عليه الغضب..

- لسه مصمم؟

- آه.

- أول مرة خرَّجتك من هناك بالعافية.. المرة دي مش عارف إيه اللي هيبقى مستنينا!

- وأنا مش هتخلي عن ياسمين يا زيتون، حتى لو مافيش أي ضمانات.

- ياسمين ماتتْ قدام عينيك يوم ما وقعت في البير.. انت دفنتَها بإيدك يا يونس!

اقتربتُ منه قليلًا والغضب يتطاير من عيني:

- طب ولؤلؤ؟ والسلسلة؟ إيه تفسيرك؟ أنا هدخل المصحة واللي يحصل يحصل.

كنتُ أُحب عيادتها حقًّا، هي من حببتْني في تلك المهنة، رحمة الجميلة، أحببتُ رقتها وتفهمها، أحببتُ تشابهنا، كنتُ أنتظر لقائي الأسبوعي مع رحمة، كانت هي بطلتي الخيالية التي ظهرتْ لتنقذني من الوحش، والوحش في حياتي كان اسمه (أحمد ليل).. والدي.

- بتحب بابا أكتر ولا ماما يا يونس؟

- بحب يارا أكتر منهم هما الاتنين.

- يعني مش بتحب ماما منال وبابا أحمد؟

ولكنها لم تجد ردًا، فسألتْ سؤالًا آخر:

- إيه الحاجات اللي مش بتحبها في ماما منال وبابا أحمد؟

- ماما ساعات بتبقى طيبة.. بس بابا بيخوِّفني.

ثم أكملتُ جملتي بعد تردد:

- العفريت بيحبني أكتر من بابا.

كانت دائمًا تُعطيني كراسة للرسم والكثير من الألوان، تطلب مني أن أرسم لها أي شيء، تقول أن الرسم سيجعلها تعرفني أكثر وتقترب مني أكثر، وبقدر حبي لها إلا أنني لم أعرف ماذا أرسم.

***

الفصل الثالث

مصحة الموت الأسود

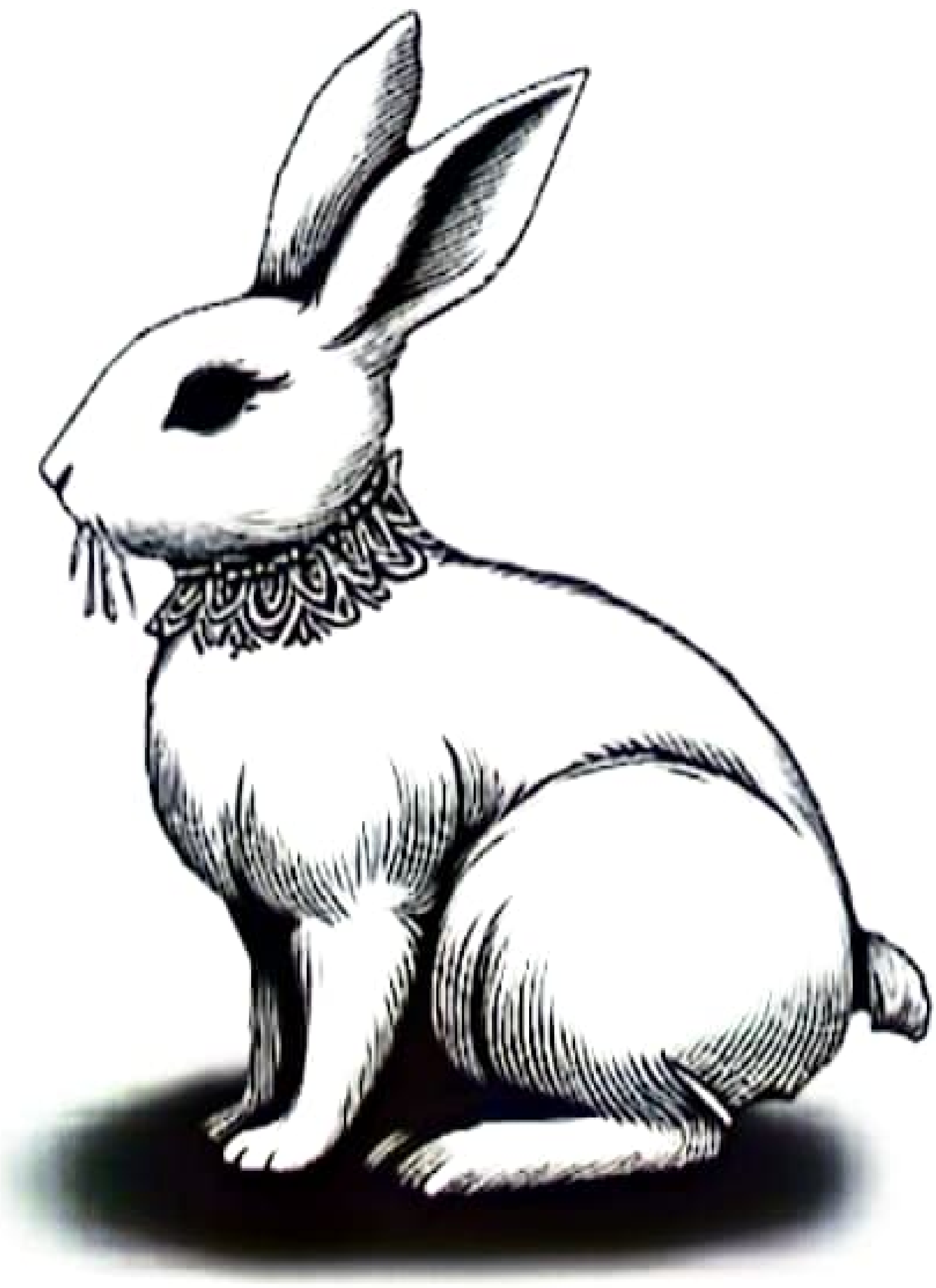

في صباح اليوم التالي كنتُ في طريقي إلى المصحة ومعي أنس، وصلنا إلى السور العظيم، أدار مفتاحة ودَلَفنا من السور الخارجي للمصحة.

- لسه مصمم؟

- فات وقت الكلام خلاص.

عرفتُ في تلك اللحظة لماذا لم يتم اكتشاف هذا المكان مِن قبل، فور أن تعبر السور لن ترى شيئًا، مجرد قطعة كبيرة من الأرض بلا أي مبنى، أشجار ميتة وحشائش بالية في كل مكان، لا يوجد سوى كشك خشبي صغير، ربما يخص حارس الأرض، وقتها ظننتُ أن أنس يخدعني ويأخذني إلى مكانٍ آخر، جذبتُه من عُنقِه وصرختُ به:

- مش قولنا بلاش تلعب معايا يا أنس!

- والله ما بلعب.. شكلك ما تعرفش حاجة عن دكتور نجيب أسود! الراجل دا كان أوسخ من الشياطين، مدخل المصحة جوا الكُشك الصغير اللي قدامك دا.

تبعتُ خطواتَه في حذر، وللغرابة هو لم يكن يكذب، دلفنا سويًا داخل الكشك الصغير، بداخله جذب أنس ذراعًا حديديًا صغيرًا فانفتحتْ أرضية الكشك على مصراعيها لتكشف عن سلالم صغيرة تقودنا إلى تحت الأرض، وفي نهاية السلم كانت المفاجأة بانتظاري.. نحن في مصحةٍ تحت الأرض!

- غريبة إنك هربت من المكان دا ومش فاكر أي حاجة!

رنَّتْ جملتُه في أذني، لماذا لا أتذكر أي شيء؟!

- أنا فعلًا مش فاكر أي حاجة.

المصحة لا تشبه تلك التي نراها في الأفلام، لا يوجد دماء تُلطّخ الحوائط، بل البرودة هي سيدة الموقف، كل شيءٍ بارد في المكان.

ما أن هبطنا السلم حتى أصبحنا في بهوٍ عملاق، يُشبه بَهو القصور، يُحيط هذا البهو العشرات من الزنازين ذات الأبواب الخرسانية، المكان أشبَه بالسجن، رائحة الطلاء تستطيع استنشاقها بسهولة، على ما يبدو أن المصحة تم طلائها حديثًا! تعجبتُ اهتمامهم بطلاء هذا المكان رغم كآبته! يُخيّم على المكان هدوءٌ مخيف، لا أصوات ولا همهمات وكأن المكان خالٍ من البشر والحياة. في الناحية المقابلة للسلم الذي هبطنا منه يوجد سلم آخر إلى جانبه لافتة صغيرة كتب عليها «غرفة المدير يمين - غرفة الأطباء يسار»، وفي إحدى أركان البهو رأيتُ سُلمًا يأخذك إلى أسفل، وكأنه طريق إلى سردابٍ كُتب إلى جانبه لافتة عليها «غرفة العزل النفسي وغرفة التأمل إلى أسفل»، تفاصيل المكان مُخيفة؛ الكثير من الكراسي المتحركة التي أصابها التلف والصدأ، آثار أظافر نُقشتْ على أبواب الزنازين في الأغلب من مقاومة المرضى، أسمع صوتًا لموسيقى كلاسيكية يصعب تمييزها بسبب بُعدها، ولكنها تعطي المكان إحساسًا مُخيفًا أكثر وأكثر، أنظر حولي ولكني لا أرى أحدًا سوى أنس!

- هي المصحة مافيهاش مرضى؟

- الساعة لسه 7 الصبح، مافيش حد صحى من العيانين، وحتى عم منير التمرجي بيجي 8.. الوحيد اللي بيجي هنا من 6 هو الدكتور أسود مدير المستشفى.

- مش الدكتور أسود انتحر من سنين؟

- اللي انتحر هو الدكتور نجيب أسود.. اللي هنقابله دلوقتي دا الدكتور عادل، ابنه ووريثه الوحيد.

صعدتُ خلف أنس السلم القديم، وكلما صعدتُ درجة كلما تذكرتُ فتاة الحلم. مشينا في رواقٍ طويل إضاءته تكاد تكون معدومة، في نهايته غرفة بابها ضخم نُقش عليها حرف (أ). استأذن أنس ودخلنا سويًا الغرفة.

غرفة كبيرة ذات مكتب شديد الأناقة، خلف المكتب عُلِّق برواز كبير لرجلٍ عظيم الهيبة، استشفيتُ أنه نجيب أسود. في إحدى أركان الغرفة وجدت تمثالًا بالحجم الطبيعي لـ (سيجموند فرويد)، شخصية فرويد كان لها مكانة كبيرة لديَّ، اشتهر طبيب الأعصاب سيجموند فرويد بتطويره لنظريات التحليل النفسي وطُرُقه، والتي تُعَدُّ النواة لأساليب الطب النفسي الحديث التي تعتمد على تحدُّث المريض عن مشاكلِه دون أي عوائق، وقد ساهمتْ نظرياته وأبحاثه في علاج العديد من الأمراض النفسية، وفي تفسير سلوكيات المجتمعات والثقافات المتنوعة.

على الرغم من تكريس فرويد حياته من أجل الصحة النفسية للآخرين، فإنه لم يسلم من الوقوع ضحية لبعض الاضطرابات النفسية، وكان يعاني من رهاب السفر، كان مدمنًا للتبغ، مما

أودى بحياته في نهاية المطاف. ومع أنه كان يُلقَّب بطبيب المشاعر إلا أنه اعترف بعدم قدرته على فهم النساء مطلقًا، وكان يُطلق عليهن اسم «القارة المظلمة».

دخل علينا من بابٍ خلفي شخصٌ يبدو على وجهه البشاشة، يبدو أنه في العقد الخامس من عمره أو أصغر، وسامته تطغى على سِنِّه، لا تخلو نظراته من التوتر والأسرار، يرتدي حُلَّةً أنيقة، وفي يده خاتم لفت نظري في التو. أدرَك إعجابي الشديد بالتمثال، اقترب مني ووضع يده على رأس فرويد بفخرٍ وأول ما قاله كان:

- الطريق الذهبي إلى اللا وعي.

- نعم؟

ابتسم وهو يشير إلى التمثال:

- فرويد كان بيقول كدا على الأحلام. افتكرتك تعرف عنه حاجات كتير من نظرتك للتمثال اللي كلها سعادة دي.

يبدو عليه الذكاء الشديد وسرعة البديهة، والأغرب عدم تعجبه من وجودي في مصحته السرية!

ابتسمتُ بصعوبةٍ وأجبتُه:

- أكتر حاجة فاكرها من قصته إنه مات مُنتحر.. دي أكتر حاجة كانت بتشدني في حكايته.

- ليه؟ عشان طبيب نفسي؟ مين قال إن الدكتور النفسي معصوم من المرض؟

في تلك اللحظة تذكرتُ أن والده -الدكتور نجيب- مات منتحرًا، فحاولتُ أن أتدارك ما قلتُ سريعًا:

- الطبيب النفسي في الآخر بشر، وكلنا مُعرَّضين للمرض النفسي.

تدخَّل أنس وقال:

- دا الدكتور يونس يا دكتور عادل، صديقي وبعد إذنك هيبدأ معايا شغل في المستشفى هنا..

صمتَ عادل أسود لبُرهة وهو يجول بنظره بيني وبين أنس، ثم قال بهدوء:

- بقالك سنين بتشتغل معايا وأول مرة تقولي إنك عايز دكتور تاني ييجي يساعدك.. مش غريبة دي؟! أفكرك انتَ طفِّشت كام موظف من المكان دا؟ ومن إمتى حد بيدخل المصحة من غير موافقتي يا أنس؟

- الدكتور يونس صديق قديم، كان عايش في ألمانيا وبيشتغل هناك، و لما عرفت إنه عايز يرجع مصر قولت إحنا نستفيد منه أحسن من غيرنا.. ولا إيه يا دكتور؟

صمتَ قليلًا وبعدها وجَّه كلامه إليَّ:

- كنت بتشتغل فين في ألمانيا يا دكتور؟

- فرايبورج.

أدركتُ مُسبقًا أن مدير المستشفى سيسأل كثيرًا ويراقب كثيرًا، وهذا ما كنتُ قد أعدتُ له مسبقًا، الكثير من التحضير لامتحانه

المفاجئ.

- عظيم.. على كدا انتَ شاطر في مجالك؟

- اللي بيتكلم كتير يا دكتور تخاف منه.. الأفعال صوتها أعلى.

- كلام هايل! أنا هخليك تحت التمرين لمدة الشهر، ولو أثبَت كفاءة هتتعين بعد الشهر دا، الحالات عندنا بتزيد، والمكان دا ما ينفعش أي حد يدخله!

- موافق.

- بس أنا ليا شرط، الشهر دا انتَ هتقعده هنا في المصحة، وطبعًا إحنا مش حابسينك، بس هو دا شرطي.

- هو طلب غريب، بس أنا ما عنديش مانع.

- شوف يا دكتور يونس، المكان دا عامل زي اللعنة اللي مالهاش حل، دكاترة كتير انتحرت بسبب شغلهم هنا، ومنهم اللي بقوا عيانين، عشان كدا أنا عايزك تفضل في الأجواء دي لشهر كامل وبعدها يا تفضل يا نقولك مع ألف سلامة ونورتنا. بس خلي بالك.. اللي بيحصل في المكان دا ما ينفعش يطلع برا المكان دا!

- كلامك منطقي. أقدر أشوف الأوضة اللي هقعد فيها؟

- عم منير التمرجي زمانه على وصول، هيبقى تحت أمرك، لو تحب تاخد جولة أعرفك على الحالات اللي هتستلمها؟

- طبعًا.. أحب جدًا.

عدنا مرة أخرى إلى البهو، أخبرني الدكتور عادل أسود بأني سأتولى مبدأيًا ثلاث حالات كبداية بسبب ضغط العمل عليه وعلى أنس.

أخرج مفتاحًا صغيرًا من جيبه وفتح لنا باب أول زنزانة، غرفة صغيرة تتكون من كرسي وطاولة صغيرة وسرير سفري قابل للطَي، بالإضافة إلى مرحاض وحوض صغير، الغرفة بالكامل مطلية باللون الأزرق الكئيب. على الكرسي جلس رجل عجوز، لحيته بيضاء غير مُهندمة، على الأغلب في العقد السابع من العمر، ينظر إلى الحائط وفي يده يحمل صورة فوتوغرافية لم أتبينَها. لم يُبدِ أي اهتمام بنا عندما فتحنا عليه الباب، ظل في ثباته.

- دا أستاذ سعد، أول حالة هتكون معاك يا بطل. أستاذ سعد مصاب بمتلازمة (كابجراس).. في البداية قولت إن دي أعراض شيخوخة وإنه مثلًا مصاب بالزهايمر، بس الموضوع طلع أكبر من كدا.

تذكرتُ في تلك اللحظة قصة السيدة التي قتلتْ زوجها لاعتقادها بأنه استُبدِل بشخصٍ آخر يريد قتلها.

متلازمة كابجراس، مرض نفسي نادر يتوهم فيه المريض أن كل من حوله من أفراد أسرته أو أصدقائه قد تم استبدالهم بأشخاصٍ يشبهونهم من قِبَل شخصٍ مُحتال، وقد يصل الأمر إلى أنه من المحتمل أن يشك هذا المريض أن حيوانه الأليف قد تم استبداله، وقد ينتج عن هذا الوهم أن المريض يحاول الهرب من أسرته أو قتلهم من أجل الدفاع عن النفس لأنه يظن أن أحدهم

سوف يقوم بقتله. يحدث هذا الوهم عادة لدى المرضى المصابين بداء الفصام وقد يظهر أيضًا على المرضى الذين يعانون من إصابةٍ بالدماغ ومرض الجنون، فيظهر غالبًا المصابين بمرض الأعصاب، وخاصة كبار السن، وتحصل أيضًا لرابطة المصابين بداء السكري ومَن يعانون نوبات الصداع النصفي. في بعض حالات المرض المنعزلة يكون وهم كابجراس مؤقتًا لأسباب صحية، كتناول مخدرات الكيتامين.

- أستاذ سعد بياخد كيتامين يا دكتور أسود؟

- شكلك مذاكر كويس يا دكتور يونس، بس لأ الأساليب عندي في العلاج مش أساسها المخدرات.. هتشوف بنفسك مع الوقت.

ثم أمسك يدي في حركةٍ مفاجئة أربكتْني قليلًا وقال:

- إوعى تكون بتخاف يا دكتور يونس!

فابتسمتُ وأجبتُه:

- ماتخافش عليا يا دكتور.

تركنا الزنزانة الأولى وأستاذ سعد ما زال في ثباته العجيب ودخلنا الزنزانة التالية.

نفس الشكل والمحتويات، إلا أن تلك الغرفة كانت محتوياتها مُبعثرة بالكامل، الطاولة مكسورة، الكثير من بقع الدماء على مرتبة الفراش، الكثير من الخدوش وآثار دماء على الحائط، وفي أحد أركان الغرفة جلستْ شابة عشرينية على الأرض وقد تم

تقييد يديها، نظرتْ إلينا الفتاة وشفتاها ترتعشان، لونها شاحب كالجليد.

- بلاش نظرتها تأثر عليك.. دي الأميرة ديانا، أشهر suicidal في المصحة. خلال السنة دي حاولت تنتحر 30 مرة، حالة مرهقة بس بصراحة بتبهرني بأفكارها المبتكرة في الانتحار. في الآخر عم منير التمرجي اقترح إننا نربط إيديها زي ما انتَ شايف كدا طول ما هي في الأوضة لوحدها.

- ربط المريض زي الحيوانات عمره ما كان علاج يا دكتور!

- ما هو اللي إيده في المياة بقى يا دكتور يونس! بكرة تشوف.. هتلاقي نفسك بتربطها من رجليها كمان.

تركنا غرفتها وعيني ما زالتْ مُعلقة على تلك المسكينة الجميلة والتي لا أعلم ما الذي اقترفته في حياتها لينتهي بها الأمر في هذا المكان اللعين.

الزنزانة الثالثة كانت مختلفة بعض الشيء، فور أن فتح أسود الباب استنشقتُ رائحة كريهة، الغرفة خالية تمامًا من أي محتويات باستثناء جردل وبعض القش المتناثر والذي امتلأ بالقذارة، كان المريض نائمًا وهو عارٍ تمامًا على بعض القش باستثناء بنطال مهترئ، لم يشعر حتى بنا عندما دلفنا إلى غرفته.

- أقدر أفهم المريض دا عريان كدا إزاي؟ ولا دا كمان من طرق العلاج يا دكتور؟

قلتُ جملتي بحِدَة شديدة، ولكنه فقط ابتسم وقال:

- اضطراب بوانثروبي.

ألجمتْني الجملة.

أعلم أني طبيب نفسي ماهر، ولكني لم أُقابل في حياتي يومًا مريضًا باضطراب بوانثروبي، بل في الواقع أني لم أكُن أُصدق في وجود هذا المرض فعلًا، أراهُ أشبَه بالأساطير الخيالية، الشخص صاحب القصة الأشهر في التاريخ لهذا المرض كان نبوخذ نصر الثاني، حكت كتب التاريخ كثيرًا عن الملك القوي العتيد الذي أصابه مرض غريب فراح يجول في الغابات معتقدًا بأنه ثور، وأصبح يأكل الأعشاب وينام في العراء حتى وفاته. حكايات كثيرة وغرائب ولم يأتِ في بالي يومًا أني سأُقابل حالة حقيقية لهذا المرض.

- إيه يا يونس روحت فين؟!

- معاك يا دكتور. بس يمكن لسنين كتير المرض دا بالنسبة لي كان مجرد خيال مش موجود على أرض الواقع، حاجة شبه المستذئب كدا!

- دا الحالة التالتة بتاعتك يا دكتور.. صلاح.

رحَّب بي مرة أخرى في المصحة، و بعدها تركني مع أنس، وقبل أن أسأله عن كل ما رأيتُ الآن وسمعتُ وعن قصة مكوثي في المصحة لمدة شهرٍ حتى ظهر رجل قصير ضئيل الحجم، يرتدي ملابس يبدو بداخلها كقزم إلّا أنه ليس بقزم، هو فقط ضئيل الحجم، العرق يتصبَّب منه وعلى وجهه ابتسامة لا تخلو من

الخوف..

- صباح الخير يا دكتور أنس!

لم يرد عليه أنس السلام بل هَمَّ بتعريفي له:

- دا الدكتور يونس يا عم منير ، هيبقى معانا من النهاردا..

ثم أكمل كلامه وهو يُوجه كلامه إليَّ:

- عم منير أقدم واحد في المصحة.. وكان دراع دكتور نجيب أسود اليمين.

ثم نظر إلى عم منير بكل سخرية بعدما قال جملته الأخيرة وقال وهو يضحك:

- ما اعرفش كان دراعه اليمين إزاي دا.. دا آخره يبقى صباعه اليمين!

لم يجد أي رد فعل مني على مزحتِه ثقيلة الدم، فشعر ببعض الإحراج. ابتلع ريقه بعدما طلب من عم منير أن يأخذني إلى غرفتي:

- أنا عندي حالات لازم أتابعهم.. هعدي عليك آخر اليوم عشان نروح الفندق تجيب شنطتك.

قال جملته الأخيرة وتركني مع عم منير.

لم تنبث شفتاه كلمة واحدة وهو يرشدني إلى غرفتي، أخرج مفتاحًا من جيبه يبدو عليه القِدَم الشديد، دَلَفنا سويًا إلى تلك

الغرفة؛ لا تختلف كثيرًا عن زنازين المرضى، باستثناء وجود مُبرِّد للهواء، ثلاجة صغيرة، والفراش أكبر قليلًا من السرير السفري، الغرفة رغم برودتها إلا أنها تبدو نظيفة. ظللتُ أتفقّد الغرفة ومنير يقف خلفي ينتظر رأيي في الأغلب.

- الأوضة كويسة يا دكتور؟

- زي الفل يا راجل يا جميل. لو بقى تقدر تتصرّفلي في كنكة وسبرتاية تبقى خدمتني.

- عيوني. طب والبُن والسكر؟ معاك ولا أجيبلك من المطبخ؟

- لا، أنا هجيب البن بتاعي لما أروح أجيب شنطتي.

- عيني. الفطار في المصحة بيتوزّع على العيانين الساعة 10والعشا بيبقى الساعة 6.. هتلاقيني بجيب لحضرتك وجبتك في الوقت دا. أوامرك سعادتك!

- شكرًا يا عم منير. انتَ في المصحة دي فعلًا من أيام الدكتور أسود الكبير؟

- مظبوط.. أنا طول عمري مع الدكتور نجيب أسود، الله يرحمه.

- ما عندكش فكرة هو ليه مات منتحر؟

- ساعة شيطان بقى يا باشا.. ياما ناس كتير زي الفل انتحرت!

لم أقتنع بإجابته.

- هي المصحة فيها عيانين قد إيه؟ أصل الدنيا هادية أوي.. بصراحة أول مرة أشوف مصحة تحت الأرض!

- المصحة هنا يا باشا تقدر تقول عليها (في آي بي).. مش بنستقبل فيها أكتر من 10 عيانين في نفس الوقت.. كل العيانين اللي هنا ناس ولاد ذوات وأهاليهم اللي جابوهم هنا بيدفعوا ليهم شيء وشويات. بالك انت يا دكتور واحدة زي الآنسة ديانا أهلها بيدفعولها بلاوي عشان تفضل في المصحة هنا وماتعملش قلق برا.

- وفيه كام بنت غير ديانا في المصحة؟

- الساعة داخلة على 10.. لازم أروح أحضر الفطار.. بعد إذنك يا دكتور!

كان زيتون يتابع الحديث منذ بداية وصولي إلى المصحة، يقف إلى جانبي ويستمع جيدًا لما يحدث، فور أن رحل عم منير حتى ظهر زيتون وجلس على المقعد المقابل للفراش..

- مش كئيبة شوية الأوضة دي؟

- زيتون، قلتلك إني لازم ألاقي ياسمين!

- عنيد.. طول عمرك عنيد يا يونس وبتمشي ورا دماغك وفي الآخر ترجع تقولي (الحقني يا زيتون!).. هتتعلم إمتى؟!

- صدقني، أنا ماعنديش طاقة لأي جدال.. لو مش عايز تساعدني تقدر تختفي زي الفترة اللي اختفيت فيها وأنا في أسوان.

- أنا اختفيت عشان لقيتك عايش مبسوط، اختفيت لما لقيت

حياتك لأول مرة اتصلَّحت وبقيت عارف تكون مبسوط. وجودي ساعتها ما كانش هيبقى كويس عشانك.. وعلى العموم أنا مش هختفي. خليني وراك يا يونس يا أحمد يا ليل!

أحمد ليل... والدي الراحل!

الفصل الرابع

كلنا مرضى يا يونس

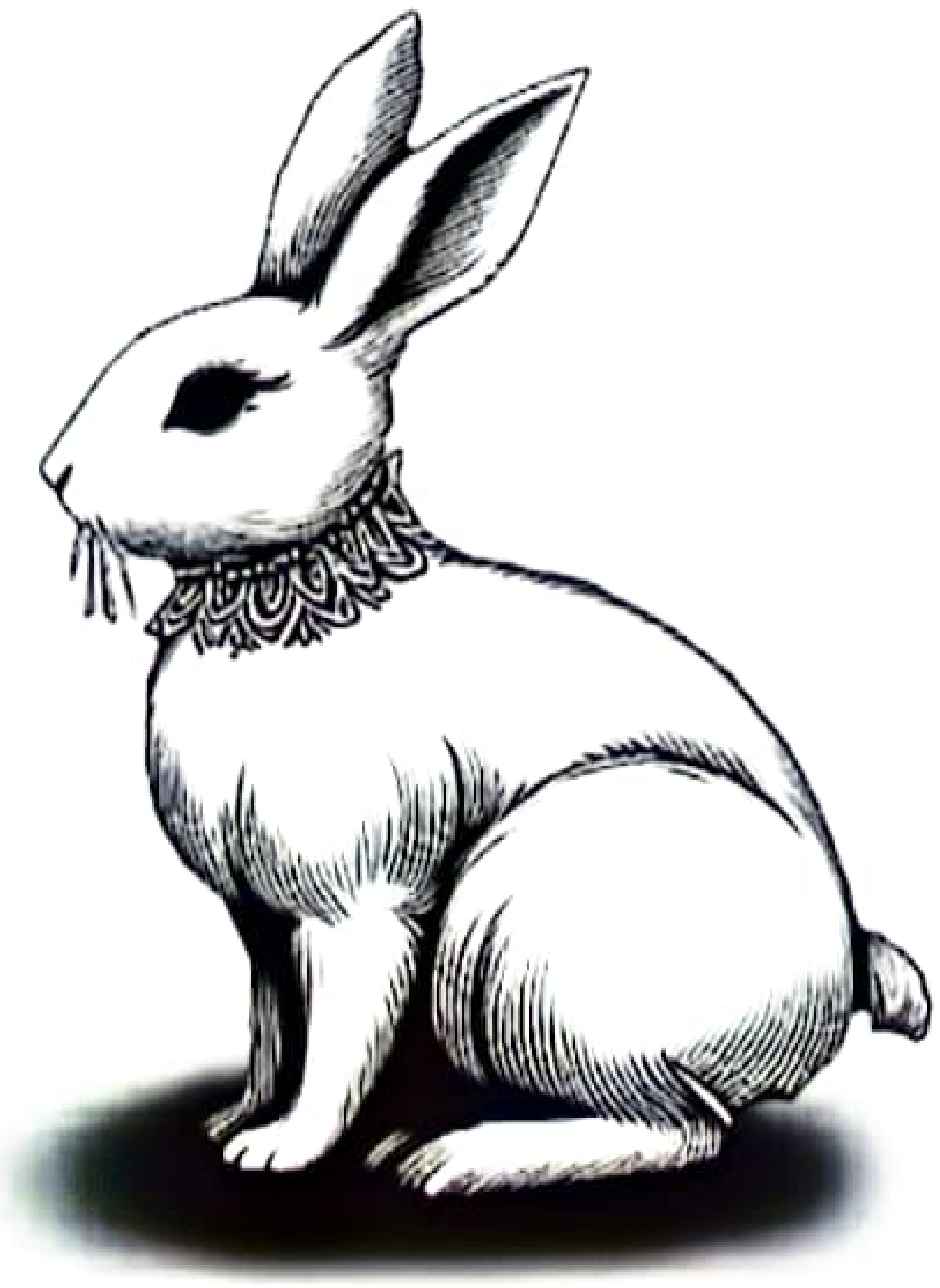

في عيادة الدكتورة رحمة، جلستُ أمامها في سعادةٍ كعادتي عندما أراها كل مرة. أعطتْني بعض الألوان وطلبتْ مني أن أرسم لها شيئًا، كعادتي أجبتُها بأنني لا أعلم تحديدًا ما يجب عليَّ أن أرسمه، كررتْ هي إجابتها وقالت أنها تريدني أن أرسم ما يحلو لي، أن أرسم ما يجول ببالي وروحي.

أمسكتُ اللون الأسود ورسمتُ بيتًا صغيرًا، إلى جانب المنزل رسمتُ أبي وأمي وأختي يارا وأنا إلى جانبها، وفوق رأسي رسمتُ طيفًا أسود. نظرتْ هي إلى الرسمة باهتمامٍ وسألتْني:

- اللي فوق راسك دا العفريت؟

- آه.. بس هو مش بيبقى موجود طول الوقت.

في المساء، خرجتُ من الفندق بعدما لملمتُ أغراضي وعدت إلى المصحة ومعي أنس. ابتعتُ البُنَ والسكر وبعض اللوازم، لم ينطق أحدٌ مِنَّا طوال الطريق حتى تحدَّث هو ونحن على مَقربة من المصحة:

- لسه عايزني أسيب المصحة؟

قالها أنس ببعض الاستعطاف، ولكني تكهنتُ من طريقتِه بأنه يقول لي "أسيبك هنا لوحدك؟".

- صدقني، دا لمصلحتك.. بس بعد اليومين دول ما يعدوا عشان كل حاجة تمشي زي ما مخططلها مظبوط.

- ماشي يا عم يونس. طب والصور والفيديوهات؟

- طول ما انت جدع معايا أنا كمان هفضل معاك يا أنس.

أدخلني أنس المصحة وعاد إلى منزله.

سرَتْ في جسدي قشعريرة مُربكة عند شعوري بأني سأبقى تحت سطح الأرض لفترةٍ من الزمن، خوف وقلق ممزوجين برغبةٍ مخيفة في الانتقام؛ هذا كل ما يسيطر عليَّ الآن، ولكن الأهم من كل هذا.. هل ياسمين حقًا على قيد الحياة؟!

في غرفتي بالمصحة رأيتُ ياسمين مُعلَّقة من رقبتِها بحبلٍ غليظٍ في السقف، تُحرِّك قدميها يمينًا ويسارًا كمحاولةٍ أخيرة منها للتشبّث بالحياة، وأنا لا أقوى على الحركة ولا أستطيع حتى أن أقترب منها لأُنقذها، أُحاول أن أتحرك فيُمسك بي هؤلاء الأطفال الذين كانوا يضربونني في المدرسة، على رأسهم (فكري)، يبتسم لي وهو يُحرك جثة ياسمين فأستشيط غضبًا، أُقاوم ضعفي وأنهض من مكاني فينسلخ جلده ويتحول إلى خنزيرٍ بَرِّيّ شديد القُبح، الدماء والقمامة يمتلئ بهم جسده السمين، يقترب مني وينطحني بقرونِه، فأفتح عينيَّ وأنا أَلهَثُ بعُنفٍ شديد..

الكوابيس.. الكوابيس لا تنتهي ولا تموت.

أُعِد لنفسي كوب قهوة على (السبرتاية)، أتناولها وأخلد إلى النوم لأستعد إلى يومي الأول بالمصحة.. مصحة الموت الأسود.

عزيزي ثيو،

هل البحث عن الراحةِ أشبَه بالبحثِ عن المستحيل؟!

هل مكتوبٌ لَنا أن نرتاح يومًا من كل هذا؟!

فينسنت.

فتحتُ عينيّ في الصباح لأجد عادل أسود جالسًا أمامي، تعجبتُ لرؤيته في غرفتي وتعجبتُ أكثر من نومتي العميقة في هذا المكان!

دعكتُ عينيّ لأتخلّص من وجع رأسي..

- كل دا نوم يا دكتور؟!

- هي الساعة كام؟

- الساعة 12. عم منير جالك 10 بالفطار لقاك لسه نايم.

- مش عارف إزاي نمت كل دا! أنا هبقى تحت في 5 دقايق.

- خد وقتك. فطارك على الترابيزة آهو.. افطر وابدأ مع حالاتك ونبقى نتقابل آخر اليوم.

العجيب أنّ الطعام يبدو شهيًا في مكانٍ مثل هذا!

تناولتُ الطعام في عجالة، بعدها ارتديتُ قميصًا أبيض وبنطال جينز وذهبتُ لأستقبل أول جلسة مع (أستاذ سعد).

مثلما تركتُه البارحة، ما زال يقبع في نفس المكان، يجلس في ثباتٍ ينظر إلى الحائط بعينٍ مُثقلةٍ بالهموم، ملامح وجهه غير واضحة أسفل لحيتِه الكبيرة والتي في الأغلب لم يحلقها منذ أعوامٍ طويلة.يقول ملفُّهُ أنَّه في المصحة منذ أكثر من عشر سنوات -هو في الأغلب المريض الأقدم هنا- أودَعتْه زوجتُه بالمصحة عندما حاول قتلها ذات ليلة مستخدمًا وسادة، ظل يصيح بها ويقول لها أنها ليستْ زوجتُه وأنها قامتْ بقتل زوجته لتنتحل شخصيتها.

لم يظهر عليه أي أفعال عدوانية خلال مدة إقامته بالمَصحَّة، إلَّا عندما تأتي زوجتُه لزيارته يتحول من حالة الثبات إلى شخصٍ عنيفٍ ويحاول أن يُمسك بها ليؤذيها.

ترتبط متلازمة (كابجراس) بشكلٍ شائع بمرض (ألزهايمر) أو (الخرف)؛ كلاهما يؤثر على الذاكرة ويمكن أن يُغيّر الإحساس بالواقع، يمكن أن يُسبب المرض (انفصام الشخصية)، وخاصةً مرض (انفصام الشخصية الهلوسي)، في حالاتٍ نادرة، يُمكن أن تسبب إصابة الدماغ أيضًا متلازمة كابجراس، ويكون هذا السبب أكثر شيوعًا عندما تحدث الإصابة في الجزء الخلفي من نصف الدماغ الأيمن، حيث أن الأدمغة هي التي تُعالج التعرّف على الوجه. يمكن كذلك للأشخاص الذين يعانون من (الصرع) تجربة متلازمة كابجراس في حالاتٍ نادرة.

هناك العديد من النظريات حول أسباب المتلازمة، ويعتقد بعض الباحثين أن هذه المتلازمة ناتجة عن مشكلة داخل الدماغ، مثل الضمور أو خلل في المخ، ويعتقد البعض أنه مزيج من التغييرات الجسدية والمعرفية، والتي تساهم فيها مشاعر الانفصال في المشكلة.

وآخرون يرون أنها مشكلة في معالجة المعلومات أو خطأ في الإدراك، فتتزامن مع ذكرياتٍ تالفة أو مفقود؛ وتلك تحديدًا ما أريد أن أبحث عنها، الذكريات المفقودة لديه.

أحضرتُ مقعدًا آخر وجلست إلى جواره أتأمله قليلًا؛ من ملامحه يبدو عليه الكثير من اللا اكتراث للمحيط من حوله، إلا

أنه يتمسك بشدة بتلك الصورة في يده.

- أستاذ سعد! حضرتك سامعني؟

ولكن لا إجابة عليَّ أو رد فعل على الإطلاق.

حاولتُ أن أُمسك بالصورة التي في يده لأراها، فغضب مما فعلتُ وسقطتْ الصورة على الأرض!

بدأ يُزمجر وهو يجاهد ليصل إلى الصورة، لمحتُ بعض الكلمات على ظهر الصورة، تحديدًا كانت جملة واحدة:

"يا نور جديد في يوم سعيد.. دا عيد ميلادك أحلى عيد".

نظر إليَّ بغضبٍ وهو يأخذ الصورة مرةً أُخرى بين يديه، اعتذرتُ منه وغادرتُ غرفتَه.

بداية غير مُبَشِّرة مع حالتي الأولى!

في طريقي إلى الحالة الثانية كان عم منير جالسًا أمام إحدى الزنازين يحتسي بعض الشاي، ألقيتُ عليه السلام واعتقدتُ أنه قد يساعدني..

- بقولك يا عم منير!

- أوامرك حضرتك!

- قريت جملة كدا قُلت يمكن تبقى عارف حكايتها..

- مش فاهم يا دكتور!

- "يا نور جديد في يوم سعيد.. دا عيد..."

استوقفني وقد تهلّلتْ أساريرُه وقال:

- الله عليك يا دكتور! (محمد فوزي) وجماله، هي دي الأغاني حضرتك مش المهرجانات والقرف دا.

- دي أغنية لمحمد فوزي؟

- من أجمل أغانيه يا دكتور.. يا رب يجيبوها على الراديو النهاردا..

لمعتْ في رأسي فكرة، شكرتُه وذهبتُ لأرى حالتي الثانية، الأميرة ديانا.

عندما دخلتُ غرفتها، كانت تجلس على فراشها تنظر إلى السقف، وعندما رأتني ابتسمتْ في هدوءٍ واعتدلتْ في جلستها.

يُشير السلوك الانتحاري إلى التعاسة العميقة، لكن ليس بالضرورة إلى الاضطراب النفسي؛ لا يتأثر كثير من الناس المتعايشين مع الاضطرابات النفسية بالسلوك الانتحاري، وليس كل الناس الذين ينتحرون لديهم اضطراب نفسي.

أسأل نفسي كثيرًا هذا السؤال، لماذا ينتحر الناس؟! لماذا يُنهي عدد كبير من الناس حياتهم بأيديهم كل عام؟!

السلوك الانتحاري هو من أكثر الأمراض النفسية تعقيدًا بسبب تفاعل الكثير من العوامل ببعضها البعض، سواء كانت عوامل اجتماعية أو ثقافية أو شخصية أو غيرها، وفي بعض الأحيان يكون الانتحار قرارٌ لحظيّ!

- صباح الخير يا ديانا، أنا يونس!

- أول مرة أقابل دكتور ما يعرَّفش نفسه بلقب (دكتور)!

شديدة الذكاء هي، يبدو هذا في عينيها، شديدة الجمال أيضًا، على يديها الكثير من (التاتو)، تحاول أن تبدو طبيعية وانسيابية في حديثها إلَّا أن بداخلها بركان ينتظر لحظة نشاطه.

- لا، أنا متواضع. قوليلي أخبارك إيه؟

- زي الفل. معاك سجاير يا يونس؟

تُحاول أن تُظهر قوتها، تريد أن تقول بأعلى صوتٍ لها أنها ليستْ طفلة، تريد أن تُظهر تمردها، تريد أن تخبر الجميع أنها أشبَه بالملاهي، تبدو جميلة من الخارج ولكن بداخلها يوجد الكثير من الألعاب المرعبة.

- سجايري في الأوضة. قوليلي سجايرك إيه وأنا أجيبهالك!

- Macbeth تشوكلت.

- عندك كام سنة يا ديانا؟

- تديني كام سنة؟

أعلم أنها في الثانية والعشرين، متفجرة الأنوثة، مَن يراها يتصورها في عقدها الثالث، هي النار في جمالها والجليد في برودتها، هي كوكب يأتيه الصيف والشتاء في نفس التوقيت.

- إيه اللي جابك المصحة هنا؟

- أهلي يا سيدي.. بيقولوا البنت ديانا اتجننتْ وبتحاول تموّت نفسها!

- بس اللي شايفها قدامي دلوقتي مش واحدة مجنونة.. بالعكس!

- حكايتي شبه الأفلام العربي اللي طول عمرنا بنتّريق عليها وإن قد إيه الأفلام دي فيها مبالغة.

- حابب أسمع!

- لما تجيب السجاير هبقى ساعتها أقرر أحكيلك ولا لأ.

أحببتُ شخصيتَها، تبدو كامرأة ناضجة تمامًا من الخارج، ولكني أعلم أن بداخلها طفلة في السابعة من العمر، ترتدي فستانًا مليئًا بالورود، في يدها عروستها ولا تعطي أهمية للأشياء المظلمة حولنا.

ما قصتكِ يا ديانا؟!

زيارتي لحالتي الثالثة (صلاح)، لم تختلف كثيرًا عن زيارتي للسيد سعد أو ديانا، فشلتُ في التعامل معه.

كان يقف أمام باب الزنزانة عندما دخلتُ عليه، يصهل بشكلٍ هيستيري، يضرب بقدميه في الأرض متحفزًا أو غاضبًا. حاولتُ أن أقترب منه بحذرٍ إلَّا أن صوت صهيله أربكني وألجمني، فأخذتُ عِدة خطواتٍ إلى الوراء تحسبًا إلى أي رد فعلٍ منه. أدركتُ أنني يجب أن أدرس نفسية الخيول حتى أستطيع أن أُعالجه، ولكن.. لا أعتقد أن ما يُسيطر عليه في تلك اللحظة هو شعور الغضب!

قمتُ بخلع قميصي وبحذرٍ شديد وضعتُه على جسده العاري، هدأ قليلًا وهو يراني أُساعده في ارتداء القميص، هزَّ رأسَه بامتنانٍ بعدما انتهيتُ، علمتُ منذ اللحظة الأولى أنه يشعر بالبرد. لم أُرِد أن أُطيل جلستي الأولى معه، ما حدث الآن يكفي لترك انطباعٍ جيد بيننا.

ابتسمتُ له وغادرتُ غرفتَه.

في طريقي إلى غرفتي لأحصل على قميصٍ آخر لنفسي شعرتُ بشخصٍ ما يتتبعني، نظرتُ ورائي خلسة لأجد عم منير يراقبني من مسافةٍ قريبة، ابتسمتُ له وناديتُ عليه:

- إوعى تكون مُعجب بيا يا عم منير!

- الله يجازي شيطانك حضرتك! لا، أنا بتطمن إنك مش محتاج أي حاجة.. مش عايزني أحضَّرلك الأكل؟

- لا، مش جعان دلوقتي. تعالى انت معايا أعزمك على فنجال قهوة في أوضتي!

دَلَفنا إلى الغرفة سويًا، جلس هو على استحياءٍ واتجهتُ أنا إلى السبرتاية، بدأتُ في إشعالها حتى شعرتُ بيدٍ تُحاوطني من الخلف!

نظرتُ ورائي فوجدتُ (حنين) تبتسم لي في شر!

تراجعتُ مُسرعًا فسقطتْ السبرتاية. المفاجأة الأكبر أن (عصفورة) ظهرتْ أيضًا من خلف حنين!

الصدمة شلّتني تمامًا، والأسوأ أن عيونهما كانت غريبة، تحولتْ

عيناهما هما الاثنين إلى اللون الأبيض، يشبهان الأشباح التي كنتُ أراها في منامي عندما كنتُ طفلًا، يقتربان مني هما الاثنين ببطءٍ مُخيف وتعتَلي وجوههم ابتسامةً تمتص مُسببات الحياة. حاولتُ الابتعاد عنهم إلّا أنني تعثرتُ بالكُرسيّ وسقطتُ على الأرض مغشيًا عليَّ...

- دكتور يونس.. اصحى يا دكتور يونس!

نظرت حولي لأجد نفسي بغرفتي في المصحة، فوق رأسي عم منير يحاول إيقاظي، بينما جلس الدكتور أسود على الكُرسيّ ينظر إليَّ باهتمام..

- إيه اللي حصل؟

- حضرتك قُمت تعملنا القهوة واتكعبلت على دماغك أغمى عليك!

وجهتُ نظري إلى الدكتور أسود الذي ابتسم وقال:

- اجمد كدا يا دكتور.. دا إحنا لسه بنسَخَّن!

- مش عارف إزاي دا حصل.. بس أنا تمام. كنت هقول أصلًا لعَم منير يفرَّجني على باقي الأُوَض في المصحة بعد القهوة.. شُفت يافطة أول ما جيت مكتوب عليها (غرفة العزل وغرفة التأمل)!

- غُرفة العزل بقالها أكتر من سنة محتاجة صيانة فمش بنستعملها.. وبالنسبة لغُرفة التأمل أنا مش بس هخليك تشوفها، وهخليك تجرَّبها كمان.. اختراع مدهش..

بعدها قام من مكانه وأشار إلى العم منير أن يتبعه، ثم أكمل كلامه وهو خارج من الغرفة:

- النهاردا ارتاح.. عم منير دقايق وهيجيبلك العَشا.

في الصباح، كنتُ في طريقي إلى أستاذ سعد.

اليوم كان نائمًا على فراشِه ووجهه إلى الحائط. كنتُ قد أعددتُ الخطة من البارحة، جلستُ على الكرسي بجانبِه وأخرجتُ هاتفي من جيبي، ضغط على play فانبعث صوتُ (محمد فوزي) الحنون يقول:

"يا نور جديد في يوم سعيد.. دا عيد ميلادك أحلى عيد..

يوم ما اتولدتي البدر قال: يا حُسنها!

أغيب أنا وهي تنوّر مطرحي".

كنتُ متأكدًا من نجاح الفكرة، فور أن بدأ في الاستماع إلى الأغنية حتى قام من مكانه ونظر إليَّ وعيونه مُمتلئة بالدموع، مد يده إليَّ بمعنى أن أُعطيه هاتفي، ترددتُ قليلًا ولكن نظرة التوَسل في عيونِه أرغمتْني على أن أُعطيه الهاتف. أمسك به والأغنية ما زالت تتغنَّى، قرَّب الهاتف من أُذنيه -في الأغلب يواجه صعوبة في السمع- أشعر بشفَتيه تتحرك مُرددة أنغام الأغنية بصوتٍ واهِن، صوت يليق بشخصٍ لم تخرج كلمة واحدة منه منذ أكثر من عشرة أعوام!

فور أن انتهتْ الأغنية وجدتُه يُشير بإصبعه إلى الهاتف كأنَّه

يُخبرني مثلما يفعل الأطفال أنَّه يُريدها مرةً أُخرى؛ ابتسمتُ له ونفذتُ طلبَه. بينما هو يستمع إلى الأغنية ناديتُ عم منير والذي تفاجأ من استجابة سعد للأغنية..

- حضرتك أنا أول مرة أشوف أستاذ سعد فاتح – لا مؤاخذة- بوقه إلا وهو بياكل!

أخرجتُ من جيبي بعض المال وأعطيتُه إليه:

- عايزك تسيب اللي وراك وتروح تشتري من أي حتة كاسيت من اللي بيشغل سيديهات.. وتشتريلي سي دي عليه أغاني محمد فوزي.. بسرعة!

- طب أستأذن من الدكتور أسود أو الدكتور أنس!

دسستُ في جيبِه خمسين جنيهًا:

- لا، ما توجعش دماغهم.. انت سريع يا عم منير مش هتاخد وقت. وآه، هاتلي علبتين سجاير **macbeth** شيكولاتة.. أكتبلك اسمها في ورقة؟

- عيب يا دكتور.. ماكبس السودا دي.. عارفها عارفها.

فور أن غاب منير عن الأنظار حتى بدأتُ أتفقَّد جميع الزنازين باحثًا عن ياسمين، وكلما فتحتُ واحدة أرى الموت في أعيُن المرضى، نتبادل النظرات دون أن نقول أي شيء.

أصبحتُ أعرف زملائي المرضى النفسيين حق المعرفة، زملاء المصحّات أصحاب الهلاوس والذهان وغيرها من الأمراض

النفسية، أعرفهم من النظرة الأولى، بعيونهم الهامدة، أشخاص ضبابيون لا يعرفون النور والضياء، أصدقائي الذين يقضون حياتهم بين النوم والهموم، هؤلاء مَن اقتربوا من حافة الموت أكثر من اللازم وفي النهاية القرار متروكٌ لهم؛ أن يستعيدوا حياتهم أو يقفزوا !

أُفتِّشُ عنها ولا أفلح في إيجادها حتى الآن؛ تلك المصحة من المؤكد أنّ بها غُرف سِرية!

الفصل الخامس

الجنين

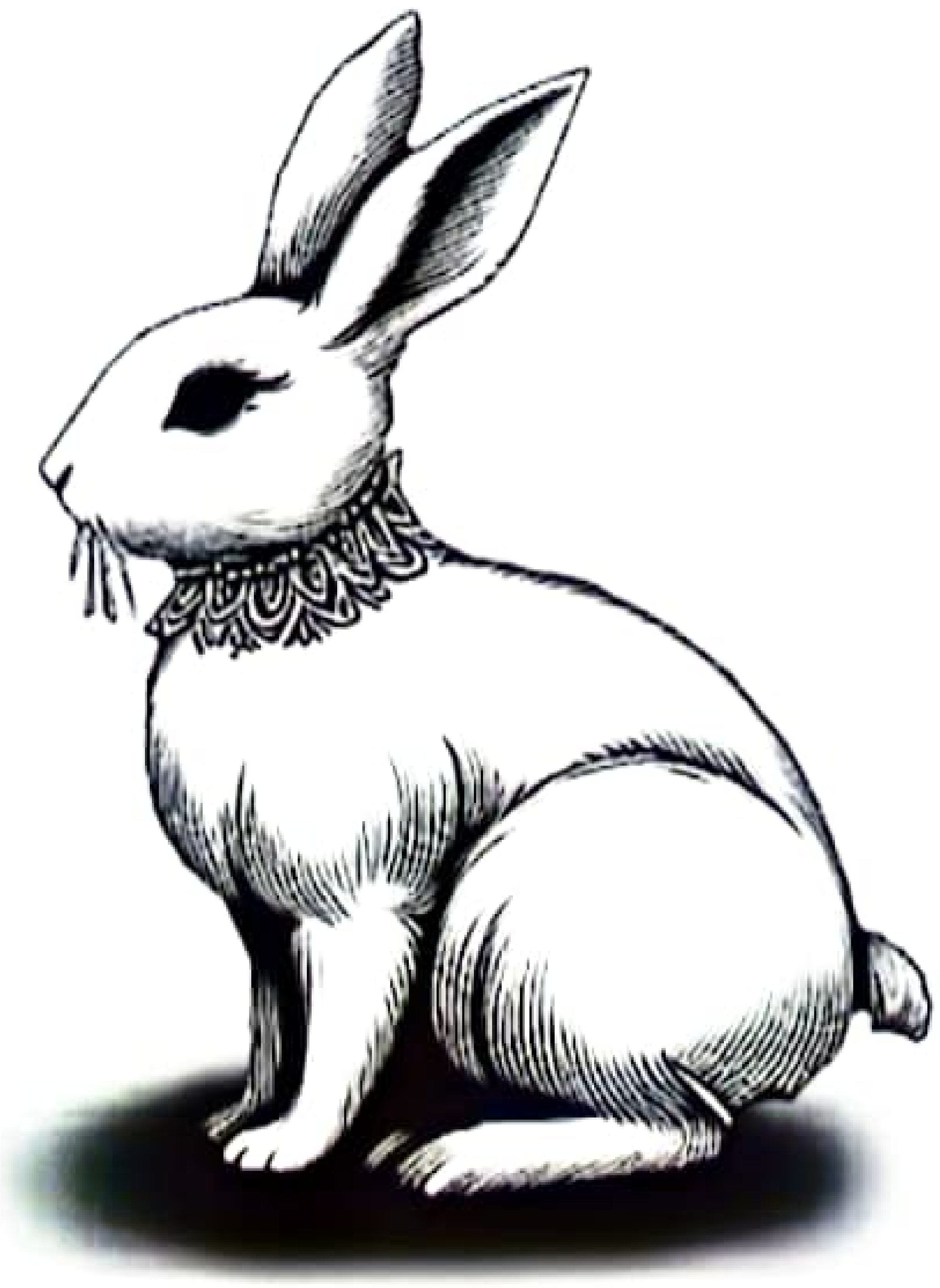

نظرتُ حولي وإذ بالبَهو يتحول لونه إلى الأخضر، تخرج من الأرض المئات من ورود عباد الشمس، يلتفون حولي فأفشل في الحركة، ينبعث أمامي من باطن الظلام (فينسنت)، بقميصِه البالي وأُذنِه الواحدة، يتربَّع أمامي ويبدأ في رسمي وأنا مُحاط بتلك الورود، أكاد أختنق ولكنه لا يهتم سوى برسمتِه اللعينة، أُجاهد لألتقط أنفاسي بينما هو يدير الرسمة ليُرِيَني إياها، كانت رسمة لي في طفولتي، أجلس على فراشي وأُمسك بين يدي قناع أرنب يسيل منه الدماء!

- حلوة الرسمة؟!

يسألني (فان جوخ) ولا أُجيبه.

الآن، أرى روحي تغادر جسدي بعدما تم خَنقي تمامًا من تلك الورود اللعينة، أتحرَّك في الهواء بلا قيود أخيرًا، ولكن.. كيف للروح أن تشعر بكل هذا الألم؟!

فتحتُ عيني لأجدني ما زلتُ أمام الأستاذ سعد والذي ما زال يُشير إلى الهاتف لكي يستمع إلى الأغنية مرة أخرى. بدأ محمد فوزي في الغناء مرة أخرى، بينما جلستُ أنا بلا حراك أحاول أن أستَشِف ما يحدث لي.

لم يتأخر منير، عاد بعد ساعةٍ تقريبًا معه كل ما أريد، أعطيتُه خمسين جنيهًا أخرى امتنانًا لسرعة استجابته لطلبي.

وضعتُ مُشغل السي دي فوق الطاولة وفور أن بدأ محمد فوزي في الغناء حتي رأيتُ سعد يقوم من مكانه ويتحرك في الغرفة

كَمَن يبحث عن شيءٍ ما، ظل يبحث طويلًا حتى عثر على ضالتِه المنشودة؛ قطعة متناهية الصغر من الطباشير، أخذها بين يديه وبيدٍ مُتلجلِجة بدأ في رسم شيءٍ ما على الحائط، ظللتُ أُراقبه باهتمام حتى توقف عن الرسم. كانت رسمة بسيطة لشباكٍ مفتوح على مصراعيه؛ سعد يستخدم خياله ليشعر بأنه أفضل، سعد ما زال متمسكًا بشيءٍ ما، بصورةٍ لا يتركها من يده لشخصٍ قد يكون ما عاد موجود في تلك الحياة!

- كل يوم هجيلك الصبح نسمع مع بعض محمد فوزي، ولو بدأت تحكيلي هسيبلك الكاسيت دا تسمع فيه محمد فوزي اليوم كله.

حدقة عينيه مُعلقة بي، لقد حصلتُ على اهتمامه أخيرًا. فأشرتُ بإصبعي إلى رسمتِه على الحائط وقلتُ:

- ولو بقينا صحاب هخليك تطلع تمشّى فوق وتشوف الشمس!

أغلقتُ الكاسيت وأخذتُه بين يدي، وتركتُ الأستاذ سعد بعدما تأكدتُ تمامًا أنِّي سأحصل على ما أُريد في زيارتي القادمة له.

كان منير في انتظاري قبل دخولي لديانا ليُخبرني أن الدكتور أسود يريدني في مكتبه، صعدتُ الدرج إلى مكتبِه حيث كان ينتظرني بجانب تمثال فرويد.

- طمني عليك يا دكتور!

- الحمد لله.. شوية تعب بيجي ويروح.

- المهم تاكل كويس وتنام كويس.. 3 حالات بس في اليوم

يخلوك عندك وقت كتير للنوم والاسترخاء.

اقترب مني كأنه يكشف على عيني، مَطَّ شفتيه باستياءٍ ثم قال:

- تحت عينيك أسود.. سجاير وإرهاق. مش بتخاف على نفسك انت يا دكتور..

لم أشعر بالارتياح لاقترابه مني. تراجع خطوتين إلى الخلف متظاهراً بالاهتمام مرة أخرى بتمثال فرويد..

- عمرك جرَّبت تدخل غرفة التأمل يا دكتور؟

- إيه هي غرفة التأمل؟

- تعالى معايا..

- طب والحالات؟!

- يستنوا.. الدكتور محتاج يبقى كويس عشان العيانين يبقوا كويسين.

تبعتهُ إلى الدور السفلي؛ باب عملاق كتب بجانبه (غرفة التأمل)، دَلفنا سويًا إلى غرفةٍ عملاقة، خاوية تمامًا باستثناء جهاز غريب أشبه بخَزّان المياه، إلّا أنه شفاف اللون، متصل ببعض الخراطيم وجهاز تحكم. أول شيء اكتشفتهُ بالغرفة هو هدوءها العجيب، لا صوت على الإطلاق، هدوء الغرفة مُربك، بدأتُ أستمع إلى أشياءٍ لم أتخيل في يوم من الأيام أن بإمكاني سماعها؛ صوت نبض قلبي أسمعه بوضوح، أصوات معدتي وحتى صوت الدماء تجري في شراييني، وكأن الضجيج يأتي لأول مرة

من الداخل وليس بالخارج!

- دي زي غرف جلسات الحياة السابقة؟

- لا لا.. مش سكتي خالص الحاجات دي ولا برضه ليها علاقة بالـ (شاكرا) رغم إن الأفكار قريبة من بعض. ببساطة أنا هخليك ترجع للبداية..

- البداية!!

- شايف الخزان دا؟ دا أعظم اختراع عمله والدي الدكتور نجيب أسود، اسمه (الجنين).. ببساطة الشخص بيدخل جوا الخزان دا، بيتركبله خرطوم أكسجين للتنفس، بعد دقايق الحوض ده بيتملى على آخره بالمياه، وكأن الشخص رجع جوا الرحم، حاجة شبيهة بفكرة الكيس الامينوسي. جوا الجهاز العظيم دا حضرتك بتمر بـ 9 مراحل زي ما الجنين بيحتاج 9 شهور عشان ينمو، 9 مراحل بتنشطلك الذاكرة والإدراك، 9 مراحل بتخليك تدرك وتفتكر أسرارك؛ في المرحلة السابعة المياه بتبدأ تقل، في المرحلة التاسعة بتبقى شفت حياتك كلها زي فيلم سينما وانت المُتفرج الوحيد. تجربة هتريحك من وجع دماغك.

كلام كثير لم أستوعبه أو أُصدقه.

نظرتُ إلى جهاز التحكم وسألتُه عنه، فأجاب:

- دا جهاز بعرف منه إحداثياتك، نبض القلب وضغط الدم والكهربا في الجسم، عشان لو أي حاجة خرجت عن السيطرة أقدر أساعد الحالة في الوقت المناسب.. يلا بينا؟!

- تفتكر الاختراع دا حقيقي؟

- جَرَّب وشوف بنفسك.. هسيب الحكم ليك!

متلازمة الذاكرة الكاذبة..

في ليلةٍ كان من المفترض أن تكون رومانسية، دعا الشاب الأمريكي (ستيف تايتس) خطيبته إلى العشاء في أحد مطاعم ولاية واشنطن. استقَل الاثنان سيارتَه، التي كانت لسوء حظه تشبه سيارة أحد المتهمين في قضية اغتصاب فتاة في الحي. أوقفتْ الشرطة ستيف وخطيبته ووَجَّه إليهما الضابط بعض الأسئلة، ولسوء حظ ستيف للمرة الثانية كانت ملامح وجهه تشبه أوصاف المغتصِب كثيرًا، فوضعته الشرطة رهن الاعتقال.

في اليوم التالي، عُرِضتْ صورة ستيف على الفتاة ضحية الاغتصاب فأظهرتْ شكًا في أنه الجاني، لكنه كان الأقرب في الشكل من بين كل المشتبه بهم، فوُجِّه الاتهام إليه. إلى هنا تبدو القصة عادية، لكن ما قلب الموازين أن الفتاة أكدتْ في قاعة المحكمة بكل ثقة أن ستيف هو من اغتصبها. لم تكن تكذب، بل كانت واثقة فعلًا.

صرخ ستيف ببراءته لكن أحدًا لم يسمع، سوى خطيبته التي أوصلتْ قصته إلى صحفي في قسم التحقيقات بجريدة محلية. تابع الصحفي القضية حتى وصل إلى الفاعل الحقيقي، الذي اعترف كذلك بأنه نفَّذ 50 جريمة اغتصاب غيرها، لكن هذا كان بعد أن قضى ستيف سنة مريرة في السجن، وبعد أن طُرِد من وظيفته التي عمل جاهدًا كي يصل إليها، وبعد أن انهارتْ خطيبته

وفقدتْ أملها، وبعد أن صارتْ حالته النفسية سيئة للغاية بسبب الظلم الذي وقع عليه. خرج ستيف تايتس لكنه رفض أن ينسى الماضي ويبدأ حياته من جديد، فباع كل ما يملك وقرر أن يقاضي الشرطة، يقاضي الحي، يقاضي الفتاة، يقاضي كل من سلب منه حريته وحياته. وبينما تنفجر عروقه بالحماس، استيقظ في صبيحة المحاكمة حازمًا أمره وأوراقه، فاليوم سيستعيد حقه في أسوأ سنة عاشها، لكنه شعر بألمٍ شديد ولم يستطع حتى أن يطلب مساعدة. أسقطتْه أزمة قلبية جثة هامدة فوق أوراق قضيتِه، بسبب الضغوط العصبية والنفسية التي لم يستطع تحملها، أو بالأحرى مات بسبب ذكرى زائفة.

الذاكرة الزائفة حالة نفسية يتذكر فيها الشخص أحداثًا لم تقع فعلًا.

أبسط مثال يمكن أن نضربه حين تعتقد أنك تركتَ شيئًا مثل قلمك على المنضدة، وتُقسم أنك فعلت، بينما هو لا يزال في جيبك.

أنت لم تكذب، لكنك نطقتَ كذبًا، فذاكرتك صوّرت لك هذا الحدث فعلًا، وربما رأيتَ نفسك وأنت تُخرج القلم من جيبك وتكتب به شيئًا ثم تضعه على المنضدة وترحل، لكن هذا لم يحدث، بل صنعتْه ذاكرتك في محاولة لملْء الفراغات الموجودة فيها، فاصطنعتْ ذكريات أُخرى أكملتْ بها القصة بناءً على خبرة سابقة أو كلام سمعته، أو ربما بالتخيل فقط. هذا ما حدث مع ستيف تايتس، فالفتاة لم تكذب، بل وقعتْ ضحية ذكرى زائفة.

- إيه يا دكتور يونس.. روحت فين؟!

- إيه رأيك في الذكريات الكدابة يا دكتور؟

- مش بقتنع بإن فيه حاجة اسمها ذكريات كدابة.. الذكريات شيء مُخيف طبعًا مافيش جدال على دا.. بس الذكريات في رأيي دايمًا بتاخد صفك، الذكريات مش بتبقى عدو ليك، أحيانًا بتتحكم في سلوكك وانفعالاتك بس مش هتبقى سبب لهلاكك. يلا عشان أثبتلك خرطوم الأكسجين.. بعد التجربة قولي غيرت رأيك عن الذكريات ولا لأ.

كان الماء دافئًا، أكثر ما أرعبني فكرة وجودي في حوضٍ أو خزانٍ مُغلق من الخارج وأنا عالِق بداخله كسَمكةٍ فقدتْ القدرة على العوم في محيطٍ عملاق.

أغلق دكتور أسود نور الغرفة فتحوّل لون الغرفة إلى لونٍ بنفسجي غريب، أشار إليَّ من خارج الخزان بأن أُغلق عينيّ ففعلتُ، بدأتُ في التنفس بشكلٍ أفضل وتركتُ لروحي العنان، كنتُ بالفعل في تلك اللحظة أُشبِه الجنين، أطفو في ماء السلوى، لا أمتلك نفعًا أو ضرًا لنفسي، فقط جسد مُعلّق في هذا الهدوء العجيب من الماء الدافئ، أشتَم رائحة جميلة مُسكِرة رغم كون أنبوب الأكسجين مُثبّتٌ بوجهي، لا أسمع الآن سوى دقات قلبي.

الآن، أنا في ثباتٍ عجيب.. أسمع أصواتًا منبعثة من داخلي، وكأن جسدي يعزف مقطوعة موسيقية عازفيها هم أعضاء جسدي، فتحتُ عيني فوجدتني أقف في ملعب المدرسة، يبدو

أصغر قليلًا الآن نظرًا لتقدُمي في العمر. أنظر حولي فلا أرى أحدًا من التلاميذ إلا طفل وحيد يجلس في أحد أركان الملعب يبكي والدماء تسيل من أنفه، أقترب منه لأجده أنا، يونس الطفل الوحيد الذي يكرهه الجميع، أُحاول أن أُربّتِ عليه ولكنني لا أقوى على لمسه!

نظر إليَّ بكُرهٍ شديدٍ وقال:

- انت السبب!

لم أفهم، كيف أكون سببًا في شيء كهذا؟!

لقد حاولتُ بكل الطرق ألّا أوذي نفسي مع مرور السنوات، ولكن الأذى كان دومًا الرفيق في كل خطواتي، وكأنني خُلقتُ من اللا انتماء، غريب في عالمٍ يرفضني، غريب في عالمٍ يكرهني، أبحث طوال حياتي عن تلك الثغرة التي تترسب منها كوابيس حياتي!

قام يونس الطفل من مكانه، وفور أن تحرك حتى تبدَّدَ المشهد وكأن الظلام ابتلعني، لأجد نفسي في مكانٍ آخر لا أعرفه، في الواقع أنا الآن شخصٌ آخر، أنظر إلى انعكاس وجهي في بركة المياه المتكوّنِة بأرض غرفتي نتيجة ثَقبٍ في السقف؛ وجهي هزيل، ملابسي بالية ولون شعري أحمر، الغرفة مُمتلئة بلوحاتٍ بيضاء ولوحاتٍ نصف مرسومة، أعرف تلك اللوحات جيدًا!

أنا فان جوخ!!

أسمع صوتًا من خارج غرفتي لسيدة تقول:

- "سيعيش أكثر لو نجح في الحب".

نحن الآن في عام 1874، أقبع في غرفةٍ حقيرة بإحدى الحانات بعدما تم طردي من المنزل الذي كنتُ أعيش فيه بسبب اعترافي بحبي لـ (أورسولا)ز

منذ شهرٍ رفضتْني الفتاة الجميلة (أورسولا لوير) ابنة صاحبة المنزل الذي كنتُ أُقيم فيه في لندن، فبعد إخفائي لمشاعري طوال شهور إقامتي في المنزل، انفجرتُ ذات صباح مُعلنًا حبي للسيدة الشابة قائلًا لها:

- "أمس، فكرتُ حين آويتُ إلى سريري في اسمٍ يصلح لكِ. لقد دعوتكِ (ملاك)".

ضحكتْ من قلبها صائحة، لم أفهم إن كان هذا استهزاء أم سعادة!

- "ملاك؟! ينبغي أن أذهب وأروي ذلك لأُمي".

نظرتُ إليها، أنا نادرًا ما أهتم بامرأة، لقد نشأتُ في بيتٍ مُتزمِّت، ولم أُحب فتاةً من قبل، ولم يكن إعجابي بأورسولا مجرد نزوة أو شهوة، فأنا أحب للمرة الأولى، أنا حتى لم أكن أعرف تحديدًا ما هو الحب من قبل!

نظرتْ إليَّ بعينين متعجبتين وقالت أنها لم تعد تفهمني ولا تفهم نظراتي لها، تلعثمتُ وقتها، لم يقوَ لساني أن يبوح لها في تلك اللحظة بشعوري.

- "فينسنت.. ما الذي تحاول أن تقوله لي على وجه التحديد؟".

- "إنني أُحاول أن أُخبركِ يا أورسولا شيئًا تعرفينه مقدمًا، وذلك أنني أُحبكِ من كل قلبي، ولن أكون سعيدًا إلا إذا أصبحتِ زوجتي".

- "زوجتك؟ إنه لأمر غريب أنك لا تعرف أنني مخطوبة منذ عام".

مَرَّ على الاعتراف أسبوعان، وذات صباح نزلتُ إلى غرفة الاستقبال، كانت أورسولا وأمها جالستين تتبادلان النظرات. قالت الأم وهي تراني أتجه إلى باب الخروج:

- "نحن نرى أنه من الأفضل أن تسكن في مكانٍ آخر".

يدي تتشقق، أشعر بنوبةٍ من الغضب تسحقني، أتفتتُ إلى قطعٍ صغيرة لأعود مرة أخرى إلى جسدي، طفلٌ يجلس على فراشه بغُرفتي، أمامي تجلس أمي والدموع في عينيها الجميلتين، بينما يقف أبي بالقرب مني والغضب يتطاير من عينه..

- لو فضلت كل شوية تقول لأُمك إنك بتشوف عفريت هضربك!

- بس أنا مش بكذب يا بابا.. والله مش بكذب!

فوق فراشي كُتب كثيرة لقصص الأطفال والتي كانت ترويهم لي أمي في طفولتي، جذب أبي أحد الكتب وبدأ في تمزيقِه بعنف:

- لو الحواديت دي اللي بتخليك تشوف عفاريت هفضل أعمل

كدا في كل كُتبك لحد ما تبقى راجل!

أنظر إلى عين أمي لَعَلِّي أجد فيهما مخرجًا وأمانًا، ولكنها ضعيفة أمامه، لا أعلم تحديدًا هو ضعف الخوف أم ضعف الحب!

أغوص في عينيها لأعود إلى العام 1880.

عُدتُ مرة أخرى إلى جسد فينسنت فان جوخ، لم أكن أدري أن الأقدار تخبِّئ لي حكاية حب جديدة، حكاية ستأخذ من روحي أكثر وأكثر.

كانت الحبيبة هذه المرة إحدى بنات خالي، اسمها (كاي سترايكر)، جذابة إلى درجة كبيرة، ذات شعر أشقر وعينين زرقاوتين واسعتين، تفيض قسمات وجهها بمسحةٍ من الحزن، جاءت إلى بيتنا مع ابنها الصغير لتستريح بعض الوقت بعد وفاة زوجها. ما إن رأيتُها حتى أخبرتُها أنِّي سأرسمُها.

- "إن (رامبرانت) لو كان موجودًا لقرر أن يرسمكِ فورًا".

- "وهل (رامبرانت) كان يهوى رسم النساء الدميمات؟"

- "بل يرسم النساء الجميلات اللاتي فيهنّ مسحة من الحزن تصهر أرواحهنّ".

شكيتُ لأُمي صَد (كاي) لي، كان في ذهني أن أرسم لها صورة المرأة التي أُحبها في أورسولا، لقد أيقنتُ أن كل ما أريده كان حبًا تمتلِئ به حياتي الموحشة، حُبًا يوهِبني الحياة وسط العزلة.

- "حين رأيتكِ فقدتُ توازني يا كاي!"

- "لا أريد أن تكون حياتي رهنًا لحبٍ آخر!"

- "سوف نبدأ حياةً جديدةً بعيدًا عن هنا، تحت سماءٍ أكثر زُرقة".

- كلا، فأنا جربتُ الحب مرة واحدة وكاد أن يقتلني، وسواء كنتُ سأرتبط برجلٍ آخر، أم سأموت هكذا، فإنني لا أُفكر فيكَ زوجًا".

كانت هذه الكلمات أشبَه بضربةٍ قاضية وجهتها إلى رجلٍ مذهول.

قررتْ كاي أن تهرب من مطارداتي لها، فعادتْ إلى بيت أبيها في أمستردام، ظللتُ أُلاحقها بخطاباتي كاتبًا لها:

"ما معنى أن يُفكر إنسان بشخصٍ آخر؟ معنى هذا أن لا ينساه، إذ لا حياة مُمكنة مع النسيان. ثمَّة أشياءٌ كثيرة تُعيد صورتكِ إليَّ، والتفكير فيكِ لا يفيد شيئًا آخر غير أن أراكِ. أنا ببساطة لا أستطيع العيش دون أن أُفكِّر فيكِ".

وبعد فترة من التفكير قررت أخيرًا أن أذهب لأراها وأن أتحدث إلى خالي عن رغبتي في الزواج منها.

استقبلني بجفاءٍ شديد وقال:

- "فنسنت، إنك تُسبب الكثير من المتاعب لابنتي!"

- دعني أراها ولو لمرةٍ واحدة!"

- إنها لا تريد أن تُكلمك".

- اصغ إليَّ أرجوك، إنني أُحبها بجنون، لا تكن بالغ القسوة عليَّ، أنا أعرف أنني لم أُوَفَّق في حياتي، لكن دعها تمنحني فرصةً واحدة، سأنجح حتمًا، فرصة واحدة فقط.. هذا كل ما أطلبه".

- "يا لك من ضعيف!".

عندئذٍ قفزتُ ومددتُ ذراعي إلى الشمعدان المُشتعل على المنضدة وبسطتُ يدي على اللهب المتّقِد، وقلتُ للخال:

- "سأُريك كيف أنِّي لستُ ضعيفًا، هذه يدي، لن أرفعها عن اللهب حتى أرى كاي".

نظر إليَّ بإشفاقٍ شديدٍ وقال لي:

- "إلى متى سيدوم هذا البؤس؟!"

شرعتُ في البكاء، أخذني الخال بين ذراعيه، فجأة أصبحتُ في مكانٍ آخر، أبكي بين ذراعيّ طبيبتي، الدكتورة رحمة، كنت وقتها في الرابعة عشرة تقريبًا..

- خلاص، عشان خاطري ما تعيطش!

- بقيت حاسس إن مافيش حد يحبني..

- أنا هتكلم مع بابا وماما.. أوعدك!

هدأتُ قليلًا بعد حديثي معها، أرى فيها الأم التي تمنيتُها. أخرجتْ من حقيبتها قالب من الشوكولاتة وناولتْني إياه بابتسامتِها المُشرقة.

- دي شوكولاتة بالقهوة.. هدية مني ليك.

- أنا عايز لما أكبر أبقى زي حضرتك كدا وأساعد الناس!

- مش انت قولتلي قبل كدا إنك عايز تبقى ظابط؟

ابتسمتْ واقتربتْ مني ووضعتْ يدها فوق رأسي بحنانٍ وقالت:

- انت ذكي جدًا يا يونس.. إحنا بقالنا 4 سنين صحاب وبتجيلي العيادة.. اللي أقدر أقولهولك إنك تقدر تبقى أي حاجة انت عايزها.. تقدر تبقى ظابط وتقدر تبقى دكتور نفسي ورسّام كمان لو عايز!

وضعتُ يدها على عيوني وقالت:

- خلّي خيالك هو سلاحك من هنا ورايح يا يونس.. خيالك هيخليك تبقى الشخص اللي انت عايز تبقاه.. خلي خيالك سلاحك زي ما زيتون بيحميك.. فهمتني؟

مرةً أُخرى ابتلعني الظلام..

أنا الآن في الخامسة عشر، في بيت أهلي..

أشخاص كثيرون يرتدون ملابس سوداء، قرآن ينبعث في أركان البيت، أمي تبكي بحُرقةٍ بينما يارا تحاول أن تهدئها. أرى نفسي أقترب من أمي لأطمئن عليها، ولكن فور أن رأتْني حتى بدأتْ في الصراخ:

- ابعدوا يونس عني.. ابعدوه مش عايزة أشوفه!

هَمَهمات وكلام مُختلط لا أسمعه جيدًا، جملة واحدة فقط تمكنتُ من سماعها جيدًا:

"بيقولوا يونس هو اللي قتل أبوه!".

أنا؟!

ولكن كيف؟!

كيف لي أن أقتل أبي؟!

نعم، أنا لم أكن أُحبه، نعم كان يعاملني كالجرذان، ولكن لماذا أقتله؟ وكيف؟!

أشعر بالاختناق، أشعر بانخفاض نسبة الهواء بداخلي، أشعر بالموت يبتسم، أفتح عينيّ لأرى حنين تسبح بجانبي في الحوض الكبير، تنزع عني قناع الهواء لأُفارق الحياة في الحال.

أشعر بيدٍ تُخرجني من المياه، أشعر بيدٍ تساعدني على ارتداء ملابسي، أسمع صوتًا ينادي اسمي:

يونس.. دكتور يونس!

لا أعلم كم مر من الوقت تحديدًا، ولكني حينما استيقظتُ وجدتُني في غرفتي بمنزلي في أسوان، ملابسي مُبتَلَّة قليلًا وعصفورة تنظر إليَّ بقلق، بينما الجدة ونجي تُتَمتِم ببعض الأدعية والآيات. حركتُ يدي بصعوبة لألمس يدها، ابتسمتْ وهي تُقبّل يدي. أَنظر حولي بتعجب، أجاهد نفسي لأقوم من مكاني ولكنها منعتْني برفق:

- ارتاح يا حبيبي.. دا كان شكله كابوس!

- كابوس إيه؟ أنا إزاي هنا؟ أنا المفروض في المصحة!

فجأة تبدَّل وجه عصفورة وتبدلتْ الغرفة، عدتُ مرة أخرى إلى المصحة، يبتسم لي الدكتور أسود:

- حمد الله على السلامة يا يونس!

- إيه كل اللي أنا شوفته دا؟

- شكلها كانت تجربة صعبة! هي أول مرة دايمًا بتبقى كدا. انت محتاج ترتاح والصبح احكيلي اللي حصل.

الفصل السادس

الذاكرة الكاذبة

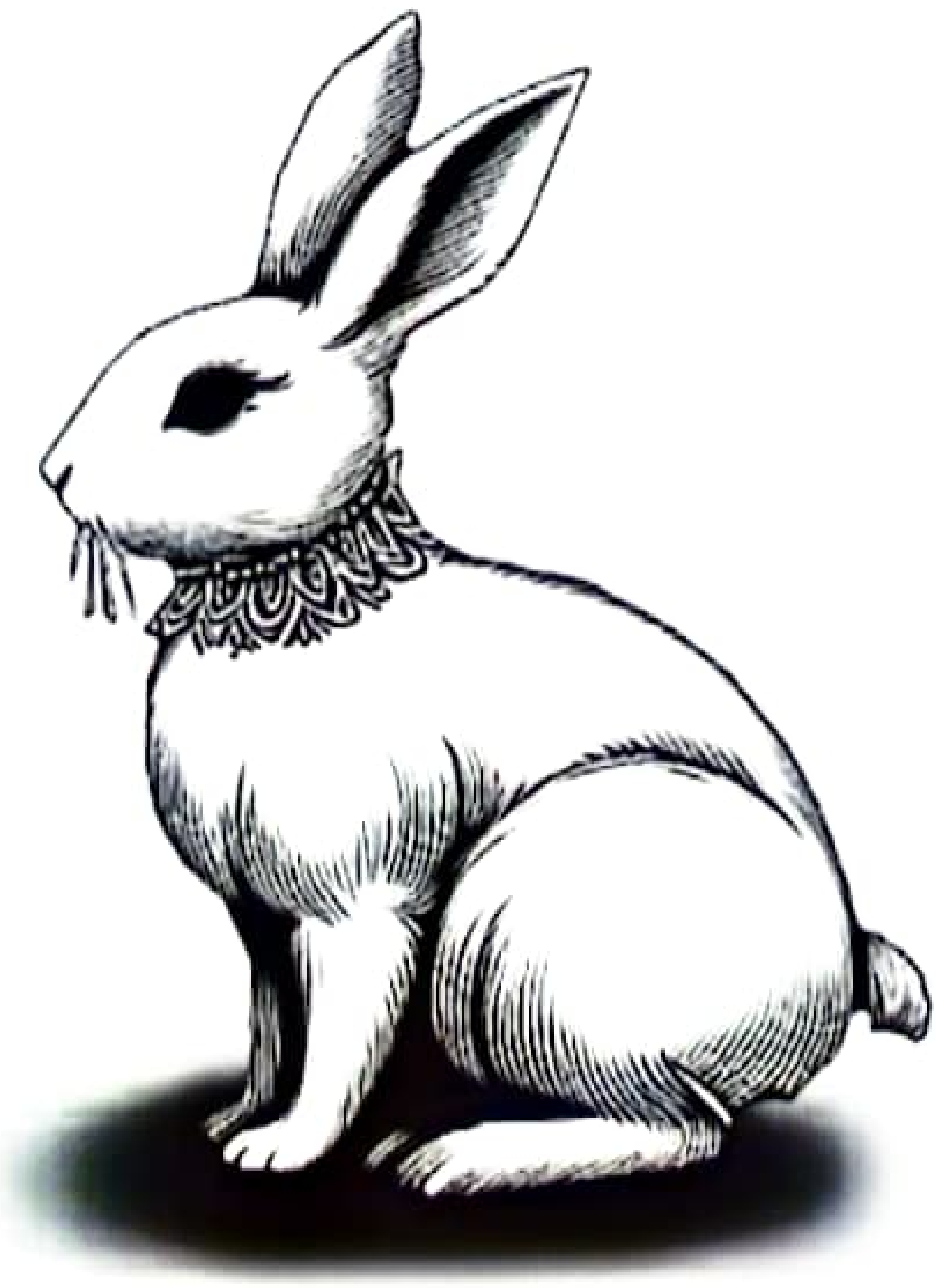

استيقظتُ في صباح اليوم التالي..

على الطاولة كان الإفطار موضوعًا إلى جانبه كوب من عصير البرتقال وعلبتين السجائر الماكبث التي طلبتهما لديانا بالأمس، ارتديتُ ملابسي وبينما أتناول طعامي عاد إلى رأسي كل ما حدث في غرفة التأمل؛ رحلة عجيبة لا أعلم كم استغرقتْ. نظرتُ مرةً أخرى إلى طعامي وتذكرتُ عم منير، هو الوحيد الذي قد يساعدني لأعرف مكان ياسمين، هو الوحيد الذي قد أجعله في صفي!

ولكن، ماذا إذا لم يوافق؟!

ماذا إذا كان ولاؤه لعائلة أسود؟! وقتها سينفضح كل شيء!

يجب أن أجد حلًّا آخر، يجب أن أُجاريهم في كل ما يحدث حتى أستطيع أن أجد ياسمين.

خرجتُ من غرفتي، فوجدتُ أنس في طريقه إلى إحدي جلساته، كان يبدو مختلفًا، يبدو ضعيفًا بعض الشيء -أو هكذا أتخيّل- يبدو عليه القليل من الإعياء والإرهاق!

- أنس، انتَ كويس؟!

- أنا تمام.. شوية تعب صغيرين.

- طب ما تاخد إجازة ارتاحلك يومين في بيت الرعب اللي انت عايش فيه دا!

- هاخد إجازة قريب أوي.. بس دلوقتي لازم أروح أخلص

اللي ورايا. بالمناسبة، دكتور عادل عايزك في مكتبه.

كان عادل جالسًا وأمامه أحد المرضى، أشار إليَّ بعينيه كي أجلس. كان المريض مُعظمه مشوَّه، يده اليمنى تفتقد عدة أصابع، يده اليسري تكاد تكون موجودة، يبدو وكأنه خرج للتو من عرين أسدٍ جائع!

- انت مدرك إنك لو فضلت على الحال دا هتموت قريب يا سيد؟

- يا دكتور عادل أنا مش بعرف أعيش من غير ألم جسدي.. بستمتع بيه، فبيبقى الحل إني آكُل جزء مني!

- يا سيد، انت مش مجنون ولا محتاج إنك تتكهرب عشان تهدى.. بس آديني بقولك إنك بالشكل دا هتموت قريب.. ودي حاجة أنا مش هسمح بيها.

دخل إليهم عم منير والذي قام بربط يد وقدم سيد في الكرسي، أخرج عادل أسود من جيب البالطو الخاص به بعض الأدوات الطبية الخاصة بأطباء الأسنان (أزميل، كاحت، وكلَّابة القطع)، اقترب من سيد و بينما ساعده عم منير بفتح فمه على مصراعيه بدأ عادل بتكسير جميع أسنان عم سيد والذي بدأ بالصراخ بشكلٍ مرعب!

أنظر إلى وجه عادل وأتعجب من عدم تأثره بما يفعل أو ببكاء الرجل وصراخه، ينقبض قلبي وتتسارع دقاته. دقائق من التكسير وانتهى من تدمير كل أسنان الرجل المسكين والذي تحول فمه إلى

اللون الأحمر من دمائِه. أمَرَ عادل عم منير أن يأخذ سيد ويعود به إلى زنزانته، ثم مسح الدماء التي غطتْ يده مستخدمًا بعض الكحول وجلس أمامي مبتسمًا:

- self cannibalism.

- استنتجت.. بس حل تكسير الأسنان دا غريب بالنسبة لي غير آدمي!

- سيد بقاله فترة هنا.. أبوه تاجر خضار غني أوي، في يوم صحى في وسط الليل هو وأُمه وأخواته على صوت سيد قاعد يخبط دماغه في الحيط زي المجانين ويضحك، أبوه قال الواد اتلبس وجابله شيخ، تخيل سيد يعمل إيه! والشيخ قاعد بيتكلم معاه قام من مكانه وأكل مناخير الشيخ.. بقى الأب يصوّت والأم أغمى عليها. الأب قعد شهور رابطُه في السرير عشان ما يعملش أي مصايب تانية.. وفي يوم سيد -الله يلعنه- قطع الحبل ببقه ودخل الأوضة على أخته الصغيرة وعَضَّها من رقبتها كان هيموتها. ماحدّش عرف هو عنده إيه، حتى لما جالي هنا أنا شخَّصت حالته على إنها (متلازمة أكل الذات) بس إحساسي إنه ممكن يبقى ملبوس جايز برضو. وحل تكسير الأسنان دا حل أخير إلَّا لو أنا ماعنديش ضمير وعايزه يفضل عايش حياته ياكل في نفسه!

- يعني هو خلاص كدا هيروّح بيته؟ ولا فيه فترة متابعة؟

ضحك عادل بعد سماعِه الجملة، ولكنه سريعًا ما عاد إلى حالتِه الجادة وقال:

- بص يا يونس.. مافيش حد هنا بيروّح بيته. ناس كتير طلّعت حواديت عن المكان دا وإننا بنقتل المرضى، بس في الحقيقة الناس بيجيبوا المرضى بتوعهم هنا وبيدفعوا لي فلوس كتير عشان المرى دول يفضلوا هنا..

- ما بيتعالجوش!!

- لا طبعًا، بيتعالجوا وكويس جدًا كمان. المهم، خلينا في المهم.. أنا طلبتك عشان أسألك عن تجربة امبارح، حاسس بعدها إنك أحسن؟!

- أنا لسه مش مستوعب اللي حصل.. كأني بتفرج على فيلم من بطولتي!

- الغرض من التجربة دي إنك تريَّح أعصابك، كل ما تخلِّي دماغك تفتكر تفاصيل وتشوف اللي جواك كل ما هتقلّل الحِمل اللي مخلّيك مش مبسوط في حياتك.. وأي وقت تكون عايز تبقى أحسن هخليك تعيد التجربة مرة تانية. فيه أي حاجة شوفتها ضايقتك؟!

الذاكرة..

معظم الناس يتذكّرون أشياء سيئة حدثتْ لهم، ولكن في بعض الأحيان يتم نسيان الصدمة الشديدة. عندما يُصبح هذا النسيان شديدًا ومتطرفًا يحدث اضطراب انفصالي في بعض الأحيان، مثل فقدان الذاكرة الانفصالي **dissociative amnesia**، والشرود الانفصامي **dissociative fugue**، واضطراب نزع

الشخصية **depersonalization disorder**، واضطراب الهوية الانفصالية **dissociative identity disorder**.

كيف تعمل الذاكرة؟

الذاكرة ليستْ مجرد مُسجّل كما يعتقد الكثيرون. فالدماغ يُعالج المعلومات ويُخزنها بطُرقٍ مختلفة.

للذاكرة كيانٌ خاصٌ بها، يمكن أن تؤدي الصدمات المعتدلة **Moderate trauma** إلى تعزيز الذاكرة طويلة المدى، وهذه هي التجربة المنطقية التي يتمتع بها معظمنا، وتجعل من الصعب فهم كيف يمكن نسيان ذاكرة الأحداث الفظيعة.

قد تؤدي الصدمة الشديدة **Extreme trauma** إلى تعطيل التخزين على المدى الطويل، وترك الذكريات مخزّنة كعواطف أو أحاسيس بدلًا من ذكريات.

ويقول الكثيرون أنه قد يستغرق ما يصل إلى عدة أيام لتخزين الحدث بالكامل في الذاكرة طويلة المدى.

وثقتْ الدراسات أن الأشخاص الذين يعيشون في ظل صدمة شديدة قد ينسون الصدمة أحيانًا، ويمكن أن تعود ذاكرة الصدمة في وقتٍ لاحق من الحياة، وعادةً ما تبدأ في شكل أحاسيس أو عواطف، تتضمن أحيانًا "استعادة لذكريات الماضي" **flashbacks** حيث يشعر الشخص وكأنه يسترجع الذاكرة، وتصبح هذه المواد تدريجيًا أكثر تكاملًا حتى تُشبه الذكريات الأخرى.

هل الذكريات المُستعادة صحيحة بالضرورة؟

هل بالفعل قد تكون الذكريات كاذبة؟ أم كما أخبرني عادل أسود أن الذاكرة مستحيل أن تكذب؟!

هناك الكثير من النقاش حول هذا الموضوع، ويعتقد بعض المعالجين الذين يعملون مع الناجين من الصدمات أن الذكريات صحيحة لأنها مصحوبة بمثل هذه المشاعر الشديدة.

وقد أفاد معالجون آخرون أن بعض مرضاهم استعادوا ذكرياتٍ لم يكن من الممكن أن تكون حقيقية، مثل ذكرى بأن يكون رأس الشخص مقطوع، على سبيل المثال.

وزعمتْ بعض المجموعات أن المعالجين يزرعون الذكريات أو يتسبَّبون في ذكرياتٍ كاذبة في المرضى المعرّضين للخطر من خلال الإشارة إلى أنهم ضحايا سوء المعاملة عند عدم حدوث سوء معاملة. ويبدو أن بعض المعالجين أقنعوا المرضى بأن أعراضهم كانت بسبب سوء المعاملة عندما لم يكونوا يعرفون أن هذا صحيح. ولم يكن هذا يعتبر ممارسة علاجية جيدة، فمعظم المعالجين حريصون على عدم اقتراح سبب للأعراض ما لم يبلغ المريض عن السبب.

وهناك بعض الأبحاث التي تشير إلى أنه يمكن إنشاء ذكريات خاطئة للصدمة الخفيفة، ففي إحدى الدراسات قُدمتْ اقتراحات بأن الأطفال قد فُقدوا في مركز تجاري، وقد أصبح الكثير من الأطفال يعتقدون فيما بعد أن هذه الأحداث كانت ذكريات حقيقية حتى إن لم تكن قد حدثتْ في حياتهم بالفعل.

كلام مُخيف.. كلام مُعقد.. ولكن الأهم من كل هذا.. هل قتلتُ أبي؟!

هل قتلتُ أحمد ليل؟!

في زنزانة ديانا، كانت ترقص في دوائر مُقيدة الأيدي، بدا شكلها غريبًا ولكنها الغرابة التي تدفعك إلى حُب الفنون. ابتسمتُ وتركتُها لتُنهي رقصتها التي تخلو من الموسيقى، جعلتْني أُدرِك أهمية ما يأتي من الداخل؛ في الأغلب هي تسمع موسيقى خاصة بها تأتي من داخلها فتجعل قدميها أخَف وترفع روحها لكي ترقص بتلك الانسيابية.

لمحتْني أُراقبها فضحكتْ:

- ترقص معايا!

- أنا اتجوزت 3 مرات.. ما افتكرش إني رقصت في مرة مع أي واحدة منهم!

- عشان ولا واحدة من التلاتة كانت ديانا.. تعالى ما تتكسفش!

- سيبك من الرقص وتعالي عشان جايبلك حاجة..

توقفتْ عن الدوران، جلستْ أمامي، وفور أن رأتْ علبة السجائر بين يدي حتى تهلَّلتْ أساريرها. أعلم أنها إن لم تكن مُقيدة لحتمًا كانت ستُصَفِّق مثل الاطفال بمنتهي السعادة والنشوة.

- عظيم انت يا دكتور.. ممكن تولعلي واحدة؟

- حالًا.. بس هتحكيلي؟

- لو ما حكيتلكش مش هتديني العلبة؟

- كدا كدا العلبة دي خلاص بتاعتك.. حتى لو فضلنا طول الجلسة ساكتين.

أشعلتُ لها سيجارة ووضعتُها بين شفتيها، استشفيتُ أنها لا تستطيع أن تُدخِّن السيجارة مكتوفة الأيدي، فسألتُها بكل جدية:

- أنا مش هندم لو فكيت إيدك عشان تشربي السيجارة.. صح؟!

- مش هعمل أي حاجة.. وعد.

فككتُ يدها، ملتهبتان من كثرة ربطهما، العشرات من آثار الانتحار على يديها ما بين خدوشٍ وجروحٍ ما زالت تلتئم.

نظرتْ إلى كفَّيها كَمَن يقابل صديقًا قديمًا، اقتربتْ مني وطبعتْ قُبلةً على خدي، ثم نظرتْ إليَّ بامتنانٍ وبدأت في تدخين سيجارتها باستمتاعٍ بيَدٍ ترتجف وقلبٍ أكاد أسمع دقاتَه بوضوح.

- أنا عندي 22 سنة.. عارفة إن شكلي وجسمي يقولوا غير كدا. كل حاجة في حياتي كانت عادية أوي لحد ما تميت الـ16، والعادي كان حلو، العادي كان مريح، بس أما بقيت 16 كل العيون بقت عليا، أب طول الوقت سكران ومش عارف يفرق بين مراته وبنته، زوج أم بيستنى أمي تنزل عشان يلمسني.. بقى الجسم اللي فرحانة بيه هو سبب تعاستي.

- حاولتِ تتكلمي مع مامتك؟ مع أي حد في العيلة؟

- لما أمي وأبويا سابوا بعض كنت شايفة إن أمي هي اللي غلطانة عشان سابته و اتجوزت صاحب عمره، فضلت عايشة معاه وأنا شايفاه كل يوم بينزل يسكر وما يرجعش غير الفجر مش شايف قدامه..لحد ما في يوم.. اغتصبني. حكيت لأمي.. شمتته وبهدلته وخدتني أعيش معاها. وبعد شوية وقت جوزها بدأ يعمل نفس اللي أبويا عمله.. بس المرة دي لما حكيتلها كدبتْني.. قالتلي إني أكيد أنا السبب وإني أكيد اللي برمي نفسي عليه. أول ما سمعت الكلام دا جريت على المطبخ وقطعت شراييني.. ما فوقتش غير بعد يومين في المستشفى..

- وطبعًا بعدها جابوكِ هنا!

- أنا جيت هنا من سنة بس.. كنت بهرب كتير وكل مرة بيلاقوني كنت بحاول أنتحر.. بدأت أحس فعلًا إني بـ7 أرواح زي القطط. أهلي يعرفوا دكتور أنس وهو السبب إني آجي هنا أنا وبنت تانية اسمها ياسمين..

- ياسمين! اسمها ياسمين إيه؟ طب شكلها عامل إزاي؟!

- ياسمين الفخراني.. ليه اتخضيت كدا؟!

- هحكيلك.. هحكيلك كل حاجة..

في غرفتي بعد الجلسة، استرجعتُ كل ما قالته ديانا، حكَتْ لي عن هروبها المُتكرر من المنزل، سواء منزل أبيها أو منزل أُمها، حكَتْ لي أنها أصبحتْ تكرَه جسدها الذي أصبح مصدر تعاسة

وشقاء لها، حكَتْ لي عن سنوات تتنقَّل فيهم من بيتٍ إلى بيت، قصة وراء قصة، مرة في منزل صديقٍ تظهر نواياه الحقيقية مع الوقت، ومرة منزل صديقة تجعلها تدق باب عالم آخر أشد تعاسة مثل عالم المخدرات. لم تعد تشعر بالأمان في هذا العالم، فكرتْ كثيرًا أن تضرب بكل معتقداتها عرض الحائط وأن تنجرف وراء كل مَن يريد جسدها، ولكنها لم ترِد أن تُصبح مثل الكثيرين، أرادتْ حتى أن يبقى لديها شيء واحد فقط لا يجعلها تفقد الإيمان تمامًا بنفسها.

حكَتْ لي ديانا عن ذات صباح، كانت قد تركتْ للتو منزل صديقة لها من أيام المدرسة، أسفل العمارة كان أنس في سيارتِه ينتظرها، في الأغلب كان يُراقبها منذ فترة. أنس صديق قديم لعائلتها، عرفتُ بعد ذلك بأن الأم هي من طلبتْ منه أن يراقب ديانا وأن يتحفَّظ عليها بأي شكل؛ نزل من سيارتِه وألقى عليها التحية، ثم أخرج من جيبِه (سرنجة) دَسَّ محتواها في رقبة ديانا ففقدتْ الوعي على الفور، ولم تفِق إلَّا بعد عدة ساعات، فتحتْ عينيها فوجدتْ نفسها في منزلٍ مُخيف مُزيَّن بالأعضاء البشرية والجثث، شعرتْ وقتها بأنها فتحتْ عينيها على كابوس، قالت لي:

- أول ما فتحتْ عيني لقيت نفسي في شقة شبه اللي كنت بشوفها في أفلام الرعب، جثث وأعضاء بني آدمين. حسيت إني في كابوس ومش عارفة أصحى منه.. كنت لسه دايخة، حاولت أهرب بس الباب كان مقفول من برا، الشبابيك كلها مقفولة بحديد، بدأتْ أجري في الشقة زي المجنونة لحد ما لقيت في أوضة بنت مربوطة من رجلها بسلسلة حديد، شكلها تعبان وخايف،

قربت منها وسألتها «انتِ مين؟ وإحنا فين؟!» بس مالقتش منها جواب، خدتها في حضني وقعدتْ تعيط لحد ما هديتْ.. كل اللي قالته إن أختها هي اللي جابتها هنا.

- مش فاكرة اسم أختها إيه؟ أي حاجة قالتهالك؟!

- حنين.. اسم أختها كان حنين.

حاولتُ أن أتماسك، حاولتُ أن أثبت، ولكنني فشلتُ، بدأتُ بالنحيب كرجلٍ فقد عائلته للتو، أطفأتْ ديانا سيجارتها واقتربتْ مني والقلق يبدو عليها. هي لا تعرفني ولا تعرف سبب بكائي، ولكنها بدأتْ في البكاء أيضًا، احتضنتْني وهي ما زالت لا تفهم أي شيء.

كان المشهد سينيمائيًا، طبيب مُضطرب بين أحضان فتاة مَكروبة يبكيان دموعًا تحمل بين طيَّاتها أهوال سنواتٍ مضتْ وسنواتٍ آتيَة لا أمل بها.

أعوام وأنا أعيش بتأنيب الضمير، أعيش مُعتقدًا أنني مَن قتلتُ زوجتي ياسمين الفخراني، ولكن.. كيف؟!

نعم، كنتُ أخاف عليها من العالم الخارجي وهي التي لم تعرف في حياتها سوى النقاء والطيبة، لم أرِد لها أن تترك مزرعتها وحيواناتها الأليفة، في الخارج لا يوجد شيء، شيء على الإطلاق قد يُضاهي تلك السعادة.

أحاول أن أُرتب أوراقي لكي أفهم، فتتحول الأوراق إلى لغزٍ غير مفهوم!

لماذا تزوجتْني حنين؟! لماذا أرادتْ الانتقام لشيء لم يحدث؟! لماذا فعلتْ كل هذا وياسمين حية تُرزَق؟!

- بعد فترة أخدنا أنس على المصحة هنا.. الكلام دا تقريبا من سنة.. ومن يومها وأنا ماشفتش ياسمين!

- ديانا.. عشان خاطري ما تعمليش حاجة في نفسك! أنا عارف إن اللي عدى عليكِ كان كتير، عارف إنِّك فقدتِ الإيمان بالعالم كله، بس أنا عايزك تجددي ثقتِك بيه من خلالي. أوعدِك إني هخرَّجك من هنا.. أوعدِك إن حياتِك اللي جاية هتبقى أجمل، بس إديني فرصة ألاقيها.. ألاقيها وكل حاجة بعدها هتبقى تمام.

***

في الليل، واجهتُ كابوسًا جديدًا قبل النوم..

كنتُ قد انتهيتُ من تناول طعامي، أخرجتُ من حقيبتي كتابًا ليُساعدني على النوم، دقائق وأُصبتُ بالملل من محتواه، فوضعته إلى جانبي لأجد (حنين) جالسة على المقعد، بين فخذيها جلستْ ياسمين تبكي بينما تمشط لما حنين شعرها بسكينٍ صغير، كلما مرَّتْ بالسكين على شعرها قطعتْ بعضًا منه، بينما تبكي ياسمين بلا صوت خوفًا منها. حاولتُ أن أجذب السكين من يدها لكنني لم أستطع الحراك، كان أبي يُمسك بذراعي والغضب يتطاير من عينيه المحمَّلة بالكُره، حاولتُ أن أتخلَّص منه إلا أن أمي أيضًا ظهرتْ وبدأتْ تُساعده في تقييدي، ويارا كانت تشاهدنا من بعيد بلا اكتراث.

- يارا.. ساعديني!

- آسفة يا يونس.. مش هقدر أساعدك.. انت تستاهل اللي انت فيه..

شعر ياسمين المقطع يتجمَّع ويتحوَّل إلى أفاعي صغيرة، تبدأ تلك الأفاعي في الالتفاف حولي، أسمع صوت الفحيح بين ضلوعي فأسقط في التو مغشيًا عليَّ، بينما يُراقبني من أحد أركان الغرفة طفل صغير، يرتدي قناعًا لأرنب كثيرًا ما رأيتُه وكثيرًا ما كرهتُه..

الفصل السابع

صفحة قديمة

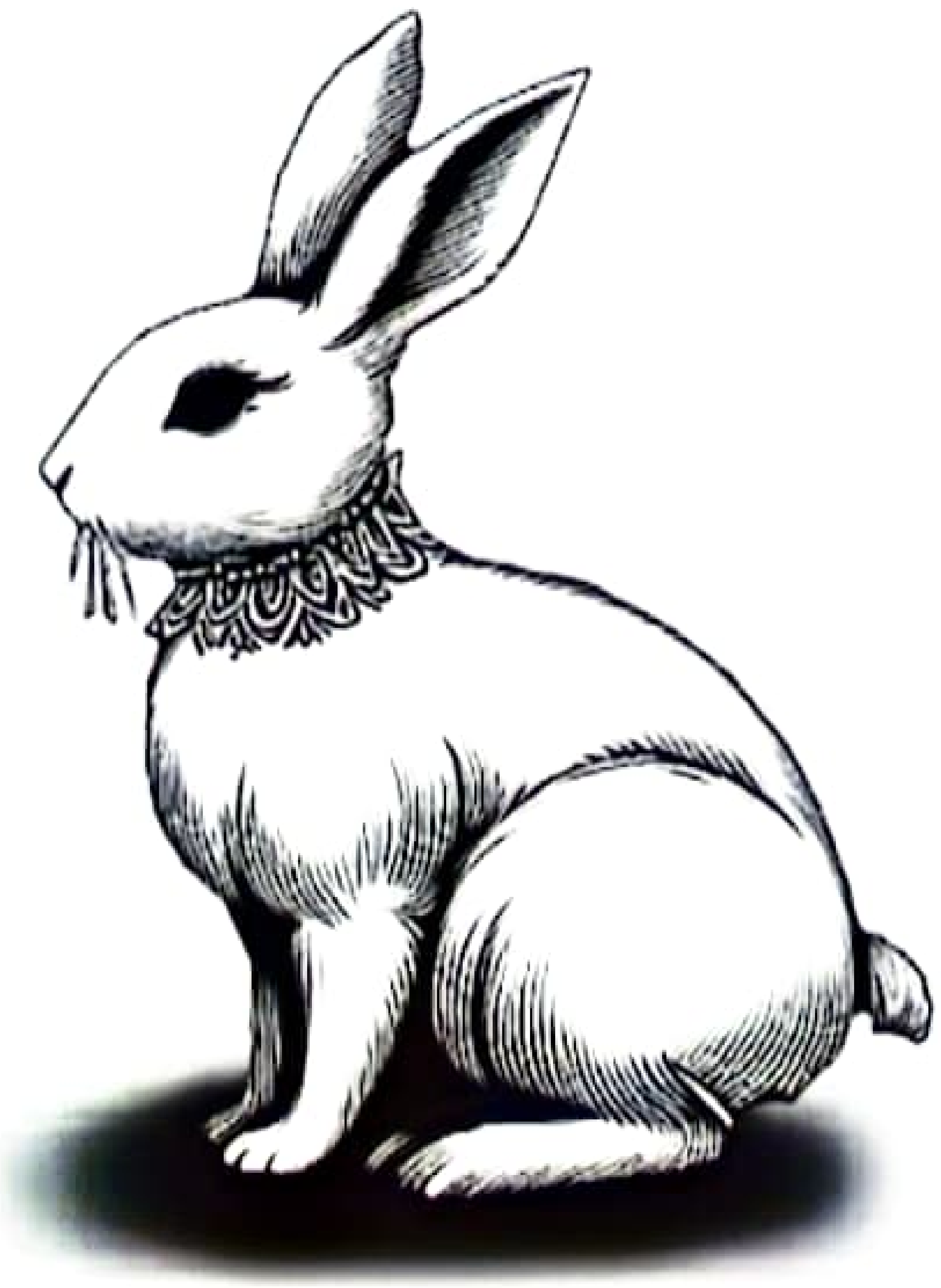

القاهرة – 2000.

كنتُ يومها جالسٌ في غرفتي أذاكر، في الخامسة عشرة من عمري والحياة قد بدأتْ في السكون، زيتون لا يظهر كثيرًا إلا في أوقاتٍ معينة، نوبات الغضب قد قلَّتْ كثيرًا، حتى دكتورة رحمة لم أعد أذهب إليها كثيرًا مثل الأعوام السابقة. دخل أبي غرفتي -وهو شيء لا يحدث كثيرًا في المطلق- بين يديه كان يحمل علبة، جلس على طرف فراشي وأشار إليَّ أن أذهب إليه..

- أنا جاي عشان حاجتين.. أول حاجة عايزك تستعد عشان هنروح أنا وانت الفيوم الأسبوع اللي جاي، هناخد مركب ونصطاد، إحنا بقالنا سنين عايشين في وجع قلب، دا الوقت اللي لازم نصلَّح فيه كل حاجة..

- أنا وحضرتك بس؟!

- آه يا يونس. تاني حاجة عايزك تفتح العلبة دي، فيها حاجة عشانك.

فتحتُ العلبة، كان بداخلها شيء غريب لم أرَه من قبل، قناع لوجه أرنب يبدو حقيقيًا تمامًا. انتابَني شعورٌ بالخوف فَور رؤيتي

له، أمسكتُه بين يدي وأنا لا أفهم ما هذا!

- القناع دا عايزه معاك دايمًا..

- إيه دا يا بابا؟!

- النهاردا كنت بتمشّي في وسط البلد، بدوّر لأُختك على كتاب بقالها فترة بتدور عليه، عديت قدام محل بيبيع ملابس تنكُرية والحاجات دي، والقناع دا كان في الفاترينة.. أول ما شوفته قلبي اتقبض، مع إني أسمع إن الأرنب في الحلم خير، الأرنب رغم إنه في الأغلب حيوان أليف إلا إنه من الكائنات اللي صعب تقدر تحدد مشاعرها.. اللي خلّاني أستغرب هو إن إزاي وش أرنب شكله ضايقني بالشكل دا!

- طب وحضرتك ليه جيبته؟!

- عايزك تعتبر القناع دا سلاحك.. كل ما تبدأ تشوف عفريت أو أي شيء يخوّفك البس القناع دا، استخبى من أي مخاوف جوا القناع دا.. أعتقد إنه زي ما قدر يخوّف واحد زيي مش بيخاف من حاجة هيقدر يخوّف أي حاجة تفكر تقرّب منك!

كانت تلك المرة الأولى -أو المرة التي أتذكرها- التي احتضَنَني فيها أبي، ضمَّني بين ذراعيه الضخام. ابتسم لي بعدها وهو يغادر غرفتي وذكرني برحلةِ الصيد الخاصة بنا الأسبوع القادم.

طوال الأسبوع كنتُ في حالةٍ مِزاجيةٍ جميلة، أشعر بسعادةٍ تغمرني وتملأ فؤادي، أشعر للمرة الأولى في حياتي أن أبي يُحبني، أحسبُ الأيام بالساعات والدقائق، حتي جاء اليوم الموعود، أو

لأكون أكثر دقة (اليوم المشؤوم).

كنتُ قد توقفتُ منذ فترةٍ عن تناول المهدئات، أخبرتْني الدكتورة رحمة أنني لا أحتاج إليهم بعد الآن، قالت أنّ حالتي تحسَّن بدون عقاقير مساعدة.

اصطحبني أبي بسيارتِه حتى وصلنا إلى الفيوم، استقبلنا مُستأجِرُ المراكب بترحابٍ شديد، (النونو).. ساعات من السعادة النقيَّة قضيتُها مع أبي (أحمد ليل)، نضحك ونصطاد.

كل ما أتذكره بعد ذلك أنني استيقظتُ من النوم على متن القارب ويدي وملابسي ملطخة بالدماء، كان الوقت ليلًا ولا يوجد غيري بالمركب، أبي ليس هناك.. أنا وحدي على المركب التي استقليتُها منذ ساعاتٍ مع أبي، والدماء تُشير إلى أنّ شيئًا مُخيفًا قد حدث منذ قليل، شيء لا أستطيع أن أتذكره!

ساعات وأنا أصرخ طالبًا النجدة من أي أحد، أُحاول أن أعثر على أبي في الماء، أُفتّشُ عنه كل ركنٍ بالمركب، أقول لنفسي أنه ربما يُمازحني أو يلعب معي (استغماية) بشكلٍ جديد!

ساعات مرَّت حتى ظهرت مركب تقترب مني، فوقها النونو وبعض رجال الشرطة، وأول شيء قاله لي:

- أبوك فين يا يونس؟ قتلت أبوك يا يونس؟!

أفراد الشرطة بحثوا عن جثة أبي لعدة أيام في البُحيرة، لكن دون جدوى.

تم إيداعي بإحدي المصحات الخاصة بالأطفال لعدة أشهر،

وبعد شهورٍ من خروجي من المصحة توفيَ اثنين كانا كل ما أملك وقتها، أمي والدكتورة رحمة.

- إزاي ماحدّش لقى جثة والدك؟! احكيلي اللي حصل بعد ما صاحب المركب قالك (انت قتلت أبوك)!

سألتْني ديانا وهي تتناول سيجارتها بنهمٍ شديدٍ.

- مش قادر أفتكر تفاصيل، تحقيقات وأسئلة، البوليس دوّر على أبويا كتير بس ماحدّش قدر يلاقيه، كأن البحر بلعه! عمري ما هنسى نظرة أمي ليا يوم العزا بتاعه، نظرتها قتلتني. يارا أخدتني مصحة خاصة بالأطفال اللي في سِنّي وقتها، جلسات ورا جلسات، العيال كانوا بيخافوا مني هناك، كنت مبسوط من خوفهم مني، قبل كدا في المدرسة كانوا بيضربوني، بس الأطفال دول مجرد ما سمعوا إني قتلت أبويا جالهم حالة رعب مني كنت بحبها جدًا.

- وبعدين؟!

- رجعت البيت بعد 6 شهور تقريبًا، أمي ما بصّتش في وشي حتى وقتها، بقيت شخص منبوذ في البيت.. وبعد شهور أمي اتوفّت بسكتة قلبية، وسبحان الله، دكتورتي النفسية ماتت في نفس الفترة. لقيت نفسي فجأة بين 4 حيطان أنا وأختي.. وقتها بس قررت إني لازم أغيّر شكل كل حياتي.. مش هستسلم وهدرس وأبقى الشخص اللي احتاجته لنفسي.

في غرفة الأستاذ سعد، جلسنا سويًا نستمع إلى صوت محمد

فوزي في سعادة، ملامحه لا أتبينُها تمامًا من وراء لحيته وشاربه الأشعث، ولكنني على يقينٍ بأنه سعيد، بل شديد السعادة. ما زال يحمل الصورة الفوتوغرافية بين يديه كَمَن يحتَضِن طفلًا، يهزّ رأسَه مع نغماتِ كل أغنية.

ساعات أقضيها معه، لا نتحدث ولا أحاول أن أسأله عن أي شيء، فقط أستمع معه إلى أُغنيات محمد فوزي وأرحل بعدها وأترك له مُشغّل الأغاني لينعَم بيومٍ سعيد، لكن هذا اليوم أردتُ أن أحصل على انتصارٍ حتى لو كان بسيطًا، أردتُ أن يُخرِج ولو قليلًا مِمَّا بداخلِه.

أغلقتُ الموسيقى فالتَفتَ إليَّ بقلقٍ يعتري وجهه..

- أستاذ سعد.. تعالى نتكلم شوية!

لم ينطق، لكن على الأقل حصلتُ على اهتمامه وجعلته ينظر إليَّ.

- أنا عارف إنك ما اتكلمتّش مع أي حد هنا.. بس أنا عايزك تعتبرني صاحبك!

أشرت إلى رسمة الشباك على حائط غرفته وأكملتُ كلامي:

- لو ساعدتني أوعدَك إني هخليك تمشي من المصحة دي وترجع لعيلتك!

- ما عادش.. ليا.. عيلة.

نطق الكلمات الثلاثة بصعوبةٍ كَمَن لم يتحدث من قبل، كَمَن

تَناسى الحروف بشكلٍ بشع، كَمَن فقد ماهيتَهُ بلا رجعة.

- ليه بتقول كدا؟ هما بس عايزينك تبقى كويس عشان ترجع وسطهم!

- عيلتي مشيت.. راحوا بعيد وسابوني.. سابوني مع ناس غيرهم.

- كل يوم احكيلي شوية عن عيلتك.. وعد مني هخليك ترجع لعيلتك اللي بجد!

لم تظهر عليه ملامح سعادة أو تحمّس لكلماتي، ولكنّه أيضًا لم يُبدِ اعتراضًا. اللا شيء الظاهر عليه مُرضي جدًا بالنسبة لي، لا أريد منه أي شيء مُبالَغ فيه سوى أن يكون مستوعبًا وقادرًا حتى على البوح بكلماتٍ بسيطة قد تساعدني في التعرّف عليه بشكلٍ أوضَح حتى أتمكّن من علاجه.

فور أن خرجتُ من جلستي مع الأستاذ سعد اتجهتُ إلى مكتب الدكتور عادل، أشعر ببعض التعب المفاجئ في معدتي يُصاحبه صداع شديد، ولكنني أتجاهل كل هذا، أستنتجُ أن كل ما يحدث لي من تعبٍ وإرهاقٍ بسبب التغير التام في حياتي؛ شمس وراحة بال بأسوان يقابلها الآن برودة وظلام.

أدلفُ إلى غرفتِه لأجده جالسًا خلف مكتبِه يقوم بتنظيف خاتمه بمِنشفة صغيرة الحجم..

- مساء الخير يا دكتور عادل!

- أهلًا يا دكتور يونس.. اتفضل!

- آسف لو جايلك في وقت متأخر.. بس حبيت أتكلم معاك شوية!

- أنا مكتبي مفتوحلك دايمًا.. وبعدين رغم إن بقالك معانا 3 أسابيع بس إلا إني شايف تطور ملحوظ في الحالات بتاعتك!

- ما أنا جاي فعلًا بخصوص الحالات.. لو ينفع لو حتى ساعة في اليوم نخليهم يطلعوا يتمشّوا في الشمس!

تغيّرتْ ملامحُهُ على الفور، توقّف عن تنظيف خاتمه ونظر إليّ:

- أبويا -الله يرحمه- كان بيفكّر زيّك بالظبط، إن المرضى لازم يتعرّضوا للشمس. عارف يا يونس.. فيه هرمون اسمه (السيروتونين) بيزيد في الجسم لما الإنسان بيتعرّض للشمس.. هرمون السيروتونين مرتبط بتحسين المزاج ومساعدة الأشخاص على الشعور بالهدوء والتركيز، ولما الإنسان ما يتعرّضش لأشعة الشمس بالمقدار الكافي، مستويات هرمون السيروتونين تنخفض في الجسم، المستويات القليلة من هرمون السيروتونين مرتبطة بالإصابة بالاكتئاب العام يصاحبها حدوث الاضطرابات العاطفية الموسمية، Seasonal affective disorder.. وهو نوع من الاكتئاب بيحصل مع تغير فصول السنة.

- يعني حضرتك عارف أهمية تعرّض المرضى للشمس! طب ليه محبوسين؟!

- المصحة زمان لما اتبنت كانت بناية عادية فوق سطح الأرض والجزء اللي إحنا فيه دا كان مجرد مخزن غير مستخدم.. الحالات

كانت بتخرج كل يوم وتقضّي معظم الوقت في الشمس، مزاجهم بيتحسن، أو على الأقل دا اللي بيحسّوه ساعتها، إنهم خلاص حالتهم اتحسنتْ، تيجي التقارير إنهم يقدروا يخرجوا من المصحة، وأول ما يخرجوا يرجعوا من تاني أسوأ من الأول. عشان كدا أول ما بقيت مدير المستشفى قررت إني أهِد المبنى الأساسي بالكامل وما يفضلش غير الجزء اللي تحت الأرض، عشان اللي يبقى أحسن يبقى أحسن من غير عوامل مُحفزة. هستأذنك تتفضل عشان محتاج أنام!

- أكيد طبعًا.. تصبح على خير.

الفصل الثامن

ياسمين

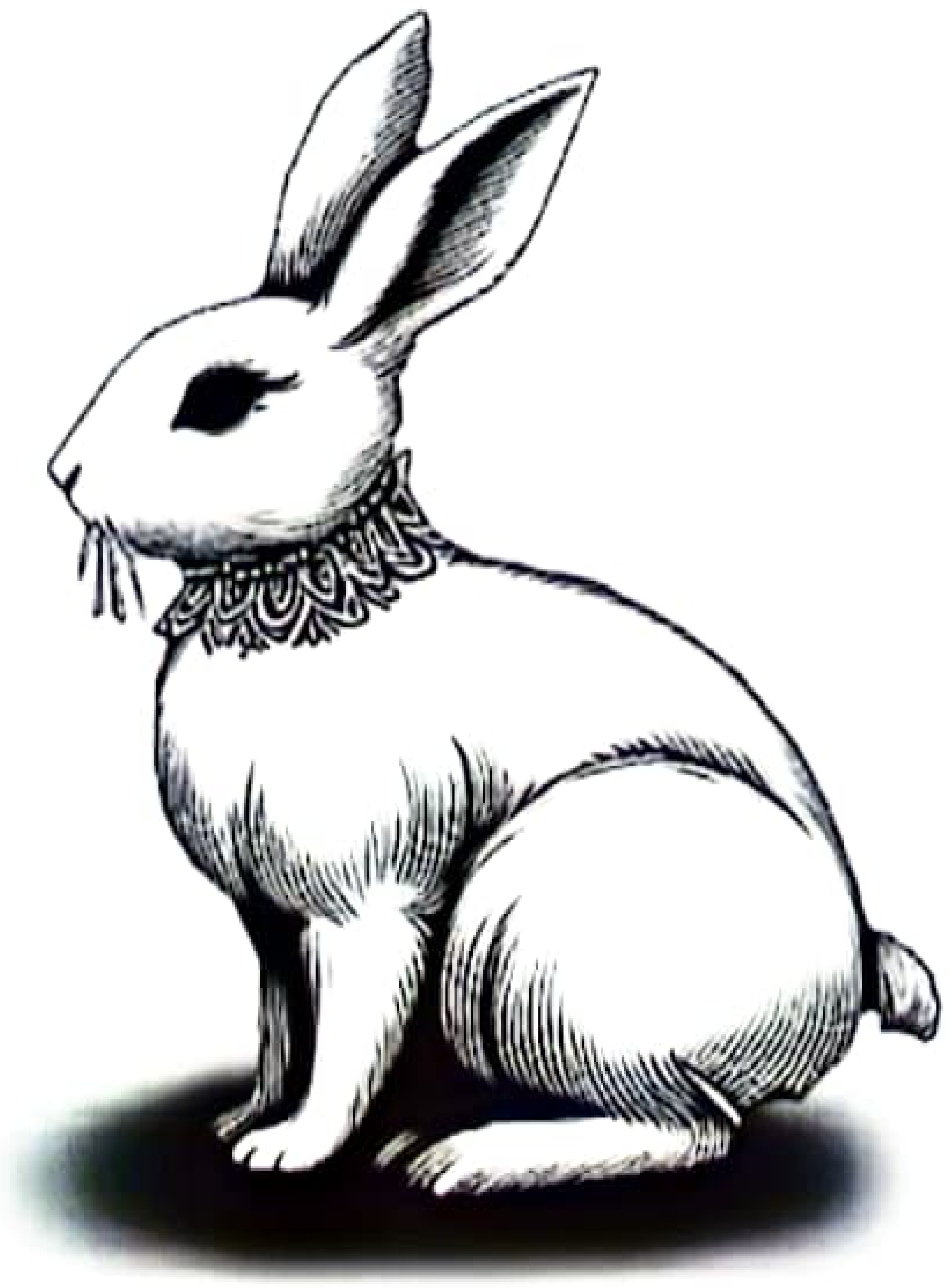

أمام غرفتي كان عم منير واقفًا في يده صينية فوقها طعام العشاء الخاص بي، كان يبدو متعبًا، حالة من الإعياء والإرهاق تظهر عليه مثلما كانت ظاهرة على ملامح دكتور أنس منذ أيام، يحاول أن يُحافظ على ابتسامتِه وتوازنِه.

اقتربتُ منه مبتسمًا وفتحتُ له باب الغرفة:

- ما دخلتش حطيت الأكل جوا ليه بس يا عم منير؟ إيه اللي مخليك واقف كدا وانت شكلك تعبان؟!

- لما سمعت صوت خطوتك بتقرّب قُلت أستنى حضرتك تفتح بنفسك سعادتك يعني..

- وشك أصفر.. وباين عليك التعب! أخدت أدوية؟!

- دول شوية إرهاق حضرتك وهيروحوا لحالهم.. وبعدين مش عايز أقلق دكتور أسود عليا!

- يا سيدي اعتبرني زي الدكتور أسود.. تعالى معايا ننزل مخزن الأدوية.. وبالمرة تعرفني مكانه!

شعرتُ ببعض الارتباك الواضح عليه، فكررتُ مرة أخرى رغبتي بالذهاب إلى مخزن الأدوية بحزمٍ مُفتعلٍ بعض الشيء.

- مخزن الأدوية في الدور اللي تحت جنب غرفة العزل حضرتك!

- طيب، يلا بينا.. هديك شوية أدوية هتخليك زي الفل.

- طب والعَشا؟ كدا العشا هيبرد!

- لا ما أنا بحب الأكل بارد.. يلا بينا!

عندما مررنا بجانب غرفة العزل، شعرتُ بصوت أنفاس عم منير تعلوا بتوترٍ ملحوظ، لا أعلم إن كان بسببٍ لا أعلمه أم بسبب تعبه، ولكنني سألتُه:

- غرفة العزل النفسي فيها حد؟ أصلي بفكّر أدخّل ديانا يومين كدا!

- لا دي عطلانة حضرتك.. بقالها فترة عايزة تتبطّن وأنا بصراحة بتلكّع.. حضرتك فاهم بقى حكم السن!

- طب ما تدخلني أتفرج عليها من جوا!

- هي سيما يا دكتور! وبعدين نسخة المفتاح بتاعها مع الدكتور أسود. اللي على إيد حضرتك اليمين بقى مخزن الأدوية..

شعرتُ ببعض الاستياء لعدم قدرتي على دخول غرفة العزل؛ بداخلي شعورٌ قويّ أن ياسمين محبوسة بداخلها، ولكنني لا يجب أن أُظهِر اهتمامًا مبالغًا فيه بتلك الغرفة. دلفتُ إلى مخزن الأدوية، سحبتُ بعض العلب وناولتهم إلى عم منير:

- فيتامين ب12 وفيتامين د..

ثم أخرجتُ من جيبي بعض المال ودسستُه في جيب منير قائلًا:

- عايزك تروح تجيب لنفسك أكلة كباب وكفتة ترُم بيها عضمك بدل أكل المصحة اللي يجيب الهم دا، وتجيبلك بيض ولبن.. دلع نفسك.. وماتنساش الأدوية تاخدها الصبح وبالليل!

- الله يكرم سعادتك يا أمير.. والله حضرتك طلعت راجل طيب!

- خلي بالك على صحتك يا عم منير.. ماحدّش هينفعك لو وقعت!

في مكانٍ آخر، بعدما دلفتُ إلى فراشي للنوم، كان الدكتور عادل أسود يدخل شقته الفاخرة بأحد الأحياء الراقية بالقاهرة، نزع ملابسه ثم توجّه إلى (البانيو) لينَعم بحمامٍ دافئ.

مال برأسِه إلى الوراء ليُضيف بعض الراحة على جلستِه بالبانيو، رفع يده أمام عينيه يتأمل خاتمَه الفيروزي، لينتفض فجأة على صوتٍ مُخيف وبارد أتى مِن خلفِه:

- عملت إيه؟

- انت ناوي توقفلي قلبي في يوم، صح؟!

- قلبك لو وقف هيبقى بسببك انت.. ناوي على إيه؟

- لسه.. لسه شوية.

اقترب كائنٌ غريب الملامح من البانيو، كائن ذو أصابع طويلة تمتد إلى الأرض، يُغطي جسده بالكامل بعباءةٍ سوداء مُهترِئة لم تكشف من ملامح وجهه سوى فمه البشع، وقال لعادل:

- الوقت في صالحك؟

- مش كل حاجة محتاجة استعجال.. خصوصًا الموضوع دا.

***

في صباح اليوم التالي، صعدتُ إلى سطح المصحة لكي أُحادِث عصفورة في الهواء الطلق. انشغالي الأسابيع الماضية جعلني أنسى التحدث إليها، تعجبتُ كثيرًا من نفسي لأنها المرة الأولى التي أصعد فيها إلى الخارج منذ قدومي، كيف لي أن أنسى الخروج ولو لدقائق لأنعم ببعض الهواء؟!

هل المصحة بالفعل ملعونة كما قال لي أنس من قبل؟ هل بمرور الوقت أُصبح أنا وتلك المصحة كيان واحد؟!

مريض بها، والآن طبيب، والاثنين يعيشان في تعاسة!

- وحشتيني!

- بقالي أسابيع بحاول أكلمك.. حرام عليك يا يونس!

- حقك عليا.. الموضوع ما طلعش سهل زي ما كنت فاكر.

- لقيت ياسمين؟ هترجع إمتى؟!

- لسه.. هرجع أول ما ألاقيها. أهم حاجة عندي بس تاخدي بالك من نفسك ومن اللي في بطنك.. الجدة ونجي أخبارها إيه؟

- تعبانة شوية، بس ماتخافش إحنا كلنا كويسين ومستنيينك ترجع..خلي بالك من نفسك يا يونس!

انتهيتُ من مكالمتي وعدتُ إلى الداخل حيث كان أنس في انتظاري في نهاية درجات السلم، كان يبدو شاحبًا، أبيض كرجل الثلج، يُمسِك (درابزين السلم) بكل قوته ليحافظ على

توازنه..

- انت لازم تاخد إجازة يا أنس.. انت مش شايف شكلك؟!

- أنا تمام.. إيه اللي طلعك برا يا يونس؟

- يعني إيه؟! هو أنا محبوس في المصحة؟!

- أنا وانت عارفين كويس إنك مش محبوس.. وإنك جاي هنا بكيفك.. أنا بس مش عايز دكتور عادل ولا عم منير يشوفوك داخل خارج!

- غريبة! بتتكلم كأنك خايف عليا! على العموم أنا طلعت أكلم مراتي أتطمن عليها، ما تقلقش.. المهم انت تعالى معايا عشان أشوف مالك!

استندَ أنس عليَّ حتى وصلنا إلى غرفتي، فحصتُه ولكنني لم أفهم تحديدًا ما أصابه، مئات الأمراض تدور في عقلي بالنظر إلى حالته، لا أستطيع حتى تحديد إن كان مرضه مرض التهابي، مرض رضوضي، مرض وراثي مثلًا، أو مرض ورمي عصبي!

كل ما أعرفه أنه يتألم جدًا ويحاول إظهار غير ذلك، وأن ما يحدث له يتشابه كثيرًا مع حالة عم منير!

شهر كامل مَرَّ بالتمام والكمال، أصبحتُ الآن طبيبًا يعمل بشكلٍ دائمٍ في (مصحةِ الموت الأسود).

أيام وليالٍ تمُر بشكلٍ مُتشابه، أستيقظ باكرًا لأتناول إفطاري، بعدها أقضي ساعات الصباح بين مرضاي والذين زاد عددهم،

إلّا أنّ ديانا والأستاذ سعد ما زالوا هما اهتمامي الأول لسببٍ أجهلهُ. أبدأ يوميًا في عملية بحثي عن ياسمين بين الغُرف وأنا كُلِّي أمل أنني سأعثر على سردابٍ خفيّ أو غرفةٍ لا أبواب لها، أُجاهد كي أُقنع عم منير بضرورة إصلاح غرفة العزل، أسأل عنها كثيرًا وأطلب كثيرًا رؤيتها.

في الليلة الأولى من الشهر الثاني بالمصحة، زارتْني فتاة الحلم مرة أخرى؛ فتاة عشرينية مذعورة وخائفة من شيءٍ ما، تتحرك مثل المجاذيب وتتجه لا إراديًا نحو سلمٍ عتيق، تصعد درجاته بسرعةٍ يشوبُها الخوف، ويتصاعد من أخشاب السلم صريرٌ مزعجٌ، في الأغلب لا يكترث له أحد، في الأغلب صرير أرواحهم المظلمة يعلو كل شيء!

لم تتوقف قدميها عن الحركة حتى وصلتْ إلى سطح المبنى، نظرتْ إلى الأسفل في حزن، نظرتْ إلى الموتِ الذي رأتْهُ يبتسم لها في رضا، وبينما دقتْ الساعة العتيقة صوتها مُعلنة انتصاف الليل، أغمضتْ عينيها وألقتْ بنفسها بلا تلجلجٍ ولا ارتباكٍ، لتسقطت جثةً هامدة تَسيل من جسدِها الدماء بلا رحمة..

أرى نفسي في الحلم أقترب من جثتِها، أجثو على ركبتيّ إلى جانبها، تقترب يدي من وجهها، أتفقدُها فتفتح هي عينيها على مصراعيهما وتقول: "اِلحقني يا يونس".

كل مرة كان الكابوس ينتهي تمامًا عند تلك الفقرة، ولكنني اليوم لم أستيقظ، بل تفقدتُ ملامحها لأكتشف أنها ملامح ياسمين، جلدٌ على عظم، مُتعبَة وخائفة!

استيقظت من النوم على صوت دقات باب الغرفة، كان الطارق عم منير، دخل إلى الغرفة والتعب ما زال ينبش في روحِه، جلس أمامي وشرع في البكاء..

- مالك يا عم منير؟ إيه اللي حصل؟!

- الدكتور أنس.. تعيش انت!

- يا ساتر يا رب! إيه اللي حصل؟!

- الدكتور أنس بقاله أسبوع مش بييجي، ودكتور عادل كان فاكره عيان، طلب مني أروحله البيت أشوفه، قعدت أخبط كتير أوي وفي الآخر كسرت الباب.. لقيت لونه زي التلج حضرتك وعينه عليها خوف.. الله يرحمه!

- ربنا يرحمه ويغفر له..

صمتَ قليلًا وهو في حالة تردد، ثم قال:

- حضرتك لسه عايز تدخل غرفة العزل؟!

- مش كنت قايلي المفتاح مش معاك؟!

- لو قدرت أجيبه لحضرتك توعدني تحاول تعالجني؟! خايف يبقى مصيري زي الدكتور أنس..

- صدقني يا عم منير أنا مش عارف انت عندك إيه.. بس أوعدك لو خليتني أشوف الأوضة هعمل كل اللي أقدر عليه عشان أساعدك.

الفصل التاسع

خاتم من الفيروز

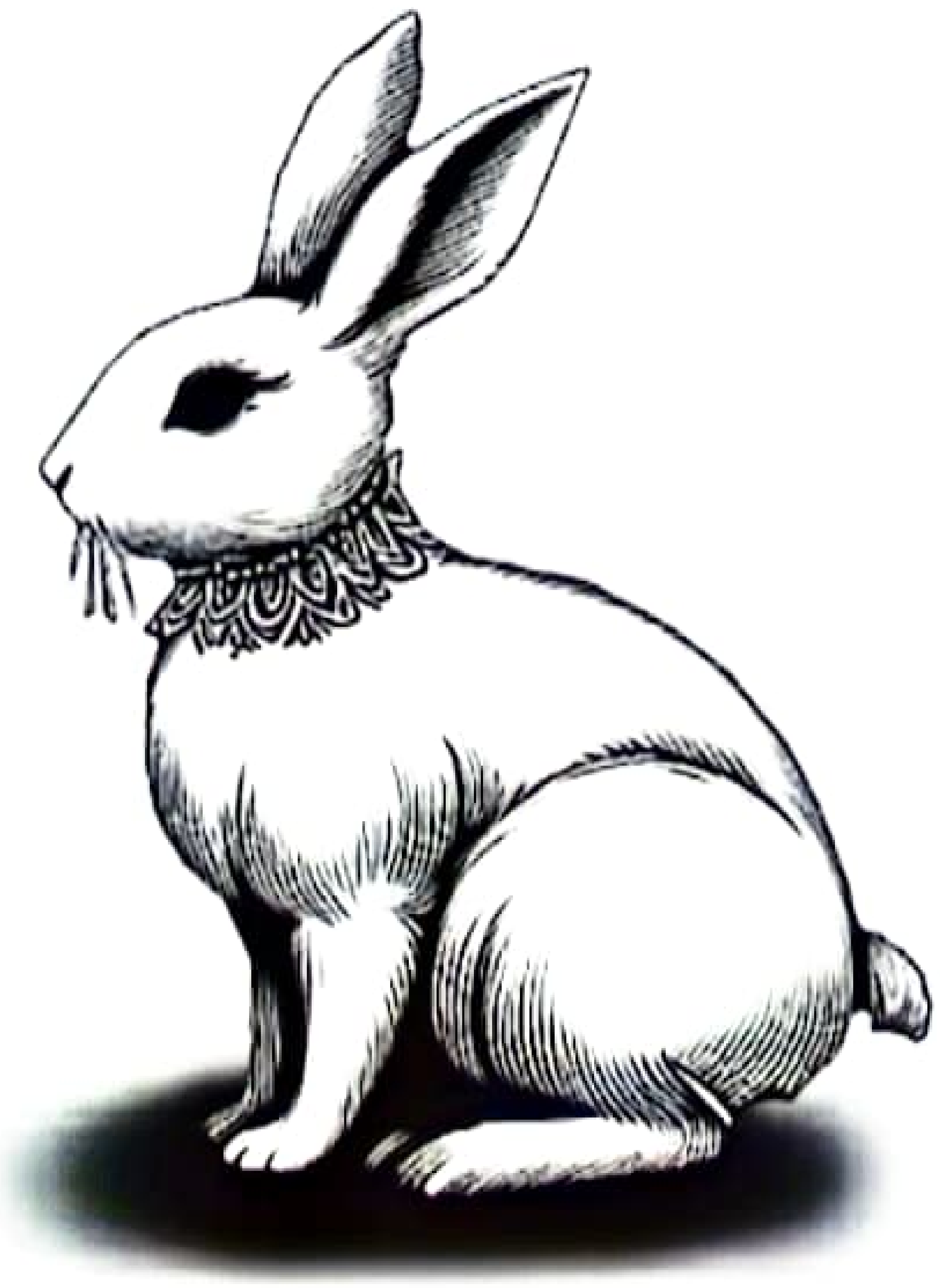

في المساء، وبينما أنا جالس في غرفتي، ظهرت لي جدتي تجلس على مقعدها الوثير -الذي لم تكن تجلس على سواه-لا أستطيع أن أُميّز إن كنتُ مُستيقظًا أم نائمًا.

اقتربتُ منها فابتسمتْ..

ماتت جدتي بعد وفاة أمي بعامٍ واحد، حياتي في هذا العام كانت منقسمة بين بيت جدتي وبيت أختي يارا، ولكنني فضّلتُ أن أعيش مع جدتي هذه الفترة كي لا أُعكِر صفو يارا والتي كانت قد تزوجتْ حديثًا.

كان الصمتُ هو سيد الموقف تلك الفترة بيني وبين جدتي (تيتة صفية)؛ في الشهور الأولى لم يكن بيننا أي علاقة، فقط أسمعها تُوجّه إليَّ الجُمل التالية :

"صباح الخير.. الأكل على السفرة.. اقفل النور.. تصبح على خير".

هي في أغلب الوقت تجلس بشرفة غرفتها تقرأ، وأنا بين دراستي وبين غرفتي.

وفي إحدى الليالي، بينما أنا جالسٌ أُشاهد التلفاز، سمعتُ صوتها تناديني، انتفضتُ خوفًا لأنني لم أعهد سماع صوتها يخاطبني، اتجهتُ إلى غرفتها فطلبتْ مني الجلوس أمامها.

دقائق من الصمتِ قطعها صوتها تسألني:

- عمرك شفت كوابيس قبل النوم يا يونس؟

- يعني إيه يا تيتة؟!

- من يوم ما أمك ماتت وأنا بيجيلي كوابيس قبل النوم.. أمك بتيجي تزورني وبيبقى شكلها مُرعب.. أنا مش عارفة أعيش كدا!

- تحبي نروح لدكتور؟ أكلم يارا؟!

- عايزاك تحضّر شنطتك.. هنسافر بكرة.

- هنسافر نروح فين؟!

- أسوان.. هنزور واحدة أعرفها من زمان.. واحدة تقدر تساعدني أبطل أشوف الكوابيس دي.

تذكرتُ ذاك اليوم جيدًا، رغم أنني لا أتذكر ما حدث بعدها، ولا أتذكر تفاصيل تلك الرحلة.

اقتربتُ منها في قلق، تجلس ساكنة على غير عادتها تحدِّق بي، وما إن أصبحتُ أمامها تمامًا حتى تحولتْ إلى زيتون بعباءته السوداء.

- انت بتلعب؟!

- الحق عليا إني بحاول أخليك تفتكر حاجات محتاج تفتكرها دلوقتي! هتفضل في المكان دا كتير؟!

- قريب هنسيبه يا زيتون.. بس أنا مش همشي إيدي فاضية.

***

في مكتب دكتور أسود، جلس عم منير أمام دكتور عادل أسود والقلق يبدو عليه..

- مالك يا عم منير؟ بتاخد الدوا؟

- باخده حضرتك.. بس مافيش تحسّن.

- أنا عايزك تشد حيلك.. موت أنس مخلّي ضغط الشغل عليا بزيد!

- ما كفاية كدا يا عادل يا ابني! مش عملت اللي انت عايزه خلاص؟ اقفل المصحة بقى وسافر شوف الدنيا وعيش حياتك.. اتجوز وخلِّف!

- آخر مرة أسمعك فيها تقولي اقفل المصحة دي! وبعدين انت عايزني أتجوّز ليه؟ عشان يبقى مصيري نفس مصير أبويا؟!

- يا عادل يا حبيبي، صوابعك مش زي بعضها.. وبعدين أبوك...

- عم منير! لآخر مرة بقولك ماتفتحش الموضوع دا معايا تاني! كل حاجة تفضل ماشية بالظبط زي ما أنا عايز.. النهاية قرّبت خلاص.

خرج عم منير مُنكَّس الرأس من غرفةِ دكتور عادل، الذي أشعل سيجارًا بدأ ينفث دخانه بغضب، ثم أخرج من درج مكتبه صورةً لرجلٍ وامرأة في فرحهم وأطاح بالبرواز في الحائط. ثوانٍ مرَّت وهو في حالة غضبه حتى تجسّد له الكائن ذو الأصابع الطويلة..

- والراجل الكبير ذنبه إيه؟ هتفضل لحد إمتى تحاسب الشخص الغلط؟!

- أنا عمري ما حاسبت الشخص الغلط.. كل واحد بيتحاسب بالشكل اللي يستاهله.

- بس أنا شايفك قاعد بتقدِّم رجل وبتأخر رجل!

- نصير! لما أبقى أحتاج منك مساعدة أو لو حسيت في يوم إني ضعيف هبقى أقولك.

***

كان الأستاذ سعد يبدو في حالٍ أفضل بكثير من الأيام والأسابيع السابقة، تأثير موسيقى محمد فوزي عليه أشبَه بالسِحر.

طلبتُ منه عدة مرَّات أن أرى الصورة التي يحملها في يدِه، ولكنه كان يرفض دائمًا، يخبرني أنها صورة حبيبته التي بُدِّلتْ بأُخرى، يخبرني عن اشتياقِه إلى النور، يُخبرني عن أولاده الذين يتمنى أن يأخذهم بين ذراعيه ولو لمرةٍ أخيرة.

بدأتُ أتيَقَّنُ أن حالته لا تتعدى كونها (حالة زهايمر)، مجرد ضمور في خلايا المخ السليمة يؤدي إلى تراجعٍ مستمرٍ في الذاكرة وفي القدرات العقلية، ولكنني لا أرى أي شيء غير طبيعي في قدراته العقلية، ربما هو حقًا لا يريد أن يحكي لي كل شيء!

وربما هو خائفٌ من شيءٍ ما!

في الفترة الأخيرة بدأتُ أشعر بتعبٍ شديد، عقار الذهان أصبح

بلا جدوى إن كان ما أراه مجرد هلاوس، أراهم جميعًا نهارًا وليلًا، حنين أراها دائمًا تتأملني بلا كلماتٍ تقال، تراقبني بفستانٍ أسود يشبه قلبها، يُعاد في رأسي مشهد قتلها بالتصوير البطيء، لن أندم يومًا على ما فعلته بها، لن أندم يومًا على طعنِها، فهي تستحق عشرات أضعاف الألم. أرى ياسمين تبتسم في الليل، تأخذ بيدي إلى عالمٍ أفضل لم أعرفه إلا معها. أرى أمي وأبي والحزن يسيطر عليهما، بينما يارا تبتسم لي في حنان. عصفورة تجلس على ضفاف النيل تستمع إلى محمد منير وهو يقول «يونس في بلاد الشوق.. آه يا ولد الهلالي». أرى حتى مريم وتيا يعيشان حياةً سعيدة بعيدًا عن دائرة كوابيسي.

أيام أستيقظ كـ (يونس أحمد ليل)، وأيام أستيقظ (شريف باشا)، وأيام أخرى أستيقظ (فينسنت فان جوخ) ذو الفؤاد المحطم!

أنام لساعاتٍ طويلة، أحلامي يتخللها دومًا أشياءٌ لا أفهمها وأشخاصٌ لا أتمنى رؤيته.

وفي أحد الأيام، وبينما كنت أُغادر غرفة ديانا، اقترب مني عم منير وفي يدِه مفتاح صغير..

- جاهز حضرتك تشوف غرفة العزل؟

مشيتُ معه حتى وصلنا إلى غرفة العزل، أخذتُ منه المفتاح، قلبي كاد يخلع من بين ضلوعي من شدة الحماس والقلق، دلفتُ إلى الغرفة حتى تيبستُ في مكاني!

كانت هناك!

تجلس على الأرض، تضُم قدميها إلى صدرها وتنظر إلى الأرض، تبدو ذابلة، متعبة، مريضة، حزينة، إلا أنها جميلة بشكلٍ استثنائي كما عرفتها!

ياسمين..

ياسمين على قيد الحياة..

ياسمين لم تمُت..

ياسمين لم تنتهِ حياتها بالبئر!

ياسمين.. أمامي!

- ياسمين!

نطقتُ اسمها كطفلٍ ينطق اسم أمّه للمرة الأولى، لا أراها بوضوحٍ بسبب دموعي، إلا أنني أراها بوضوحٍ شديد.

رفعتْ رأسها ببطءٍ تنظر إليَّ كَمَن يكتشف المجهول، تُكذِّب عينيها غير مَصدِّقة بأنني أمامها حيٌّ أُرزَق، غير مُصدقة أنني عثرتُ عليها.

نظرتُ إلى عم منير الذي كان يقف عند باب غرفة العزل وعينيه يملؤها الأسى، ثم عدتُ بعينيّ وروحي إليها.. إلى ياسمين.

- ياسمين.. أنا يونس!

- يونس! أنا فاكرة الاسم دا..

- ياسمين، أنا يونس جوزك.. انتِ مش فاكراني؟!

- أنا مش فاكرة حاجة.. انت جاي عشان تديني الدوا؟

- لأ يا حبيبتي.. أنا جاي عشان آخدِك من هنا..

احتضنتُها فاختبأتْ بين ضلوعي تبكي رغم أنها لا تتذكرني، لا أعلم ماذا حَلَّ بها ولكنني أُقسم بأنني سأُصلح لها كل شيء.

ثوانٍ وسمعتُ صوت غلق باب غرفة العزل من الخارج، تلاه صوتُ دوران المفتاح!

صياحٌ متداخلٌ، أصواتٌ كثيرة ما بين نواح وهمهمة تتداخل في رأسي بلا رحمة، لا أستطيع أن أُميِّز الأصوات ولا الكلمات، ولكنها حقًّا تُرهقُني، تنتزع مني ما تبقَّى من روحي..

تتشكَّل تلك الأصوات وتأخذ شكلًا بشريًا على أقل تقدير، تمسك الأصوات بذراعي وتستدرجُني إلى غرفةٍ صغيرة لا هواء فيها، سوداء كتلك القطة التي كانت تسكن شارعنا في الماضي..

الغرفة لونها يتغير، تتحول الأضواء النيون إلى الأخضر ومِن ثَمَّ إلى لونٍ بنفسجيّ مزعج للعين، أسمع عزفًا شديد القُبح للسيمفونية الخامسة لبيتهوفن يعلو إيقاعُها تدريجيًا بشكلٍ مُخيف ومُقبضٍ للروح، أُحاول أن أتماسك، أتكهَّنُ في عقلي الباطن إن كان ما أراه وأسمعه الآن حقيقي أم أن كل هذا من صنع خيالي!

الموسيقى تعلو وتتخلل أوصالي فأستفيق للحظات، أراه أمامي.. أراه الآن بصورةٍ كاملة للمرة الأولى، بحُلَّتِه البالية وشعره الأحمر المائل إلى قليلٍ من الاصفرار، يقترب مني وفي يدِه اليُسرى قناع

لأرنب كثيرًا ما رأيته في كوابيسي، أما في يدِه اليُمنى حمل سكينًا يُصوبهُ نحوي!

أصوات الأنفاس تتزايد، ولا أعلم حقًا لمَن تلك الأنفاس، أهي أنفاسي أم أنفاسه هو!!

- يونس.. انت لازم تمشي من هنا دلوقتي حالًا.. أرجوك!

- مش هسيبك هنا.. إحنا خلاص مابقاش لينا غير بعض!

- يا يونس، عشان خاطري سيبني وامشي!

- مستحيل.. انتِ علِّمتيني أَحبِّك في الوقت اللي ما كُنتش عارف حتى أحِب نفسي!

- أنا بجد مش فاكرة أي حاجة.. بس عارفة إن المكان دا خطر عليك.

كانت الصرخة التي تبعتْ الجملة الأخيرة تفوق دَوِيَّ الرعد، سكن كل شيءٍ للحظات، وبعد ثوانٍ معدودة بدأتْ مخلوقاتٌ ذات وجه أرنب تبزغ من باب الغرفة، منهم مَن يمشي على قدميه ومنهم مَن يمشي على أربع مثل الكلاب، ملامحهم يصعب رؤيتها من كثرة الدماء التي تُغطي عيني!

الآن فقط.. أستقبل الموت كحبيبةٍ طال غيابها..

وفي اللحظة التالية سكن كُل شيء، وفتحتُ عيني لأجد دكتور عادل أسود يُراقبني في صمتٍ على فراشي بغرفتي، ولا أثر لياسمين!

- ياسمين.. ياسمين!

بدأتُ في الصراخ باسمها كالمجاذيب، لا أفهم ما يحدث حولي، لا أفهم أين ذهبتْ بعدما كانت بين أحضاني منذ قليل!

- ياسمين مين يا دكتور؟! اهدى بس كدا وفهّمني!

- إيه اللي بيحصل؟! أنا كنت في غرفة العزل.. ياسمين كانت هناك.. انت عملت فيها إيه؟! فان جوخ كان هناك.. والأرنب.. كان فيه أقنعة كتير!

- اهدى بس يا يونس.. ياسمين مين؟ وبعدين مش أنا قولتلك قبل كدا إن غرفة العزل ماحدّش بيستخدمها!

- انت مخبّي ياسمين هناك.. تعالى معايا أوريك!

- تعالى يا سيدي.. بس بعدها انت لازم تدخل غرفة التأمل.. حالتك بقى ما ينفعش يتسكت عليها خلاص.

قمتُ من مكاني بصعوبةٍ شديدة، استندتُ على دكتور عادل حتى وصلنا إلى غرفة العزل حيث كان عم منير في انتظارنا أمامها، أخرج دكتور عادل المفتاح من جيبه وناوله إليه:

- افتح الباب يا عم منير عشان الدكتور يرتاح!

فتح الباب، دلفتُ إلى الداخل، والمفاجأة كانت الغرفة خالية من أي شيء، خاوية كبَيتٍ مهجور!

رأسي يدور في أسى، أحاول أن أتمالَك أعصابي ولكنني لم أستطع؛ بدأتُ في الصراخ والنحيب بينما عادل يحاول أن يأخذ بيدي..

- كانت هنا.. والله كانت هنا!

- صدّقني يا يونس مافيش حد هنا.. فعلًا كان فيه مريضة اسمها ياسمين بس ماتت من فترة. خليني أساعدك.. أرجوك!

- أرجوك يا دكتور عادل.. سيبني أمشي أنا وياسمين وأوعدك ماحدّش هيعرف حاجة عن المصحة أبدًا!

- انت محتاج جلسة تانية في غُرفة التأمل عشان تصفّي دماغك.. وأوعدك هخليك ترتاح.

الفصل العاشر

هلاوس حقيقية

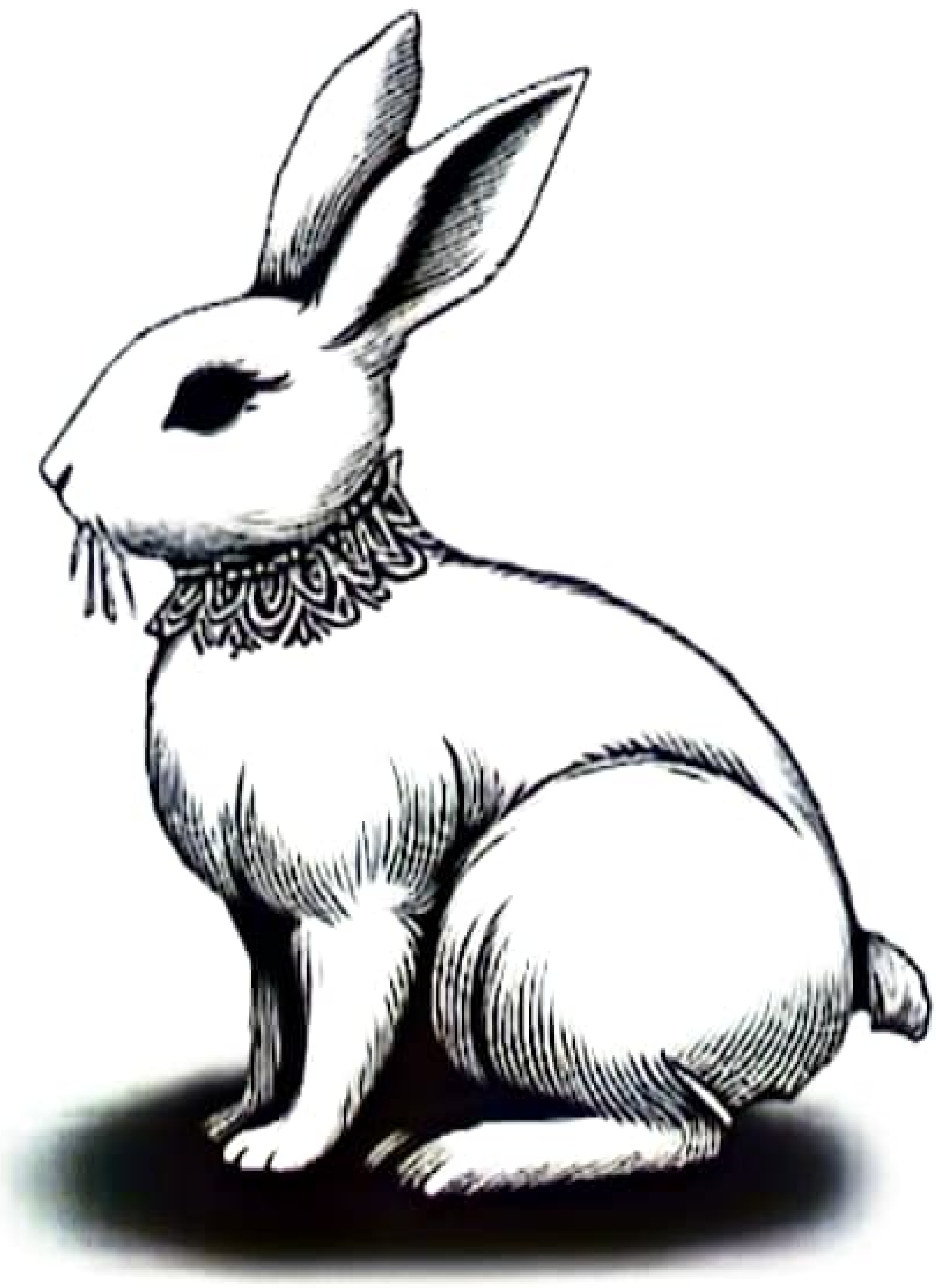

ظننتُ من قبل أنني شخصٌ مُنتهي الصلاحية، لم أكن أعلم أني لم أصلح يومًا كي أُفسد، ولدتُ لكي أعيش في العدم، أعيش في دوامةٍ منذ أن بدأ عمري.

تبعتهُ طواعيةً إلى غرفة التأمل، مرة أخرى أسمع أصوات دقات قلبي، ولكنه تلك المرة يدق كساعةٍ مُتهالكة قاربتْ بطاريتُها على الموت، أسمع أصواتًا تخرج من ضلوعي، لا أكترث لها بقدر عدم اكتراثي لأي شيءٍ الآن، أصبحتُ أعيش في عالمين لا أعلم أيّهما حقيقي وأيهما من نتاج خيالي!

طلبتْ مني طبيبتي في الماضي (الدكتورة رحمة) أن أستغِل خيالي لصالحي، فتخيلتُ نفسي ضابطًا، بل إنني عشتُ بعض الأعوام متقمصًا شخصية (الضابط شريف)، في الواقع لقد استغليتُ خيالي وذكائي في أشياءٍ كثيرة، ولكنني لا أعتقد أنني قد استغليتُ قُدراتي العقلية في الشر، والآن وبعد كل تلك السنوات التي أنهكتْني فيها الحياة، أصبَح خيالي هو مَن يتحكم فيَّ، أصبَح خيالي يُمسك بخيوطي وأنا مجرد عروس ماريونيت بين أصابعه التي لا ترحم.

أدخل مرة أخرى بداخل هذا الخزان الزجاجي، أشعر أنني في بحرٍ عميق وقد وصلتُ الآن إلى القاع، ولكن في هذا القاع لا وجود للرمال والصخور، بل يوجد أبيات شِعر، أقلام كثيرة جَفَّ حبرها، قصاصات ورق، والكثير من الأقنعة.

أنا الآن أسبَح في القاع، وها هي ياسمين تُشبه كثيرًا عروس البحر، تبتسم بينما تدور حولي في سعادةٍ لا مثيل لها، أسأل

نفسي:

«هو انتِ الحياة؟!»

كيف تحوّل العالم بأَسرِه إلى هذه الدرجة من القُبح منذ أن غادرتِ حياتي؟!

أيها العالم، كيف أعيش فيك وكلانا يُخفي وراء ظهره سلاحًا للآخر؟!

أعوام طويلة يصعب حصرها، أصبحتْ الكوابيس جزءًا من حياتي، تتمسّك بي وتغمرني بلا رحمة، أصحو منها كل يوم موجوعًا، لاهثًا، غارقًا في ألمٍ أتمنَّى أن ينتهي، تحضر الكوابيس فتغيبُ الأنفاس، تقترب مِنّي بأنفاسٍ كالثلج ولا أستطيع أنا الحَراك، فقط أغمضتُ عيني كما طلب مني عادل لأتحوّل إلى (فان جوخ)، وأعود إلى العام 1888...

في هذا العام، كنتُ قد تعرفتُ على فتاةٍ تُدعي (راشيل) في أحد الملاهي، والتي كانت السبب في أن يستيقظ (غوغان) صديقي في الثالث والعشرين من كانون الأول ليجدني أحمل سكينًا بين أصابعي وأنا في قمة حُزني.

كانت المُشادَّات تكثُر فيما بيننا، لكن لم يتوقع أن يصل الأمر إلى استخدام السلاح، وعندما كان غوغان يستعد لصَد ضَربَتي له -أو التي كان يظن أنها له- تحوّل مسار السكين لأقطع بها شحمة أُذني اليمنى. كنّا قد دخلنا قبل يومٍ في نقاشٍ حادٍ حول راشيل، وهل هي تُحبني حقًا، ولم يكن أمامي سوى أن أقطع أُذُني

لأقدمها هديةً إليها، والتي ما أن رأتها حتى فقدتْ وعيها.

بعد حادثةِ شَحمة الأذُن المُروّعة تم إدخالي مصحة عقلية في ولاية سان ريمي، وخلال إقامتي في المصحة أنتجتُ كميةً كبيرة من اللوحات، من ضمنها لوحتي الشهيرة (ليلة مضيئة بالنجوم).

في السابع والعشرين من تموز عام 1890، خرجتُ إلى حقل القمح، خلف بيتٍ ريفيٍّ ضخم، في قريةِ (أوفير شيرواز) الفرنسية الواقعة شمال باريس، وهناك أطلقتُ النار على صدري، وذلك بعد ثمانية عشر شهراً من معاناتي من اضطرابات نفسية وعقلية، كان ينتابني شعورٌ مُتزايد بالوحدة والقلق، وبِتُّ على قناعةٍ بأن حياتي ليست سوى فَشَل.

ذات يومٍ، نجحتُ في الحصول على مُسدسٍ صغير الحجم، يعود إلى صاحب المنزل الذي كنت أُقيمُ فيه. وكان هذا هو المسدس الذي أخذتُه معي حينما توجهتُ إلى الحقول، غير أنه لم يكن سوى مسدس جيب صغير الحجم للغاية ذو قوةٍ نيرانية محدودة، ولذا فعندما ضغطتُ على الزناد انطلقتْ رصاصة سرعان ما ارتدَّتْ إثر اصطدامها بأحد ضلوعي دون أن تخترق قلبي، ورغم ذلك فقدتُ الوعي وانهرتُ على الأرض.

وعندما حل المساء، عدتُ أدراجي وبحثتُ عن المسدس ثانيةً للإجهاز على نفسي، وبعدما فشلتُ في العثور عليه، عدتُ مُترنّحًا إلى الملهى أبحث عن راشيل، وهناك تم استدعاء طبيب لفحصي، كما استدعى شقيقي الغالي (ثيو) الذي وصل في اليوم التالي.

كان ثيو يتوقع أنني سأستردُ قوّتي، لكن في النهاية لم يتسَنَّ له فعل شيء، لأموت أنا متأثرًا بجراحي.

كتب شقيقي ثيو تفاصيل اللحظات الأخيرة في عمري قائلًا:

«ظللتُ إلى جوارِه حتى انتهى كل شيء. كان من بين آخر ما قاله أنّ: هذه هي النهاية التي أردتُ أن أمضي إليها».

فور أن دُفنتُ كفينسنت، عدتُ مرة أخرى (يونس) صاحب الستة عشر عامًا، أستعد إلى السفر مع جدتي كي نذهب -على حَدِّ قولها- إلى مَن سيساعدها على انتهاء كوابيسها.

استقلينا قطار النوم لأسوان حيث كان في انتظارنا سيارةٌ أمام باب المحطة، ذهبتْ بنا حتى وصلنا إلى منطقة غريبة تحيطها الجبال في كل مكان، كان في انتظارنا أمام بوابة المكان رجلٌ يجلس فوق رأسِه قردٌ صغير، رحَّب بجدتي وبي، ومشينا خلفه حتى دَلَفنا إلى خيمةٍ كبيرة الحجم يجلس بداخلها مجموعة من السيدات سُمر البشرة، يفترشون الحصير..

- نورتينا يا مدام صفية!

- نورك يا شيخة سعيدة. أنا جاية وكُلّي أمل إنك تساعديني!

- انتِ جاية مِن طرف ناس غالية أوي عندي.. واللي بعمله هنا مش بعمله غير للغاليين اللي زيك.. أنا في الطبيعي مش بسيب الأرض!

دخلتْ علينا طفلةٌ سمراء تبتسم في استحياء، واقتربتْ من سعيدة تدفنُ وجهها في جلباب أُمِّها. أخرجتْ جدَّتي من حقيبتِها بعض

الحلوى وناولتهم للطفلة..

- مين الحلوة دي؟!

- دي بنتي عصفورة.. معلش بقى لسه صغيرة وبتتكسف.

- زي القمر ما شاء الله عليها. دا بقى يونس حفيدي..

دَلَف إلى الخيمة الرجل صاحب القرد، يحمل في يدِه عُلبة صغيرة الحجم، ناولها للشيخة سعيدة..

- شكرًا يا محروس!

شكرتْ زوجها وناولتْ العلبة لجدتي:

- العلبة دي جواها خاتم.. طول ما بتلبسيه الكوابيس مش هتعرف ليكِ طريق، وتبقى حياتك فُل الفُل.

أخرجتْ جدتي من حقيبتِها ظرفًا يمتلئ بالمال وناولتْه لسعيدة:

- ودي بقي حلاوتك يا شيخة سعيدة.. ربنا يجعل راحتي على إيدِك.

- والله ما كان ليها لزوم يا مدام صفية. تحبي أخلّي عصفورة تقرأ لك الودع؟! هي آه سبع سنين بس مكشوف عنها الحجاب..

- المرة الجاية بقى عشان نلحق ميعاد القطر.. تعبتِك معايا يا غالية!

كيف لا أتذكر أنني رأيتُ عصفورة من قبل؟!

كيف لا أتذكر هذا اليوم وأنني قابلتُ سعيدة ومحروس قبل

واقعة مقتَل سعيدة!!

كيف للعقل أن يختار تذكُّره لأشياءٍ وينسى أشياءً أخرى؟!

مَن جعل جدتي تذهب إلى هناك؟!

وما سر هذا الخاتم؟!

هل سعيدة كانت حقًا دجالة أم مُزارعة لا تترك الغيط كما أخبرتْني عصفورة عندما قابلتُها في المرةِ الأولى؟!

تتشابك الأحداث ولا أفهم، أو ربما لا أريد أن أفهم!

بعد تلك الذكرى، ذهبتُ إلى يوم وفاة جدتي..

تجلس في الفراش وعلامات المرض ظاهرة عليها وضوح الشمس في السماء، أجلس إلى جانبها أرمقُها بحُزن، بينما تجلس يارا في الناحية الأخرى منها مُمسِكة بيدها. قال الطبيب أنّ حالتها لا أمل في تحسُّنِها، وأنّ الأمر كله مجرد ساعاتٍ أو أيامٍ. منذ أشهرٍ كانت في أحسن حالاتها، أصبحتْ ذات قوة وطاقة فور عودتنا من أسوان، ولكن سرعان ما تبدَّل حالُها وأصبحتْ ضعيفة واهِنة لا تُفارق الفراش ولا تتحدَّث إلى أحد.

- خلي بالك على أخوكِ يا يارا.. يونس ولد كويس والله!

- ماحدّش هيخلّي باله من يونس غيرك.. وهتاخدي بالك مني أنا كمان!

- يونس ذكي وموهوب.. خلوا بالكم على بعض يا ولاد.

شعرتُ باختناقٍ شديد، فتحتُ عيني وبدأتُ أتحرَّك يمينًا ويسارًا حتى لَمَحني عادل، فأخرجني من الخزان..

- انتَ كويس؟!

- أنا كويس.. عايز أرجع أوضتي.. عايز أرجع الشغل.

- وياسمين؟!

نظرتُ حولي، كانت الغرفة مُمتلئة بكائناتٍ عجيبة لها قرون مثل الثيران، لا يتحركون ولا يتكلمون، فقط يقفون خلف عادل ينظرون إليَّ!

أغمضتُ عيني وفتحتها عدة مرَّاتٍ ثم أجبتُهُ بكُل هدوء:

- ياسمين اللي أعرفها ماتت من زمان.

بضعة أيامٍ مرُّوا وأنا لا أبرح فراشي، حتى قررتُ أنني سأعود إلى مَرضَاي؛ إن كانت ياسمين غير حقيقية فمِن المؤكد أنّ هؤلاء المرضى حقيقيون ويحتاجون المساعدة.

أهتمُّ بسَعد، حتى أنني دلفتُ ذات صباحٍ إلى غُرفة (سيد) وأهديتُه علبةً صغيرة لتحسين مِزاجه، وأُهدِي صلاح مُكعبات السكر وأُمشِّط له شَعره ليَظل ساكنًا سعيدًا، وظلَّتْ ديانا هي الحالة الأقرب إلى قلبي.

- بيلعبوا في دماغك يا يونس!

قالتها ديانا وهي تتناول السيجارة الأخيرة في العلبة التي أحضرها لها عم منير منذ أيام.

- مش يمكن أكون بتخيّل؟! مش يمكن تكوني انتِ كمان مش موجودة!

- خليتهم يدخلوا جوا راسك ويتحكموا فيها.. مابقِتش عارف تفرَّق بين الحقيقة والخيال!

- وهو فيه فرق بينهم يا ديانا؟ وبعدين مين قال إن الحقيقة مش هي الخيال والخيال مش هو الحقيقة؟! مين قال إن الحقيقة هي الصحيان كل يوم الصبح ومتابعة الحالات وإنّي مستنّي عصفورة تولد؟! ليه ما يكونش زيتون هو الحقيقة! كوابيسي اللي بشوفها هي الحقيقة؟! انتِ ما عِشتيش اللي أنا عيشته..

- لما أبويا وأمي سابوا بعض زمان وبدأتْ الحوادث تحصلي كنت بدخل جوا دولابي وأقفل على نفسي وأستخبّى من كل الناس، كان دولاب كبير أوي، كنت مَلياه لعب وحاجات حلوة.. كنت لما بدخل الدولاب دا بحس إني في أمان، وقتها كنت بفكَّر كتير أوي زيّك كدا، وأقول هو اللي بيحصل في حياتي دا حقيقي ولا لأ! ورغم إني ماكُنتش بلاقي إجابات أوي على سؤالي، إلا إن الإجابة الوحيدة اللي اتوصَّلتْ ليها هي إن الدولاب دا هو أكتر مكان حقيقي في دنيتي. انت محتاج تعرف إيه الدولاب اللي هتلاقي يونس الحقيقي جواه.. المصحة دي ولا في أسوان مع عصفورة ولا مع ياسمين اللي مش عارفين أي حاجة عنها دي..

وبينما هي تحدَّث، فتح علينا الباب عم منير والعرق يتصبَّب منه، يحاول أن يلتَقِط أنفاسَه بصعوبةٍ وهو يقول:

- حضرتك.. أستاذ سعد.. بيكَسَّر الدنيا!

استأذنتُ من ديانا وركضتُ إلى غُرفةِ أستاذ سعد والذي كان صراخه يُدَوِّي في أركان المصحة، فتحتُ باب زنزانته فوجدتُه يُحطِّم كُرسيه في الحائط. أمسكتُ به وساعدتُه على الجلوس بفِراشِه، أعطيتُه حُقنَةً مُهدِّئة فسَكَن في ثوانٍ معدودة.

- إيه اللي حصل يا أستاذ سعد؟!

- البيت.. اتمَسَح..

كان يُشير إلى رسمةِ الشباك المرسومة على الحائط بغُرفتِه، ولكنَّها كانت مَمسوحَة بعض الشيء وغير واضحة تمامًا، فأخرجتُ من جيبي قلمًا ورسمت له شِبَّاكًا أكبر، فارتسمتْ على وجهِهِ علامات الرضا في الحال، ولكنه ما إن هدأ حتى بدأ يلتفتُ حولَه في خوفٍ ويقول:

- الصورة.. الصورة!

تيَقنتُ على الفَور من أنه يقصد الصورة التي يحملها معه طوال الوقت والتي كان ظهرها يحمل كلمات أغنية محمد فوزي، على الأرجح أنَّها سقطتْ منه أثناء نوبةِ غضَبِه!

ابتسمتُ له وأخبرتُه أنني سأُحضِرها إليه في الحال، وبدأتُ في التفتيشِ عن الصورة، حتى لمحتُها أسفل بقايا الكرسي المُحطَّم.

أمسكتُ بالصورة بين أصابعي أنظر إليها بفضول، فارتعشتْ أناملي لتسقُط الصورة مني وأسقُطُ أنا إلى جانبها..

الصورة لسيدة جميلة في العشرينات من عمرها..

الصورة لسيدة تدعي منال، أعرفها حق المعرفة..

منال، تلك السيدة بالصورة هي أمي!

بكل ما تبقّى بداخلي من قوةٍ نهضتُ من الأرض ونظرتُ إلى عينيه؛ كيف لي أن أنسى عينيه التي تشبه تمامًا أعيُن أختي يارا!

كيف لي أن أنسى صوتَهُ حتى لو تغيَّرتْ ملامحه بعد مرور أكثر من عشرين عامًا على رؤيتي له!!

كيف أنسى رائحته حتى لو تغيّرتْ بفِعل جلوسه لأعوامٍ تحت الأرض!!

اقتربتُ منهُ وتَحَسَّسْتُ وَجهه وهو لا يقول شيئًا ولا يعترض على ما أفعل، أعرف هذا الرجل حق المعرفة، الأستاذ سعد هو أبي، أحمد ليل!

أبي لم يمُت أم أنني ما زلتُ في حالةِ الهَلوَسة التي لا تنتهي؟!

ولكنني مُتيَقِنٌ مِن وجودِه، لقد عرَّفَني عليه الدكتور عادل وأنس، بل إنني رأيتُ عم منير وهو يساعده مِرارًا على تناول طعامه!

اقتربتُ منه وأنا ما زلتُ في حالة الدهشة المسيطرة عليّ:

- انت.. انت اسمك أحمد ليل؟!

- أحمد.. ليل!

- أيوا.. الاسم دا مش بيفكرك بأي حاجة؟

أمسكتُ الصورة ووضعتُها بين أناملِه وسألتُه:

- اللي في الصورة دي اسمها منال.. صح؟!

- منال.. حبيبتي.. ماتت.

- انت مش عارف أنا مين؟!

- منال.. منال كانت بتحب محمد فوزي.

- أيوا كانت بتحبه. طب فاكرني؟ أنا يونس!

- يونس؟ يونس شريف؟!

الدموع تتساقط من عينيَّ وأنا أسمع اسمي يُنطَق من شِفاه أبي بعد عشرين عامًا من الفراق.

حكتْ لي أمي في الماضي عن يوم ولادتي وأن أبي كان يريد أن يُسمِّيني (شريف) لأنه كان لديه صديقٌ قديم يُحبّه يُدعى (شريف)، أمّا أُمي فكانت تريد أن تُسَمِّيني (يونس) تيمنًا بنبيّ الله (يونس عليه السلام). اشتَد الجِدال بينهما فما كان إلا أنّ (يارا) -ورغم صِغر سِنّها في ذلك الوقت- اقترحتْ اقتراحًا يُرضي الطرفين:

- سمّوه الاسمين.. يونس وشريف.. فيها إيه؟

وقد كان، أصبح لي اسمًا مركبًا، (يونس شريف أحمد ليل).

عدتُ برأسي مرة أخرى إلى غرفةِ أبي بالمَصَحَّة، لديَّ المئات

من الأسئلة التي أريد طرحها على عادل أسود.. كيف لم يمُت أبي؟! ماذا يفعل هنا؟!

أين كان طوال العشرين عامًا الماضية؟!

ماذا حدث له؟! لماذا أنا هنا حقًا؟!

ولكنني لن أقول شيئًا له الآن، ليس قبل أن اعرف إن كانت ياسمين موجودة أم من مجرد نتاج عقلي.

- بابا.. أوعدك إني هخرَّجَك من هنا!

- أحمد.. ويونس.. يمشوا من هنا؟!

- هنمشي يا بابا.. هنمشي ومش هنسيب بعض تاني.

***

يومان مرُّوا ولا أثر لياسمين، أشعر بوَعكةٍ صحيّة تُؤثّر على رأسي وحتى على حركتي، ولكنني أُحاول أن أُقاوِم كثيرًا. أُمارِس عملي في المصحَّة بشكلٍ طبيعيّ كعادَتي اليومية، ولكنني أعرف أنِّي لستُ على ما يرام.

في مساء اليوم الثالث، بينما أنا جالِسٌ أتناول بعض القهوة كان هناك مَن يستأذِن لدخول الغرفة، كان عم منير هو الطارق، كان أقرب ما يكون إلى الأشباح؛ عينيه حمراء كالدم وحركته تُشبِه الموتى الأحياء.

ساعدتُه على الجلوسِ وأحضرتُ له بعض الماء وجلستُ أمامَه في صمتٍ لا يقطعه سوى الصمت..

- بتتعب نفسك في الشغل انت يا عم منير.. يا راجل خدلك إجازة!

- ما عادش ينفع يا دكتور.. أنا خلاص بموت.

- بعد الشر عليك يا راجل يا طيب.. انت بس محتاج ترتاح!

- الموت مش شَر يا دكتور.. الشر هو اللي أنا عايش فيه جوا المكان دا.

- أنا بشوفك بتتعامل إزاي مع العيانين.. حنيِّن وبتراعي ربنا مع كل الناس!

- إلا حضرتك يا دكتور.. إلا حضرتك يا يونس يا ابني.. أنا ما قدَّرتِش مُساعدتَك ليا يوم ما اديتني الدوا.. والفلوس اللي على طول بتديهالي..

- أنا مش فاهم حاجة!

- أنا ما أقدَرش أتكلم.. ما أقدَرش أخون الإيد اللي عايش من خيرها طول عمري.. بس انت عُمرك ما أذيتني، فأنا هقولك حاجتين ومن بعدها انت حر في خطواتك.. أول حاجة بلاش تاكل تاني من الأكل بتاع المصحة..

- وتاني حاجة...؟!

- ياسمين.. ياسمين عايشة يا دكتور.. انت ما كُنتش بتتخيّل زي ما دكتور عادل قالك.

- هي فين يا عم منير؟ ألاقيها فين؟ والأكل ماله؟ عادل عايز مني إيه؟!

- والله ما هقدر أقول ولا كلمة تانية.. سامحني يا يونس يا ابني!

ربَّتَ على كتفي ثم خرج من الغرفة يجُرُّ قدميه وأحزانَه وراء ظهرِه.

قد أكون مريضًا، قد أكون مُتخيّلًا لأشياءٍ لم ولن تحدث، ولكنني على يقينٍ أنني أسير في الاتجاه الصحيح الآن، شعور بداخلي يُخبرني أنني أصبحتُ أسيرًا للهلاوس منذ زمنٍ بعيدٍ وأنَّني أخيرًا سأمشي على خُطى الطريق الذي كان يجب عليَّ اتباعه منذ زمنٍ بعيد.

الهلوسة هي إحساسٌ يشعر به الشخص بغياب المؤثّرات والمحفّزات الخارجية المُسبِبَة لذلك الإحساس. الهلوسة من الممكن أن تحدث بأي طريقة حِسيَّة، سمعيَة، بصرية أو غير ذلك.

الهلوسة السمعية (Auditory Hallucination)

هي سماعُ أصوات، وبصورةٍ خاصة أصوات لأشخاصٍ، مِن غير وجود مصدر لهذا الصوت في العالَم الحقيقي. قد يسمع المريض أشخاصًا يتحدَّثون مع بعضهم أو شخصًا يتحدَّث إليه ويُخبره بالقيام بأمرٍ مُعيّن، بالرغم من عدم وجود أي شخصٍ آخر معه.

الهلوسة البصرية (Visual Hallucination)

هي رؤية شيءٍ غير موجودٍ في البيئة المحيطة، مثل رؤية أشياءٍ أو

أشخاصٍ أو أضواءٍ غير موجودة في الواقع. مثلًا قد يرى المريض حشرة على يدِه وهي غير موجودة، وقد يرى ومَضات ضوئية وبُقع مُلوّنة، وقد يرى المريض أشخاصًا يعرفهم وهم في الواقع غير موجودين.

الهلوسة اللمسية (Tactile Hallucination)

الإحساس بتلامس مادي مع شيءٍ غير موجود في الواقع. واحد من أنواع الهلوسة اللمسية أن يشعر الشخص بوجود حشرة تزحَفُ فوق أو تحت جلده، كذلك قد يشعر المريض بوجود شخصٍ يقوم بلَمس رأسِه مثلًا بالرغم من عدم وجود أي شخص. وهناك أنواع أخرى من الهلوسات، مثل (الهلوسة التنويمية) التي تكون قبل النوم، والهلوسة الآمِرَة التي تُعطي أوامر للمريض للقيام بأمرٍ ما.

هل حياتي كلها سلسلة من الهلاوس المتكررة؟ هل كوابيسي في الأساس هلاوس؟!

مَن أكون؟!

مَن أكون؟!

مَن أكون؟!

الفصل الحادي عشر

كوابيس قبل النوم

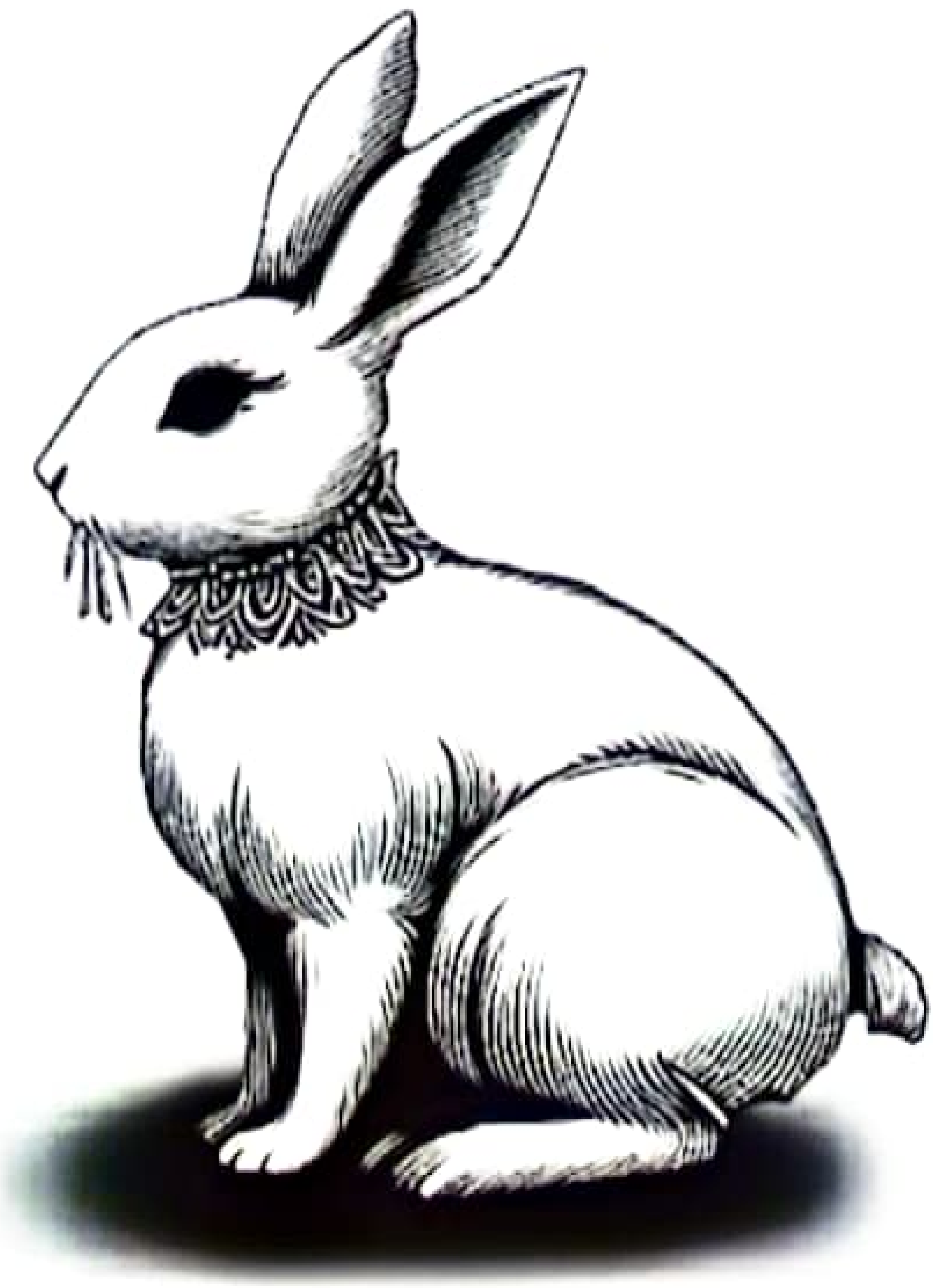

امتنعتُ عن تناول الطعام تمامًا لمدةِ ثلاثة أيام، أعطاني عم منير بعض أكياس (الشيبسي) وبعض (البسكويت) والذي كان يحتفظ بهم لنفسه ليتناولهم خلسة بعيدًا عن أعيُن دكتور عادل الذي كان يُنبِّه على الجميع عدم تناولهم أي شيء سوى الطعام الذي يتم إعداده داخل المصحة. أملأُ معدتي بالكثير من الماء، أشرَبُ كثيرًا حتى تمتلئ معدتي، كنتُ أقوم بإلقاء محتويات الطبق في الصباح والمساء في الحمام حتى لا يرى عادل محتوى الطعام ويبدأ في الشك بي.

خلال تلك الأيام كانت حالتي تختلف، لن أقول أن ما يحدث لي يُسمي تحسُّنًا بالمعنى الحرفي للكلمة، ولكنني على الأقل أُسيطِر بعض الشيء على نفسي؛ لا أرى هلاوس، لا أسمع أصواتًا في أُذُني، أصبح ذهني أصفى بعض الشيء ولكنني ما زلتُ لستُ على ما يرام تمامًا.

جلستُ في غرفتي، أكتبُ جوابًا قد لا يراه أحدٌ غيري، كتبتُ فيه كل شيءٍ عني، حكيتُ كثيرًا عن يونس، يونس الطفل الضعيف الذي كان يحتمي وراء زيتون الذي لم أعرف يومًا ماهِيَّته الحقيقية؛ كل شخصٍ رأى زيتون بالشكل الذي يُناسب تفكيرَه ويُرضي روحه، هناك مَن قال أنه شيطان، وهناك مَن قال أنه قرين من الجن، والبعض رأى أن زيتون ليس سوى صديقًا خياليًا من نَسجِ خيالي. كتبت في الجواب عن حنين وعن ياسمين، كتبت عن أبي وأمي، عن شعوري الدائم بالضياع لعدم معرفة مَن أنا حقًا، لرغبتي الشديدة في الحياة ورغبتي المُستميتة في الموت.

في الليلة السادسة من توقّفي عن تناول الطعام، استيقظتُ مع انتصاف الليل على صوتٍ مُفجِعٍ، يُشبه الصراخ ولكنه أشد قوة، فقمتُ من مكاني مُسرعًا مُرتديًا أول ما امتدتْ إليه يَدي من ملابس.

في الأسفل كانت المصحة تبدو مختلفة، الزنازين كلها مفتوحة على مصراعيها، يخرج من داخلها نورٌ أحمر غريب، بينما تحوّلتْ الإضاءة في البهو إلى اللون الأخضر المختلِط بالبنفسجيّ، أصوات مزعجة تقتحم أُذُني، ولكنني على يقينٍ بأنها أصواتٌ حقيقية وليست من نتاج عقلي. مشيتُ حذِرًا تجاه الصوت، أشعر به يخترق جسدي ولكنني لا أتوقّف عن السَّير تِجاهه.

كان الصوتُ يأخذُني إلى غرفة التأمل، كانت تبدو مختلفة تمامًا، الغرفة تحوّل لونها إلى الأحمر الدموي، كان عادل يجلس على مقعدٍ وثير، أمامه تمثال فرويد والذي تم نقله إلى غرفةِ التأمل، ينظر إليه بتَمَعُّنٍ شديد بينما تنبَعِثُ مِن أرجاء الغُرفة موسيقى أعرفها جيدًا، مقطوعات مختلفة لبيتهوفن كثيرًا ما سمعتُها في كوابيسي وهلاوسي .

فور أن دلفتُ إلى الغرفة أدرك وجودي وابتسم بتحدٍ:

- آسف لو الصوت خلَّاك تصحى من النوم.. كان لازم آخد بالي بما إنك بقيت بتنام من غير كوابيس اليومين دول!

- ولا يهمك.. أنا كنت صاحي.

- شخصية فرويد كانت دايمًا بتشِدّني.. كان بيقول إن الجنس

هو نقطة الضعف الأولى عند الإنسان، الجنس بيتحكم في رغبات الإنسان وسلوكه.. تخيل لما رغبة بسيطة عندك يترتب عليها كل حاجة في حياتك بعد كدا! والدَك مثلًا الأستاذ أحمد ليل والأستاذ سعد زي ما بنقوله هنا، لو كان قدر بس يتحكِّم في شهواته شوية ما كانش حصلّك كل اللي انت عيشتُه دا يا دكتور يونس! بس للأسف هو السبب في كل اللي جرا لك في حياتك واللي هيجرا لك لسه على إيدي!

- حلو إنك قررت تلعب على المكشوف!

- ومين قال إني كنت عايز ألعب على المستخبِّي قبل كدا؟! انت بس اللي بتحب لعبة القط والفار دي.. عامل زي أبوك بالظبط.. عمره ما كان بيعرف يعيش حياة طبيعية.

- أبويا يمكن كان بيعاملني وحش، ما كانش بيفهمني ولا يسمعني.. بس الأكيد إنه ما كانش بالوصف اللي انت بتقوله دا. انت عايز منه إيه؟ عايز مني أنا إيه؟!

- سامع نبرة قوة في صوتك على غير العادة يا يونس، أعصابك كمان باين عليها تحسُّن ملحوظ! واضح إن فيه حد قالك ما تاكُلش الأكل اللي بقدمهولك في المصحة، كنت دايمًا بقول إني مش بثق في حد زي منير، وللأسف أول مرة أطلع غلطان!

- كنت بتحُطلي كوكايين في الأكل ولا إيه؟ بما إن حبيبك فرويد كان بيعتبره علاج!

- كوكايين إيه بس يا يونس! دا أنا كدا أبقى بموّتَك. انت

حياتك غالية عندي أوي. انت بقالك سنين بيتحطلك في أكلك magic mushrooms أو فُطر سِحري، دا بقي يا سيدي بيزوّد هرمون السيروتونين، بقالي سنين بتحكّم في نشاط مُخّك كأني ماسك الريموت بتاعك حتى مِن قبل ما أقابلك، بخلّي أجزاء من مُخك تحفّز وتشتغل بقوة وأجزاء تانية بخليها زي البيت المهجور. الفطر السحري دا أعظم اختراع لتحفيز الهلاوس، دا غير إنه طبيعي تمامًا، ببساطة يا يونس أنا خلقت جوّاك عالم جديد عقلك مش قادر يستوعبه، دا غير إن الكوابيس بتاعتك دي من الأعراض الطبيعية.

- فكرة ذكية يا دكتور عادل، اخترت مادة قوية زي الفطر السحري وفي نفس الوقت ما تكونش قوية بالدرجة الكافية عشان تفضل تعذبني بالتصوير البطيء، أنا مذهول من كمية الشر اللي جواك.. بس ليه؟! إيه اللي ممكن أكون عملتُه ليك عشان تستمتع بتعذيبي أوي كدا؟! دا غير مراتي وأبويا اللي في المصحة هنا! انت مين؟!

- طب حتى خد بالك من الشبَه! أنا أخوك يا يونس...

القاهرة – 1999.

كنتُ قد انتهيتُ من جلستي مع دكتورة رحمة، تحدَّثنا كثيرًا هذا اليوم عن كيفية استغلال الخيال، كنتُ دومًا أستمع إليها باهتمامٍ شديد، أهتَّم بكل ما تقوله لي من تفاصيل، أهتَم حتى بصَمتِها ونظرات عينيها. كان أبي في انتظاري بالخارج لنذهب بعدها إلى المنزل.

خرجتُ فناوَلَني مفتاح سيارته:

- روح استناني في العربية يا يونس، هدخل أتكلم مع الدكتورة شوية.

- حاضر يا بابا.

دلفَ أحمد ليل إلى مكتب رحمة بعد مغادرتي للعيادة، ارتبكَتْ فور أن رأتْهُ وتظاهرتْ بالانشغال في مراجعة بعض الأوراق.

- إزيك يا رحمة؟!

- إزيك يا أحمد! يونس الحمد لله بيتحسِّن بشكل ملحوظ...

- أنا مش جاي عشان أتكلم عن يونس يا رحمة.. أنا جاي أسألك عن عادل!

- إحنا اتفقنا ما نتكلّمش تاني في الموضوع دا يا ليل! اللي حصل زمان كان غلطة بندم عليها كل ثانية بتعدِّي عليا في حياتي.. خليك في ابنك اللي محتاج مساعدة دلوقتي.

- وعادل يا رحمة! مش عادل ابني برضو؟!

- لا مش ابنك.. عادل اتكتب باسم جوزي.. عادل نجيب أسود!

- بس دا مش عدل! أنا عايز بس أشوفه!

- اللي مش هيبقى عدل هو إني أتفَضَح عشان ضعفت في يوم قدامك.. اللي مش هيبقى عدل إن نجيب يعرف إنه مش بيخلِّف وإن الولد اللي بيعمل عشانه كل حاجة في الدنيا مش ابنه. انت عارف إن نجيب كتب لعادل المصحة باِسمُه؟!

- أنا عمري ما اتمنّيت إنّي أجرحك.. وعمري ما كنت بلعب بيكِ يا رحمة!

- إحنا الاتنين ما نستاهلش أي حاجة من اللي عندنا في حياتنا.. انت ما تستاهلش منال ولا أنا أستاهل نجيب.. زي ما قولتلك، حاول دلوقتي تاخد بالك من يونس.

***

عقلي لا يستوعب ما يسمع، عقلي يرفض أن يُصدِّق تلك

القصة! أغوص في بحرٍ استُبدِل ماؤه بمادةٍ لَزجة تمتصُّ الحياة تدريجيًا، كل ما بداخلي ينهار ولا أقوى على لَمْلَمَةِ بقايا روحي.

- انت كداب يا عادل.. كل كلمة قولتها من يوم ما رجلي دخلت المكان دا كانت كدب.. انت نفسك كدبة كبيرة بتحاول تصدقها.

- كان نفسي أقولك إنك صح، كان نفسي أقولك إنك لسه بتتوهِّم وإن الفُطر لسه مأثر على دماغك.. بس للأسف يا دكتور، كل كلمة قُلتها ليك حقيقة. كان نفسي أقولك إن نجيب أسود ما انتحرش.. وإني ما قتلتِش رحمة بإيدي. كل واحد فينا قتل حد بيحبه لما حَس إن الحد دا خانُه.. واضح إن الانتقام في دَمِّنا يا أخويا!

- فقررت إنك تنتقم من اللي عمله أبويا بإنك تحبسه في المصحة هنا؟! ما قتلتهوش ليه؟! ما قتلتينيش أنا ليه؟!

- الوجع اللي أبوك سَبِّبُه لأبويا نجيب أسود واللي سَبِّبهولي ما كانش ينفع يبقى حَلُّه إني أقتله وأقتلك.. كان لازم كل واحد فيكم يتعذِّب كل يوم ويعيش الوجع كل يوم. بالنسبة لأحمد ليل، كان حَلّه إنه يتخطف يوم رحلة الفيوم اللي أخدك فيها وانت صغير ويفضل مَرمي في الزنزانة لحد ما يعفِّن أو يتجنِّن.. وبالنسبة ليك انت، كل حاجة حصلتلك في حياتك السنين اللي فاتت كانت بسببي وبترتيب مني. أدوية الهلوسة اللي كنت بتاخدها أيام جوازك من ياسمين كانت مني.. مقابلتك لحنين كانت بتخطيط مني.. حتى عصفورة يا يونس، حكايتك معاها كانت بتخطيطي

أنا. في الأغلب الوحيدة اللي ما قدرتش أشتريها هي ياسمين.. الغبية حَبتَك بجد!

- عصفورة! يعني إيه؟! انت كداب.. عصفورة جاتلي زمان لما أمها اتقتلت.. أكيد دي مش صدفة!

- لا، الموضوع ابتدى قبل كدا بكتير يا يونس...

الفصل الثاني عشر

شريط سينمائي هزيل

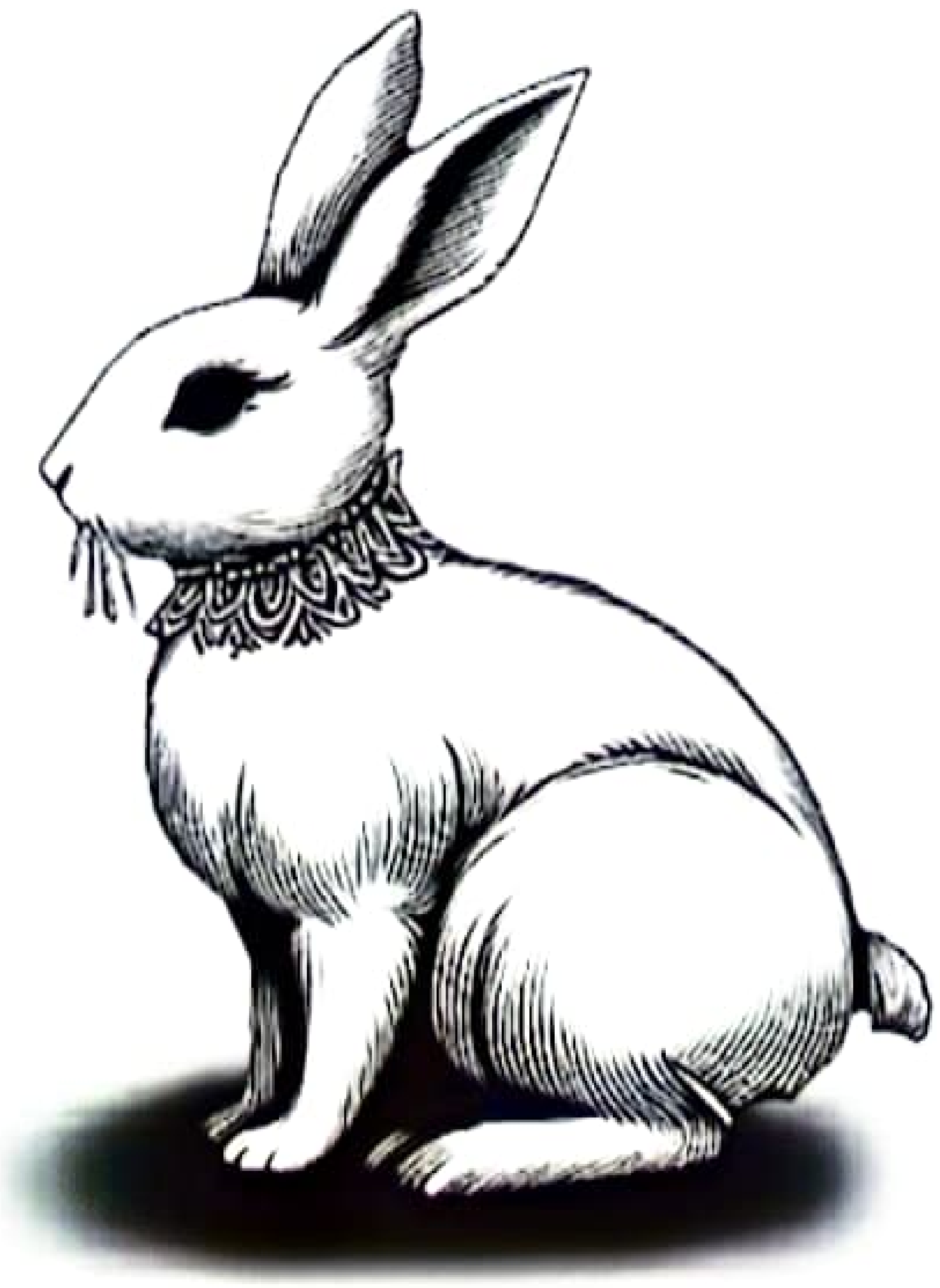

أسوان – 2018.

في قرية السماحة بأسوان، جلستْ عصفورة أمام منزلها الصغير تفترِش بعض الحصير، تُلاعب كلبًا صغيرًا كثيرًا ما يأتي للجلوس معها أمام منزلها، وبينما هي تلهو بسعادةٍ مع الكلب اقترب منها رجلٌ يرتدي ملابس في منتهى الأناقة، تعجَّبتْ لوجودِ رجلٍ في قريتهم التي لا يُسمَح للرجال بدخولِها، ولكنها تيَقنَتْ من أنه صاحب سلطة ونفوذ وبإمكانه الدخول إلى أي مكانٍ يُريده.

- هو دا بيت الشيخة سعيدة يا شاطرة؟

- هو آه.. مين حضرتك؟!

- قوليلها عادل أسود.. هي عارفاني كويس.

دلفتْ عصفورة إلى المنزل لتخرُج سعيدة مُهرولة وهي تُلقي عبارات الترحاب بعادل بكل احترامٍ وهَيبة.

- البلد كلها نوّرت يا دكتور.. كان نفسي أقولك اتفضل بس انت عارف القانون!

- عارف عارف.. غيري هدومك وهستناكِ عند باب القرية..

عايزك في شغل.

- عيوني يا باشا.. 5 دقايق وتلاقيني عندك.

نظرتْ عصفورة إلى أمها بشيءٍ من الشَّك، تعلم أن أُمها تركتْ الدجل والشعوذة منذ سنواتٍ طويلة، تحديدًا بعد وفاة محروس، وتعلم أيضًا أن حياة أُمها الآنَ تتلخَّص فقط في الزراعة، فأثارتْ زيارته لها بعض الريبة في صدرها.

دلفتْ سعيدة إلى المنزل لترتدي جلباب المناسبات، وأخبرتْ عصفورة أنها لن تتأخَّر عندما خرجتْ لها وأنها ستُفهمُها كل شيءٍ عندما تعود.

كان عادل في انتظارها في سيارة فارهة، ابتسم لها ودعاها لدخول السيارة:

- واحشنا يا عادل باشا.. قاطع بينا!

- الله يخليكِ يا أم عصفورة. أنا عايزك في شغل!

- أنا عيوني ليك يا ابن الغالي!

- وهنحتاج عصفورة في الشغل دا كمان.

- خلِّي عصفورة بعيدة عن الشغل اللي بينا يا عادل باشا!

- انتِ نسيتِ نفسك يا سعيدة ولا إيه؟! فوقي! أنا عادل أسود.. يعني بتليفون مني أخليكِ تكملي اللي باقي من حياتك في السجن!

- ليه كدا يا باشا؟ أنا طول عمري خدامتك!

- يبقى تسمعي اللي هقولك عليه وتنفذيه بالحرف الواحد!

كيف لعصفورتي أن تكون جزءًا من خطةٍ حقيرة وضعها هذا الكائن؟! كيف لي أن أعيش في عالمٍ لا ينتهي شَرُّهُ ولا يَصدُق خَيره؟! كيف لي أن أُدرك ما الحقيقي وما الخيالي في حياتي بعد الآن؟! لم أكن من الظالمين، ولم أكن من هؤلاء الذين يعيشون ليعيثوا في الأرض فسادًا. نعم، كنتُ أنانيًّا في أوقاتٍ كثيرة، لا أُفكِّر سوى في نفسي، ولكن هل حُبِّي لنَفسي أُقابله بِكُرهٍ لكل تفاصيل الحياة؟!

كيف لعصفورة أن تكون طرفًا في أَلَمي؟! كيف تنبتُ زهرة الشر من الشجرة الصالحة؟! أهي حقًّا شجرةٌ صالحة أم هذا ما أردتُ أن أراه فقط؟!

أسوان – 2018.

- أنا عايزِك تجيبي خاتم.. خاتم زي اللي إديتيه لجدة يونس زمان.. عايز خاتم يدمرله حياته ويبقى فاكر إن الخاتم دا هيبقى سر السعادة بالنسبة له.. فاهمة يا سعيدة؟

- فاهمة يا باشا.

- اللي هيديله الخاتم دا هتبقى عصفورة بنتك.. هتقوله إن الخاتم دا فيروز هيجيبله الحظ، وكلمتين كدا.

- بس هي عصفورة هتشوفه فين يا باشا؟! وإيه اللي هيخليه يسمع كلامها؟!

- الخطة كلها سيبيها عليا أنا.. المطلوب منك الخاتم، وأنا أول ما أبقى جاهز هقولك على وقت التنفيذ.

القاهرة – 2018.

- نقول مبروك ولا إيه؟!

- نفسي أعرف أنا بسمع كلامك ليه يا عادل!

- عشان بتحبيني يا روحي!

- وهو عشان بحبك هتخليني أتجوّز واحد تاني؟! انت مُقتنع؟!

- حنين.. كل اللي مطلوب منك إنك تفضلي تحطيله اللي بديهولك في أكله.. أنا كاتبلك الجرعة وكل حاجة.. وأوعدك إن أول ما تسافروا أسوان كل حاجة هتخلص بسرعة. أنا عملت كل حاجة عشان يونس يتنقل أسوان، الخطة بتاعتي لازم تمشي زي ما أنا مخططلها.

- أنا نفسي أفهم دماغك! ما تقتله وتخلص ولا حتى تحبسه!

- الانتقام عامل زي القهوة يا حنين، لازم يتعمل على نار هادية عشان يطلع مظبوط..

يسرد عادل تلك اللحظات وعقلي يستقبل كلماته، يجتهد

ليستوعب، تنبش الكلمات في فصوص مُخي لكي يتَّسع إدراكي لما أسمع. كثيرًا ما سمعتُ عن نظريات المؤامرة أو أن يتَّحِد البعض للقضاء على شخصٍ لسببٍ ما، ولكن كيف لكل هؤلاء أن يتَّحدوا على أذيَّتي لأُحاسَب على جريمةٍ لم أرتكِبها وخيانةٍ لم أقُم بها؟!

في الليالي الأولى من زواجنا، كنتُ أُلقِي على عصفورتي قصائدًا لـ (هشام الجخ):

"نفسي أنام.. فينك!

يا أم الرمش عنقريب..

ما تدمَّعيش عينك

الفرح جاي عن قريب".

كانت تبتسم بحنانٍ حتى وإن كانت لا تفهم معنى الكلمات جيدًا.

في أيام شهر العسل، كنتُ أضُمُّ حنين إلى صدري، أُدخِّنُ فتتنفَّسُ دُخاني كمَن يشتَّمُ رَحيق الورود. نستمع سويًا إلى أُغنيتِنا المُفضلة، تبتسم لي قبل أن تُقَبِّلني، تُغنِّي قائلة:

"Kisses on the foreheads of the lovers wrapped in your arms

You've been hiding them in hollowed out pianos left in the dark

Your lips،

My lips،

Apocalypse"...

غنيتُ وغَنُّوا، قلتُ وقالوا، والنهاية واحدة، أنا ووحدتي وألَمي أصدقاءُ مرة أُخرى.

تذكرتُ في يومٍ من الأيام، كنتُ تقريبا في السابعة من عمري، ذهبتُ مع أمي إلى مدينة الملاهي صباحًا، كانت الملاهي خالية تمامًا من أي شخصٍ باستثناء العاملين، وكانت أمي في أَوَجِّ سعادتها هذا الصباح حتى أنها اقترحتْ عليَّ أن تُجرِّب معي **merry go round** لنركبها سويًا!

ابتسمتُ غير مُصدِّقٍ، كل مِنَّا امتطى حصانًا بينما نتناول بعض المثلجات في سعاد. كانت منال رقيقة ذات قلبٍ ذهبي، إلَّا أنها كانت في أغلب الأوقات تعيسة!

- مبسوط؟!

- أحلى يوم في حياتي.

- عايزاك دايمًا مبسوط يا يونس.. مافيش حاجة تقدر تكسرك أو توجعك.

- حتى العفاريت؟!

- خلِّي العفريت اللي بتشوفه صاحبك.. انت حتى ممكن تختارله اسم!

- اسم زي يونس ومنال كدا؟!

- ليه لأ! سمِّيه على اسم حاجة بتحبها، إيه أكتر حاجة بتحبها؟!

- بحب الزيتون، بحب الزيتون على البيتزا، وبحب سندويتشات الجبنة بالزيتون كمان!

- خلاص.. سمِّيه زيتون!

رغم كل شيءٍ ابتسمتُ، بل حتى إنني ضحكتُ كالمجاذيب الحائرين؛ كيف لشخصٍ أن يكون بكل هذا الشر؟!

- اليوم اللي أحمد ليل راح العيادة وفضل يتحايل على رحمة إنه يشوفني كنت أنا موجود وسامع كل كلمة بتتقال، وقد إيه يا آخي كرهت أبوك! حكيت لأبويا كل حاجة اليوم دا، طبعًا زي أي راجل نضيف ما صدَّقنيش، ضرَبني وقالي إني ابن حقير إني فكرت ولو للحظة إن أمي سِت خاينة، ولما لَقاني مُصِر إننا نعمل تحليل DNA اكتشف إني كنت صح.. الراجل الغلبان كل اللي قدر يعمله إنه يموِّت نفسه، ما عاتبهاش ولا حتى قالها إنه عرف أي حاجة. وصل المصحة في يوم الصبح بدري زي أي يوم وضرب نفسه بالنار.

أخرجَ عادل من جَيبِه مسدسًا صغيرًا ووضعه أمام عينيّ ثم أكمل:

- نفس المُسدس اللي انت النهاردا هتموت بيه.. انت وأبوك.

- أنا عمري ما كنت بخاف من الموت يا عادل، بالعكس.. دا حتى أنا والموت صحاب من زمان، أنا شُفت كل حد حبِّيته في

الدنيا دي بيموت.

وضع المسدس في جيبِهِ مرة أُخرى وبدأ يُصفِّق لي والجمود يُسيطر على ملامحه:

- شاعر أوي في كلامك يا يونس.. بس صدَّقني الكلام الحلو دا مش هينفعك تاني.

- صدقني زي ما بقولك، أنا مش خايف من الموت.. بس قبل ما تموّتني احكيلي باقي الحكاية.. كفاية إنّي عِشت مَضحوك عليا!

- حقك يا دكتور.. لما أبويا انتحر قررت إني أقتل أمي، أقتلها عشان كل الوجع اللي سَبّبتُه ليا وسَبّبتُه لأبويا، بس قبل ما أقتلها واجهتها وطلبت منها حاجة أخيرة عشان أسامحها، طلبت منها إنها تقنعَك بإنك انت اللي قتلت أحمد ليل، وبصراحة أمي طول عمرها دكتورة شاطرة ما اقدرش أنكر دا.. قلتلها إني عرفت كل حاجة وإن أبويا انتحر بسببها وإنها لو ما عملتش اللي أنا عايزه تستحمل بقى العواقب..

- وهي فعلًا أقنعتْني بدا، رحمة خلقت قصة كاملة أقنعتني أنا وأمي وأختي بيها...

القاهرة – 2000.

مَرَّ أسبوعٌ على حادثة اختفاء أبي، أو غَرَقِه كما قال البعض.

جلستُ أمام دكتورة رحمة والتي بدا عليها شحوبٌ شديد، ظلَّتْ صامتة لدقائقٍ كثيرة، تائهة في عالمها الخاص، وأنا أجلس على مقعدي لا أتحدَّث ولا أتحرَّك، كانت تنظر إلى السقف كثيرًا كَمَن يستحضِر فكرةً أو كَمَن يحلم في يَقَظتِه، ثم عادتْ لتنظُر إليَّ والغضب يتطاير من عينيها وقالت:

- ليه عملت كدا يا يونس؟

- حضرتك.. أنا..

- كدا تخلِّي زيتون يساعدك تقتل بابا؟! مش إحنا اتفقنا إنك هتتحكم فيه مش هو اللي هيتحكّم فيك؟! ليه عايز تفضل ضعيف كدا؟!

- أنا ما عملتش حاجة.. كل اللي حصل إني نمت شوية ولما صحيت بابا ما كانش موجود على المركب وإيدي كانت كلها دم!

- وجالك قلب تنام بعد اللي عملته؟!

- إيه اللي أنا عملته؟!

- مش عارف؟! مش عارف إنك قتلت بابا وهو بيصطاد ورميتُه في المياه؟!

- ما حصلش...

- حصل.. انت اللي مش فاكر أو مش عايز تفتكر.. وأنا هساعدك عشان تفتكر..

كشريطٍ سينمائيٍّ هزيل، تعود المشاهد مُشوَّشَة، بطيئة وغير مُتَّزنة.

عشتُ حياتي أسأل نفسي عن ماهيَّتي الحقيقية، لم أكن أعلم أن سؤالي كان يجب أن يكون عنهم، كان سؤالي يجب أن يكشِف كل ما لم أكتشفه طوال تلك السنوات. أنا مَن عاش أعوامًا في محاولةٍ فاشلة مني لأكتشف خفايا البشر أدركتُ أنني لا أعلم شيئًا عن الإنسان، كلهم خدعوني، ومكافأتي كانت الكثير والكثير من الكوابيس!

- الخاتم اللي أخدتُه من عصفورة أول مرة قابلتها جواه سحر أسود، من عمايل إيد الشيخة سعيدة.. الكوابيس يا يونس كانت بتدوّر عليك..

- أول مرة شفتك في مكتبك لاحظت إنك لابس خاتم شبه الخاتم بتاعي، بس وقتها قلت أكيد دي صدفة!

- بصراحة يا يونس، في لحظة من اللحظات حسيت إني خايف

منك. لما حنين اتقتلت قررت أسيبك تهرب بمزاجي، مافيش حد بيخرج من هنا يا يونس، أنا قلتلك قبل كدا، اللي بيدخل هنا بيعيش ويموت هنا.. بس أنا سيبتك تمشي عشان تستعد. أنا اللي خلّيت عصفورة تعملّك العيادة، وأنا اللي خلّيت لؤلؤ تجيلك تعمل الفيلم الهابط دا عليك، جواك حاجة بتخليك دايمًا تصدَّق الناس وتشوف الخير اللي جواهم حتى لو كان شِبه معدوم. أما بالنسبة للخاتم بتاعي فدا عمايل إيدين ونجي، طبعًا انت عارفها كويس!

- "مش كل اللي بيلمع دهب".

- إيه؟!

- ولا حاجة. اسمع يا عادل، انت حقك أخدته وزيادة، سيبني أنا والناس اللي هنا نمشي وأوعدك مش هتشوفني تاني. المرضى اللي هنا محتاجين علاج بجد، ويا ريت انت كمان تروح لحد يساعدك!

- تفتكر هسيبك تمشي يا يونس؟ طب تفتكر لو سيبتك تمشي هسيبك تمشي بمين معاك؟ أبوك؟ ولا ياسمين؟ ولا ديانا؟!

- ولو قلتلك إني هخرج من هنا بيهم كلهم هتعمل إيه؟!

- رغم البؤس اللي انت فيه، ورغم إنك تقريبًا خسرت كل حاجة، كنت دايمًا بحقِد عليك بسبب زيتون، كان نفسي إن نصير يكون في طوعي زي زيتون كدا بالظبط.. انت عارف إن أبوك كان زَبّانًا؟!

- يعني إيه؟! وانت تعرف زيتون منين أصلًا؟!

- ميزة كبيرة إن الدكتورة النفسية بتاعت عدوّك تبقى أمك.

- نصير دا عفريتك؟!

- أنا بحب لقب قرين أكتر. رحمة حكيتلي عن أول مرة شافت فيها أحمد ليل.. تحب أحكيلك؟!

الفصل الثالث عشر

أسرار عائلية

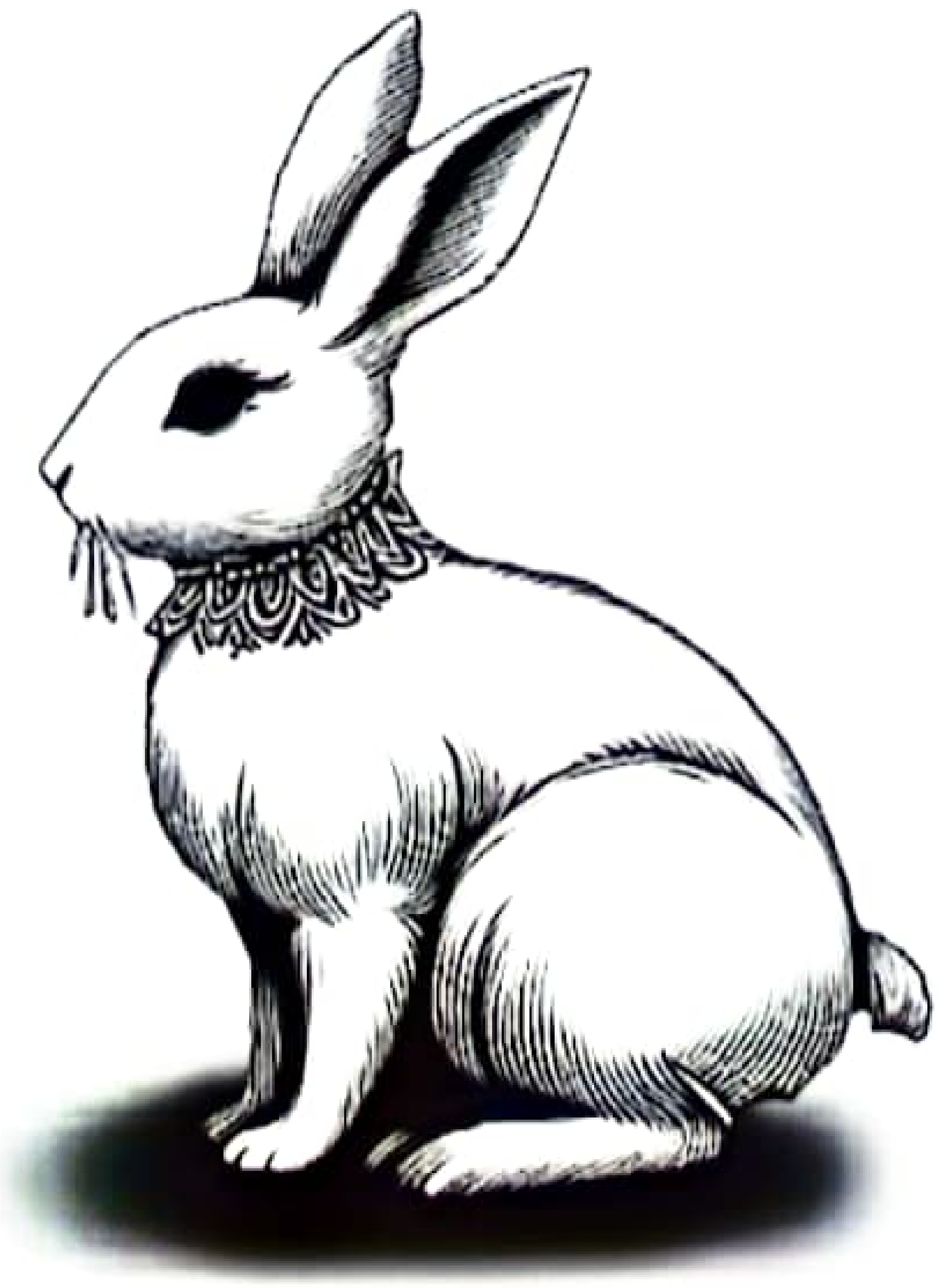

القاهرة – 1977.

في إحدى شوارع منطقة وسط البلد، جلستْ الطبيبة الشابة رحمة تقرأ بعض الصحف كعادتها كل صباح، ترتشفُ بعض القهوة بينما صوت محمد فوزي يشدو في الراديو إلى جانبها. كانت قد افتَتَحتْ عيادتها النفسية منذ أسابيع قليلة، تعلَم أنها كانت طالبة متفوقة، تعلم أنها ذكية ولكنها لم تكن تعلم بعد قُدرتها على التعامل مع المرضى في الواقع، كانت قد تزوجتْ منذ عامٍ تقريبًا بأحد أشهر الأطباء النفسيين في مصر، الدكتور نجيب أسود والذي قام بتجهيز العيادة لها بالكامل. عرضتْ عليه مساعدته في مصحتِه الخاصة إلّا أنه أصَرَّ أنها يجب أن تبدأ رحلتها كطبيبة نفسية بشكلٍ مُستقِل لتكتسب الخبرة والحنكة في ممارسة تلك المهنة الصعبة.

كانتْ قد انتهتْ من تصفّح الجرائد لتدخل عليها المساعدة الخاصة بها تخبرها عن وصول حالتها الأولى، الأستاذ أحمد ليل..

- دكتورة رحمة، فيه حالة برا!

- شكرًا يا كريمة، خليه يتفضّل!

شعرتْ رحمة ببعض الارتباك، أخرجتْ من حقيبتِها مرآتَها الصغيرة لتتأكد من هَندَمةِ شعرها.

طرق الباب ودخل عليها رجلٌ وسيم يرتدي حُلَّةً شديدة الأناقة، لم تستطع أن تُداري انبهارها بأناقتِه، فابتسمتْ ومدَّتْ يدها لتُصافحه:

- أهلًا وسهلًا بحضرتك!

- صباح النور يا هانم، أنا أحمد ليل..

- حضرتك ليك علاقة بمحلَّات (ليل) اللي في وسط البلد؟

ابتسم في خجلٍ يشوبُه شيء من الفخر، وقال:

- بتوعي يا هانم.

- الذوق في محلاتك تجنن.. أنا وكل صحباتي بنجيب كل حاجاتنا من هناك.

- تنوّريني في أي وقت، وليكِ كمان خصم انتِ وكل صحباتك.

- تشرب إيه؟

- لو هتشربي معايا يبقى ممكن قهوة على الريحة إذا تكرَّمتِ!

ابتسمت رحمة وطلبتْ من كريمة المساعدة أن تُعَد لهما فنجانين من القهوة.

حكى لها في هذا الجلسة كثيرًا عن نفسه، عن حياته وعن زوجتِه منال والتي تزوجها بأمرٍ من والده الراحل ليل باشا. حكى

لها عن كوابيسٍ تطارده في نومِه وصحوِّه، حكى لها أيضًا عن صديقِه الخياليّ والذي يكرَه وجودَه كثيرًا، أخبرها بأنه كثيرًا ما يشعر بأنه أُصيب بالجنون، يشعر أنه يقف على حافة الهاوية ما بين الوقوع أو الوقوع، يحكي هو وتستمع هي بكل اهتمام. الأوائل دائمًا مُميَّزون، وقد وعدتْه رحمة بأن تساعده.

أيامٌ تمُر يتبعها أسابيع.. كان يومًا خريفيًا باردًا، وصل أحمد ليل إلى عيادة رحمة في ساعةٍ متأخرة من الليل، كانت قد فرغتْ من آخر حالةٍ لها هذا اليوم وتستعد لتُغادر العيادة.

عندما سمعتْ دقَّات باب العيادة تعجَّبتْ وذهبت لتفتح لتجد أحمد ليل أمامها بكامل أناقته المعهودة، إلا أن الحُزن يبدو عليه!

- أستاذ أحمد.. هو حضرتك ميعادك النهاردا؟!

- أنا آسف يا هانم لو جيت من غير ميعاد.. بس أنا مش كويس، ولو كنت استنيت لبكرة كان ممكن يجرا لي حاجة!

ابتسمتْ رحمة في ودٍ حقيقي ودَعتْه للدخول. لا تكذب هي على نفسها وتقول أنها غير مُعجبة به، اعتادتْ هي الصراحة مع نفسها طوال حياتها، حتى أنها بدأتْ بوضع مقارنات كثيرة بينه وبين زوجها الدكتور نجيب؛ نجيب يكبرها بسنواتٍ ليست بالقليلة، بينما سِنّها مُتقارب بعض الشيء من سِنّ أحمد، نجيب دائمًا غير مُهندم لا يعطي أهمية لِما يرتدي أو لِما يقول، بينما أحمد شديد الوسامة يهتم بالتفاصيل الصغيرة، مثل ساعته، عِطره وحتى المنديل الذي يضعه في جيب جاكيت البدلة، كان أحمد الأفضل في كل شيء.

- الأدوية بقالها كذا يوم مش بتعمل معايا أي مفعول، حتى المنّوم مش بينيمني!

- الأدوية لوحدها مش كفاية طول ما بالك مشغول طول الوقت كدا.. خليني أقدر أساعدك!

- حقيقي آسف إني جيت، بس كنت محتاج إني أشوفك.. أنا لما بشوفك ببقى كويس.

- كلامك دايمًا جميل كدا يا أستاذ أحمد؟!

- شوفي يا رحمة، أنا واحد زباينه كلهم ستات، فالكلام الحلو صَنعتي، بس أُقسم لك بالله إن مافيش ولا واحدة عرفت تخطف قلبي بالشكل دا، أنا عارف إنك متجوزة وعارف كمان إني مش من حقي أقول الكلام دا، بس حقيقي كان لازم أقوله..

لم تقُل رحمة شيئًا بعدما انتهى من كلامه، شعرتْ بالخجل الشديد، ظلَّتْ على صمتِها حتى شعر بأن وجوده غير مرغوبٍ فيه، فقام من مكانِه ليُغادر العيادة. وبعد خطوتين شعر بيَدٍ تُمسك بأطراف الجاكيت وفور أن استدار إليها حتى رمَتْ بنفسها في حِضنِه ليَغرَقا سويًا في قبلةٍ جعلتْ الجو يتحوّل تدريجيًا إلى نهارٍ صَيفيّ على كوكبٍ آخر.

- سبحان الله يا آخي.. دي مش بس عالجته، دي كمان عالجتْ أبويا الغلبان.

- صدقني يا عادل، انت مش محتاج إنك تنتقم من حد عشان تحس إن كل حاجة اتحلّت، انت محتاج بس إنك تسامح!

- انت هتقدر تسامح حنين؟ هتقدر تسامح عصفورة؟

- حنين اللي حصل فيها يكفّيني عشان أسامحها.. وعصفورة مش عايز منها غير ابني. إني إقرر ما أأذيهاش بعد كل دا.. هو دا السماح يا عادل.

- إيه يا يونس! فاكر نفسك ملاك؟! عارف يعني إيه تدّي حد كل حاجة و في ثانية تاخدها منه؟!

القاهرة – 1978.

دلفَ نجيب أسود إلى منزلِه ذات صباح بعد أن انتهى من عملِه في المصحة فجرًا، كانت رحمة في انتظاره بالصالون والسعادة تبدو عليها، وفور أن رأتْه حتى احتضَنَتْه -وهو أمرٌ لا يحدث كثيرًا بينهما- ابتسم لها نجيب في ودٍ وسألها عن سِرِّ سعادتها الشديدة..

- حضَّريلي أي حاجة آكلها يا رحمة عشان راجع ميّت من الجوع!

- عندي ليك خبر هيفرَّحك وينسيك التعب والأكل كمان!

- خير؟ خبر إيه؟!

- أنا حامل يا نجيب.. هتبقى أب!

- انتِ بتتكلمي بجد؟! بتتكلمي بجد يا رحمة؟! حامل بجد؟!

- والله حامل، وكلها كام شهر ووَلي العهد يشرّف..

- ياما انت كريم يا رب! أنا مستني اليوم دا بقالي سنين يا رحمة، كنت خايف أكون مش...

- إوعى تقولها.. دا انت سيد الرجالة يا حبيبي.. بكرة تشوف ابنك اللي من صُلبك بين حُضنك وتخاويه كمان!

- لا دا أنا آخدِك وننزل نتغدّي في كازينو النيل بعد الخبر العظيم دا!

- موافقة..

دخلتْ رحمة إلى غرفتِها لترتدي ملابسها، تلتقِطُ أنفاسَها أخيرًا بعدما تأكدتْ أن نجيب صدَّق كَذبتها وأنه لم يشُك لِلَحظَةٍ أن هذا الطفل ابنه.

ألقتْ نظرةً على نجيب خلسة، فرأتْه لأول مرة منذ زواجهما يُصلي.

***

- تحب أحكيلك عمل عشاني إيه؟ أحكيلك الفرحة اللي كنت بشوفها في عيونه كل مرة كان بيشوفني فيها؟!

- أي أب لازم يحب ابنه، بس في الحقيقة نجيب أسود كان إنسان مُختَل. لو دخلت قريت على النت اللي بيتكتب عنه هتعرف إنه حتى ما يستاهلش السعادة الكدابة اللي عاشها لما افتكر إنك ابنه..

- كل اللي قريته عنه كدب..

- لو معاك تليفونك ممكن أوريك! ولا بلاش نتعب نفسك، كل حاجة أنا كاتبها في النوتة بتاعتي: «نجيب أسود يقطع أيدي

مريض لديه مصاب بـ alien hand syndrome».. «الطبيب الشهير نجيب أسود يعالج مَرضاه بالتعذيب».. «نجيب أسود طبيب نفسيّ أم مُجرم؟!».. «حقيقة مَصحَّة الموت الأسود».. أكمل ولا كفاية؟

- كدب.. كل دا كدب.. أبويا كان عبقري.. التاريخ عمره ما هينسى نظريَّاته وطُرُقه اللي اتجرأ وجرَّبها في الوقت اللي فيه كل الناس بتقلد كل الناس..

الغضب يظهر جليًا على ملامح عادل رغم إدراكي الشديد بأنه يحاول -باستِمَاتَة- أن يُظهِر غير ذلك، يتصنَّع الهدوء، يتصنَّع كَونه صوت العقل في حديثنا، إلا أنني أرى نارًا تلتهمه وتلتهمني معه.

قطع تلك اللحظة صوتُ أبي الواهن، صوت أحمد ليل:

- أنا اللي أبوك يا عادل!

كان يمشي بصعوبةٍ شديدة، مُستندًا على عم منير الذي أصبح أشبَه بالمَوتى، ومن ناحية أخرى أمسكتْ ديانا بأبي.

أحمد ليل لم يغادر زنزانتهُ منذ سنواتٍ طويلة، ولكنني أشعر بشيءٍ من القوة بداخلِه يريده أن يقوم بهذا الحديث الذي طال انتظاره.

نظر عادل إلى عم منير بغضبٍ شديد جعل الرجل يعود خطوةً إلى الخلف خوفًا منه..

- إيه اللي خلَّاك تخرَّجهم من زنازينهم يا منير؟! انت اتجننت؟!

كانت المرة الأولى التي أرى بها عم منير غاضبًا إلى تلك الدرجة، وكأن صمتَ السنوات الطويلة جعلتْه أخيرًا يُريد أن يخرج ما بداخلِه..

- كفاية يا عادل.. كفاية اللي انت عملته السنين اللي فاتت دي!

- حتى انت يا منير؟! دا انت كنت موجود يوم ما أبويا قتل نفسه! انت عِشت الحكاية كلها يا منير!!

- وعشان أنا عِشتها بقولك دلوقتي كفاية اللي حصل، كفاية كل اللي ماتوا يا ابني.. حق الدكتور نجيب وحقك وصل.. عشان غلاوتك عندي بقولك إني عايز أشوفك عايش ومِتهنّي بحياتك!

- نصير كان عنده حق.. أنا ما كانش ينفع أثِق في أي حد..

أخرج عادل مُسدسَه مِن جَيبِه وأطلق رُصاصَتَين استقرَّا في قلب عم منير الذي سقط مَيتًا على الفور، ليختَل توازن أحمد ليل الذي لم تستطع ديانا حمله وحدها، اقتربتُ خطوةً مِنه فأوقفني عادل بمسدَسِه وأمَرَني بالابتعاد عنهم..

- إيه! صعبان عليك؟! هو اللي جابه لنفسه.. الطلقة اللي جاية هتبقى في دماغك لو اتحرَّكت تاني!

لم أُبالِ لما قال، نظرتُ إليه بكُل كُرْهٍ ودَنوتُ إلى حيث يقبَع عم منير وإلى جانبِه أبي.

بدأ عادل يصرخ فيَّ ويأمرني بالابتعاد، ولكنني لم أُعِرهُ انتباهًا، كان عم منير قد فارق الحياة ولم أعد أستطيع أن أفعل أي شيءٍ

لإنقاذِه. حاول عادل أن يضغط الزناد ولكنه لم يستطع، شيءٌ ما أَوقفَه أو مَنَعه مِن فعل ذلك، شيءٌ خفيٌّ أمسَك بيَدِه لينقِذني، أعرف جيدًا مَن يفعل ذلك.. زيتون!

- عفريتك واضح إنه قوي يا يونس.. بس مش هيبقى أقوى من نصير!

نظرتُ إلى جانبي حيث يقف زيتون في أحد الأركان وقد تشكَّل في صورةِ طفلٍ صغير، أومأتُ برَأسي إليه في امتنانٍ وشُكرٍ، فقال:

- ماتخافش.. زي ما خرجنا من هنا مرة هنخرج من هنا تاني.

بدأ زيتون في الركض، يقف أمام كل زنزانةٍ ليقوم بفتح بابها بحركةٍ بسيطةٍ من يَدِه.

ينظر عادل حَوله وهو غير مُصَدِّقٍ لما يرى، المرضى يتحرَّكون إلى البهو حيث نقف نحن في بطءٍ وخوف، أصوات مُتداخِلة تخترِق الآذان، يُصوِّبُ عادل مُسدسَهُ ويقتُل كل مَن يقترِب منه من مَرضاه، بينما أنا ما زلتُ جالسًا على الأرضِ بجوارِ أبي وجُثَّة عم منير، أرى الخوف واضحًا في أعيُنِ عادل، ولكنني أرى إصرارًا بداخلِه لا ينتهي.

زيتون ما زال في هيئةِ الطفل الصغير يجري ويفتح الزنازين على مصراعَيها كَمَن يلهو بلُعبة. ظلَّ عادل يقتُل كل مَن تراهُ عينيه مِن مَرضى حتى انتهتْ الذخيرة بمسدسِه، ألقى بسلاحِهِ بعيدًا ثم صاح قائلًا:

- نصيبير!!

وفجأة سكَنَ كُل شيء، توقَّف مَن بَقيَ على الحياةِ عن الحركة، وتحوّلتْ الأنوار كلها إلى اللون الأحمر، كأنك طَليتَ المصابيح جميعًا بالدماء!

الفصل الرابع عشر

مصير المصحة

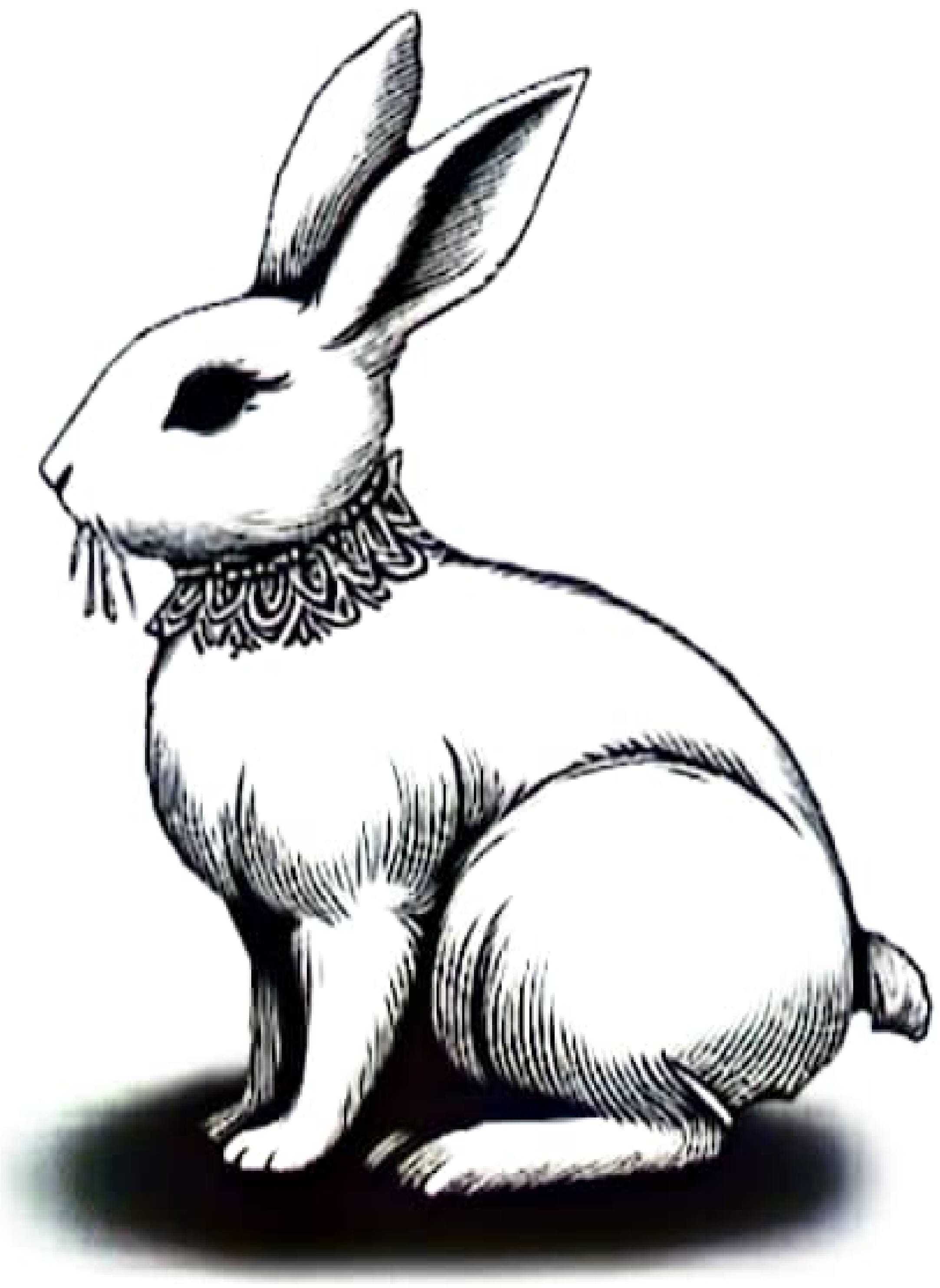

كل إنسانٍ مِنّا خُلِق وبداخلِه كِيانٌ آخر، يتشكَّل هذا الكِيان بطاقتِنا والتي يتغذى على مكنونِها، فالكِيان يتحوّل إلى وَحشٍ إن تغذّى على شُرورِنا وكراهيّتِنا لأنفُسَنا وللحياة في المُطلق، ويتحوَّل الكِيان إلى رفيقٍ وسَنَدٍ إن تَغذّى على الحُبّ والخيال، حتى إن كان الخيال هذا نتيجة ألَمٍ وخَيباتِ أملٍ مُتكرِّرة.

لا أعلم تحديدًا متى ظهر زيتون للمرة الأولى، لا أتذكَّر حتى المرة الأولى التي رأيتُهُ فيها، كل ما أعرفه أننا أصبحنا كِيانًا واحدًا، يأخذ بيَدي في مِحنَتي، يُحارِب لأجلي بقوةِ جَيشٍ كامل عتيد، يرى ما لا أراه في نفسي، يرى ما لا أراه في البشر.

وإن كان زيتون هو صديقي الخيالي، فلعادل صديقٌ مِثله، ولكن ليس مِثله تمامًا.. صديقٌ يُدعى (نصير).

لا أعلم حقًا ما هذا الكائن، كائن ذو أصابع طويلة تمتد إلى الأرض فتُصدر صريرًا يتشابَه مع صوتِه في صوتِ تهشُّم الزجاج، يغطي جسدَه بالكامل بعباءَةٍ سوداء مُهترِئة لم تكشف من ملامح وجهِه سوى فَمِه البَشِع والذي تتخلَّله أسنانٌ حادَّة أشبَه بأسنانِ القِرش.

ابتسم نصير وهو يقترب مني وبدأ في الالتفاف حولي في دوائر ليبُثَّ الرعب في قلبي:

- عظيمة الكوابيس، الحاجة الوحيدة اللي مالهاش حل ولا علاج.

- صدَّقني أنا شُفت اللي أبشَع مِنك يا نصير..

- شجاع يا يونس.. بس غبي!

- أنا أبقى غبي بجد لو خُفت منّك!

- ما ينفعش ماتخافش مني.. أنا كوابيسك يا دكتور!

فجأة تغيَّر شكله ليتحوَّل إلى حنين، تبتسم في شرٍّ فأتصَبَّبُ عرقًا لرُؤيَتِها على قيد الحياة، يتغيّر شكله مرة أخرى لأرى عصفورة أمامي تحمل بين يديها رضيعًا يُشبهني كثيرًا، ما عدتُ أفرَح لرؤيةِ عصفورة كما كنتُ أفعل في الماضي، ليتحوّل مرة أخرى إلى العشرات من الأرانب كبيرة الحجم يلتفّون حولي، فأبدأ بجَذبِ أبي بعيدًا عنه بمساعدة ديانا.

بدأ عادل في الضحك بشكلٍ هيستيري وقال:

- بتعمل إيه يا يونس؟ انت لسه فاكر إنك ممكن تخرج من هنا؟! انت عمرك ما خرجت من هنا..

وبمجرد أن قام عادل بوضع يَده على خاتمه حتى انشقَّتْ الأرض مِن تَحتي لتبتلعني، بدأتُ في السقوط سريعًا في ظلامٍ دامِسٍ حتى سقطتُ بداخل زنزانة صغيرة، جسد بالٍ لا يقدر على الحراك، مُكبَّل بلا أصفاد، أنظر حولي فأرى العشرات من الرسائل تُزيّن الحوائط مكتوبة بقلم طباشير، كلها مُرسلة من فينسنت لأخيه ثيو. أُجاهد نفسي لأصل إلى تلك الفجوة الصغيرة لأرى ما وراءها، أُدخِل عينيّ بصعوبةٍ لأرى عادل يقف من الناحية الأخرى مُبتسمًا بِشرٍّ وما أن رآني حتى قال:

- بخ!!

لأسقُط مرة أخرى عائدًا إلى أسوان، ولكن هذه المرة أنا مُكبَّلٌ بالكثير من الحبال الغليظة، يلتَّف حولي العشرات من الأشخاص، يرتدون جميعًا اللون الأسود، يُردِّدون بعض العبارات غير المفهومة. كانت عصفورة من ضمن هذا الجَمع، اقتربتْ مني وبدأتْ في طعني بسِكّينٍ حاد في كل جسدي، أغمضتُ عينيّ مُتألِّمًا شاعرًا بكل طعنة، لأفتح عينيّ مُجددًا في بهو المصحة، محاطٌ بعَشراتٍ مِن الجُثث، أُمسِك بتلابيب أبي بكل قوّتي، بينما عادل يقف يشاهد ما يحدث لي مستمتعًا، ونصير قد عاد مرة أخرى إلى هيئتِه الدَّميمَة، ولا أثر لزيتون!

- خلينا نمشي يا عادل.. أستاذ احمد محتاج يروح مستشفى!

قالتها ديانا والدموع تملَأ أعيُنها.

- حتى انتِ يا ديانا؟! طب انتِ هتخرجي من هنا ليه؟ عشان ترجعي تاني للشياطين الجعانة تاني؟ على الأقل انتِ هنا في أمان!

- أنا وحَظِّي بقى.. سيبنا نمشي وكل واحد فينا يشوف حظه!

- مفيش حاجة اسمها حظ.. المكان دا بيحميكِ انتِ واللي زيك!

في نهاية البَهو كان هناك شخصان يقتربان منّا، الأول كان زيتون وقد تحوّل إلى نسخةٍ أخرى مِني، يحمل بين يديه ياسمين والتي كانت فاقدة للوعي.

أشعر وكأن نصير دخل إلى رأسي نخارتْ قوتي، تحاملتُ لكي أنطق:

- زيتون! ياسمين!

- ماتخافش.. ياسمين عايشة.. يلا نمشي من هنا!

وما إن نطق زيتون جملتَه الأخيرة حتى اقترب مِنه نصير مسرعًا، ولكن زيتون تفاداه، وضع ياسمين بين يدي في رفقٍ ليعود هو الآخر إلى هيئتِه الأصلية، ويبدأ صراعٌ بين الاثنين امتزَجَ بألوانٍ تعمي الأبصار.

اقترب منَّا عادل ونظر إلَينا بكراهية:

- خلاص كدا الشَّمل اكتمَل؟ يونس وحبيبته والأستاذ أحمد ليل ومعاهم ديانا فوق البيعة!

- خلينا نخرج كلنا من هنا يا عادل.. تعالى نبدأ من جديد!

لهبٌ غريبٌ يخرج من الاثنين، لهب أخضر يندلع من ثنايا زيتون بينما لهب أحمر يزُمجِر غاضبًا من جسد نصير، نتج عنهما شرارة أحدثتْ نارًا في البهو الذي نقف به، وكأن النيران تشعر بكُل الكُره والظلام المُسَّيطِر على المكان فتَستَشيطُ غضبًا لِتلتَهم كل شِبرٍ من المصحة اللعينة، كلما اقترب أحدهما من الآخر تَدب النيران في أرجاء المصحة، دوائر من نار امتزجتْ بألوانٍ تَحرِق العين كتِنّينٍ غاضِب ينتقِم من مدينة بأكملِها.

- دقايق والنار هتحرقنا كلنا.. كانت حلوة الرحلة.

قالها عادل وهو ينظر حولَه ليرى كل ما يملك يتحوّل إلى رماد، وبينما هو يشاهد مصحتَه تغوص في بحرٍ من النار شعر بيَدٍ تَجذبُه ليَجِد أحمد ليل يشير إليه ليدنو منه!

بكُل كبرياء واحتقار اقترب عادل من أحمد ليل والذي بدأ في النطق بصعوبةٍ شديدة كَمَن لم ينطق من قبل..

- عادل!

- عايز إيه؟ شايف كل الدمار دا! انت السبب فيه!

- سامحني يا عادل.. صدَّقني يا ابني.. أنا حبِّيت رحمة بجد!

- مافيش حاجة هتقولها ممكن تغفرلك.. انت عمرك ما فكَّرت غير في نفسك..

- كنت بفكَّر فيك كل يوم.. حبِّيتك زي يونس ويارا.. كنت دايمًا بشوفك من بعيد..

- الأب مش اللي خلِّف ابن في الحرام ورجع بعدها يدوّر عليه.. الأب هو اللي تعب وربَّى يا أحمد يا ليل!

أخرج عادل من جيبِه سِكّينًا صغيرًا، وبلا أي تفكير وبدَمٍ باردٍ وضع نَصلَ السكّين بأكمَلِه في رقبَة أبي!

بدأتْ الدماء تخرُج من رقبتِه بلا هَوادَة ولا رحمة، أنظر إليهما وأنا في حالةِ عدم تصدِّيق، أرى الآن -فعليًا- كابوسي الأسوأ يحدث أمام عينيّ!

أدفعُ بعادل بعيدًا بيَدٍ وباليَدِ الأخرى أحاول أن أُوقِف بحر الدم، الحياة تغادِر عيون أبي الذي لم أتمكَّن من استعادَته إلى حياتي مرة أخرى. تمنيتُ أن يعيش معي باقي حياتي، تمنيتُ أن نُصبح أصدقاء، تمنيتُ أن نذهب بعد كل تلك السنوات إلى رحلةِ

الصيد التي لم تكتمل في الماضي، تمنيتُ لو كان رأى يارا وضَمَّ حفيدَتَه مريم إلى حِضنِه، تمنيتُ لو كان كل هذا ما حدث.. ولكن، منذ متى وما نتمنَّاه يتحقَّق؟!

- بابا.. بابا!

- خلاص يا يونس.. الفيلم خلص.. قلتلك ماحدّش يخرج من هنا!

- لا فيه يا عادل.. فيه واحد بتحبه واقف وراك عايز يسلم عليك!

وما إن التَفتَ عادل خلفَه حتى ظهر من بين النيران (سيد)، الحالة المُصابة بمرضِ التهام الذات. لم أنسَ هذا اليوم عندما دلفتُ إلى مكتب عادل ورأيتُه وهو ينزَعُ أسنان هذا المسكين، بعد تلك الواقعة بدأتُ في متابعة حالتِه بنفسي، أذهب إلى سيد كل مساء لأتفقَّده، لأُقرِّبه مِنّي وأجعله يَكرَه عادل أكثر وأكثر.

الطبيب الجيد هو مَن يُساعد مريضه على الشفاء، أما الطبيب العبقري هو مَن يُسخِّر المرض لصالحه، وأنا قد حوّلتُ سيد من مريض بالتهام الذات إلى مريض التهام، ولكن للبشر.

ذات مساءٍ دلفتُ إلى زنزانتِه وفي يدي هدية صغيرة له، طقم أسنان جديد. أمسك سيد بكل قوتِه بعادل وقام بغَرسِ أسنانه الجديدة كُليًّا في رقبتِه ليَمضُغ لحمَه باستمتاع. نظر إليَّ عادل والدماء تسيل منه ضاحكًا وهو يُجاهد ليتكلَّم بينما الدماء تخرج من فِمه:

- طلعت فعلًا دكتور شاطر يا يونس!

- قلتلك خلينا نخرج من هنا يا عادل!

نظر كل مِنَّا حوله؛ النار يعلو لَهيبها ليَصِل إلى السقف، دخانٌ أسود يخرج من كل مكان، ديانا تحيط ياسمين بين ذراعيها تحاول أن تتفادى النيران، أرى النار تلتهم جسد سيد بعدما أتَمَّ مهمتَه بنجاح، وآخر ما سمعتُه كان عزفًا جميلًا لمقطوعة (مون لايت سوناتا) وضحكات ياسمين في المزرعة وهي تُعِد لَنا طعام الإفطار!

نظرتُ إلى النيران فرأيتُ أمي تبتسم لي، أبي ينظر إليَّ بفخرٍ شديد.

أشعر باللهب يقترب مني!

أغمضتُ عينيّ لأستقبِل الموت كصديقٍ قديمٍ طال انتظاره..

آخر شيء سمعتُه كانت صرخة زيتون!

بعدها توقَّف كل شيء.

تناولت الصحف والأخبار في الأيام القليلة التي تبِعَتْ تلك الليلة:

"احتراق مصحَّة خاصة تعمل في السِّر تحت سطح الأرض..

عثرتْ قوات الشرطة ورجال الإطفاء على العشرات من الجُثث المحروقة بالكامل والتي لم يتم التعرف على أصحابها بسبب تفَحُّمهِم كُليًّا".

أشارتْ الصُحف إلى أن المصحة تعود إلى الدكتور (نجيب أسود) والذي كان قد حُرِّرَتْ ضِدّه الكثير من المَحَاضِر لطُرُقه المُريبَة وغير الآدَميَّة في العلاج، ويُرَجِّح الكثيرون أن ابنه ووريثه الوحيد (عادل أسود) كان من ضِمن الجُثث المحروقة والمُشَوَّهة بالكامل في الحريق.

الفصل الخامس عشر

بداية جديدة

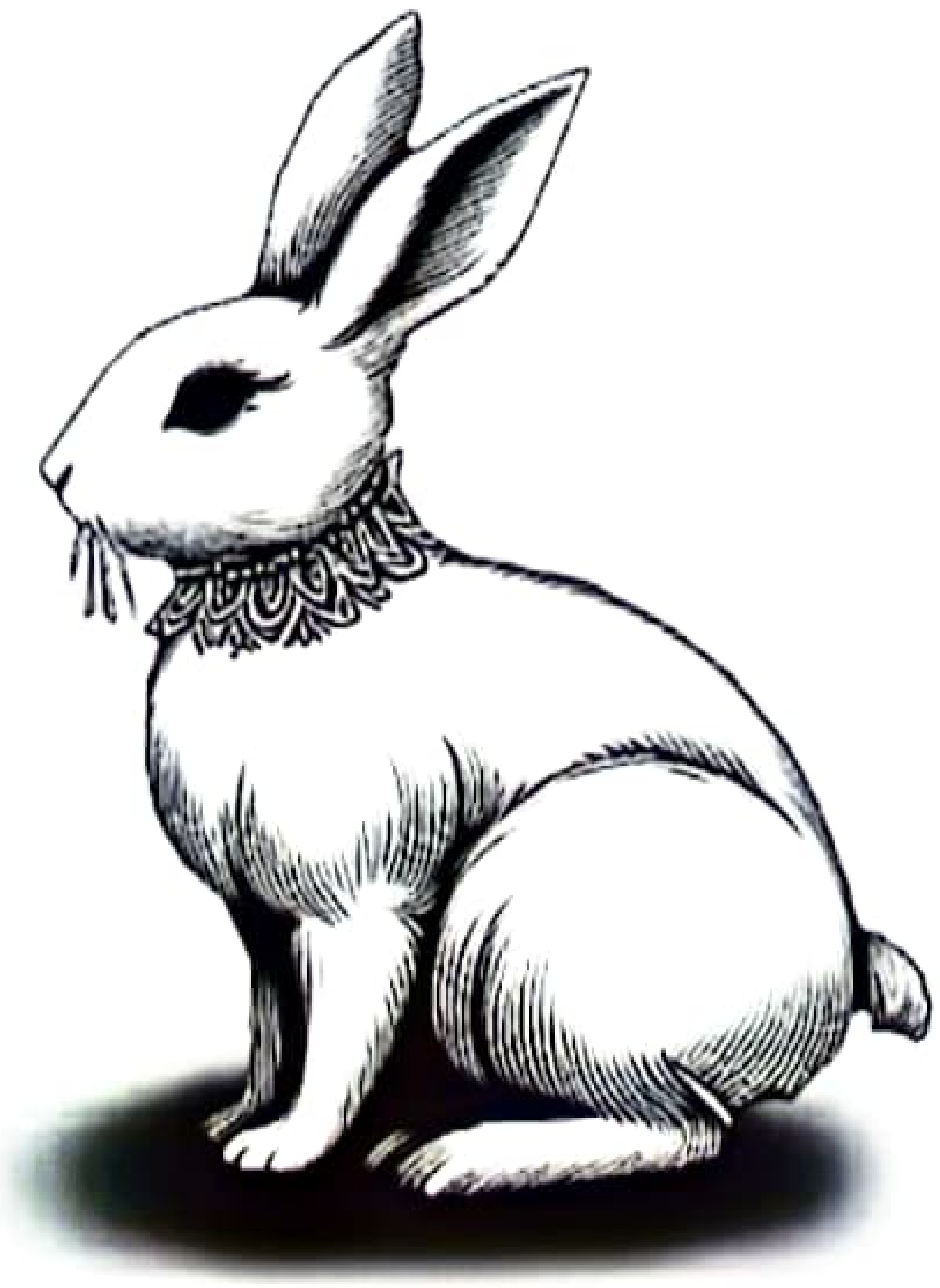

الإسكندرية –بعد الحريق بعدة أعوام.

كُنّا في مُنتصف شهر يناير، ولكن الجو كان صيفيًّا جميلًا رغم كل شيء. ارتديتُ قميصًا أبيض خفيفًا و(شورت) أزرق، وخرجتُ لأقِف أمام البحر حافي القدمين. الساعة في يدي تشير إلى الثامنة صباحًا، القرية الساحلية خالية تقريبًا مِن البشر في هذا الوقت من العام، مشيتُ قليلًا مُستمتعًا بمَلَمَسِ الرِمال في قدمي، أشعلُت سيجارَتي وجلستُ على مقعدٍ خَشَبيّ صغير أتأمَّلُ الصفاء والهدوء، أستنشِقُ الهواء وأُخرِجُه في ارتياحٍ وسلام، أستمِعُ إلى موجِ البحر والذي أكاد أُقسم أنني أسمعه يُدندِن إحدى أُغنيات (أنغام) ولكن بطريقتِه الخاصة.

أنظر إلى تلك الحُروق المُلتئِمة في جسدي، والتي ورغم مرور عدة أعوامٍ على الحادث إلا أنها تركتْ بعض الآثار الطَفيفة والتي لا أكترِث لها كثيرًا. حروقٌ تُذكِّرني بحربٍ خضتُها لأجِد نفسي أخيرًا.

أشعر بيَدٍ تحتَضِنُني من الخلف، فأَضُمّها إليَّ برِفق. كم هي جميلة في هذا الفستان الأصفر والذي زُيّنَ ببعض الرسومات لزهرة عباد

الشمس!

أنظر إلى عينيها المُدهشة وأُقبِّلُها..

- إيه اللي مصحيك بَدري كدا؟!

- الجو حلو أوي النهاردا.. قلت بلاش أضيّع منه ولا ساعة.

- أحضَّرلَك الفطار؟!

- صحّي أحمد ومنال عشان يفطروا معانا.

- حاضر يا حبيبي. لما أندَهلَك تعالى على الفيلا!

- أوامرك يا ياسمين هانم. لو هتعملي جبنة زوّدي عليها زيتون!

- عيوني.

عادت ياسمين إلى الفيلا بينما عدتُ مرةً أخرى إلى البحر وإلى سيجارتي التي قاربَتْ على الانتهاء.

أغمضتُ عينيّ وعدتُ برَأسي إلى الوراء، عدتُ إلى تلك الليلة التي انتهى بها كل شيء. آخر ما أتذكَّره أنني أغمضتُ عينيّ وفقدتُ الوَعي بسبب الاختناق من الدخان، أغمضتُ عينيّ مُستقبِلًا الموت الذي طال انتظاره، ولكن عندما عاد الوعي مرة أخرى كنتُ لا أزال على قَيدِ الحياة، أراد الله أن يمنحني فرصةً أُخرى لبدايةٍ جديدة.

أيامٌ قضيتُها في المستشفى مع ياسمين وديانا حتى تحسنَّا ثلاثتنا، ثم عدتُ بهما إلى القاهرة، إلى منزل يارا التي تجمَّدَتْ في مكانها

عندما رأتْ ياسمين على قيد الحياة. تركتُهما هناك واستقليتُ أول طائرة متجهة إلى أسوان، كانت الجدة ونجي تجلس أمام المنزل تحمل بين يديها طفلًا صغيرًا شديد الجمال، ابتسمتْ في أسى عندما ألقيتُ عليها السلام وناولتّني الطفل في رفق..

- ابنك يا يونس.. مستنّيك عشان تسميه.

- عصفورة...

- عصفورة ماتت وهي بتولد ابنَك يا حبيبي.. آخر حاجة قالتها إنها عايزاك تسامحها!

- ما افتكِرش إني قوي للدرجة دي يا جدة ونجي.. ربنا بقى اللي بيسامح.

- خد ابنك وعيش حياتك يا ابني. على فكرة يا يونس.. ماحدّش فينا كان عايز ليك الأذى!

- انتِ قولتيها ليا مرة زمان ومافهِمتِش معناها.. ولما فهمت كان الوقت اتأخر.. لازم أبطَّل أنبَهر بالدهب شوية.. الفضة جميلة برضه!

- مش هتقولي هتسميه إيه يا ابني؟!

- أحمد يا جدة ونجي.. أحمد يونس أحمد ليل.

شهورٌ تمُر وأنا لا أُفارِق ياسمين، أساعدها كي تتذكَّر، أُساعدُها لتعود ياسمين التي أعرفها مرة أخرى.

لم تتركني ديانا، ظلَّت معنا تساعدني وتساعد ياسمين حتى بدأتْ

حالتها وذاكرتها في التحسُّن بعد ثلاث سنوات، أقمتُ لياسمين فرحًا جديدًا على شاطئ البحر، وبعد عامٍ رزقنا الله بابنتِنا الجميلة (منال)، والتي أسميتُها على اسم أمي.

تركتُ كل شيء خلفي، ولكن بحَقٍ هذه المرة، أصبحتُ أُقيم في فيلا الساحل صيفًا وشتاءً، تعافيتُ من كوابيسي، تعافيتُ من ظنوني وضعفي، وهبتْني الحياةُ فرصةً أخرى كي أُصبح إنسانًا يُدرك جيدًا معنى كلمة أن تحيا.

تعافيت من عملي كطبيب نفسي، أصبحت لا أساعد الا قليلا وعن طريق الهاتف فقط، اذا أراد أحد أن يستشيرني في حالة ما أو قضية مثل صديقي المحقق الشهير (طه) أو غيره، فقط لحنيني الدائم لمهنتي الملعونة، الا انني رميت ورائي فكرة أن أعود لتلك المهنة مرة أخرى مهما كانت المغريات.

أتَمَّ زيتون مُهمَته في حياتي، كان يوم إنقاذه لنا هو اليوم الأخير له في حياتي، لم يظهر ولم أسمعه حتى طوال تلك السنوات، وكأنني ولدتُ من جديد.

كان الإفطار شهيًا حقًا، أحمد يعشق الزيتون مِثلي، ويُحب الصيد أيضًا. أعلم جيدًا أننا سنذهب سويًا إلى الكثير والكثير من رحلات الصيد، وسنُصبح أفضل أصدقاء. أمَّا منال فورِثَتْ رِقة وجمال ياسمين، تُشبهها كثيرًا وخصوصًا في حب الحيوانات.

كان كل شيءٍ يفوق الكمال بمراحل كثيرة، حتى سمعتُ ذات مساءٍ صوت جرس الفيلا يرن، فذهبتُ لأفتَح الباب، ولكن الغريب أنني لم أجِد أحدًا هناك، باستثناء صندوقٍ صغير!

نظرتُ جيدًا ولكن لم يكن هناك أثر لأي شخص، فأخذتُ الصندوق وعدتُ إلى الداخل، جلستُ على مقعدي المُفضَّل وفتحتُ العلبة لأجد شيئًا عجيبًا، كان قناع الأرنب يقبَعُ في الصندوق إلى جانبِهِ ورقة صغيرة كُتِب عليها:

"إلى صديقي العزيز يونس ليل:

يا رب تكون في أفضل صحة!

جوا العلبة شيء يخصَّك من سنين..

دا الوقت إنه يرجعلك تاني وتعرف السر الحقيقي ورا كل اللي بيحصلك".

صديقَك:

حاتم نور.

عَـ الشط استَنّي رايحة فين..

دا أنا ليكِ بغَنّي غنوتين..

غنوة عن الآهة والحنين..

وغنوة لعنيكِ.. يا حَنين!

عن الكاتب:

- كاتب مصري من مواليد الإسكندرية 1992
- تخرج من كلية الإعلام قسم إذاعة وتلفزيون
- حاصل على بكالوريوس الإعلام من جامعة **Bedfordshire** البريطانية
- صدر له 10 أعمال أدبية
- يعمل في مجال التسويق والإعلانات كمدير ابداعي ومعد للبرامج
- كتب للتلفزيون (المخبر - راجل و2 ستات)
- كتب برامج اونلاين (كراكيب - حواديت نص الليل)
- كتب واخرج العديد من الإعلانات
- كتب مقالات في بعض الصحف الإلكترونية
- تصدرت روايته "كوابيس قبل النوم" قائمة الأكثر مبيعا وتُرجمت الى الانجليزية
- تصدرت رواياته في حضرة الموت والسكان الأصليين للقلب قائمة الأكثر مبيعا

صدر للكاتب:

- حنين اضطراري

- آخر أيام آدم

- زي كل سنة

- كوابيس قبل النوم 1 (تُرجمت للإنجليزية)

- كوابيس قبل النوم 2

- في حضرة الموت

- بتوقيت الفراق

- السكان الأصليين للقلب

- اختفاء السيد ديفينهايم (ترجمة)

- كوابيس قبل النوم 3

للتواصل مع الكاتب..

٢٧٠٦٠٩٠٢٩٤

http://elrasm-blkalemat.com
FB.com/elrasm.blkalemaat
Instagram.com/elrsmbkalemat
01061419555
http://elrasm-blkalemat.com

عنوان الكتاب:	كوابيس قبل النوم (الجزء الثالث والأخير: الجمر).
المؤلف:	عبد الرحمن حجاج.
الطبعة الأولى:	٢٠٢٤.
المراجعة اللغوية والإخراج الداخلي:	Dr.Right
تصميم الغلاف:	إسلام مجاهد.
رقم الإيداع:	2023/20949
الترقيم الدولي:	978-977-86781-7-8

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يُعرِّض صاحبه للمُساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

كان يجب أن أسمع للنصيحة الأهم في التاريخ:

لا تنظر خلف الأبواب المغلقة

ولا تسترق النظر حتى..

إهداء

إليك أيها القارئ العزيز..

أهديك الجزء الأخير من ثلاثية (كوابيس قبل النوم)

لعلك تتحرَّر من كوابيسك، كما تحررتُ أنا من شبح الماضي!

إهداء خاص

إلى شخصيتي المفضلة على الإطلاق في عالم رواياتي:

يونس أحمد ليل

أشكرك على تلك الرحلة وعلى كونك الرفيق الحق..

مدينة لاهاي - ١٨٨١

كان فينسنت يتجول في شوارع المدينة قبيل الفجر يجر بأقدامه مرار سلسلة لا تنتهي من الفشل والإحباط، بينما أمطار هولندا الضارية تهبط فوق رأسه لتوقظه من أحلامه المشئمة كلها بلا استثناء، يشعر وكأنه يدور في فلك يسحبه رويدًا إلى موت قادم لا محالة، رغم أنه حتى لم يبلغ الثلاثين ربيعًا. عائدًا إلى بيته في تلك الليلة يحمل خلف ظهره لوحتين فشل في بيعهما كالعادة، كلمات صاحب متجر اللوحات ما زالت ترن في أذنيه: "ابحث لك عن حرفة تكسب منها قوت يومك واترك الرسم لأصحاب الموهبة الحقيقية يا عزيزي".

يصرخ منافسًا الرعد في حمقته لاعنًا الفقر وسوء الحظ، لاعنًا القدر الذي لم يعطِه من الحياة سوى وجهها القبيح ولا غير ذلك، لاعنًا قلبه والذي يعتبره بوصلة تعاسته، أمسك بإحدى اللوحات وشرع في تمزيقها حتى استوقفه مشهد ألجم غضبه في أحد الأزقة المتسخة بالقمامة والماء الأسود القذر، كان المشهد لشابة جميلة يحمل وجهها كل معاني اليأس تحتضن طفلة صغيرة هزيلة، مبتلتان تمامًا، تتناولان بعض فتات رغيف من الخبز العفن ألقاه

أحدهم بالشارع، ترتعشان من البرد، يكاد الشتاء المميت أن يفتك بهما.

اقترب منهما فينسنت ووضع فوقهما معطفه الرث، والذي خلعه من فوق جسده النحيل بلا تفكير، ابتسمت الشابة في وهنٍ وهي تهز رأسها شاكرة إياه على تصرفه النبيل والذي لم تعتَد عليه من ساكني لاهاي أبدًا.

- ستصاب الطفلة ببرد شديد، وأنتِ أيضًا!

- لا نملك المال لننعم بسقف يحمي أجسادنا.

تنهد فينسنت في أسى وقال وهو يمد يده لها في ود:

- ما رأيك أن تأتيا معي لشقتي؟ هي أشبه بجحر الفئران، ولكنها على الأقل لا تمتلئ بماء المطر، أعتقد أنها ستفي بالغرض!

ابتسمت الشابة وهي تشير لبطنها كاشفة عن حملها وقالت:

- أنا حامل، أعذرني، لن أستطيع أن أُقدم لك شيئًا في المقابل.

- ومن قال أنني أريد شيئًا منكِ؟ ألا يستطيع المرء أن يقدم يد المساعدة لسيدة جميلة وطفلتها اللطيفة؟

- لم أعتد هذا من سكان لاهاي، الكل يأخذ مني شيئًا حتى يعطيني شيئًا. وإن أتيت معك الآن ولم أقدم لك ما يريده أي رجل ستركلني أنا وطفلتي مرة أخرى إلى الشارع..

فهم فينسنت ما تعنيه تلك البائسة، تقصد بالطبع عملها كعاهرة،

شأنها شأن العشرات من الفتيات، بلا مأوى ولا مال ولا يجدن ما يقدمنه سوى أجسادهن المرهقة، وبسبب حملها لا تستطيع أن تمارس عملها بشكلٍ طبيعي إلا أن فينسنت ربت على كتفها المبتل وقال:

- لا أريد سوى بعض الونس.. أنا وحيد مثلكِ تمامًا. بالمناسبة ما اسمكِ؟

- كلاسينا، ولكن يمكنك مناداتي بسين.

- تشرفت بك يا سين. أنا فينسنت فان جوخ.

مشت كلاسينا وابنتها المنهكة تمامًا من المطر تتبعان فينسنت كطوق نجاة ألقاه الله لهما من السماء، ينظر لهما فينسنت بين الخطوة والأخرى ليتأكد أنهما تتبعانه، والذي لأول مرة منذ فترة طويلة يشعر بهذا القدر من السعادة والرضا عن شيء ما.

دلف إلى منزله متناهي الصغر يرحب بهما على استحياء، الشقة تفضح جنونه وعشقه للفن، الألوان والأوراق يشغلون المساحة الأكبر من البيت الضئيل، خلعت كلاسينا ملابسها بالكامل وألقت بها إلى جانب باب شقته وقالت وهي تبتسم في خجل.

- أتمانع إن أعرتني أنا وابنتي بعض الملابس؟ سنعيدها عندما تجف ملابسنا، لا تقلق.

تلجلج هو من رؤيتها عارية وقال وهو يناولها بعض الملابس النظيفة:

- أنا وشقتي المتواضعة وكل ما بها في خدمتكِ.

هزت رأسها في امتنان، ناولها فينسنت بعدها بعض الجبن والخبز وصب لها الشاي الساخن، ضحكت في بلاهة، إنها المرة الأولى منذ سنوات التي تشعر بها كلاسينا بهذا الشعور العجيب، أهي الطُّمأنينة؟ أم أمل يتجدد في جنس البشر؟ والمرة الأولى له أيضًا التي يشعر فينسنت أن لحياته هدف نبيل يستحق أن يعيش من أجله.

عزيزي ثيو،

أشفق على النساء..

هؤلاء النساء اللواتي تلعنهن أعين الرجال بشدة..

ويحتقرونهن ويدينونهن دون النظر إلى حياتهن حقًا وإلى ماهيتهم الحقيقية..

فينسنت

القاهرة – ٢٠٠٥

دلف الدكتور هارون إلى قاعة المحاضرات والوجوم يظهر جليًّا على ملامح وجهه الذي يتصبب عرقًا بفعل الحرارة والغضب، اقترب عدة خطوات للمدرج حيث كان الطلبة جالسون ينظرون له في ترقب، الجميع يحترمه والجميع يهابه، والجميع يعلم أنه مختال ومختل، عبقري في مجاله، يحتقر من يعارضه أو يجادله حتى، الجميع ينتظر محاضرته بشغف للاستفادة من علمه، حتى وإن كان يغيب كثيرًا خصوصًا في الأيام الشتوية العتيدة، ألقى بحقيبته باحتدام على مكتبه وبدأ يحرك بصره بين طلابه كَمَن يستعد لاغتيالهم بخرطوش مدبب من عينه.

هارون حسين الرفاعي، أو هارون هولمز، كما يسميه كل من يعرفه، طبيب نفسي مخضرم أربعيني أصلع الرأس متجهم الوجه، لا يبتسم ولا يجامل، ذاع صيته منذ سنوات كواحد من القلائل المتخصصين في كشف وتحليل سيكولوجية المجرمين ببراعة استثنائية. تستعين به الشرطة منذ زمن مع الحالات الخطرة ومتهمين القضايا النفسية المستعصية، تناول الكثيرون من الطلبة والأساتذة قصصًا كثيرة عن مهاراته غير التقليدية في البحث

والإقناع، وعن خوف المجرمين منه واعترافهم بكل شيء أمامه، حتى قبل أن يبدأ كشفه وتحليله، لذلك أطلق عليه الناس لقب هارون هولمز لذكائه الشديد.

اقترب بصلعته الحمراء والغضب يتطاير من عينيه ليثبت أمام أحد الطلبة الجالسين في منتصف المدرج والذي بدا هادئًا ولم يعر لهارون أي اهتمام، بل ظل في حالة ثبات يرسم دوائر عشوائية في ورقة بيضاء استقرت أمامه. أخرج سجائره من جيبه ليسحب نفسًا طويلًا من أحدها أسفر عن موت أكثر من نصف تلك السيجارة البائسة، ثم قال للطالب بكل استهزاء وتهكم.

- قوم اقف يا فلتة عصرك وزمانك!

قام الطالب من مكانه متوترًا بعد سماعه تلك الجملة دون أن ينطق بحرف واحد، أخرج هارون من جيب معطفه بعض الطباشير وناولها للشاب بيد مهتزة ثم قال:

- خد الطباشير دي وروح اقف عند السبورة هناك..

ثم جلس هارون مكان الشاب في تحدٍ، تحرك الشاب بخطوات قلقة لمحراب قاعة المحاضرات ليستدير بعدها في انتظار ما يريده أستاذه منه.

- اكتب لنا كده يا أستاذ، فردمان قسم السلوك الإجرامي لإيه عشان أنا مش فاكر!

فقام الشاب بتدوين الإجابة بيدٍ مرتعشة على السبورة وهو غارق في صمته، نظر بعدها إلى دكتور هارون والذي قال بنفس اللهجة

المُستهزئة:

- طيب معلش لو مش هتعبك تكتب لنا كان مين دكتور مادة سيكولوجية الجرائم اللي حضرتك طالب فيها؟

- حضرتك يا دكتور هارون!

- طب هايل! كويس إن سعادتك فاكر، أمال انت كل يوم لامم الدفعة وقاعد بتشرح لهم وتذاكر لهم ليه؟

- يا دكتور هو فيه اللي يمنع إني أساعد زمايلي؟

قام هارون من مقعده ليقترب منه بوجهٍ يحمل الكثير من ملامح الجنون قائلًا بصوتٍ عالٍ مواجهًا باقي الطلبة:

- لو جبت لك دلوقتي متهم في قضية قتل، أربع اشخاص على وجه التحديد، والتحقيقات كلها بتقول إنه قتل عمد! هتعرف تقولي الراجل ده مذنب ولا لأ؟ هتقدر تثبت براءته لو بريء؟ اللي يمنع إنك لسه حتة عيل لا راح ولا جه عشان تعملي فيها فرويد يا... انت اسمك إيه صحيح يا شاطر؟

- يونس يا دكتور.. يونس أحمد ليل.

- طيب يا أستاذ يونس، اعتبر نفسك ساقط في المادة بتاعتي السنة دي لحد ما تعرف دورك إيه في الكلية دي.

- بس ده ظلم يا دكتور!

- روح اشتكيني لعميد الكلية.. قوله هارون الرفاعي راجل ظالم وبيفتري عليا. يلا اتفضل اطلع برا، والكلام للجميع، اللي شايف

نفسه أستاذ يروح يسحب مادتي وما اشوفش وشه هنا تاني!

خرج يونس وهو يلملم نجله وكتبه حتى وصل إلى دورة المياه ليحبس نفسه بداخلها، يجاهد أحزانه ودموعه، يعلم أنه لم يفعل شيئًا سوى تقديم يد المساعدة لأصدقائه وزملائه، وأن هارون ليس سوى مختال مصاب بجنون العظمة. اقترب منه صديقه الوحيد في تلك اللحظة جالسًا فوق المرحاض وهو يتأمل يونس في صمت واضعًا يده على خده في سخرية.

- تحب بكرة نحضر عزاء الدكتور هارون؟

قالها زيتون بجدية لا تخلو من حسه الفكاهي المخيف.

- لا يا زيتون! قتل تاني لأ! كفاية اللي حصل زمان!

تأفف زيتون وقال في استياءٍ شديد:

- براحتك.. مع إن الموت في أوقات كتير بيبقى حل منطقي!

- مش هنلجأ للحل ده يا زيتون، وما تفتحش الموضوع ده تاني معايا!

أشاح زيتون بنظره بعيدًا وقال في سخرية:

- عمومًا، هو للأسف هيروح النهاردا بمواصلات عشان الأربع عجلات بتوع عربيته بقوا على الأرض.

ضحك يونس وهو ينظر لزيتون في امتنان:

- اعدل نفسك كده عشان ياسمين واقفة برا، بلاش تشوفك في

الحالة دي.

- امشي انت طيب دلوقتي..

- ماشي يا رومانسي، أشوفك في البيت!

كانت ترتدي سترة زرقاء زادتها جمالًا في بساطتها، تبتسم في حب بريء، منذ أن عرفت يونس في بداية العام الماضي في الجامعة وهي لا ترى غيره، تحبه وتعشق تفاصيله، ويرى هو فيها الحب الذي طالما افتقده بين أسرته.

- مالك يا عم الحزين؟

- هو فيه غيره! هارون المجنون كالعادة حاطتني في دماغه.

- هفضل أقولها لك يا يونس.. ابعد عنه عشان ده راجل مؤذي.

- سيبك انتِ.. تيجي نروح سمسمة؟

- أنا عايزة أروح فيلم أحمد حلمي الجديد، زكي شان!

الفصل الأول

يونس خارج بلاد العجائب

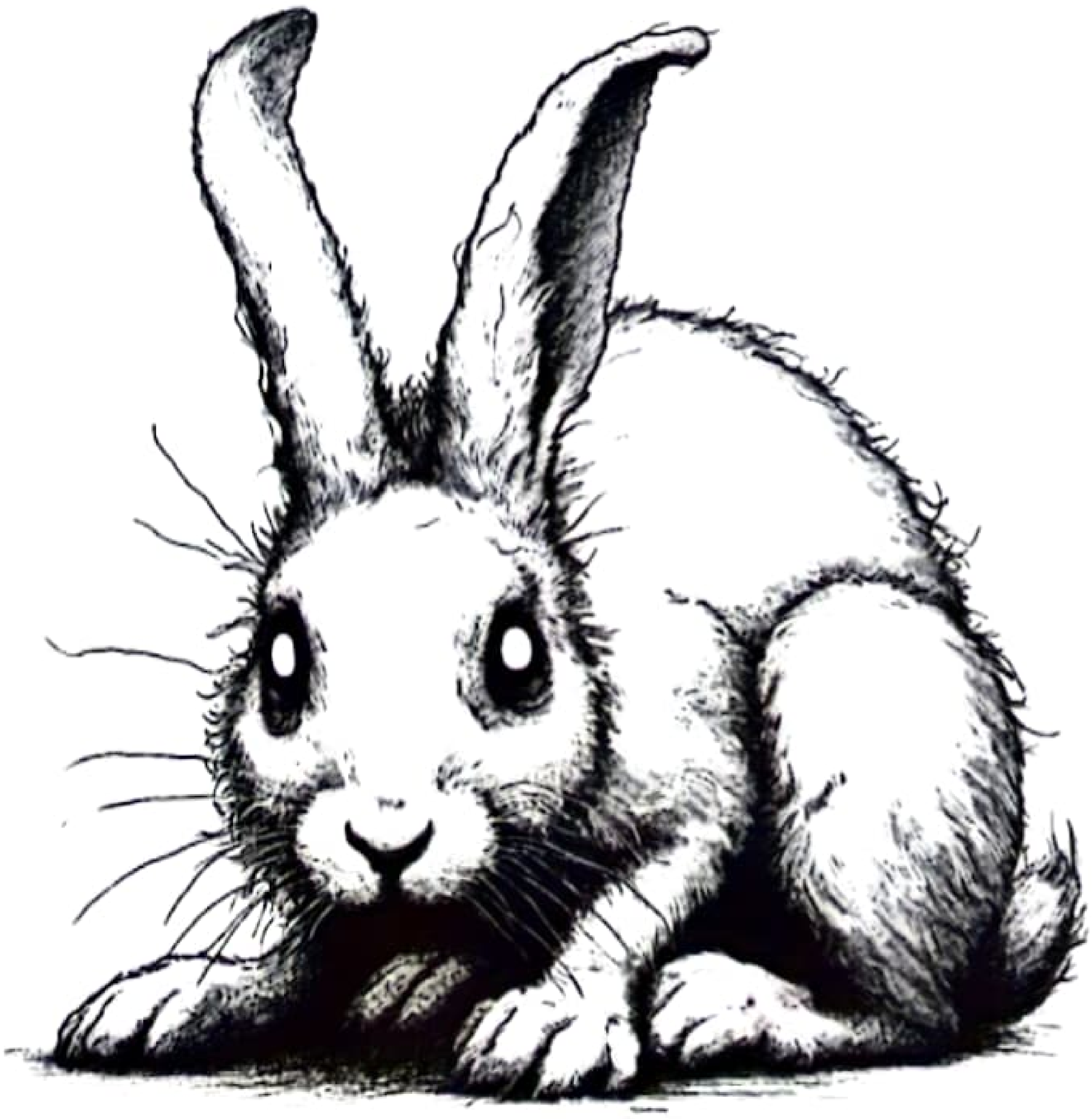

الساحل الشمالي - ٢٠٢٦

(الزمن الحاضر)

أنا هو أنا.. أنا تعويذة من الكتاب الأقدم للسحر الأسود، العن كل من يقترب مني..

أنا عمل سفلي لا يمكن عكسه أو إبطاله.. رجس لا يغتفر..

أنا من ظننت نفسي طوق نجاة حتى أدركت أني طوق يلتف حول رقاب من حولي..

أنا من تجرَّع الموت فأصبحت اعرفه حق المعرفة، أبتسم له كصديق قديم.

أنا الذي ظننت يومًا أني ملعون حتى فهمت أخيرًا أنني اللعنة ذاتها..

يونس.. الطاعون.. والكابوس الوحيد الذي لا يمكن الاستيقاظ منه..

هو أنا..

استيقظت منذ لحظات على حلم غريب وصوت مستفز لضغيب

أرنب ما، حلم يتكرر منذ عدة ليالٍ بلا انقطاع أو فواصل. أرى في حلمي يونس الشاب، خارج من غرفة محاضرات دكتور هارون الذي كنت أكرهه كثيرًا، لأجد في انتظاري أمام باب الخروج امرأة رائعة الجمال ترتدي فستانًا أسود تحيطها هالة من النور الأحمر، وأرنب صغير يرتدي ملابس بشرية يمسك بيده ساعة جيب ضخمة، يجري مهرولًا في ذعر لا أفهم سببًا منطقيًا له. يقسم بشاربه أنه قد تأخر كثيرًا وأنني أنا من تسببت في هذا التأخير، يسحبني من يدي كي ألحق به، يجذبني من ملابسي حتى أسير على خطاه، إلا أنني أسير متثاقلًا كالمخمور، وهو يجري بسرعة لا تتناسب تمامًا مع حركتي البطيئة، أحاول أن ألحق به، إلا أنه لا يكف عن الصياح في وجهي بأننا قد تأخرنا عن الموعد.

لم أعد مهيَّأً للركض كما كنت أفعل في الماضي. متى سأنعم بالقدرة على السير كسائر البشر؟ متى سأنعم بالتوقف عن كل شيء؟ كل ما أريده على الأقل هو زر pause في حياتي.

لا يكف الأرنب اللعين عن سحبي لأواكب سرعته حتى دفعني إلى بحر صغير، بحر امتد كنفق لا ينتهي، بئر عميق بنفسجي اللون تشع من ثغراته أضواء خضراء لامعة، وأنا أسقط بداخله بالتصوير البطيء، ظللت أسقط حتى ارتطم جسدي النحيل بالقاع، لا يوجد بجواري سوى قارورة صغيرة بداخلها سائل فضي اللون، رُبطت حول عنقها ورقة طُبع عليها كلمة: "تجرَّعني".

لماذا تحولت كوابيسي إلى مشاهد لا تنتهي من رواية (أليس في بلاد العجائب) في نسخة لم يُكتب لها النشر؟ أم هي رواية يونس في تلك البلاد التي تتحدث بها الورود وطيور الدودو ويصاحبني

بها صانع القبعات المختل عقليًا!

أتجرع محتوى القارورة فيتغير شكلي، أرى نفسي شابًا في قارب صغير في إحدى بحيرات الفيوم، أمامي يجلس الريس نونو يُدخن في صمت، ألقي بسنارتي في البحيرة فتخرج لي منها حنين في صورة عروس البحر، تنفث لهبًا وغضبًا من خياشيمها.

- لسه مش بتعرف تنام بالليل يا يونس؟

- حنين؟!

أترك السنارة من يدي، إلا أنها تحولت إلى طائر ضخم بأجنحة لزجة تلتف حول القارب وتسحبه إلى القاع. أسفل البحيرة، أرى عصفورة في منزل الجدة ونجي بجلباب أسود تنقش بعض الكلمات الغريبة فوق خاتم فيروزي بين يديها بقطرات من الدماء، تصرخ في وجهي وتبدأ في مطاردتي، وأسرع أنا إلى السطح حيث ينتظرني الطائر مرة أخرى.

فوق السطح أرى طبيبة طفولتي رحمة، تجلس في عيادتها فوق جزيرة صغيرة، تنقر بقلم بتوتر فوق كراسٍ صغير، بينما يقف أبي خلفها وهو يبكي خائفًا وينظر إلى صورة متحركة لأخي عادل، والدماء تسيل من عينيه وهو يقول غاضبًا:

- مافيش حد بيدخل المكان ده ويخرج منه!

أخرج من غرفة عيادتها مسرعًا والعرق يتصبب مني، لأجد نفسي في ملعب كرة القدم بمدرستي أجلس على الدكة وإلى جانبي فان جوخ بحلته الزرقاء يتابع المباراة في اهتمام.

- لسه بتدور على الحب يا يونس؟ الحب عمره ما هيخليك تعيش في سلام، صدقني.

- أنا بدور على إجابات..

- الإجابات مش هتجيب غير الألم.. واللي هتعرفه هيخليك تعيش في تعاسة.

أفتح عيني عند هذا المشهد، ما زلت لا أقوى على رؤية الماضي حتى في أحلامي. ما زال جزء بداخلي يتذكر ولو شيئًا بسيطًا من حسنات حنين وعصفورة. قمت من فراشي في هدوء حتى لا أوقظ ياسمين، ودلفت إلى خارج المنزل بأقدام عارية تتوق لملامسة الرمال الباردة. كان الوقت يقترب إلى السابعة صباحًا، وقت مثالي للهدوء والاستمتاع بهواء (أورجانيك) قادم من الشاطئ الذي يقابل منزلي بالساحل الشمالي، والذي أصبح الآن بيتي منذ سنوات، لا أغادره ولا أنوي مغادرته. كان جاري العجوز الأستاذ نادر مستيقظًا يدخن غليونه في هدوء، حتى قاطعت لحظته على استحياء وأنا أحييه:

- حلو الوقت اللي بين الشتا والصيف يا أستاذ نادر، مش كده؟

- مظبوط.. أهدا وقت في السنة.. بحس إن الساحل ملكي..

- تشرب معايا شاي؟

إلا أن الرجل لم يجب، فأعدتُ عليه السؤال مرة أخرى، فأتى رده غريبًا غير متوقع:

- حنين بتسلم عليك يا يونس.. تحب تروح لها؟

شعرت بغصة في صدري، لم يهملني فرصة، فاقترب وفي يده سكين ضخم بدأ يقربه إلى وجهي في بطء، أغمضت عيني حتى أهرب من ضربته في صدري، وقد كان. فتحت عيني لأجد نفسي في فراشي مرة أخرى، أصبحت كوابيسي أقوى وأكثر واقعية من الماضي، وأحيانًا تأتي مزدوجة حتى تفتك بي. قفزت من الفراش لأخرج من الشرفة، لا يوجد سكاكين هذه المرة ولا أثر لحنين. مشيت عدة خطوات ساحبًا كرسيًّا بلاستيكيًّا في يدي وجلست أمام البحر مباشرةً، أخرجت من جيبي تلك الرسالة التي قد وصلتني منذ عدة أيام، الرسالة التي تحمل توقيعًا من حاتم نور. أمسكت بهاتفي وطلبت رقم يارا، الأمان الحقيقي والوحيد في هذا العالم.

- صحيتك من النوم؟

- لا يا حبيبي أنا صحيت من شوية أصلي الفجر، انت كويس يا يونس؟

- آه يا حبيبتي، وحشتيني بس وكنت عايز أسمع صوتك..

سكتت للحظات كَمَن يحللني، ثم قالت بنبرة قلقة:

- صوتك مش عاجبني يا يونس..

- تفتكري ماما الله يرحمها زعلانة مني؟

تنهدت ثم أجابت بحب صادق:

- ماما، في حاجات كتير ما فهمتهاش، أنا متأكدة إن في المكان اللي هي فيه كل الحقيقة بانت، بطل تعيش وانت حاسس بالذنب يا حبيبي..

- هجيلك قريب.. بوسي لي مريم لحد ما أشوفها..

لماذا يبحث عنا الماضي ولا يمل؟ لماذا تعود أشباح الذكريات وهي تحمل في طياتها الصندوق الأسود لحياتنا؟ حتى وإن كنا قد قررنا أن ننسى وأن نكمل حياتنا في سلام طال انتظاره، تظل الكوابيس تلهث خلفنا ككلب جائع لتفتك بنا ولا نجد ما نفعله سوى الاستسلام التام كجندي فقد أسلحته وأمله.

في الأعوام الماضية، كنت قد خسرت الكثيرين، خسرت أبي الذي لم أكن أعلم بكونه على قيد الحياة، خسرت أمي التي لم تعرف أني بريء من دم أبي، خسرت أخًا لم أكن أعرف شيئًا عن وجوده، خسرت زوجة، بل زوجتين وخسرت ثباتي وكلمة (حياة طبيعية) من قاموسي. ألا تكفي كل تلك الخسائر بأن تكون ثمنًا مناسبًا حتى أستطيع أن أعيش حياتي في هدوء مع أسرتي الصغيرة؟ ألا تكفي تلك الخسائر كي لا أعود إلى كوابيس الصحو مرة أخرى؟

ألا يمكن أن يعيشا أبنائي أحمد ومنال حياة طبيعية ويذهبان لمدارس عادية مع أب يمتهن وظيفة طبيعية ولا يمتلك قرينًا عجيبًا مثل زيتون؟ في الأغلب كل ما سأحصل عليه من إجابات هي (لا) بحجم مخاوفي وكوابيسي.

شعرت ببعض الراحة بعد مكالمتي مع يارا، قمت بتحضير قهوتي

وعلى أريكتي المفضلة جلست أشاهد فيلم (لالا لاند) للمرة التاسعة في هذا الأسبوع، أشاهده بتركيز شديد وكأنني أشاهده للمرة الأولى وأنا أسأل نفسي لماذا لم ينته هذا الفيلم بنهاية سعيدة تليق بجمال وموهبة البطلين! حتى قطع تركيزي الحضن الأجمل في حياتي، حضن ابنتي منال ذات الأربعة أعوام، يتبعها الأستاذ أحمد ابني البكري والذي قد أتم عامه السادس منذ أيام.

- بابا، هات موبايلك عايز ألعب games عليه..

- طب ما تيجوا نطلع نلعب على البحر! أحلى بدل من الموبايل اللي هيجننكم ده.

سنوات مرت منذ حادثة مصحة أسود، ست سنوات وقد ظننتهم ثمانية أو عشرة من كثرة الرتابة الصحية بهم، لا أطمح بأكثر من السعادة التي أعيش فيها معهم ومع ياسمين، ولكن يونس والسعادة الأبدية لا يجتمعان. الأيام التي تعاش في سكون تمر وكأنها دهر بأكمله، وأنا فقدت قدرتي على الحساب منذ زمن طويل.

- أمال ماما فين يا ولاد؟

وصلتني الإجابة بصوتها الناعم قادم من المطبخ يتبعه رائحة البيض بالبسطرمة، الوجبة الأقرب لقلبي.

- ثواني وجاية يا يونس، كنت بحضر الفطار.

- إحنا معزومين عند أستاذ حسني بكرة في الفيلا بتاعته.

- ماشي يا حبيبي.. النهاردا عاملة لك المسقعة اللي بتحبها!

- فكرتيني بتيتة صفية الله يرحمها.. تسلم إيدك يا روحي.

أنظر في عيون أحمد، فأرى انعكاس عصفورة في ملامحه، كم يشبهها وكم يرهقني هذا التشابه والذي يجب أن أعيش معه، مثل حياتي مع قصيدة الجدول والتي لا تتوقف إعادتها في أذني وكأنها تحكي قصة حياتي في أبيات، إلا أن حسن حظه وحظي وهبنا ياسمين لتكون أمًا له تحبه بقدر حبها لابنتنا منال. ياسمين قلب لا يعرف سوى الحب، حقيقية في كل شيء، مثل زهرة عباد الشمس، تعشق الشمس والحياة ولا تنمو إلا بالسعادة. واحد وأربعون عامًا، لا أعلم كيف بقيت حيًا كل هذه السنوات! لا أعلم كيف تحملتني الحياة كل هذا دون أن تسحق ضلوعي فأتحول إلى فتات!

لماذا لم أمت مثلما مات الكثيرون في قصتي؟ لماذا انتحر فان جوخ؟

الحب؟ الفقر؟ أم لأن أحدًا لم يفهمه!

لماذا لم تكن لوحاته كافية ليعيش سعيدًا بفنه؟ هل حقًا الحزن يدوم إلى الأبد؟ أم أنه أراد الحياة والسعادة، ولكن القدر كان له رأي آخر؟

وكأن حياتي تم طلاؤها بفرشاة سوداء لم تعرف في يوم ما ألوانًا أخرى بعدما أرسل حاتم نور هذا الصندوق اللعين منذ أيام. ماذا يريد هذا الملعون بعد كل تلك السنوات؟ تبًا له ولكل الأرانب! تبًا لأليس ولقصتها المريضة!

جلست في المساء أمام الشاطئ وفي يدي القناع الذي أرسله إليَّ، قناع جلدي مخيف لوجه أرنب بلا فم، أشبه بأقنعة الهالوين، تمامًا كالقناع الذي أهداني به أبي منذ سنوات طويلة، أعيد قراءة رسالته مرارًا وتكرارًا: "جوا العلبة شيء يخصك من سنين، ده الوقت إنه يرجع لك تاني".

أغمضت عيني لأتذكر هذا اليوم الذي أحضر لي أبي فيه قناعًا مماثلًا لهذا في طفولتي، أتذكر كلماته جيدًا عندما أعطاني هذا القناع: "عايزك تعتبر القناع ده سلاحك.. كل ما تبدأ تشوف عفاريت أو أي شيء بيخوفك البس القناع ده، استخبى من مخاوفك جواه".

أتذكر هذا اليوم جيدًا لأنني أتذكر كم كنت خائفًا من هذا القناع، ولأن في هذا اليوم احتضنني أبي للمرة الأولى. اقتربت مني ياسمين في دلال وقالت بعدما طبعت قبلة على خدي أعادتني بها إلى أرض الواقع.

- هتفضل شاغل نفسك بالصندوق طول الوقت كده؟ مش انت اللي قولت إنك مش عايز أي حاجة تفكرك بالماضي؟

- الموضوع مش بالبساطة دي يا ياسمين.. حاتم ما كانش هيبعت حاجة إلا لو عايز يوصلي رسالة مهمة.. وفكرة إنه عرف مكاني بعد كل السنين دي تخليني أقلق من مجرد إحساسي إن فيه خطر عليكم..

- طيب افرض إن مفيش حاجة من دي، افرض إنك هتبقى بتفتح باب انت اللي قفلته بإيدك؟ مش انت اللي دايمًا تقول

إن البيبان المقفولة الأحسن إننا مانبصش وراها؟ افرض إن الصندوق ده وصله وهو ماكنش عايز غير إنه يبعتهولك وخلاص!

- أنا محتاج أفهم بس عشان بعدها نعيش مرتاحين باقي حياتنا.. أنا هروح له بيته قريب وإن شاء الله يطلع كل اللي في دماغي وهم..

عزيزي ثيو،

متى يمكنني أن أُطلق على مسكني لقب منزل؟

متى يمكنني أن أعثر ولو لمرة واحدة على السعادة الأبدية؟

أشعر أنني محطّم نفسيًا وعقليًا، وأنني أخسر حياتي بفعل الانتظار!

فينسنت

الفصل الثاني

أرنب غير أليف

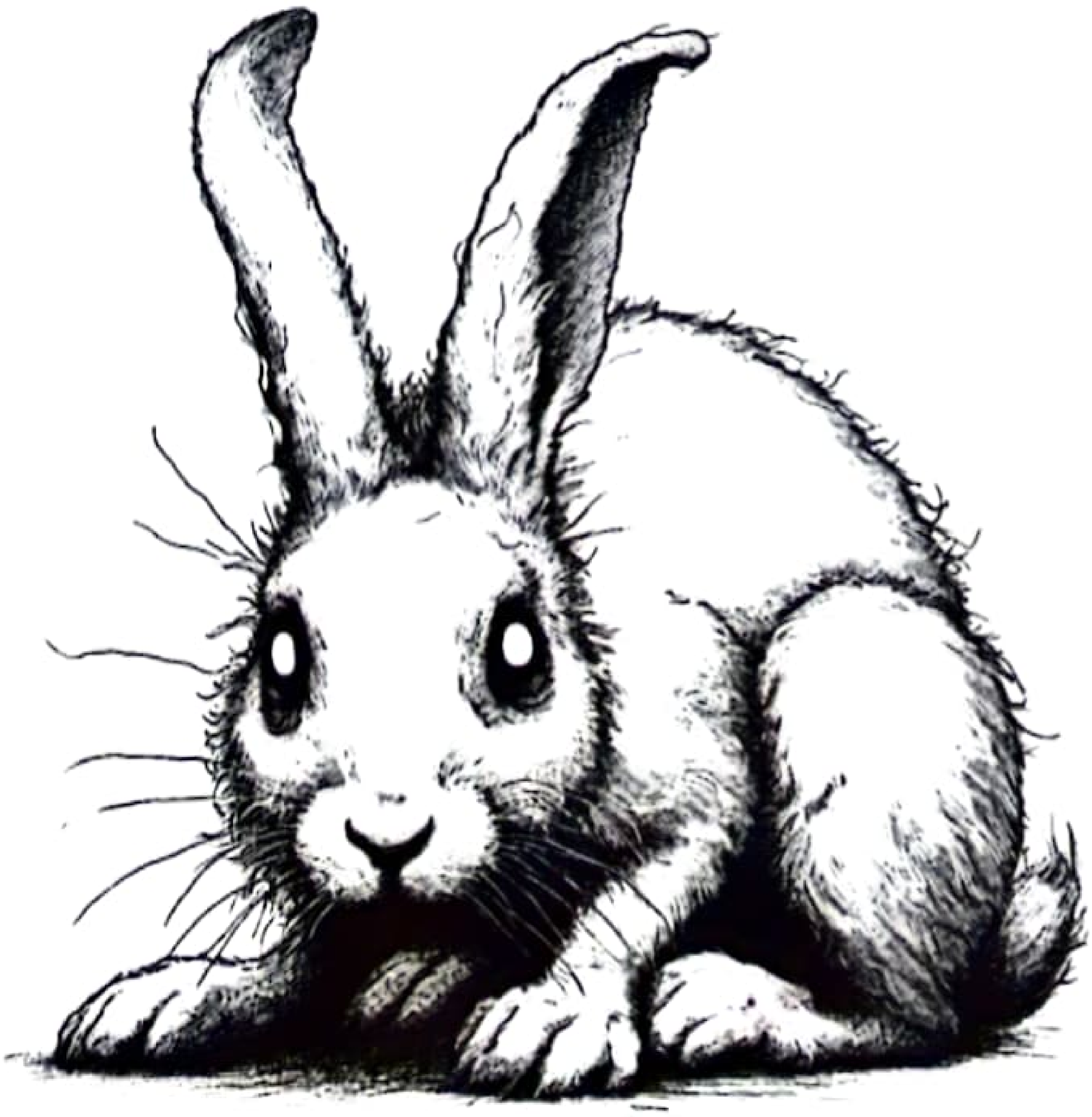

الحياة أمام البحر أعطت لقلبي شيئًا من السكينة، في السنوات الأخيرة، أصبحت غارقًا في سعادة ظننتها لن تأتي، ولكنها أتت ومعها صندوق من الماضي، طرد وصل متأخرًا وتمنيت ألا يصل أبدًا، كنت أتمنى أن يبقى الوضع كما هو، أستنشق هواء ياسمين التي عادت لطبيعتها وعادت لها ذاكرتها بعد مجهود كبير، كما عادت إليها ابتسامتها بعد وقت طويل، واستمد الحياة من منال وأحمد. أكره الصخب بكل أنواعه، أكره التجمعات المكتظة بالوجوه الكاذبة وأكره الابتسامات المزيفة التي لا تحمل من المشاعر إلا سائلًا أصفر يتم رشه على ملامح الجميع في هذا التوقيت من الزيف والنفاق، وربما عزلتي جعلتني أرى الأشياء بشكل أوضح بلا رتوش وفلاتر.

للعزلة فوائد كثيرة، ولكن لكل عزلة ضريبة يجب أن تُدفع حتى تستمر الحياة بالشكل الذي يتمناه المرء من داخله، وضريبة عزلتي كانت التجمع الشهري للأستاذ حسني مدير القرية التي أعيش فيها مع أسرتي بالساحل الشمالي وأحد الملاك بها أيضًا.

مثلي تمامًا، يعيش حسني في الفيلا الخاصة به صيفًا وشتاءً، يحبه الجميع ويستجيبون دومًا لحفلاته وتجمعاته الكثيرة والتي يقيمها بصورة شبه روتينية كل شهر، وعلى الجميع أن يحضر بلا نقاش أو مبررات، وأنا أولهم، خصوصًا أني أعيش على بعد أمتار قليلة منه، ولا أريد أن اثير الشكوك حولي بأي شكل من الأشكال. فقط في حفلات حسني أتذكر السبب وراء كرهي للبشر.

كان حسني يرتدي قميصًا ورديًّا نُقشت عليه العشرات من طيور الفلامنجو والزهور الوردية، أزرار ملابسه تحارب بكل

كد واجتهاد حتى لا يهرب كرشه المهيب من أحضان القميص البائس، يحمل في يده اليمنى كأسًا من العصير، وبيده اليسرى كان يربت على كتفي بكفه العملاق وهو يعرف بعض المدعوين عليَّ بكل زهو وسعادة بصوته العالي المزعج دائمًا.

- أحب أعرفكم على جاري المحترم دكتور يونس، قمة في الشياكة والأخلاق العالية، عملة نادرة مش موجودة خلاص يا جماعة..

نظرت إلى إحدى السيدات من الدائرة والتي تشابهت مع حسني في الحجم وقالت وهي تضم كلبها البيكينوا إلى صدرها في سعادة مبالغ فيها:

- يا بخت اللي يحبه حسني باشا! وحضرتك دكتور إيه بقى عشان نكون زباينك؟

- هو حسني باشا لسانه حلو ويحب يجامل، كنت طبيب نفسي يا فندم بس خلاص سيبت الشغل من فترة..

- والله أريح، أعرف صديق ليا طبيب نفسي جاله اكتئاب من اللي بيشوفه، ويجي حد يقولك إن الدكاترة النفسيين مش بيعيوا!

- فيه حاجات في الدنيا الأحسن إنك تبعدي عندها، وحاجات تانية مهما بتبعدي عندها مش هتسيبك.

إلى جانب السيدة، وقف رجل بلحية طويلة وكاب أخفى أغلب ملامح وجهه، نظر إليَّ بعد جملتي الأخيرة وقال بصوت أجش:

- فيه ناس عاملين زي المغناطيس، بيسحبوا الوحش ليهم من غير أي إرادة منهم..

جاملته بابتسامة لا معنى لها ثم أشحت ببصري ناظرًا إلى ياسمين وهي تتجاذب أطراف الحديث مع زوجة الأستاذ حسني، بينما يجلس إلى جانبها أحمد ومنال يشاهدان حلقة من مسلسل الأطفال المفضل لديهم Peppa Pig، وكأني أنظر إلى حياتي بأسرها في نظرتي لهم، وكأني أعرف ماهية الحياة بوجودهم. عدت ببصري إلى رفاقي بابتسامة سرعان ما اختفت فور أن نظرت إلى وجه السيدة صاحبة الكلب، والتي بدا وجهها شاحبًا، نظرت إلى موضع عينيها المذعورتين فرأيت مجموعة من المقنعين يقتحمون حفل السيد حسني، يرتدون جميعًا قناعًا اعرفه تمامًا المعرفة، قناع لوجه ارنب مخيف من الجلد، وبلا أي تمهيد أخرجوا جميعهم من خلف ظهورهم أسلحة نارية وطلب أحدهم من الجميع أن ينبطحوا أرضًا.

تقدم أحدهم والذي استشفيت أنه قائدهم وقال بصوت مخيف:

- لو سمعنا الكلام كل واحد هيمشي من هنا سليم، إحنا مش عايزين نعمل حاجة في حد..

بلع الأستاذ حسني ريقه بصعوبة وقال:

- انتم مين وبتعملوا إيه في بيتي؟!

إلا أن الرجل أجابه على سؤاله بطلقة نارية في قدمه اليسرى أسقطته على الأرض غارقًا في نحيبه، ثم قال:

- أول حاجة يا ريت ماحدش تاني يتكلم من غير إذن مني..

ثم بدأ يتجول في أركان الحفل ينظر إلى الوجوه الخائفة من خلف قناعه، حتى توقف أمام ياسمين وأنا أراقبهم على بعد أمتار قليلة في قلق.

- ثانيًا بقى.. مين فيكم يونس ليل؟

رفعت يدي في توتر كتلميذ ينتظر العقاب على شيء لم يفعله. ترى، من هذا المقنع؟ وما سر هذا القناع اللعين؟ لماذا دومًا تريدون شيئًا من يونس؟

- دول عيالك صح؟ أحمد ومنال!

قالها المقنع وهو يشير بفوهة سلاحه باتجاههم، بدأ الاثنان في البكاء، حاولت ياسمين أن تقترب منهم إلا أن واحدًا من رجاله قام بإبعادها عنهم بالقوة، صوب الأول سلاحه إلى وجه ابني أحمد وقبل أن يضغط الزناد أتت طلقة مسرعة من مسدس يحمله الرجل الملتحي الذي كان يرتدي كاب منذ قليل، استقرت في منتصف قناعه ليسقط على الأرض جثة هامدة في الحال. بدأ باقي المقنعون بإطلاق النار في الهواء، وقام واحد منهم بحمل جثة زميلهم وآخر قام بحمل ابنتي منال، ليغادروا الفيلا والأسلحة مصوبة نحونا.

هل أحلم؟ هل ما يحدث يتشابه مع كوابيسي؟

هل الهلاوس عادت من جديد أم أنها لم تذهب من الأساس؟

أجري في مكاني أحاول اللحاق بهم، ولكنني لا أتحرك.. أجري

كالمجنون وأنا لا أشعر بأي حركة من جسدي..

- منااال!! عايزين من بنتي إيه!!

أصرخ بكل ما بداخلي من حياة، هذا وإن كنت حيًا من الأساس! العشرات من قنابل الدخان تم إطلاقهم خارج الفيلا، لا أرى أي شيء، لا أستطيع التنفس بشكل طبيعي، أركض في دوائر كطاحونة هوائية صدئة لا نفع منها ولا ضرر، صوت يأتي من خلفي تبعته ضربة فوق رأسي أفقدتني الوعي في الحال. لا أعلم كم لبثت غائبًا عن الوعي، ولكني حينما أفقت وجدتني مستلقيًا فوق فراش لا أعرفه في غرفة لم أرها من قبل، رفعت رأسي قليلًا لأجد صاحب الكاب جالسًا في هدوء يدخن سيجارة في آخر الغرفة.

- منال فين؟ فين ياسمين وأحمد؟

- اهدا يا يونس، الخبطة ما كانتش بسيطة..

- بقولك مراتي وعيالي فين؟!

- ياسمين مراتك وأحمد ابنك في أمان، هما في بيت يارا أختك وفي معاهم حراسة مشددة!

- انت مين؟

اقترب الرجل مني في هدوء، خلع الكاب لأرى وجهه بوضوح للمرة الأولى. رجل في العقد الرابع من العمر، وجهه ممتلئ بحروق وجروح متناثرة كأنه خرج للتو من معركة عنيفة، أعلم هذا الشخص جيدًا. شخص أحدث معلوماتي عنه هو موته منذ عدة

أشهر في فندق شهير بالإسكندرية يدعى فندق القلب السعيد بعدما احترق الفندق بأكمله وهو بداخله، طه الحسيني[1]!

- طه؟ بس ازاي؟ أنا مش فاهم أي حاجة!

- هفهمك كل حاجة صدقني، بص على الورقة اللي جنبك على الكومودينو وقولي لو فهمت منها أي حاجة.. الورقة دي كانت جنبك لما لقيتك مغمى عليك برا فيلا حسني..

كانت ورقة مطوية بعناية، ظهرها يحمل رسمة لقناع الأرنب وبداخلها كتب بخط أشبه بالخدوش:

"السيد المحترم يونس أحمد ليل.. أنت مدعو للجحر، حضورك حتمي ولا سبيل للرفض. وحتى نتأكد من حضورك فقد أخذنا ابنتك ضيفة كريمة لدينا حتى تنتهي مهمتك، سنوافيك بالتفاصيل قريبًا، ننتظر حضورك بشغف كبير.

الجحر".

- عندك فكرة إيه هو الجحر ده يا يونس؟

- لا.. بس عندي فكرة إيه قناع الأرنب ده، ونقطة ممكن نبدأ منها!

الفصل الثالث

ماضٍ لم يمُت

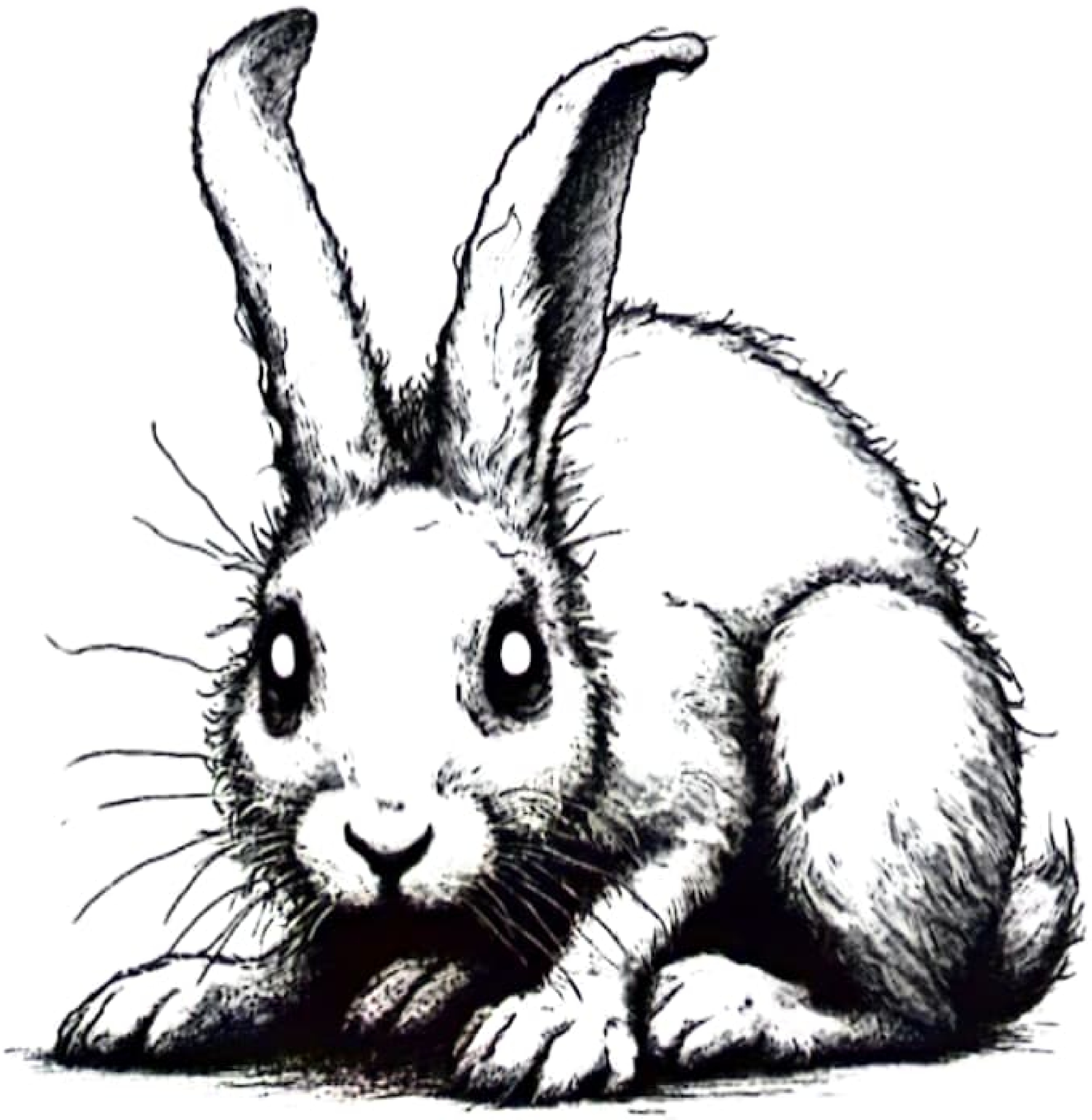

القاهرة – ٢٠٠٥

لم أعرف يومًا سر شغفي العجيب بفينسنت فان جوخ، وكأن الله لم يخلق فنانًا غيره في عيني، وكأنه استحوذ على كل لوحات وفرشات العالم. لسببٍ ما أرى دومًا تشابهًا بين قصتي وقصته، لسببٍ ما أشعر بأنه شكَّل جزءًا لا يستهان به من حياتي وشخصيتي.

في الأتوبيس، أمسكت بكراستي وشرعت في رسم نسخة رديئة من لوحة المقهى الليلي، وكأنني رسام مخضرم، اللوحة التي قال عنها فينسنت أنها أسوأ أعماله رغم تفاصيلها المدهشة والحزينة. اللوحة تحمل الكثير من الفلسفة الغامقة، الجالسون على الطاولات في اللوحة، هم مجموعة من السكارى والبغايا، مبعثرين في المكان في شكل يرمز لتبعثر حياتهم نفسها، كل منهم منغمس في كأسه، يشرب ليغيب عن إدراك العالم ووحشيته.

قصد فينسنت التركيز على اللونين الأحمر والأخضر لتضادهما، فالأخضر لون بارد، يرمز دائمًا للخير والأمل، والأحمر لون ناري، متوهج، يعبر عن الشر والعنف، فكأنه قصد بهما الدلالة على مشاعر الإنسان المتضاربة، حروبه الداخلية الضارية التي لا تنتهي أبدًا.

تنظر إليّ ياسمين في إعجاب مصدره الوحيد حبها لي.

- حلوة الرسمة أوي..

- بحبك لما بترفعي من معنوياتي.. ده نبش فراخ!

- لأ والله حلوة! حُبك لفان جوخ كفاية إنها تبقى لوحة عبقرية..

أعلم أنه يشبهني كثيرًا. كان يبحث فينسنت عن الحب بكل قوته، حب يملأ قلبه الفارغ ويضيء حياته المظلمة، رغم جهوده المضنية، لم يستطع العثور على الحب الذي كان يتوق إليه، تلاشى الأمل من قلبه تدريجيًا، وأصبح يشعر بالإحباط واليأس الشديدين. مع مرور الأيام والأشهر، زادت الألوان المشرقة في لوحات فينسنت تدهورًا، حيث انعكست حالته الداخلية على لوحاته المبدعة، تحولت الألوان الزاهية إلى ألوان مظلمة وكئيبة، تعكس حالة اليأس التي غلبت قلبه، حاول التعبير عن مشاعره وأحاسيسه المكبوتة من خلال فنه، ولكنه لم يجد الارتياح الذي كان يبحث عنه.

ترى هل سأعيش وأموت في عذابي أم أنني سأكون أكثر حظًا منه؟!

كنا يومها في رحلة للفيوم مع الكلية، أجلس في مقعدي ويدي لا تفارق يد ياسمين. أشكر الله في كل لحظة على نعمة وجودها في حياتي ونعمة حبها لي، لا أعلم تحديدًا نوع الخير الذي فعلته في حياتي حتى أستحقها.

هل هو عوض من الله بعد كل ما مررت به في حياتي؟ هل بعدما فقدت أبي وأمي وهبني الله حبًا لم أتمنَّ غيره؟ الشاب الأسعد والأوفر حظًا في هذا العالم هو بكل تأكيد أنا، والفتاة الأجمل في هذا العالم هي بلا تفكير ياسمين.

تنظر هي في الطريق إلى الفيوم من النافذة وتشاهد المزارع الخضراء والحيوانات في سعادة وطفولة أعشقها، أمسكت يدها وأنا أقبلها وقلت في سعادة:

- في يوم من الأيام هيبقى عندنا مزرعة زي اللي على الطريق دي..

ضحكت في دلال وقالت متسائلة:

- هتسيب شغلك وحياتك وتقعد تزرع وتربي فراخ وبقر وكلاب؟

- دي حاجة نفسنا فيها أنا وانتِ من زمان.. وبعدين كفاية إننا هنبقى مع بعض يا ياسمين!

نظرت في عيني وقالت مبتسمة في خجل:

- أنا أكتر واحدة محظوظة في الدنيا دي..

كان أسوأ ما في تلك الرحلة هي وجود دكتور هارون معنا، يقف كغراب أسود أمام نافذة بيتي يراقب من بالداخل في صمت كريه ومخيف. كم يكرهني هذا اللعين! لا تتوقف عينه عن الدوران لمكان جلوسي ورمقي بنظرات تشبه قلبه الأسود، ورغم أنني كنت أفعل المستحيل لأتحاشاه إلا أنني كنت أشعر بشيء غير

مريح بخصوصه. بعض البشر نكرههم ويكرهون وجودنا بلا سبب ملموس، أومن بالحب من النظرة الأولى، إلا أن الكره من النظرة الأولى موجود أيضًا. لكن بغاضته لم تكن الدافع الوحيد وراء كرهي له، غموضه وارتيابي منه كان سببًا كافيًا لأكره دكتور هارون كل الكره.. هذا الأقرع اللعين يخبئ شيئًا ما!

هادئة الفيوم مثل معزوفة من الكمان ممتزجة بموسيقى ألكسندر ديسبلات، لا أسمع صوتًا يخرج من ضلوعها باستثناء غناء الطيور وضحكات سعيدة يتبادلها الجميع، إلا هذا الهارون الذي يرتدي حلة كاملة لا تتناسب تمامًا مع أجواء المكان، إلا أنها تتناسب تمامًا مع هيئته الغريبة وروحه الغامقة، لا يبتسم لأحد ولا يتحدث مع أحد. يرمقني بنظرات ساخطة أتجاهلها تمامًا حتى لا أعكر صفو اليوم. إلا أن فضولي الدائم كقط سيامي متمرد جعلني أتبعه بعيني في كل مكان فور وصولنا الفيوم، انتهزت في منتصف اليوم فرصة انشغال ياسمين مع أصدقائها لبعض الوقت وسِرتُ خلفه، وكم كنت محقًا، هذا اللعين لم يسافر معنا لحبه في الإشراف أو الاستجمام أو حتى لفرض سلطته، هو هنا لشيء آخر لا ينتمي للتدريس ولا لعمله كأستاذ جامعي.

وفي بقعة ما بالقرب من مرسى المراكب، بالقرب من وادي الريان، كان في انتظاره رجل ثلاثيني غريب الهيئة، أخرج هارون من جيبه ملفًا وناوله للرجل وقال له بصوته البشع:

- كل حاجة جاهزة يا نونو؟

- النونو دايمًا جاهز يا هارون باشا وانت عارف، النونو الكل

حبيبه وزبونه.

- الأوراق دي تخلص في أسرع وقت، ومش هفكرك بأهمية السرعة!

بعدها أخرج هذا النونو من جيبه صندوق صغير للغاية يحمل رسمًا ما، ناوله لهارون والذي وضعه بسرعة في حقيبته الجلدية وهو ينظر حوله ليتأكد أن لا أحد يراقبه.

الفصل الرابع

أرنب قديم في عالم جديد

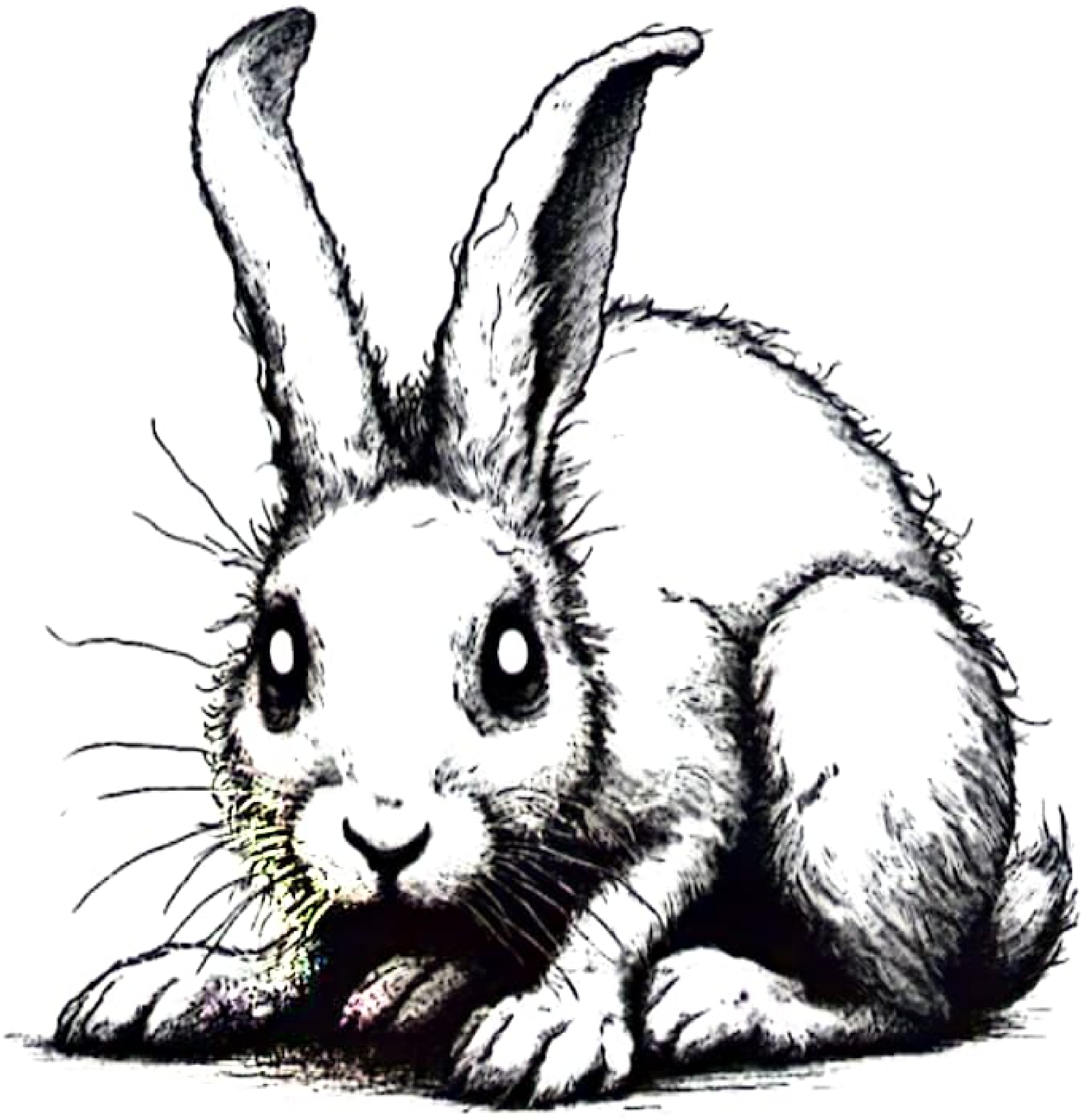

سنوات وأنا أعيش في عزلتي لا أكترث للماضي، سنوات وأنا أتناسى وأتعافى من ذكريات شوهتني كليًا من الداخل، ولكنني في الأغلب كنت أتعافى كي أستعد لحرب جديدة.

في طريقي إلى الفيوم، تأملت العالم الجديد الذي لا أعرف عنه أي شيء، تغيرت الشوارع، حتى ملامح البشر تغيرت كثيرًا، أو ربما أنا قد اعتدت السلام وصوت الموج لسنوات طويلة ونسيت قسوة البشر، اعتدت أن أعيش الحياة الأولى للإنسان بلا هموم أو صعاب، ولكن هل عاش الإنسان يومًا بلا حروب؟

أمام قصره بالفيوم، وقفت متسمرًا أتذكر المرة الأخيرة لي داخل جدران هذا المكان. حنين تلوح بيد تملؤها الدماء وهي تبتسم في شر، المرة الأخيرة لي في هذا القصر كنت متأكدًا بأنني قتلت حاتم، ولكنه حي يرزق!

استقبلني رجل الأمن بابتسامة بلهاء ونظرة متسائلة، إلا أنني قطعت فضوله بسؤالي:

- أستاذ حاتم موجود؟ عندي معاه ميعاد.

- نقوله مين؟

- يونس.. دكتور يونس ليل.

دلفت إلى القصر، أشعر باضطراب داخلي وأنا أتبع هذا العجوز ليستقبلني حاتم بابتسامة غريبة، ابتسامة لا تتناسب تمامًا مع كل ما مررنا به سويًا، ترحاب غير مبرر واحتفاء لم ولن أصدقه.

- وحشتني يا دكتور!

تجاهلت كذبته وقلت في سخرية مشيرًا إلى شعره الأسود المبتذل:

- حلوة الصبغة.. ما بتحبوش تكبروا يا بتوع الفن.

ضحك في توتر وقال:

- ضريبة الشهرة بقى يا صديقي، الجمهور بيبقى عايز يشوفك دايمًا في أحسن صورة، تشرب إيه؟

- لا أنا مش جاي أشرب، انت عارف كويس أنا هنا ليه يا حاتم. إيه اللي فكرك بيا بعد كل السنين دي؟ إيه اللي خلاك تفتح من تاني الباب ده؟ بنتي فين يا حاتم وعايز منها إيه؟

نظر إليَّ في شفقة قبل أن يدعوني إلى الجلوس ويغيب بعدها للحظات ثم يعود إليَّ وهو يحمل في يده صندوقًا مماثلًا لهذا الذي أرسله لي منذ عدة أيام، جلس أمامي وقال في جدية تامة:

- أنا ماكنتش عايز أفتح أي أبواب يا يونس صدقني.. أنا آخر واحد في الدنيا ممكن يكون بيدور على متاعب وخصوصًا بعد كل اللي وصلت له، ولا كنت أتمنى إني أقعد معاك في مكان واحد بعد كل اللي حصل زمان..

أجبته غاضبًا:

- أمال إيه؟ قررت فجأة إنك عايز تخسر كل حاجة؟ ولا اليومين دول مفيش تصوير ولقيت نفسك زهقان؟

- ما سألتش نفسك أنا جبت القناع ده منين؟ مش ده نفس القناع اللي والدك الله يرحمه إداهولك زمان؟ مش ده نفس

القناع اللي بتشوفه من زمان في كوابيسك؟

ألجمتني كلماته، لم أشعر بكل هذا القدر من الخوف منذ وقت طويل. كيف يعرف حاتم كل هذا؟ ماذا يريد؟ ماذا يريد مني؟

- احكي يا حاتم...

- تعرف إيه عن الجُحر يا يونس؟

نظرت له بتعجب وقلت في عدم اكتراث بدا جليًا على ملامحي:

- يطلع غيه الجحر ده يا حاتم؟ فاكرني هساعدك في لعبة جديدة؟

- أمي بقالها أكتر من سنة عايشة في مصحة نفسية، اتشخصت من ٣ سنين بإنها بتعاني من وسواس قهري، وقتها جبت لها مرافقة بس لما الموضوع اتطور وديتها مصحة متخصصة..

نظرت له بغضب، وأنا أتساءل بيني وبين نفسي: ما علاقتي بكل هذا الهراء؟!

- أنا مش فاهم حاجة! إنا إيه علاقتي بكل الكلام ده؟ لو بتدور على دكتور نفسي شاطر يبقى أنت جيت للشخص الغلط يا حاتم..

الغضب يسيطر على ملامحه ليقول بصوت مُنفعل:

- اسمعني لحد الآخر! صدقني الموضوع أكبر من كده، من أسبوعين أمي اختفت من المصحة، بلغت البوليس وعرفت من المحقق اللي ماسك القضية إن أمي مش أول حد يتخطف خلال السنة دي..

إلا أنني أجبته بملامح ما زالت لا تفهم ما وراء قصته:

- هي مش حالات الخطف شيء طبيعي وبتحصل؟ خصوصًا كمان إنك فنان مشهور وغني، أكيد اللي خطفها هيطلب فدية..

- اللي مش طبيعي إن حالات الخطف اللي اتكلم عنها المحقق هي حالات خطف لمرضى نفسيين! معظمهم بيعانوا من حالات نادرة ومتلازمات نفسية غير مألوفة..

قلت متأففًا بنفاد صبر:

- انت لسه برضو ماقولتليش أنا إيه علاقتي بكل ده!

- من كام يوم جالي الصندوق اللي بعتهولك، جالي ومعاه الجواب ده..

ثم أكمل كلامه قائلًا:

- انت مش هنا عشان تساعدني أنا يا يونس!

ناولني حاتم ظرفًا شرعت في فتحه وهو يقول:

- الظرف ده وصل مع الجواب واسم الراسل اللي عليه (الجُحر)، الصور اللي جواه تخصك.

وحقًا ما رأيت بداخل الظرف أجمني تمامًا وبخر الدماء من عروقي. محتوى الظرف كان صورًا فوتوغرافية لم أكن أعلم بوجودها من الأساس. الصورة الأولى من حفل زفافي أنا وحنين، والصورة الثانية من حفل زفافي أنا وعصفورة، والصورة

الثالثة من داخل بيتي بالساحل الشمالي أحتفل بعيد ميلاد ياسمين العام الماضي، والصورة الرابعة لأبنائي يلعبون على الشاطئ وأنا أجري الى جوارهم بطائرة ورقية عملاقة، والصورة الأخيرة كانت صورة قديمة مهترئة جوانبها.. بداخل الصورة أحمد ليل، أبي.. يرتدي حلة سوداء وربطة عنق سوداء وهو يبتسم، بينما يحمل بين يديه قناعًا لوجه أرنب مخيف ويقف حوله بعض الأشخاص، إلا أن ملامحهم كانت غير ظاهرة تمامًا.

نظرت إلى حاتم باحثًا عن إجابات، باحثًا عن طوق نجاة أو توضيح لأي شيء!

- أنا.. أنا مش فاهم!

اقترب مني حاتم وقال بصوت خفيض يتناسب مع عمله كممثل:

- أنا وصلي صندوقين يا يونس، الصندوق ده واللي فيه مشاهد خاصة جدًا من حياتك، وصندوق تاني جواه صور ليا أنا! وكأن اللي بعتهم بيقولي إننا مربوطين بمصير واحد!

- مين ممكن يكون بيراقبنا؟ وليه؟ وعايزين إيه مني ومن بنتي؟ عايزين إيه من أمك؟ وإيه أصلًا علاقتي بيك عشان يتبعت لك انت الصندوق ده؟

- الإجابات في الجحر يا يونس أيًا كان هو إيه.. الصور دي معناها إنهم عايزينك من زمان لسبب ما، عارفين كل حاجة عنك وعني، يعني إحنا مصلحتنا واحدة! وخطفهم لبنتك ولأمي معناه

إنهم عايزين حاجة كبيرة ومش سهلة!

ربت على كتفه وقلت:

- أيًا كان إيه الجحر ده ومين اللي ورا كل ده، هنعرفه ونرجع بنتي وأمك، ماتقلقش يا حاتم!

الفصل الخامس

خنزير بري وأرنب نحيل

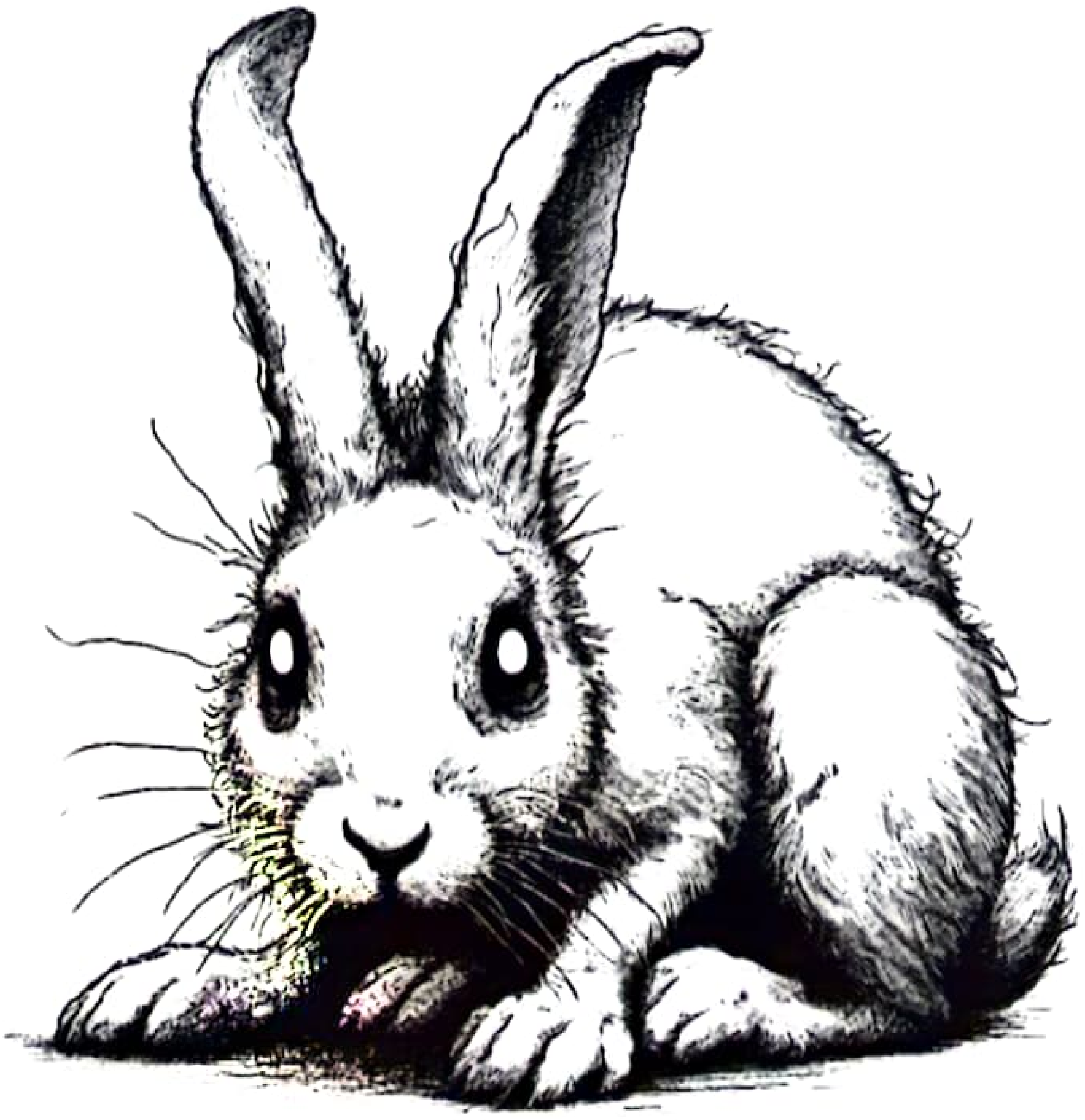

القاهرة – ٢٠٠٥

أعيش داخل الحائط لا بجانبه، أعيش كأرنب مذعور يطارده صيادٌ ماهر يصطاد فقط لمتعته الخاصة. أهرب من وحدتي في صوت ياسمين ودفئها، أهرب من هارون اللعين في لوحاتي وفرشاتي. في الأغلب لم أكن يومًا رسامًا بارعًا، فقط أجد راحتي وسكون روحي بين الألوان والأوراق البيضاء.

- كنت عارفة إني هلاقيك هنا!

كنت جالسًا فوق سطح الكلية مثلما أفعل دومًا كلما حاولت الهروب من ضوضاء عقلي وعبث البشر اللا منطقي، إلا أن ياسمين كانت دومًا بارعة في العثور عليَّ، وكم كنت أحب هذا.

- انتِ عارفة إني مش بحب الدوشة، فوق أريح بكتير من تحت.

أخرجت من حقيبتها صندوقًا صغيرًا وناولتني إياه وهي تبتسم في حب:

- كل سنة وأنت طيب يا حبيبي..

- تعبتِ نفسك! والله وجودك أحلى من كل الهدايا اللي في الدنيا يا ياسمين..

كنت قد اتممت عامي العشرين منذ ساعات، لا يحتفل أحد بي سوى ياسمين، لا يرى ألواني الحقيقية أحد سوى ياسمين، لا يبعث بداخل قلبي السعادة والحياة أحد سوى ياسمين. أعيش بين حضن أختي وأمي الثانية يارا في سلام لم أعثر عليه في سنوات طفولتي، لم أعرف السعادة حقًا حتى بدأت حياتي الجامعية وعرفت ياسمين، الحب الأول والأخير. الملاذ هي، الصديق الحق والعالم بأسره لشخصٍ لم يعرف معنى الحب الصادق في بيته إلا قليله.

في اليوم التالي، اقتربت مني وأنا منهمك بين أوراقي في الجامعة أستمع إلى موسيقى بيتهوفن في الـ CD Player الخاص بي.

- بتعمل إيه؟

قالتها ياسمين وهي تسحب السماعات من أذني في دلال.

- دكتور هارون دبسني في بحث عشان يعلمني الأدب ويحرمني أساعد أي حد بعد كده.

- سيبك منه، انت عارف هو ليه مش بيحبك، هو عارف إنك شاطر وده بيرعبه.

- مشكلة الناس اللي زيه إنهم بيمنعوا خير قدره يوصل للي محتاجه، وأنا هفضل أساعد، حتى لو كان رفدي على إيده..

أكره الخنازير، هم أبشع كائنات على وجه الأرض وأقذرهم، ولا أقصد الثدييات العملاقة التي تمشي على أربع، بل أقصد

خنزيرًا محددًا يدعى هارون، يعكر صفو حياتين أحاول جاهدًا تجاهله، إلا أنه كسائر بني جنسه، كائن يجد سعادته في فرض رائحته الكريهة وقذارته على الجميع. اقترب منا زميلٌ بشوش الوجه وهو يقول:

- يونس.. دكتور هارون عايزك في مكتبه.

- هارون تاني! عايز إيه ده؟!

نظرت إلى ياسمين، إلا أنها ابتسمت في هدوء وقالت أنه لا داعي للقلق، وأنه في الأغلب يريد أن يحل مشاكله معي. بخطوات قلقة ثقيلة توجهت إلى غرفته في الحرم الجامعي، كان الباب مواربًا، دخلت على استحياء لا افهم ماذا يريد هذا اللعين، كان وجهه للحائط، ظللت أعلن له عن وصولي.

- دكتور.. دكتور هارون حضرتك طلبت تقابلني؟

لم يجب، ظننته نائمًا في البداية، إلا أنني عندما اقتربت منه بشكل أكبر، وجدته جثة هامدة بجرح عميق في رقبته ودمه يسيل من كل جسده. تذكرت أبي.. تذكرت مجموعة الأطفال الذين قتلهم زيتون في طفولتي.. ولكن زيتون لم يفعلها!

جريت هاربًا من غرفته قبل أن يراني أحد، وعدت إلى البيت وكأنني لم أر شيئًا.

مدينة لاهاي - ١٨٨١

لشهرين، عاش فينسنت وكلاسين في سعادة وهدوء لا يشوبهما قلق أو حزن. كانت هي السعادة التي طالما بحث عنها طويلًا، حتى إنتاجه الفني أصبح مزدهرًا بعدد لا حصر له من اللوحات.

- هل تريد بعض الطعام يا فينسنت؟

- شكرًا يا عزيزتي، لا أحتاج سوى وجودكِ، أنتِ وحدكِ سبب كافٍ كي أشبع وأشعر بماهية الحياة.

- ألم تمل من رسمك لي كل يوم؟

- سين، أنتِ الشغف الذي ضاع مني لسنوات طويلة ولم أعثر عليه سوى معكِ يا عزيزتي..

كان ورغم كل شيء، ملامح كلاسين يملؤها الحزن، كانت تشعر وكأنها عبئًا عليه، هي أم لطفل وتحمل بداخلها الثاني، تشعر وأن فينسنت يعيش معها ويرسمها في لوحاته كنوع من أنواع الشفقة، لم تكن تعلم أن هذا البائس يراها العالم بأسره، عالم لم يعطِه سوى المرار والألم.

- فور أن أضع مولودي سأساعدك بأي طريقة ممكنة.

- وأنا لا أريد سوى أن تكوني معي، المساعدة الأهم هي أن تبقي إلى جانب روح لم تعرف السعادة سوى في وجودك.

عزيزي ثيو،

متى تحديدًا ينال المرء حريته؟

متى يمكنه أن يحطم حواجز الألم ويفر هاربًا للنور؟

وهل للحرية وجود أم نحن مساجين حياة لم نختَرها؟

فينسنت

الفصل السادس

السكان الأصليين للقلب

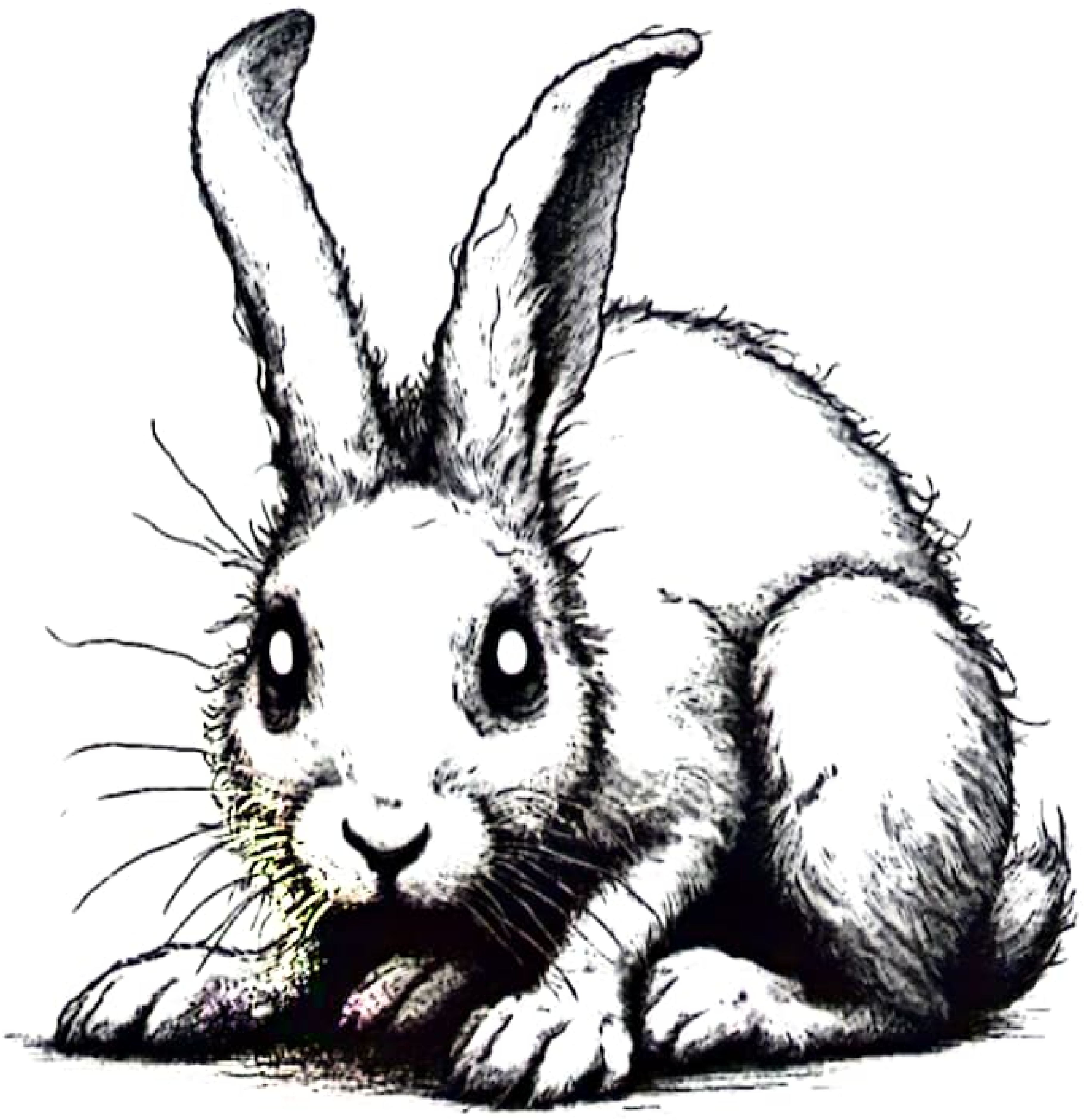

"بنقابل ناس نقول عليهم السكن..

براح قلوب والقلب يادوب اتسجن..

وليالي ننادي ونقول عادي يمكن ظروف

وليالي ننادي ونقول عادي يمكن ده خوف!".

- احكي لي يا طه..

قلتها وأنا أصب له الشاي الساخن في شقته بعد عودتي من منزل حاتم نور، شكرني طه على الشاي، أخذ نفسًا عميقًا وبدأ في سرد قصته:

- وقت ما كلمتك من فترة كنت بحقق في جريمة القتل اللي حصلت في فندق القلب، الفندق المشهور اللي في إسكندرية، عرفت بعد السنين دي مين اللي قتل ملك مراتي، كان بيني وبين القاتل خطوة وقررت إني أسامح بعد ما اعترفت لي بكل حاجة، وقتها الحياة أصبح مالهاش معنى، وإني أعيش شبح معاها في الفندق كان هو الحل المنطقي الوحيد عشان أحس إني عملت حاجة واحدة صح في حياتي، عارف لما الخلاص يكون في نهايتك؟

- زي الفراش يا طه.. تعرف إننا نشبه بعض في حاجات كتير؟

- بس انت ما استسلمتش بعد كل اللي حصل في حياتك، أنا سبت نفسي للنار والموت!

- وآديك قدامي دلوقتي آهو.. ده معناه إنك برضو ما استسلمتش!

- ما كنش بمزاجي.. أنا لو عليا كنت هختار الموت.. كنت هختار ملك..

حكى لي طه عن تلك الليلة العجيبة، الليلة التي حبس نفسه في غرفته بالفندق وهو يبتسم في سعادة لشبح زوجته ملك، شاعرًا ولأول مرة منذ سنوات بأنه أخيرًا سيكون معها للأبد كما تمنى دائمًا، وفور أن بدأت النيران في التهام الفندق، أفاق على صوت تحطيم باب غرفته من الخارج على يد سِحر وحبيب [2]، الوحيدين الذين لم تلتهمهما النيران! بكل ما أوتيا من قوة تتناسب مع حالتهما الجسدية والنفسية أمسكا به وهو غارق في رائحة الغاز شبه فاقد الوعي، يسحبانه ببطء حتى أصبح الثلاثة خارج الفندق مرة أخرى قبل أن يحترق القلب بالكامل ويتحول إلى رماد.

أكمل طه قصته والدموع تملأ عينيه، أخبرني كيف وضعه حبيب في الكنبة الخلفية للسيارة وهو يقود مبتعدًا بسيارته اللادا بينما عربات الشرطة والمطافئ تقترب في اندفاع من بعيد إلى مكان الحريق، أفاق بعدها بساعات طويلة ليجد حبيب بوجهه العجوز الصدئ وسِحر بشعرها الأشعث ينظران إليه في حنان وشفقة.

- حمد الله على سلامتك يا أستاذ طه!

نظر إليهما طه في غضب واستياء عندما اكتشف أنه ما زال حيًا، وقال صائحًا بكل ما أوتي من قوة:

- سلامتي؟ انتم طلعتوني من الفندق ليه؟ ده ماكنش اتفاقنا يا سِحر!

ابتسمت سِحر في وهنٍ وقالت وهي تربت على ذراعه:

- انت ما تستاهلش تموت يا طه، حتى لو كنت فاكر إن وجودك مع مراتك هو الحياة، روحك تستاهل فرصة تانية!

- ومين قالك إني ما دورتش على الفرصة التانية؟ مين قالك إني ما حاولتش أدور من تاني على أسباب تخليني أعيش؟

أمسك حبيب يده بقوة وقال بابتسامة لم يعهدها منه:

- كل قلب من حقه يعيش بعد الفراق، بس يعيش الحياة اللي يستاهلها مش الحياة اللي كان فاهم إنه يستاهلها يا أستاذ طه..

- اشمعنى أنا يا حبيب؟ ليه أنا اللي أستحق الفرصة دي؟

- كل السكان الأصليين للقلب أخدوا الجزاء اللي يستاهلوه، صدقني انت الوحيد اللي تستحق تعيش، أكيد في حياتك سبب هتعرفه مع الوقت..

شرع طه في البكاء وهو يحكي تلك القصة، أرى يونس آخر غيري بمأساة أخرى، أتمنى لو يمكنني إصلاح ما أفسده العالم في قلبه، ولكن القلوب لا تشفى من توابع الألم حتى وإن مر فوق العمر عمر، الألم يعيش للأبد كسرطان دنيء ينتظر اللحظة المناسبة ليفتك بالجسد العاجز.

- وإيه اللي خلاك تيجي اليوم ده الساحل؟ عرفت مكاني منين؟

قال طه بابتسامة لا تخلو من الشجن:

- شكلك نسيت إني محقق يا دكتور، خلي بالك انت شاطر أوي في موضوع الاختفاء ده بس أنا برضو طه!

- أنا عمري ما كنت عايز أختفي من حد على قد ما كنت بدور على السلام اللي اتحرمت منه.. بس برضو إيه اللي خلاك تيجي اليوم ده الساحل؟

أخذ نفسًا عميقًا كمن يتذكر شيئًا ما ثم قال:

- بعد ما سِحر وحبيب أنقذوني من الموت، رجعت بيتي بعدها وقررت إني هرجع تاني الشغل، حاجة جوايا قالت لي إن كل اللي حصل ده حصل بس عشان أقدر أساعد ناس تانيين حياتهم تبقى أحسن، عارف في الحياة في كام واحد زيي يا يونس؟ عارف فيه كام شخص بيدور على حد يحبه ضايع أو حد يحبه حياته بتروح هدر بسبب الفوضى اللي في العالم؟ بعد ما رجعت الشغل بكام يوم بدأت أسمع عن حوادث خطف مرضى نفسيين من مصحات ومستشفيات، ودايمًا الخاطفين بيبقوا مقنعين بأقنعة على شكل وش أرنب، آخر حادثة بدأت أحقق فيها راجعت فوق العشرين كاميرة مراقبة في أماكن متفرقة لحد ما لقيت كاميرا لاقطة صورة واضحة لوش شخص مألوف بالنسبة لي خلاني أقرر إني لازم أدور عليك وأوصل لك..

- صورة مين يا طه؟!

أخرج طه هاتفه ووضعه أمامي، الآن أنا أمام كابوسي الأغرب

على الإطلاق، هذه الصورة بلا شك تم تعديلها من قبل شخص ما ليعبث بعقلي المسكين، هذه الصورة تحمل بين طياتها الماضي كله والكوابيس أجمع!

إنها هي.. تقود تلك السيارة وهي ترتدي نظارتها الشمسية المفضلة..

إنها... حنين!

ولكنني أعلم بكل تأكيد أن كل هذا جزء من هلاوسي. رأيتها تموت، بل أنا من قتلها بيده، رأيت القلم يغزو رقبتها.. أنا بلا شك أُهلوس الآن!

الفصل السابع

يونس في بلاد العجائب

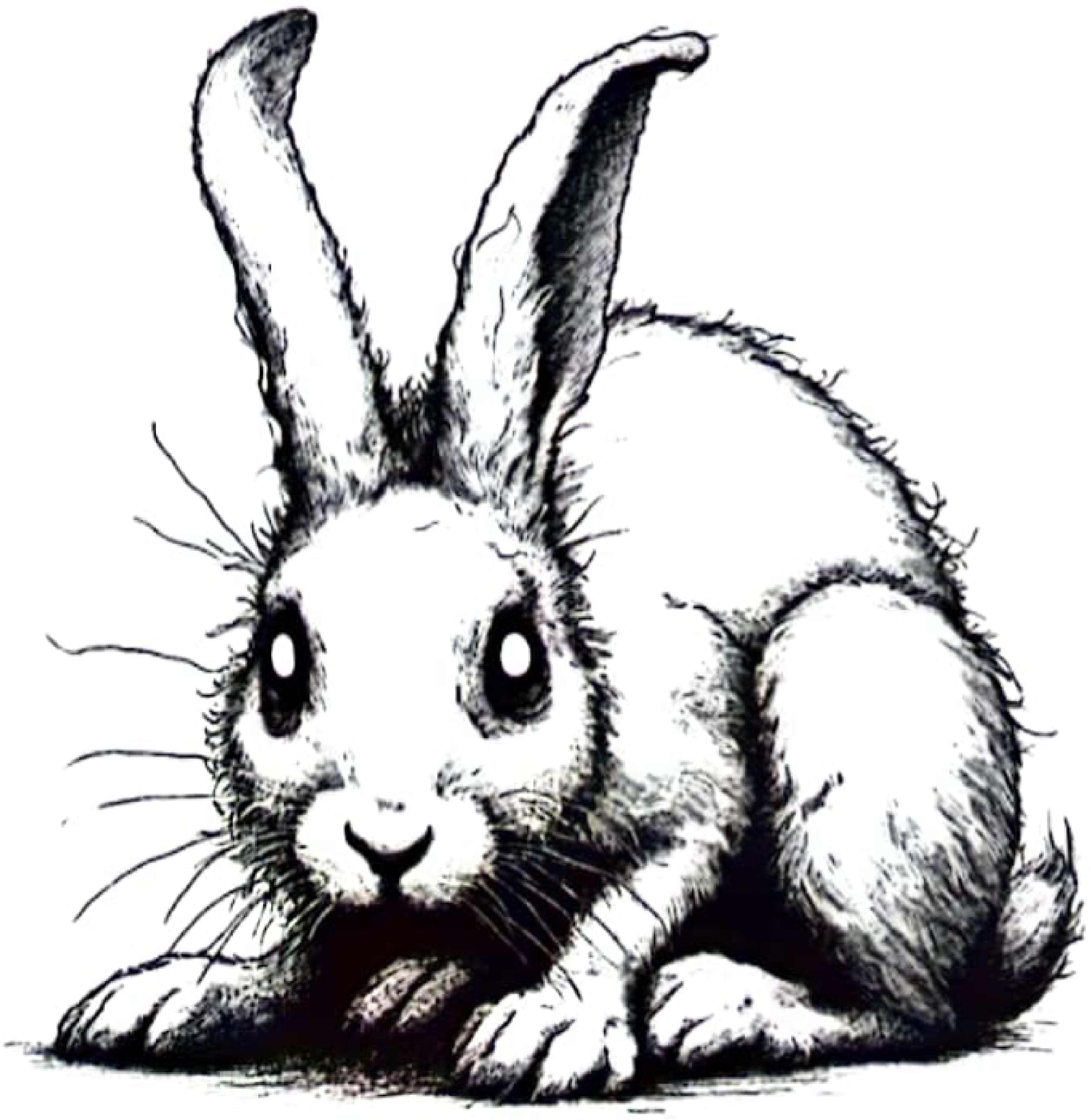

وحدي المسؤول عن ضياع ابنتي، ووحدي المسؤول عن إعادتها إلى أحضان أمها في سلام. ترى أين هي الآن؟ هل تجلس في غرفة باردة وحدها تصارع خوفها؟ هل يطعمونها؟ أم أنها لا تتذوق سوى الخوف والذعر؟

جلست أمام الشاطئ أنتظر شيئًا أجهله، ما ألعن انتظار المجهول!

كنت قد انتهيت من مكالمتي مع ياسمين منذ لحظات، أخبرتها أن كل شيء سيكون على ما يرام، وأن ابنتها ستعود إلى أحضانها قريبًا..

- عشان خاطري رجع بنتي يا يونس..

- منال هترجع، والله هترجع يا ياسمين..

أشعر بكراهية وسخط تجاه العالم بأسره، وامتنان لوجود طه الذي ظهر في التوقيت المناسب لسبب لا أعلمه. ولكن أين صديق عمري؟ أين رفيق حياتي الحق؟

إلا أن الإجابة أتت في لحظات، ظهر أمامي طفل صغير يمسك بألعاب الشاطئ منهمك في بناء قصر من الرمال، تعجبت لوجوده وحده تمامًا، لكنه نظر إليَّ وقال مبتسمًا:

- نفسي مرة تفتكرني من غير ما يكون فيه مصيبة في حياتك!

شعرت بارتياح لظهوره، سألته مستنجدًا:

- زيتون! انت فين كل ده؟

- تعبتني معاك يا يونس! طب زمان وقولت عيل ومش عارف

يدافع عن نفسه، وفي المصحة قولت ده غلبان لا حول له ولا قوة، كده تسيبهم يخطفوا منال؟ عيب عليك يا دكتور!

- لو كنت عملت أي حاجة كان ممكن يقتلوها، وبعدين طالما انت شاطر أوي كده كنت فين ساعتها؟!

- انت ما طلعتنيش من مصباح علاء الدين يا يونس! أنا لما بساعدك بعمل كده عشان إحنا صحاب! ما تستناش مني أكون موجود في كل ثانية في حياتك..

- ساعدني أعرف هي فين وأوعدك مش هطلب منك أي حاجة تانية في حياتي!

سكت زيتون للحظات ثم قال بجدية:

- ما تقولش كلام انت مش قده يا يونس، وعمومًا روح افتح الباب، فيه حاجة هناك عشانك!

تركته لأجد صندوقًا آخر ينتظرني على أعتاب المنزل، تبعني زيتون في صورته الأصلية، ربما، بملامحه غير الواضحة وعباءته السوداء الطويلة التي تغطي جسده بالكامل. حملت الصندوق بيدي المرتعشة وعدت للداخل، لم يكن بداخله سوى ورقة صغيرة ملقاة في قاعه، مد زيتون رأسه وقال بسخرية:

- كل الصندوق ده عشان الورقة دي؟

تجاهلته وأخرجت الورقة بعناية، بداخل الورقة طبع QR Code، قمت بمسحه بواسطة كاميرا الهاتف فقام بفتح تطبيق الخريطة، لعنوان بعيد بعض الشيء، أخذت سيارتي في الحال

بعدما أرسلت العنوان لطه كي يقابلني هناك، وبعد ساعة تقريبًا كنت أمام ميناء الإسكندرية. كان طه ينتظرني في سيارته عند وصولي، يحمل حقيبة صغيرة وكأنه علم مسبقًا أننا بصدد رحلة ما.

- ما كانش فيه حاجة في الورقة غير اللوكيشن؟

- لأ.. اللوكيشن ورسمة الأرنب وبس.

جلسنا سويًا لساعات طويلة لا نعلم ما يجب علينا فعله تحديدًا، وبعد خمس ساعات تقريبًا من الانتظار أشار طه بيده إلى إحدى السفن الضخمة والتي تحمل شعار الأرنب الذي كان مطبوعًا فوق الصندوق، وقال:

- المركب دي بتنقل أرانب.. تفتكر دي إشارة؟

- ما عندناش حل تاني غير إننا نجرب..

كنت محقًا، مشينا مقتربين من سيارة نقل كبيرة تحمل عددًا لا حصر له من أقفاص الأرانب، وقال طه:

- اسحب لك قفص وادخل بيه المركب.. أنا هسرق لبس من أي حد وأقعد مع العمال كأني واحد منهم، من لحظة دخولنا المركب إحنا مانعرفش بعض يا يونس..

- خلي بالك على نفسك يا طه..

- لو لينا نصيب هنتقابل تاني أكيد يا صاحبي..

وبعد عدة دقائق كنا بداخل مركب مجهول في عرض البحر ليلًا، لا نعلم تحديدًا أين نحن ذاهبون، يونس في البحر بلا حوت،

يونس في طريقه إلى المجهول باحثًا عن جزء فُقد منه، أغمضت عيني متذكرًا كل ما مررت به طوال كل تلك السنوات، كيف تحول هذا الشاب الناجح والذي كان يجلس في عيادته يتجرع كوب النسكافيه المفضل لديه من يد عم أباظة العزيز لهذا الكائن البائس؟ لماذا لا أحيا حياةً طبيعية في عالم طبيعي وسط أناس طبيعيين؟ ترى أين أباظة الآن من الحياة؟ كم أشتاق إلى الحياة..

- حضرتك دكتور يونس؟

قالها رجل يرتدي ملابس البحارة في ود واحترام فأخبرته بأنني بالفعل يونس، فابتسم قائلًا:

- البحر هينور بحضورك يا دكتور.

لماذا تطاردني الكوابيس في كل أوقاتي وأيامي كأني لم أُخلق إلا للشقاء والبؤس؟ يونس في بلاد اللعنات والألم مثلما كانت أليس تعيش في بلاد تتحدث فيها اليرقات. يونس في بلاد لم تعرف الحب أو الرحمة يومًا، حتى الرحمة التي وثقت بها يومًا كانت إحدى الأكاذيب.

اقتربت من أحد البحارة والذي بدا قلقًا بعض الشيء وسألته عن وجهتنا فقال في هدوء:

- كلها كام ساعة ونوصل يا دكتور.. البحر هيفرح جدًا بتشريفك.

ما زلت لا أفهم سر هذا الترحاب الشديد وغير المبرر إطلاقًا من الجميع وكأنني ذاهب إلى الجنة.

- وكمان تعرفني؟ طب يطلع إيه الجحر ده؟

- مش مسموح أقول أكتر من كده يا دكتور.. ساعات وتفهم كل حاجة من اللي دوره يفهمك.

عزيزي ثيو،

الفضول قاتل، يستزف مشاعرنا ببطء حتى نتحول رويدًا لكائنات معذبة، تطوق إلى الحقيقة، تطوق إلى الحياة، وتطوق إلى الإجابات مهما كانت مؤلمة وغير منطقية.

فينسنت

الفصل الثامن

يونس يصل إلى الجُحر

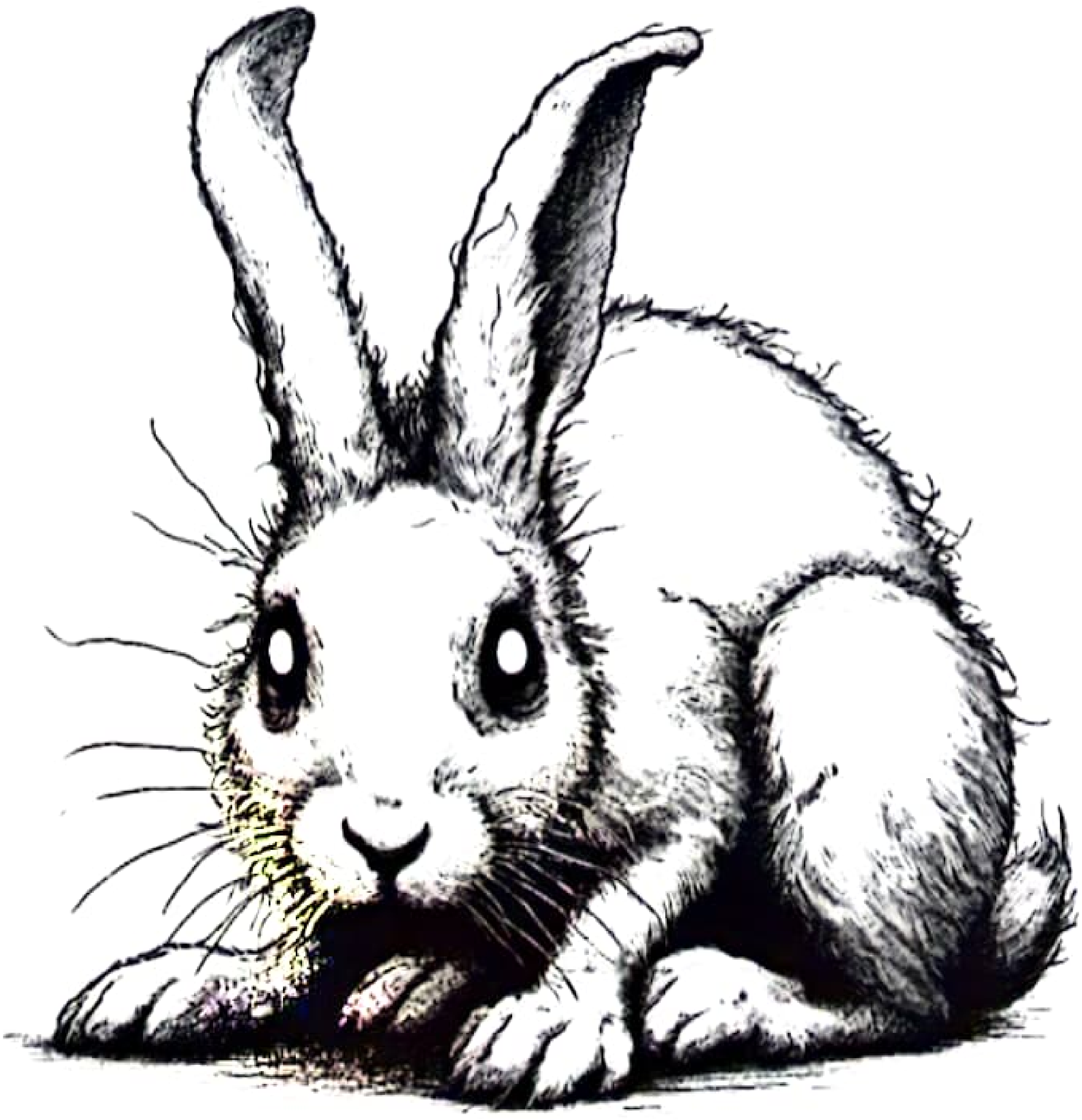

ساعات مرت وكأنها أعوام بلا إجابات، ساعات وأنا أشاهد شريط حياتي بأكمله يمر أمام عيني بألوانٍ باهتة وصورة رديئة عفا عليها الزمان، يحاوطني الماء من كل مكان لا أستشف مكاني بأي شكل من الأشكال، حتى ظهرت أمامي جزيرة صغيرة ممتلئة بالأشجار ويتوسطها مبنى ضخم بني اللون نوافذه سوداء بقضبان حديدية سميكة. بعدما اقتربت المركب أكثر وجدت لوحة ضخمة في مرسى القوارب الخاص بالجزيرة كُتب عليها "مرحبًا بكم في البحر - ملاذ الجميع"، خلف اللوحة وقف رجلان يرتديان قمصانًا بيضاء ينتظران وصول القارب في فضول وتوتر بدا واضحًا على ملامحهما، ولما وصلنا اقترب أحدهما مني مبتسمًا وقال:

- دكتور يونس.. نورت البحر.

وقبل أن أخطو خطوتي الثانية باغتني الرجل الآخر بحقنة منومة في رقبتي لأفقد الوعي في الحال..

كأليس..

أسقط...

أسقط...

أسقط...

جزيرة الجُحر - ١٩٩٥

دلف رجل يرتدي بالطو الأطباء الأبيض لغرفة الاجتماعات متهللًا في مبنى الجحر وهو يحمل بين يده بعض الأوراق التي خطت بخط اليد وقال في سعادة:

- إحنا بنقرب أوي.. الجرعة الجديدة جاهزة تتجرب على البشر.

إلا أن أحمد ليل والذي كان منهمكًا في مجموعة من الأبحاث أمامه قال غاضبًا:

- هو انت كل يومين بتقول قربت وتبقى سبب في موت أرنب بشري جديد؟

- بعد إذنك يا دكتور، هو إيه الأرنب البشري ده؟

سأل طبيب شاب عشريني من المتدربين في الجحر:

- العناصر البشرية اللي بنجري عليهم الاختبارات بنسميهم أرانب بشرية، وما نتكلمش تاني من غير إذن.

شعر الشاب بالحرج فالتزم الصمت، نظر الرجل مرة أخرى لأحمد وقال:

- وبعدين في قلبك الرقيق ده يا أحمد! إحنا مش شغالين في عيادة أطفال يا صديقي!

- ماحدش قال كده، بس أنا يوم ما أسست الجحر معاكم أسسته عشان الحلم اللي عندنا مش عشان كل كام يوم متطوع يموت!

- كل حلم بيكون ليه ضحايا عشان يتحقق وينجح، وانت أكتر واحد عارف كده..

- يبقى تخلي الأرانب البشرية آخر حل يا هارون..

قاطعهم شخص ثالث بدا عليه الهدوء والحكمة قائلًا:

- ماحدش فيكم غلط، طريقتكم في حل الموضوع هي اللي غلط، إحنا بدأنا الحلم وإحنا عارفين إن كل الاحتمالات متاحة، طريقتكم مع بعض ممكن تخسرنا كتير..

فأجابه هارون قائلًا:

- انت اكتر واحد مؤمن إن التجارب اللي من النوع ده لازم تتعمل على ارانب بشرية يا نجيب، وده منهجك في المصحة بتاعتك..

أجابه نجيب في هدوء مستفز:

- بس بالعقل.. العقل هو البوصلة يا هارون..

- مش عارف من غير حكمتك كنت هعيش ازاي يا أسود يا أخويا!

أفقت في غرفة غريبة حوائطها بيضاء تمامًا، فراش صغير وزجاجة مياه فوق طاولة بيضاء. لا نوافذ، فقط باب حديدي مغلق من الخارج، أدعو الله أن يكون طه على ما يرام، ادعو الله ان تكون منال على ما يرام والا أكون قد وقعت في مصحة سرية أخرى!

دقائق ظللت قابعًا في مكاني أنتظر أي شيء، حتى دلف إلى غرفتي رجل يرتدي بالطو أبيض، قال مبتسمًا:

- أهلًا بيك في الجحر يا دكتور يونس، أنا دكتور سيف، بعتذر على تخديرك بس في الجحر مش بنحب نسبب أي إزعاج للنزلاء بتوعنا، عشان كده لازم مرحلة التسكين تحصل في هدوء ومن غير أي مشاكل.

- بقى لي أيام بسمع كلمة الجحر وأنا لسه مش فاهم انتم مين، بنتي فين يا دكتور سيف؟

- وجودك هنا شيء كان هيحصل في جميع الأحوال، الجحر هو ملاذ كل إنسان بيدور على راحة من تعبه النفسي، العلاج عندنا بيتم بشكل مختلف عن أي مكان تاني وبنتك في أمان، ببساطة إحنا عايزين منك خدمة، خدمتك لينا مقابلها تاخد بنتك والأهم من كل ده، هتعيش في سلام من غير أي كوابيس بعد كده..

- خدمة إيه؟ تعرف إيه عن كوابيسي أصلًا؟

- تعرف إيه عن الأحلام الجلية يا دكتور؟

الأحلام الجلية.. ويمكن تسميتها أيضًا بالأحلام الواعية، هي

الأحلام التي يدرك المرء أنها مجرد أحلام أثناء رؤيته لها دون أن يستيقظ، أي أنه يعي أن ما يراه من أحداث وشخصيات ليست سوى نتاج عقله، مما يعني أنه بالإمكان التحكم بها. تمثل هذه الأحلام بوابة إلى عالم خيالي تنعدم الحدود فيه كليًا لتفسح المجال أمام القيام بـ "المستحيل".

رؤية الأحلام الجلية أمر متاح للجميع، وهي مهارة ليست صعبة للغاية كما قد تخيلها للوهلة الأولى، فقد أثبتت العديد من الدراسات أن ذلك ممكن فعلًا عند توفر رغبة حقيقية لاستخدام هذه الوسيلة بهدف الولوج إلى العوالم الدفينة خاصتنا. ويتطلب الأمر وضع أهداف محددة حول ما نريده من هذه الأحلام، هل الأمر مجرد تسلية وترفيه؟ أم أنها وسيطة لحل مشكلة يصعب العثور على حل لها في حالة اليقظة؟

وعند البدء بتعلم كيفية الدخول إلى عالم هذه الأحلام، يجب قبل كل شيء التدرب على تذكر الأحلام التي نراها كل ليلة، إذ لا يمكن رؤية أحلام "جلية" ما لم نكن قادرين على تذكر أحلامنا العادية بوضوح. وقد يستغرق تطوير هذه القدرة وقتًا طويلًا، لذلك من المفيد للغاية تخصيص مفكرة للأحلام يتم وضعها قرب السرير، لكي نكتب عليها فور استيقاظنا صباحًا كل ما نذكره من أحلام الليلة السابقة. ومع مرور الوقت سيصبح المرء قادرًا على تذكر أحلامه بتفاصيلها.

عندما تتمكن من السيطرة على أحلامك تكون قد بلغت درجة لا يستهان بها من درجات التحكم بالذات، وبالتالي يسهل عليك معالجة مخاوفك وقلقك القابع في عقلك الباطن، ويمكن أن يتم

ذلك من خلال تجربة الحلم الجلي.

- انتم هنا عشان تتحكموا في أحلام البشر؟

- مش بالظبط.. إحنا هدفنا الحالي إننا نسيطر على كوابيس البشر، نقتن الكوابيس وننقذ مرضى كتير من اضطراباتهم النفسية وعلاجهم من التوتر، الاكتئاب، قلة النوم، الإجهاد النفسي أو حتى الهلوسة، أكيد سمعت عن عمليات الخطف اللي بتحصل كل فترة لمرضى من مصحات ومستشفيات، في الواقع إحنا بنجند أشخاص في كل مؤسسة طبية نعرف منهم عن الحالات المستعصية أو الخطرة اللي فشل معاهم كل أنواع العلاج، الجحر دوره ينقذ المرضى وتحسينهم، إحنا الطيبين يا يونس مش العكس زي ما انت فاهم!

أجبته غاضبًا:

- كل ده كلام جميل! بس إنك تجيبني لحد هنا بالطريقة دي وكمان تخطف بنتي! انت كده بتنفي تمامًا كل كلمة قولتها بأفعالك! أنا رافض أبقى جزء من الحكاية دي كلها..

إلا أنه ابتسم وقال في هدوء:

- مش دايمًا الطرق التقليدية في أي حاجة بتبقى حل! ثانيًا أنا عبد المأمور يا دكتور، مش أنا اللي بإيدي أخليك هنا أو أمشيك..

- ومين بقى المأمور ده؟

وقبل أن يجيبني هذا الطبيب دخل علينا الغرفة عجوز أصلع في

يده اليمنى عصا سوداء مرصعة بالماس وقال مبتسمًا في خبث:

- ازيك يا فلتة عصرك وزمانك! خلاص بقيت دكتور قد الدنيا ومش هقدر أقولك حاجة بقى!

يبدو صوته مألوفًا، رأسه الصلعاء أيضًا اعرفها جيدًا!

- حضرتك تعرفني؟

- تصدق خسارة فيك التعليم اللي علمتهولك! أنا دكتور هارون يا واد!

- دكتور هارون مين؟

عدت بذاكرتي لسنوات طويلة مضت، ذكريات جاهدت طويلًا لأنساها أو على الأقل أتناساها، عدت بذاكرتي يوم رأيت هارون مقتولًا في مكتبه غارقًا في دمائه. أين أنت يا زيتون لتخبرني بأنني لا أحلم ولا أتخيل ما رأيت وقتها أو ما أراه الآن؟!

- دكتور هارون شوفته مقتول قدام عيني من سنين طويلة!

- طيب بذمتك! إيه في حياتك منطقي؟ إيه في حياتك طبيعي يا يونس؟

أكره يونس.. أكرهه بصدق وأكره حياته ودهاليزه اللامتناهية.. أكره ماضيه، حاضره وأسراره.. وأكره أن حياتي بأسرها لا تحمل ذرة من المنطق.. أكره أني أعيش كفارس لا يملك من الجيوش سوى نفسه فقط.

- أنا مش فاهم!

- فيه حاجات كتير أوي انت محتاج تفهمها، أو على الأقل تستحق أنك تفهمها بعد كل السنين دي يا يونس! فيه حاجات كتير حصلت في حياتك ما كانش ليها تفسير منطقي! انت عمرك ما كنت مظلوم يا يونس.. انت بس ماكنتش فاهم، أما بالنسبة لموتي فكل ده كان متدبر له عشان أقدر أختفي تمامًا وأتفرغ لمشروعي من غير ما أثير الريبة في الجامعة..

- أرجوك يا دكتور، أنا تعبت من الألغاز ومن الحكاية اللي ما اخترتهاش دي..

- مفيش حاجة مالهاش تمن، عايز تعرف الحكاية وحل اللغز؟ يبقى هتقدم حاجة في المقابل..

- أنا مستعد أقدم أي حاجة في سبيل إني أرتاح!

- طيب ادخل أوضتك ارتاح والصبح هفهمك كل حاجة، ده وعد.

الفصل التاسع

الأرانب القدامى

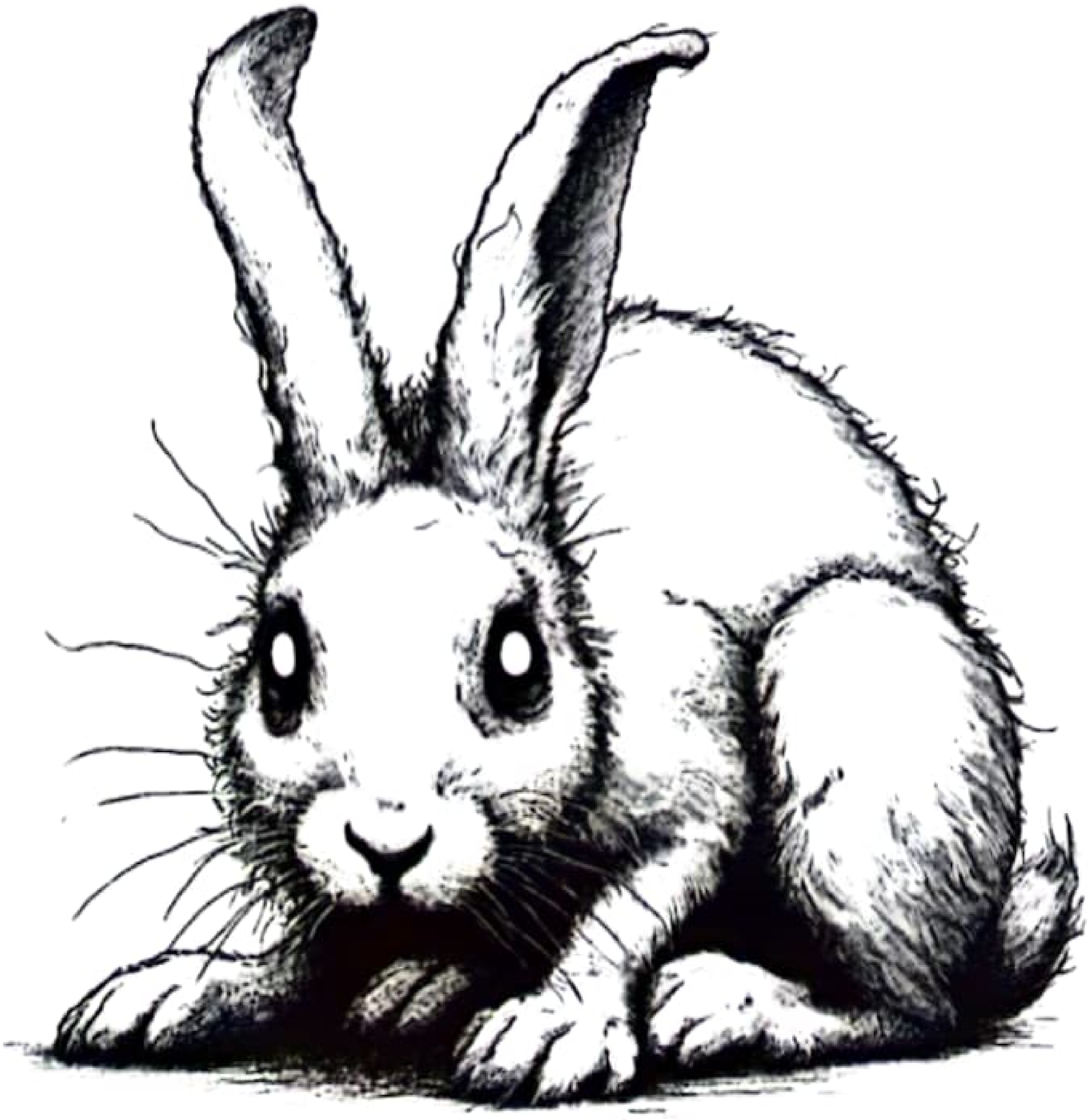

في الفراش الأبيض، جلست أتأمل السقف وهو يتحول رويدًا لشاشة عرض، تعرض مشاهد سريعة من لقائي الأول مع حنين، يوم بدأت قصتي معها بفنجان قهوة وحتى لحظة قتلي لها، من المستحيل أن تكون على قيد الحياة! في قصتي الأموات يعودون كثيرًا، ولكن حنين، حنين قتلتها بيدي، رأيت الدم يسيل منها كما سالت ذكرياتي في بحر من الألم. أسمع صوت هارون في أحلام اليقظة وكأنه يراني، ممسك في يده أرنب أبيض بعنف وهو يقول:

- تعرف إن الأرانب بتنام وهي مفتحة عيونها يا يونس؟

- على الأقل بيناموا يا دكتور!

اختفى هارون لتظهر حنين ترتدي فستانًا أسود كلون قلبها وهي تقول في مكر:

- اوصفني يا يونس..

حنين.. أيها الماضي الذي جاهدت لسنوات طويلة كي أنساه وفشلت ببراعة..

حنين.. أيتها الكذبة المتقنة بعناية استثنائية.. جرحكِ كان استثنائيًا بلا شك ولا شفاء منه..

يوم وضعت القلم في رقبتك لم أكن أقتلكِ أنتِ.. بل كنت أقتل نفسي، كنت أقتل قلبي الذي تمناكِ يومًا..

لماذا في قصتي يعود الأموات دائمًا؟ لماذا أرى حياتي أشبه بفيلم أبطاله من الزومبيز؟! يموتون، ثم يدفنون، ثم يعودون مرة أخرى وكأن شيئًا لم يحدث.. لماذا أنا؟ لماذا تم زجي في هذا الجحر المرير؟

لماذا لا يتوقف عقلي عن الأسئلة والافتراضات؟

والسؤال الأهم.. هل كل ما يحدث الآن حقيقي أم ما زلت أجلس على مقعدي المفضل بمنزلي بالساحل الشمالي مع ياسمين وأولادي؟

أعلم أنني لم أتناول أي عقاقير للهلوسة ولا من الفطر السحري الخاص بحنين منذ زمن طويل، ولكن الهلاوس دومًا تجد الطريق الأمثل للوصول إلى حياتي. تذكرت تلك اللحظة حينما أراني طه صورتها، كالمجذوب كنت لا أأفهم ولا أدرك شيئًا أبدًا.

- وهي الفراشة لازم تتحط في برطمان يا يونس؟ ماينفعش تتساب للناس يشوفوها من غير ما تتسجن؟

كنت أقاوم النوم بكل قوتي، ولكنني من شدة تعبي سقطت نائمًا لأستيقظ في الصباح على صوت دكتور هارون، هذا العجوز البغيض، يوقظني بصوته المزعج.

- شكلك بقالك سنة مانمتش.. يلا يا بطل كُل فطارك وتعالى أفرجك على الجُحر ونزلائه وأفهمك انت جاي هنا ليه.

نظرت إلى الطعام بشيء من الريبة، إلا أنه قال ضاحكًا:

- ماتخافش.. مفيش magic mushrooms في الأكل يا حويط، اللي عادل كان بيعمله معاك هو وحنين أسلوب رخيص وأنا لو هلعب معاك فهلعب لعبة حلوة غير دي..

تبًا لك يا هارون!

انتهيت من طعامي سريعًا وتحركت خلفه لا أعلم مصيري إلى أين. المبنى عملاق غير مريح للقلب تمامًا، هذا أول ما لاحظته، يمكنك أن تخبئ حوتًا بداخل جدران هذا المكان ولن يلاحظه أحد، أشعر وكأني أسير في مستشفى مبنية بالمعايير العالمية للموت، الجدران كلها تحمل شعار الأرنب في كل مكان، حتى البالطو الذي يرتديه الأطباء والممرضين يحمل نفس الشعار المخيف.

- شوف يا سيدي، الجحر مكان يجمع ما بين المصحة النفسية، المستشفى، دار الرعاية ومعمل الأبحاث، المكان ده اتبنى من تقريبًا خمسين سنة، كنا شلة صُحاب من وإحنا عيال مسميين نفسنا الأرانب، من صغرنا وإحنا عندنا حلم غريب شوية بالنسبة لناس كتير، حلم إننا نتحكم في العقل البشري عن طريق الأحلام، كل واحد فينا كان عنده دافع وكلنا قررنا إننا هنبني الجحر في مكان بعيد عن الناس عشان نقدر ننفذ فيه أبحاثنا عشان نوصل لحلمنا!

- بس حضرتك كنت أستاذ جامعي ناجح، إيه اللي ممكن يخليك تفكر في حاجة زي دي؟ إنك تبقى عايز تساعد مريض من خلال اختراق أحلامه ده شيء لكن تتحكم فيه؟ ليه؟

- ليه ده سؤال إجابته طويلة، خليني الأول أحكيلك عن مؤسسين الجحر وليه انت هنا دلوقتي..

بدأ هارون يريني المرضى بالجحر، أعمار مختلفة وأجناس متعددة، بعضهم يبدو عليه الهلع، هلع صامت كأنهم منومون مغناطيسيًا، عيونهم مفتوحة على مصرعيها، أفواههم يتدلى منها اللعاب ككلب خاض معركة عاتية منذ قليل، والبعض الآخر ينظر إلى سقف

غرفته دون أن يرمش، وكأنه يشاهد عرضًا خياليًا يدور فقط في رأسه، يجلسون فوق مقاعد وثيرة في هدوء، تتدلى من رؤوسهم أسلاك شفافة اللون يتحرك بداخلها سائل أسود لزج عجيب، سألته عن سر هذا السائل وسر هيئتهم العجيبة.

- في الجُحر بنستخدم الأساليب العلمية في البحث والعلاج، مش هتلاقي هنا علاج بالكهرباء ولا غرف عزل، إحنا بقالنا سنين بنحاول نستخرج الكوابيس من البشر.

دلفنا بعد الجولة العجيبة إلى غرفة عملاقة اشبه بمكتبة وأنا أتساءل بيني وبين نفسي عن عدد الغرف في هذا المكان الضخم، اقترب من إحدى أدراج مكتبه وأخرج ألبوم للصور الفوتوغرافية ليجلس بعدها إلى جانبي في مشهد حميمي لم أتخيل في يوم من الأيام أنه سيحدث، هل جلست لتشاهد البوم صور مع شخص يكرهك ورأيته مقتولًا أمام عينك من قبل؟

الإجابة بالطبع لن تكون نعمن إلا إذا كان اسمك يونس أحمد ليل!

- أحب أعرفك على شلة الأرانب يا دكتور، اللي على اليمين ده أنا، وقتها كان عندي شعر لسه، اللي جنبي ده نجيب أسود، وأعتقد انت تعرف هو مين كويس أوي، اللي بعديه والدك الله يرحمه أحمد ليل، واللي على شماله عماد العلايلي، الشريك الرابع لينا..

- الأرانب؟

- عارف إن الاسم ممكن يبان سخيف، دي كانت نكتة بينا زمان، كل واحد فينا إحنا الأربعة كان أرنب بشكل ما، وعشان كده سمينا نفسنا الأرانب.

هل هذا يفسر رؤيتي الدائم للأرانب في كوابيسي؟ لقد سأمت المفاجآت حقًا! ما تلك اللعنة تحديدًا التي تجعل الحياة سلسلة لا تنتهي من الأسرار والكوابيس؟ أبي كان يحمل بداخله العديد من الأسرار وأنا أعلم ذلك جيدًا، ولكن هذا السر كان الأغرب، ما علاقة أبي بهذا المكان وبهؤلاء الأشخاص؟ ما علاقة أبي بهؤلاء الأرانب المختلة وهذا الجحر اللعين؟

ظننت أن علاقة أبي ونجيب أسود لم تكن سوى علاقة عابرة بسبب علاقته وحبه لرحمة والقصة التي جمعتهما سويًا، لم يخبرني هو أو عادل عن علاقة أبي به والتي تعود لسنوات طويلة، لم أعلم أيضًا أن أبي كان صديقًا لهارون، في الواقع ما أكتشفه دومًا هو أنني لا أعلم أي شيء حقًا!

- أبويا إيه علاقته بيك وبالمكان ده؟ أبويا كان تاجر وماكانش مهتم بأي شيء من الكلام ده! أكيد فيه حاجة غلط! انتم عايزين تجننوني؟

- بالعكس يا يونس، أنا جاي عشان أفهمك كل حاجة، لأني الوحيد اللي لسه عايش منهم ودوري إني أنقل كل حاجة لوريث الجحر.. يونس أحمد ليل!

الجحر - ١٩٩٥

- إحنا محتاجين نبني دور جديد تحت الأرض يا عماد، أنا خايف مركب تكون معدية من جنب الجزيرة وتسمع صوت صريخ المرضى، لو أي حد عرف إيه اللي بيحصل هنا هتبقى نهايتنا كلنا!

- كلها أسابيع واللي عايزه هيحصل، أعتقد خبرتي في الفنادق تخليك مطمئن إن دهاليز الجحر هتتبني بأفضل طريقة ممكنة تفي بالغرض، وبعدين قولتلك مليون مرة ما تقلقش، أي حد بيسأل بقول إن ده فرع جديد لفندق القلب تحت الإنشاء، وحتى لو البوليس قرر يفتش مش هيلاقي غير غرف فندقية زي أي غرفة فندق في الدنيا، وكل اللي هنا هيكون تحت الأرض بأمتار.

دلف نجيب أسود إلى الغرفة والسعادة تملأ وجهه وهو يقول:

- الجنين جاهز للتجربة.. مين حابب يجرب؟

ابتسم أحمد ليل في سخرية قائلًا:

- لسه برضو مصمم تسميه الجنين؟ مش حاسس إن الجهاز اسمه لازم يكون مهيب أكتر؟

تدخل هارون ضاحكًا وهو يقول:

- إحنا مسميين نفسنا الأرانب يا أحمد بيه.. وبعدين أكيد نجيب عنده وجهة نظر ورا الاسم ده، ولا إيه؟

- جربوا وبعدها هتفهموا..

خرج الأربعة حتى وصلا إلى غرفة كتب عليها (غرفة التأمل)، الغرفة من الداخل شديدة الضخامة ذات سقف عالٍ يتوسطها جهاز ضخم أشبه بخزان المياه، بداخله سوائل زرقاء وحمراء ومادة لزجة أشبه بالكيس الأمنيوسي للجنين. ابتسم نجيب وهو يخلع ملابسه ويقول:

- أنا هدخل الأول، هارون ساعدني أركب أنبوبة التنفس وأول ما أبقى جوا الخزان اقعد ورا جهاز التحكم.. التجربة دي هتبقى استثنائية، لسه كمان لما تشوفوا الحلم اللي بقالي سنين عايز أحققه، ساعتها بس هتصدقوا إني قادر أغير العالم.

الفصل العاشر

وريث الجُحر

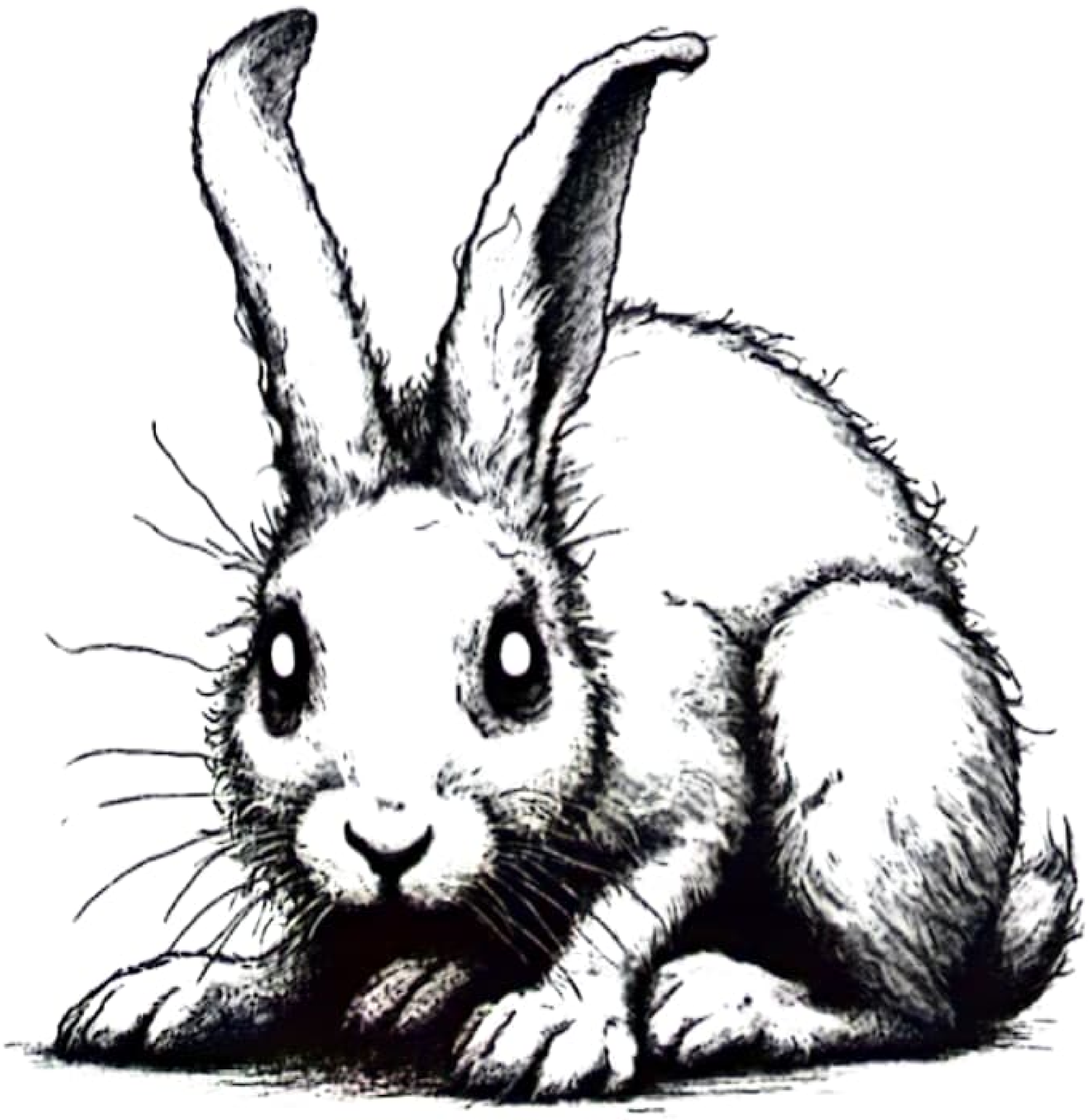

عزيزي ثيو،

لماذا نَرث اللعنات من أصحابها؟

لماذا يقدر لنا أن نحاسَب على أخطاء لم نرتكبها، فقط لأن مَن تسبَّب في تلك الأخطاء كان من ساكني قلبنا؟!

فينسنت

- وريث الجحر يعني إيه؟ أنا ماليش أي علاقة بالمكان ده عشان أورثه! أنا مش عايز ورث من أي نوع، أنا كل اللي عايزه بنتي وبس يا دكتور.

تنهد هارون ثم قال بجدية:

- مش كل ورث بيبقى ورث اختياري يا يونس، أنا وأبوك صُحاب من وإحنا عيال، ولما كبرنا كان الاتفاق بيقول إن المكان ده يفضل موجود، وإن أكبر أبناء أي حد فينا هيكون له الورث، عادل أخوك الله يرحمه، وسِحر بنت عماد سِنها وحالتها النفسية ما تسمحش، ده غير إننا حتى ما نعرفش مكانها فين، وأنا ولا اتجوزت ولا خلفت. عشان كده انت كان لازم تيجي الجُحر وتستلم ورثك يا يونس.

- ولو رفضت؟ هتقتلني؟

ربت على كتفي في ود وقال بأسلوب درامي لم أقتنع به:

- أقتل ابن أخويا يا يونس! مستحيل! أبوك الله يرحمه وصاني عليك، لكن ما وصانيش على بنتك، لو رفضت يا يونس هسيبك تمشي لكن هتمشي لوحدك ومش هتشوف منال تاني، وعمومًا أنا مش طالب منك كتير، مهمة هتعملها وبعدها ترجع تاني لحياتك المملة، وانسى هارون العجوز وحكايته كلها..

- إيه هي المهمة؟ أنا مستعد أنفذ أي حاجة في سبيل إني أرجع لحياتي اللي انت شايفها مملة دي..

- بتصدق في السحر يا يونس؟

الجُحر - ١٩٩٦

أصوات مخيفة تشبه صوت تهشم الزجاج وعواء يشبه صراخ ذئب يتم تعذيبه وخلع جلده أتت من الدور الأسفل للجحر، تتبعها صرخات متتالية لأشخاص مختلفين. أتى نجيب مسرعًا وهو بملابس النوم حافي القدمين ليرى مشهدًا حرك موضع قلبه من مكانه، أمامه كان يقف كائن عملاق طوله حوالي أربعة أمتار، مغطى بالكامل بعباءة سوداء لا تظهِر سوى فمه والذي تملؤه الدماء وبقايا لحم بشري بين أنيابه، وعلى الأرض كان يوجد بقايا جثث بعض الأطباء ممن يعملون في الجحر. تيبس نجيب في مكانه لا يفهم ماهية هذا الكائن المرعب، إلا أنه أفاق على صوت أجش خرج من هذا الوحش قائلًا:

- بتخاف من الكوابيس يا نجيب؟

- انت.. انت مين؟

- انت واقف قدام كوابيسك وجهًا لوجه يا دكتور.. مبروك!

- كوابيسي! يعني إيه؟

لا أعلم ما اللعبة التي يلعبها هارون، هذا العجوز الذي تجاوز السبعين على أقل تقدير، هرِم أشيب إلا أنه يمتلك عقلًا لم يفقد نضارته حتى الآن، ما زلت لا أفهم ماذا يريد، ولكنني أعلم تمامًا ما أريد أنا.

- إيه علاقة سؤالك بالطلب يا دكتور؟ عايزني أحضّر لك عفاريت؟!

- لا يا خفيف، خلال السنين اللي فاتت كلها كنا بنشتغل على أبحاث وتجارب، سواء على الأرانب البشرية أو الحيوانية وفي الحقيقة وصلنا لنتايج ممتازة وساعدنا ناس كتير، أنا وأبوك كنا ماشيين في طريق وللأسف عماد ونجيب كانوا ماشيين في طريق تاني خالص، إحنا كنا ماشيين في طريق العلم والأبحاث عشان نعالج المرض النفسي بالإيحاء ونزع المشكلة من جذورها وهما كانوا بيحاولوا يطوعوا البشر للتحكم فيهم وتجنيدهم.

- ممكن تشرح لي أكتر يا دكتور؟ إيه علاقة السحر بالأبحاث باللي حصل بينكم وعلاقتي أنا بكل ده إيه؟ وإيه اللي ممكن أعمله عشان أساعد؟

- عمرك سألت نفسك زيتون ده يبقى إيه؟

ألجمتني جملته، سكت للحظات ثم سألته والخوف جلي على ملامحي:

- انت تعرف زيتون منين يا دكتور؟ فرحني وقولي إني دلوقتي بهلوس!

- انت فايق تمامًا. أنا أعرف حاجات أكتر بكتير يا دكتور، بس خلينا دلوقتي في زيتون..

الجحر - ١٩٩٦

نجيب أسود.. الشيطان ذاته!

لا يمكن تصنيفه كإنسان، ولا يمكن تصنيفه كشخص عادي. طوال حياته كان يبحث عن المستحيل، طوال حياته كان يبحث عن الماورائيات. وصل به الأمر لرغبة في التحكم في الكوابيس، بل تحويلها إلى كيان ملموس. هل يمكنك أن تتخيل كابوسًا متجسدًا في هيئة بشرية؟

وقف نجيب أمام هذا الكائن المخيف لا يقوى على الحراك حتى كاد أن يسقط من أثر الرعب.

- كوابيسك يا نجيب! يعني تجربتك نجحت، تقدر تفرح أصدقائك من الخرانق، اللي بتحاول تعمله بقالك سنين اتحقق، قدرت تفتح باب بين العالم بتاعكم وعالم الكوابيس!

ابتلع ريقه بصعوبة، ابتسم رغم خوفه وقال:

- أنا حاسس إني بحلم، أنا لازم أكلم الباقيين دلوقتي، ماحدش فيهم هيصدق إن تجربتي نجحت.

- ما تكلمش حد.. أنا عايز يونس.. يونس أحمد ليل!

تعجب هارون من الطلب وسأل بغيظ:

- يونس؟ يونس ابن أحمد ليل؟ ليه؟ أنا اللي فتحت البؤرة وكل اللي فيها أنا السبب فيه! وبعدين ده طفل صغير!

- الكوابيس هي اللي بتختار صاحبها يا نجيب، انت اللي فتحت الباب بين العالمين، بس أنا صاحب القرار! اللي أطلبه يتنفذ بدل ما هتندم إنك فكرت تفتح باب انت مش عارف وراه إيه.

- طيب ممكن أفهم؟ أنا طبعًا هنفذ، أنا ما اقدرش أعمل حاجة غير إني أنفذ..

- كل الأسرار اللي عايز تعرفها عن العالم بتاعنا هتبقى ملكك، لكن في الوقت المناسب، يونس لما يوصل للسن المناسب انت اللي هتساعده يدخل العالم بتاعنا، هو اللي معاه المفتاح، لكن خليك عارف يا نجيب إن لكل فعل عواقب، وإن ولادكم مسير حد فيهم يدفع التمن.

جلس أمامي دكتور هارون وبدأ في سرد روايته، أنصت تمامًا في صمت مطبق، أنصت وأنا أحاول جاهدًا ألا أفقد ما تبقى لدي من أعصاب وعقل. في روايته، بدأ يحكي ساردًا أن في منتصف التسعينات، بينما كان هو وأبي يعملان جاهدين على مشروعهما، تحفيز الحلم الجلي لدى الإنسان واستئصال لُب المرض النفسي من أساسه عن طريق الإيحاء في الأحلام، كان نجيب أسود بمساعدة صديقهم الرابع عماد، يعملان على التحكم في البشر عن طريق تطويع الكوابيس، الأمر قد يبدو غير مفهوم، حكى بأنهم، عماد ونجيب، وبمساعدة مجموعة من السحرة والدجالين استطاعوا تحويل كوابيس البشر إلى كيان حي ملموس بالاستعانة بالسحر الأسود وفتح باب بين عالمنا البشري وعالم الكوابيس.

كان نجيب يستخدم كل الطرق غير القانونية وغير الأخلاقية ليفعل ذلك، ما بين تحضير جن وتقديم قرابين للشياطين، حتى عثر في نهاية الأمر وبعد سنوات من البحث على لعبة تدعى (أرا)، وبعد البحث عن أصل تلك اللعبة تبين أنها تعود لزمن ما قبل الميلاد، لعبة مسحورة تضع من يلعبها في اختيار ما بين الموت أو تنفيذ حكم ما يعرضك للموت أيضًا في نهاية المطاف، إلا أن النسخة التي عثر عليها من اللعبة كانت نسخة أخرى أو لعبة أخرى، قوانينها ببساطة، تقديم جزء منك، لحم أو دم، وفي المقابل يصبح لك خادم من الكوابيس، مطوع لرغباتك وأوامرك طوال حياتك.

- أنا سمعت عن أرا دي قبل كده، بس سمعت كمان عن حاجات كتير زيها وعمري ما كنت بصدق في الكلام ده،

يعني إيه كوابيسي متجسدة في هيئة كائن حي؟ يعني إيه عالم الكوابيس أساسًا؟ زيتون موجود في حياتي من وأنا عيل صغير، من امتى الكوابيس بتحمي يا دكتور؟ لو زيتون هو كوابيسي على حد قولك، يبقى كان دوره إنه يؤذيني مش العكس!

- لما الكوابيس اللي بنعيشها بتبقى أكبر من الكوابيس اللي جوانا، ساعتها الكابوس اللي بنملكه بيبقى أعز صديق..

- كمل الحكاية يا دكتور هارون، أرجوك..

أكمل هارون قصته، حكى أن بعد سنوات قليلة توفي عماد العلايلي داخل جدران فندقه بمدينة الإسكندرية، وبحسب روايته قبلها لهارون، أن سِحر ابنته ماتت قبل وفاته بعدة سنوات، ربما كان يحميها من أن تورث لعنة الجُحر! في نفس التوقيت تقريبًا انتحر نجيب أسود في ظروف غامضة أعلمها جيدًا، وهي تقريبًا نفس الفترة التي اختفى بها أبي، أو كما ظن الجميع وقتها بأنني قتلته في تلك الرحلة البحرية بالفيوم.

وقتها وجد هارون نفسه وحيدًا بين عمله كأستاذ جامعي وبين الجُحر ومرضاه، ولم يقرر أن يغلق هذا المكان بلا رجعة، كان الوقت قد فات، أصبحت الكوابيس هي ما يُدير المكان، أصبحت الكوابيس تأمر وتنهي في هذا المكان الملعون.

- لما نجيب عمل عملته وبدأ في استخدام السحر الأسود، خلق بؤرة بتربط بين عالم الصحو وعالم الموتة الصغرى، أو عالم الكوابيس، وقتها بدأت الكائنات دي تخرج من البؤرة كل فترة، وكل فترة كل كائن منهم كان بيختار رفيقه أو مسكنه

من البشر، وأول وحش خرج كان زيتون، ولسبب ما اختارك انت، زي ما عادل أخوك بقى قرينه نصير، وزي ما كل واحد فينا من الأرانب بقى له قرين، اللعبة اللي لقاها نجيب قدم فيها قرابين مننا إحنا الأربعة، جرح في إيد كل واحد فينا أنا ونجيب وعماد وأحمد أسفر عن تقديم دماء كقربان للعبة، فبالتالي كل واحد فينا إحنا الأربعة أو أي حد من نسلنا هيفضل ملعون بالبؤرة والقرين إلا لو قدرنا نقفلها، هي دي اللعنة يا يونس، وهو ده دورك دلوقتي، الغريب إن كل واحد فينا ظهر له قرين كان بيسبب له لعنة ما أو مرض، إلا انت!

- لما عادل لقاني زمان، كان الغرض الأساسي من المهمة إنه يخليني أساعده نقفل البؤرة مش كده؟ بس الكره اللي جواه خلاه مش شايف غير الانتقام!

- البؤرة اللي فتحها نجيب أسود لسه موجودة، وبتتغذى على الأرانب البشرية اللي هنا، بتتغذى على أمراضهم ومخاوفهم، والمطلوب مننا هنا إننا نفضل نغذيها بالضحايا اللي محتاجاها، يا إما العواقب هتكون وخيمة. الشخص الوحيد اللي قدر يطوع كابوسه كان انت يا يونس! وعشان كده كل اللي حاربك كان بيحاربك بكوابيس الصحو، انت الوحيد اللي كوابيسه قبل النوم، أنا عارف إن اللي بطلبه منك صعب وممكن يكون أقرب للموت، بس انت لو قدرت تطوع بؤرة الكوابيس وتخليها بتستجيب ليك، هتنقذ ناس كتير يا يونس، مش بنتك بس اللي هتنقذها، انت هتبقى بتنقذ أمك كمان اللي هترتاح لما تعرف إن حياتها ما راحتش هدر، في الواقع انت هتكون بتنقذ البشرية كلها من عالم

مش عارفين مخاطره هتبقى إيه لو قررنا نحاربه أو ندخله..

مش عارفين مخاطره هتبقى إيه لو قررنا نحاربه أو ندخله..

الفصل الحادي عشر

فريق من الأرانب البشرية

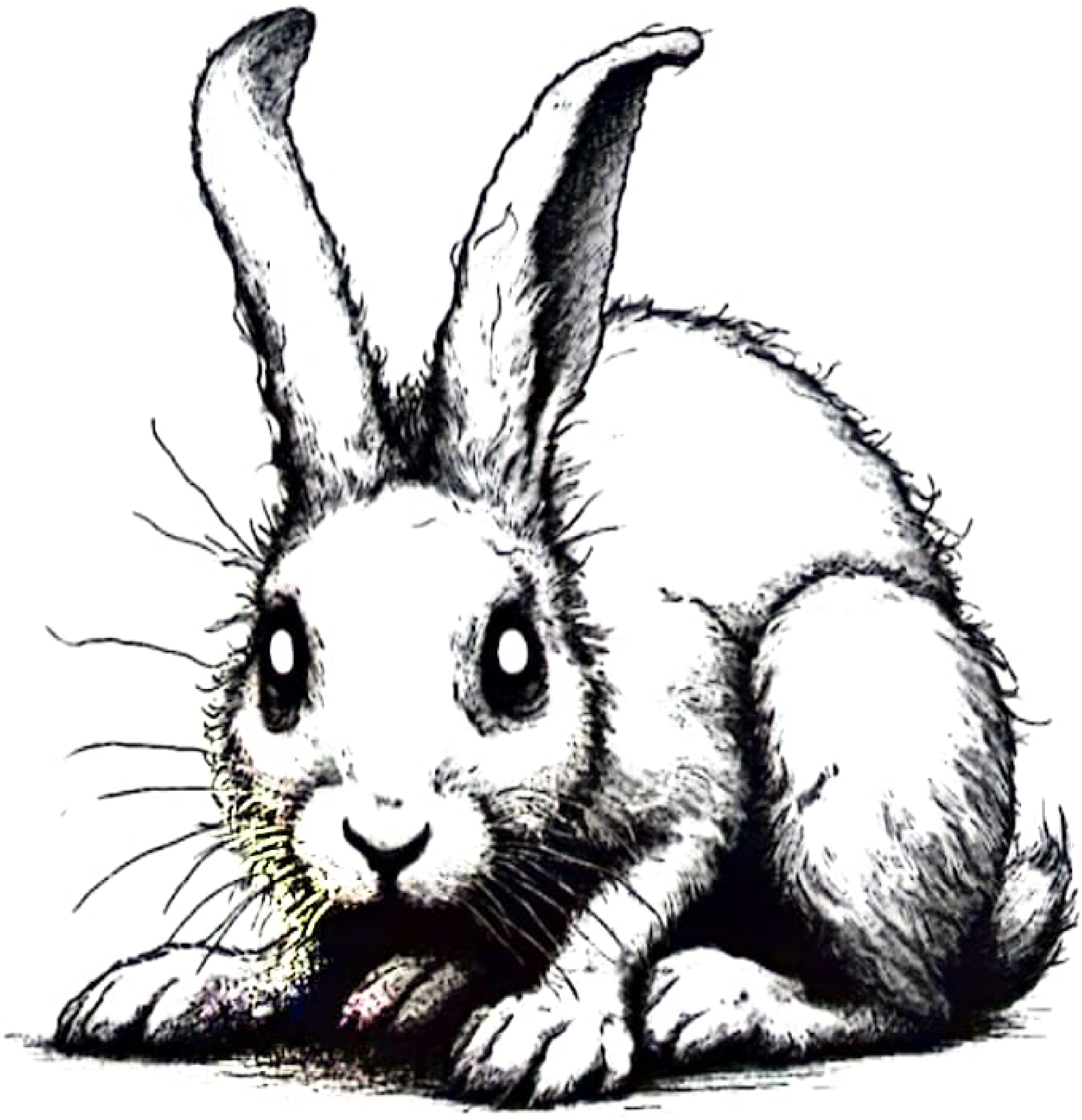

أنا لم أعد أنا.. يونس الطبيب مُكلف الآن ليصبح يونس البطل، وأنا لم أكن بطلًا في يوم من الأيام، بل كنت أحتقر الأبطال، أراهم مزيفون وضحايا جنون العظمة. مثل هذا الحاتم نور، يرى نفسه بطلًا لأنه أرشدني لبداية الطريق، بينما هو قابع في مسكنه يختبئ من العالم، مثل عادل أسود الذي ظن بتحريكه لقطع الماريونت أنه بطل أسطوري لا يُقهر، مثل نجيب المجنون والذي ظن في فتحه لعالم يتجسد فيه الكوابيس إلى كائنات حية بأنه يغير العالم.

حان الآن وقت مواجهة الحقيقة أخيرًا، كل ما حدث لم يكن وليد الصدفة، لم أكن مضطهدًا، بل كنت ملعونًا. زيتون، هو الحليف والعدو في آنٍ واحد، حنين كانت تنفذ الأوامر حتى يتم الإلقاء بي في عالم الكوابيس. عادل حبه للانتقام أعماه عن مهمته الأساسية نخسر كل شيء، وأبي كان يخدعني أو ربما يحميني، لا أعلم!

الأموات في قصتي يجب أن يموتوا مرتين كي يموتوا حقًا، الأموات في قصتي مثل القطط، بأرواح متعددة، القلب في قصتي خُلق كي يُحطم، القلب في قصتي خُلق كي يُخذل. الجميع في قصتي مزيفون ودوري الوحيد في تلك القصة هو أن أساعدهم بأن يشفوا من لعناتهم وينامون في قبورهم في سكون وسلام، بينما أدلف بقدمي إلى هذا العالم وحدي لأنني ضحيته، أو لأنني سيده.. عالم الكوابيس.

- مطلوب منك تدخل مع زيتون جوا بؤرة صانع الكوابيس، هناك أكيد هتلاقي الحل والإجابات، بمجرد دخولك البؤرة بنتك

هترجع لأمها، دور على اللعنة ودمرها يا يونس، والفريق اللي معاك كلهم من الأرانب البشرية اللي كنت بشرف على علاجهم بنفسي، كل واحد فيهم اتطوع عشان يكون معاك في المهمة دي.

- متطوعين؟!

- تعالى أما أعرفك عليهم..

في غرفة الاجتماعات، كان في انتظارنا أربعة أشخاص، أربعة بكل تأكيد لن تراهم في الحياة العادية إلا في مكانٍ كهذا، لا ينتمون لبعضهم البعض ولا يشبهون بعضهم تمامًا، باستثناء التوأمين، شعرت وكأني قائد يستعد لمعركة مصيرية، ربما أنا كذلك بالفعل!

- أعرفك بفريقك يا دكتور يونس، طيف، من أشطر الحالات اللي عالجتها في السنين اللي فاتت، كانت مصابة بـ(أموك)، الجنون القاتل.

بداية غير مبشرة بالخير أبدًا. في اللغة الإنجليزية، يعد "Running Amok" تعبيرًا شائعًا يصف طريقة التصرف المتوحش دون تحكم، المصطلح أموك، أصله من ماليزيا ويصف الحالة الذهنية للأموكوس، المحاربين القدامى الذين شنوا هجمات هوسية وغير مسيطر عليها، مما أسفر عن مقتل أي شخص اعترض طريقهم. وفقًا لأساطير الملايو، فإن هذه الأعمال كانت لا إرادية وناجمة عن روح دخلت جسد المحاربين وأجبرتهم على التصرف بعنف دون أن يدركوا ما يفعلونه.

- أول نوبة قتل جاتلها كان سنها في الوقت ده عشر سنين، بالمناسبة كانت بتتعرض للتنمر زيك بالظبط في طفولتها، وفي يوم مجموعة من البنات كانوا بيتنمروا على شكلها، لا إراديًا طلعت المقص اللي بتستخدمه في حصة الرسم وقتلت خمس بنات منهم من غير ما تحس إنها بتعمل كده، وبعدها بأربع سنين الموضوع اتكرر تاني معاها في سجن الأطفال، وخلال السنين الكتير بعد الحادثتين دول أنا كنت متولي علاجها وبصراحة أذهلتني..

شعرت طيف، والتي كانت شابة ثلاثينية متفجرة الجمال، ترتدي ملابس رياضية زادت من أنوثتها لسببٍ ما، ببعض القلق الذي ارتسم على وجهي، فقالت ضاحكة لتهدئ الأجواء وهي تمازحني:

- ماتخافش يا دكتور، أنا بقتل اللي بيضايقني بس وانت شكلك طيب.

فأجبتها مجاملًا:

- طيب طمنتيني الحمد لله.

بجوارها كان يجلس شاب في بداية العقد الثالث بشعر مموج وذقن قصيرة يرتدي نظارة طبية ويبدو عليه القلق الشديد.

- ده يا سيدي الباشمهندس يسري، عقل عبقري وقلب طيب، لكن مشكلته النفسية بتعطله في أوقات كتير!

- عندي إحساس إن أستاذ يسري مش مستعد للمهمة يا دكتور هارون!

اقترب هارون من يسري وهو يربت على كتفيه قائلًا:

- يسري مصاب بمتلازمة مونخهاوزن يا يونس، بيختلق أعراض ومشاكل صحية ونفسية كتيرة من ضمنها اضطرابات القلق، بس زي ما قولتلك عقل عبقري هيفيدك جدًا.

أكره ولعي بتاريخ المتلازمات النفسية. لقد اكتسبت تلك المتلازمة اسمها في القرن الثامن عشر من ضابط ألماني يدعى "بارون فون مونخهاوزن"، والذي كان شهيرًا باختلاق روايات وقصص وهمية وكاذبة عن بطولاته ومغامراته في الحرب. منذ ذلك الحين كان يطلق على كل من يقوم بتلفيق الأساطير أو بتلفيق مرضه بأنه مصاب بمتلازمة مونخهاوزن. كما أن المتلازمة يطلق عليها أيضًا "اضطراب إدمان المستشفيات"، لأن المصاب يكون دائم التردد على المستشفيات بداعي المرض. كيف سينفعني هذا اليسري؟

- واللي جنب بعض دول دولت وشوكت، توأم مصابين بمتلازمة نادرة اسمها الذهان المشترك أو Folie à deux، في البداية شوكت بدأت تجيله هلاوس مختلفة ومتكررة وبعد فترة دولت جالها نفس الهلاوس وحتى النوبات اللي كانت بتيجيله بقت بتجيلها هي كمان.

استشفيت من هيئتهم أنهم في العقد الرابع، توأم غريب الأطوار، يرتدي هو حلة تعود إلى السبعينات وترتدي هي فستان عتيق باهت اللون لم أستدل على لونه الأصلي، يبتسمان نفس الابتسامة العجيبة التي أربكتني تمامًا.

(الاضطراب الذهاني المُشترك) هو نوع نادر من أنواع الذهان، يختبر فيها الفرد أوهامًا مطاردة وهلاوس بصرية وسمعيةً مُختلفة، ويكون ذلك هو الفرد المُحدث، إذ أنه يبدأ بفرض تلك الأوهام على الطرف الآخر الذي يقاوم في البداية، ولكنه سرعان ما يستسلم. ورغم أن سبب هذا الاضطراب ليس معلومًا بالتحديد، ولكن العزلة الاجتماعية لفترات طويلة، والعلاقات طويلة المدى التي تنطوي على درجةٍ عاليةٍ من التعلق، والضغط العصبي الدائم، تُعد من أهم عوامل الخطر المؤدية لهذا الاضطراب، خاصةً إذا كان أحد أطراف العلاقة يعاني من مرضٍ عصابي.

- اتشرفت بيكم كلكم، مفيش حد عندك عنده مرض عادي يا دكتور هارون؟ أنا مبهور بالكوليكشن اللي هنا..

- الأربعة دول بكل تأكيد هيساعدوك، طيف قوية وصلبة، عندها ذكاء فطري، يسري نبيه جدًا وبياخد باله من كل التفاصيل، هتلاقيه دايمًا بيكتب.

نظرت إلى شوكت ودولت اللذين يبدو عليهما البؤس:

- طب وشوكت ودولت يا دكتور؟

- لا دول مش هينفعوك في حاجة، بس طيبين خدهم معاك..

اقتربت منه عدة سنتيمترات وسألته بصوت منخفض باحثًا عن إجابة أعلم جيدًا أني لن أعثر عليها:

- دكتور، حضرتك متأكد إن ده الفريق اللي عايزه يدخل معايا بؤرة الكوابيس؟ الناس دي محتاجة علاج مش رحلة في الأغلب

هتكون سبب في موتنا كلنا!

ابتسم هارون في ود وقال بجدية شديدة:

- الناس دي محتاجة فرصة يا يونس، فرصة ترجعهم للحياة من تاني وتنهي حياتهم البائسة دي للأبد، هو ده العدل. روح ارتاح دلوقتي وبكرة مهمتك هتبدأ.

أراه أنانيًا، ساديًا، منطقيًا في كلماته. ولكنني أمثل العجز بكل ما تحمله الكلمة من معاني، لا أملك سوى الرضوخ لأوامره حتى أنقذ ابنتي وإن كان الحظ حليفي أنتهي من تلك اللعنة إلى الأبد.

في غرفتي الصغيرة، جلست أفكر فيما سيحدث، مهمة غير مفهومة ومصير غير معلوم، ليقترب مني زيتون جالسًا بجواري قائلًا:

- جاهز لبكرة؟

- ما قولتليش ليه من زمان يا زيتون؟ ما فهمتنيش ليه انت إيه؟!

- تفتكر كانت هتفرق؟ أنا عمري ما قصرت معاك في حاجة من وانت عيل صغير وانت عارف ده! كان هيفرق معاك في إيه أنا عفريت ولا قرين ولا كابوس!

دائمًا ما أجد منطقًا ما في فلسفة زيتون غير المنطقية تمامًا.

- كنت هفهم يا زيتون! كنت هفهم أنا ليه في الدوامة دي من زمان!

- صدقني كونك عرفت أنا إيه ماكانش هيفرق أي حاجة في تسلسل أحداث حكايتك، في حكايتك يا يونس كل حاجة هتعرفها أو عرفتها مش هتبقى أكتر من مجرد جزء صغير أوي من الحقيقة كلها.

- هندخل ونخرج من البؤرة مع بعض؟

سكت لبرهة ثم قال بجدية لم أعهدها من زيتون:

- دخولك لعالم الكوابيس مش شبه أي حاجة مرينا بيها قبل كده، وعشان كده أنا عايز عينيك مفتوحة، مفتوحة أكتر من أي وقت تاني، مش كل اللي هتشوفه حقيقي ومش كل حقيقي هو الحقيقة..

الفصل الثاني عشر

باب لعالمٍ آخر

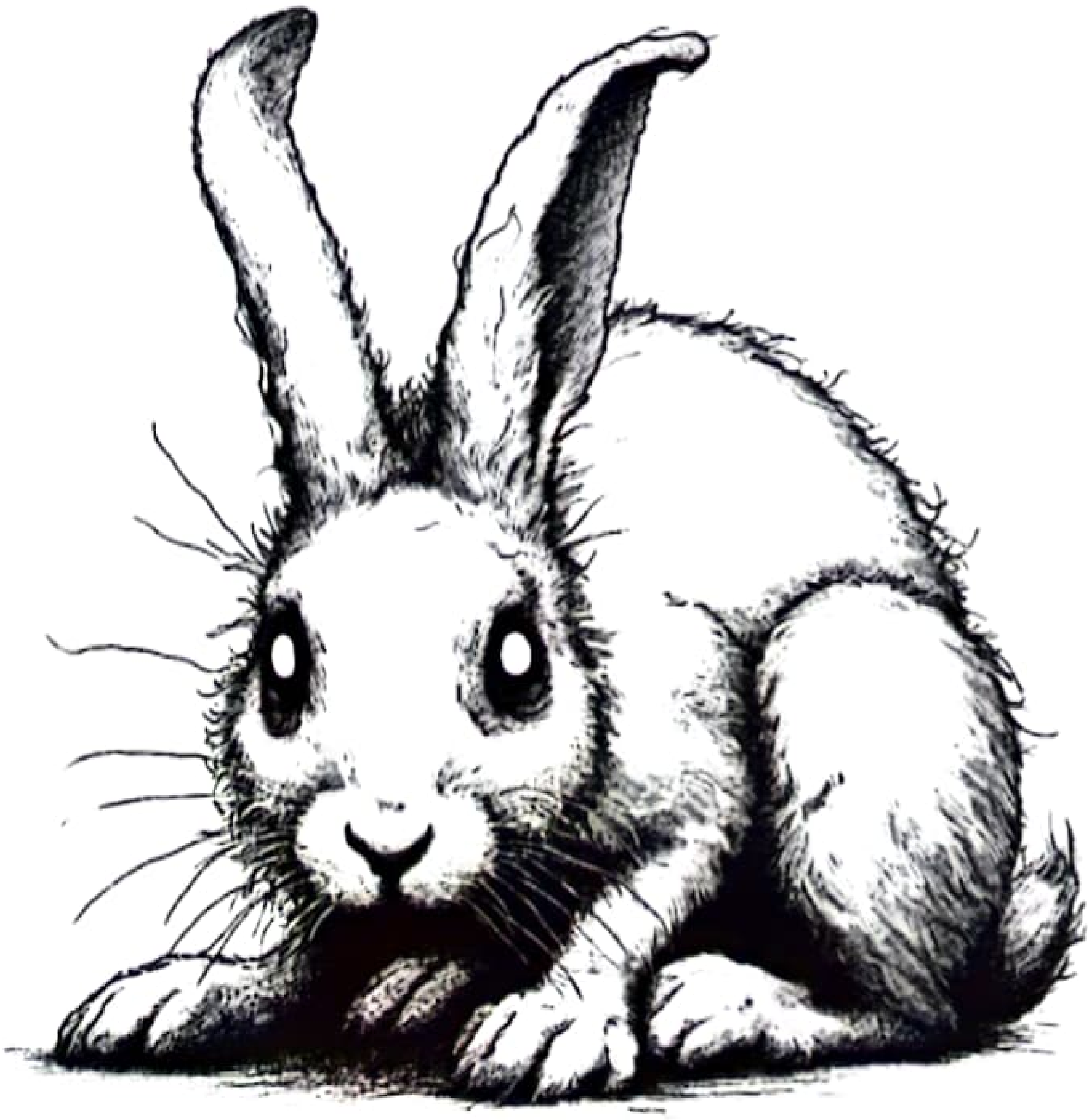

في الصباح التالي، كنا نقف في غرفة عملاقة يخيم عليها الظلام إلا من ضوء أخضر متوهج منبعث من باب حديدي ضخم في نهاية الغرفة، الخوف ينخر في عظامي كغراب يدق بمنقاره الجائع في حيوانٍ ميت، وقف دكتور هارون بحلته وعصاه بجانب الباب يلقي علينا تعليماته الأخيرة قبل دخولنا إلى نهايتنا ومصيرنا المحتوم.

- انتم كفريق بتقوموا بعمل عظيم، يمكن باللي هتعملوه ده تكونوا بتنقذوا ناس كتير بس الأهم إنكم أكيد بتنقذوا نفسكم، الأرانب البشرية اللي ضحوا بنفسهم لصالح البحث العلمي هيكونوا سعداء إن تضحيتهم ما راحتش هدر. يونس، بمجرد دخولك البؤرة منال بنتك هتكون في البيت مع أمها وأخوها، وكل الإجابات اللي بتدور عليها هتلاقيها ورا الباب ده.

- إحنا هندور على إيه بالظبط جوا يا دكتور؟

- أبقى كداب لو قولتلك إني عارف، كل اللي أعرفه إنك الوحيد اللي عندك الحل، يا تلاقي المفتاح اللي هيقفل باب العالم ده يا هتلاقي الطريق اللي هيخلينا نتحكم فيه.

كان التوتر يخيم على الجميع، طيف أكثرهم تماسكًا إلا أنني رأيت دمعة تفلت من عينيها الساحرة، يسري يضع يديه في جيوبه ليداري رعشة جسده الجلية تمامًا أما دولت وشوكت بدا الخوف ظاهرًا على عيونهما وأجسادهما رغم سكونهما المبالغ فيه وتلك الابتسامة العجيبة التي لا تفارق وجههما.

إذا بحثت عن معنى جُحر الأرنب ستجد أن معناه لا يتوقف فقط عن كونه منزل الأرانب، بل إنه معنى يُستخدم لوصف

البيئة الغريبة المربكة التي يقع الإنسان فيها ويكون من الصعب تخليص نفسه منها.

لا يعلم الإنسان أنه سقط في أحضان النوم إلا حينما يستيقظ، وأنا لم أشعر بأي شيء وأنا أعبر تلك البؤرة، فقط زغللة بسيطة في عيني من أثر قوة توهج الضوء الأخضر القادم من الداخل وكأني أصبت بعمى مؤقت ليبدأ البصر بالعودة رويدًا رويدًا وبعض التنميل في أطرافي، آخر ما سمعته كان صوت هارون العجوز وهو يقول شيئًا ما بخصوص البحث عن الجذر حتى تلاشى صوته تمامًا.

هل للكوابيس جذور؟ وإن كانت الإجابة بنعم، فكيف سيكون شكلها؟ هل هي كجذور الشجر؟ أم إنها كيان آخر؟

نظرت خلفي لأرى مجموعتي البائسة ولا أثر للباب الذي عبرنا منه للتو، ضحكت في سخرية لشعوري بأنني أقترب من نهايتي، هذا المجنون الذي يدعى هارون ألقاني في بحر الكوابيس وأنا لم أمانع أو أعترض، بل سحبت في يدي أربعة من المساكين الذين لا ذنب لهم سوى أنهم أرانب بشرية، تبًا لهذا المصطلح!

أشعر باختناق.. عيني تؤلمني بشدة..

فور عبورنا من البوابة اختفت تمامًا من خلفنا، صمت مخيف يخيم على المكان، المكان مظلم باستثناء ضوء السماء وبعض المصابيح المتناثرة في الطريق يشع منها ضوء أحمر اللون ككرة من النار، المباني شاهقة تمتد إلى السماء الحمراء تتحدى قوانين الفيزياء بزوايا عجيبة غير مفهومة ولا منطقية للعقل البشري، تشبه المباني في عالمنا

ولا تشبهها، إلا أنني كلما أشحت بنظري عن أحد المباني ألمحها تغير هيكلها وشكلها لشكل آخر، وكأنها تجبرك أن تشك في نفسك وماهية كل ما حولك، الأرض ذات ملمس زيتي تتحرك تحت أقدامي كالرمال المتحركة، الغيوم الخضراء تبدو وكأنها تتنفس في غضب، عالم الكوابيس تتحرك به الكائنات العجيبة أمامي كما تتحرك القطط والكلاب في شوارع عالمنا، بعض الوحوش تشبه البشر إلى حد كبير إلا أنهم يمشون على أربع، عيون حمراء وأسنان حادة كأسنان القروش، البعض الآخر يبدو أنهم أكثر وحشية إلا أنهم يتحركون في هدوء بلا اكتراث لي ولفريقي كأنهم لا يروننا، مخالب حادة قادرة على الفتك بي في ثوانٍ إلا أنها تبدو لا ترى ولا تسمع.

الجو العام يميل إلى الموت.. الهواء صامت لا حركة فيه ولا حياة. كأننا في تابوت عملاق لا سبيل للخروج منه. السماء تشبه مصباح نيون عملاق تتغير ألوانه بين اللحظة والأخرى، تتحول ما بين الأخضر والأحمر والأرجواني، كأنها إشارة للمرور تتغير حسبما يشعر هذا المكان، نباتات وأشجار سوداء عملاقة في كل مكان، خلفها تختبئ كائنات صغيرة الحجم لا يظهر منها سوى أعين صغيرة لامعة، كلما نظرت إليها كلما هاجمتك ذكرى مخيفة من الماضي، الجو العام يميل إلى الجنون، أعلم أنني في عالم موازٍ، أعلم تمامًا أنني محبوس في هذا المكان القميء، إلا أنني لا أستطيع تجاهل إحساسي بأنني أفقد شعوري بهويتي وربما هدفي، كأنني منوم مغناطيسياً ولا يمكنني الحراك كالملعون بالجاثوم. لا يوجد حولنا سوى أشجار وأعشاب سوداء متوهجة تلمع كقطع من

الأحجار الكريمة، وسرداب علوي طويل لا أرى نهايته، نظرت لهم مرة أخرى لا أعلم تمامًا ما يجب عليَّ أن أقوله، إلا أنني قبل أن أنطق بأي شيء من الهراء الذي أحمله بداخلي لمحت كائنًا ينظر إلينا من وراء إحدى الأشجار، كائن يشبه الضباب في تكوينه وهيئته، بلا وجه، فقط أذرع طويلة تشبه الظل، حاولت الاقتراب منه إلا أنه لاذ بالفرار.

- أنا عارف إننا ما نعرفش بعض، بس إحنا محتاجين نحمي بعض عشان نخرج كلنا من هنا.

اقترب يسري متوترًا وقال في تلعثم:

- كل واحد فينا هنا عشان يلاقي علاج لمشكلته، ده اللي اتعلمناه في الحجر كل السنين اللي فاتت، إن المرض النفسي لازم يتعالج من جذوره، ودكتور هارون قال إن دخولنا هنا هو العلاج الأمثل بما إننا بقالنا سنين بنحاول نلاقي حلول ومش بنلاقي..

- أنا حقيقي مش عارف الجذر ده ممكن يكون إيه، بس أوعدكم هحاول المهم إننا نفضل جنب بعض لحد ما نخرج من هنا.

ضحكت طيف في سخرية وهي تضع أحمر الشفاه في لا مبالاة وقالت:

- مكسوف تقول إنك عايزنا نفضل جنبك؟ يا دكتور الخوف مش عيب، حتى اسأل العيل اللي واقف هناك ده..

نظرت إلى مصدر إشارة إصبعها، كان يقف طفلًا صغيرًا

يمسك بكرة قدم، وجهه ملطخ بالدماء، طفل يشبهني تمامًا، إنه أنا! يونس ذو العشر سنوات.

- بتعمل ايه هنا يا يونس؟

قالها يونس الطفل وهو ينظر إليَّ في شفقة.

- أنا هنا عشانا.. عشان نفهم حقيقة كل اللي عشناه.. وشك ماله؟

- خناقة بسيطة في المدرسة. تفتكر هنقدر في يوم ناخد حقنا من اللي أذانا؟

أعلم أنني في عالم الكوابيس، وأن ما أراه قد يكون من نسج خيالي، وأن على الأغلب لا يوجد شيء منطقي في هذا المكان، ما أراه قد يكون انعكاسًا لعقلي الباطن، إلا أن ما أراه يجب أن أومن به تمامًا وأتعايش معه. أتحدث إلى نفسي إلا أنه أجابني وكأنه يسمعني:

- بذمتك ينفع دكتور زيك يصدق في الكلام الفارغ ده؟ بؤرة وعالم كوابيس!

- انت لسه صغير.. صدقني لما تكبر هتكتشف إن فيه حاجات كتير أوي ينفع تصدقها.

- زي إيه؟

- زي الضلمة يا يونس.. وأنا صغير ماكنتش بخاف من الضلمة، ماكنتش بخاف أنام لوحدي، بس لما كبرت عرفت إن الضلمة

عاملة زي الباب المفتوح، ماتعرفش هيجيلك منها إيه!

قاطعني صوتٌ أعلمه جيدًا، نظرت خلفي لأرى يونس آخر، أصغر قليلًا مني في السن، في بداية عقده الثالث على الأغلب، يرتدي حلة زرقاء جميلة وذقنه أخف من ذقني بلا شعر أبيض متناثر في رأسه، قال وهو يقترب منا:

- هو ده اللي بتعلمه للعيل الصغير؟ مش عيب عليك يا دكتور؟

- مش عايزه لما يكبر يبقى زيي.. مش لازم كل نسخة مننا تعيش مخدوعة.

- مفيش مننا غير نسخة واحدة بس يا ليل!

ثم قبل أن أنطق بحرف واحد تبخرا هما الاثنان في سماء حمراء لا نهاية لها. نظرت خلفي مرة أخرى فلم أجد أحدًا من الأربعة، أشعر بخوف ممتزج بإرهاق مرير، أشعر بأنني في بطن حوت يسبح في الفضاء بلا اكتراث، لن يعتصرني ولن ينثني.

أسمع أصوات ضحكات متداخلة قادم من بعيد، مشيت عدة دقائق حتى رأيت مدينة ملاهٍ صغيرة بها الكثير من الأطفال، ابتسمت واقتربت منها حتى رأيت امرأة رائعة الجمال تجلس بجانب إحدى الألعاب ترتدي فستانًا أبيض وتأكل الآيس كريم، اقتربت منها والدموع تنهمر من عيني وأنا أقول:

- ماما!!

أدارت رأسها لأرى أمي أمامي، كم أشتاق إليها! كم أشتاق لصوتها ودفئها، كم أشتاق أن أنطق اسمها!

- يونس، تعالى يا حبيبي كنت بدور عليك، كل ده بتلعب؟

- ماما، وحشتيني أوي يا حبيبتي.

- تروح انت تلعب وتنساني بالساعات وبعدين تيجي تقولي وحشاني يا ماما! بكاش زي أبوك انت!

كم اشتقت إليكِ يا أمي، كم أشتاق إلى وجودكِ في يومي وتفاصيل حياتي، وجودكِ كان ليجعل كل شيء أفضل بكثير.

- صدقيني يا ماما ماكنتش بلعب، يمكن كنت بجري بس جري عمري ما حبيته ولا اخترته، ماما أنا تعبت، تعبت أوي ومطلوب مني إني أفضل واقف على رجلي وإني آخد بالي على كل اللي بحبهم.

- فاكر أول مرة خدتك جنينة الحيوانات حصل إيه؟ يوميها الحارس جابلك أرنب عشان تشيله وتتصور بيه والأرنب عضك في إيدك، بعدها بقيت بتترعب من الأرانب، فاكر؟

- انتِ عارفة إن العضة دي لسه سايبة علامة في إيدي صغيرة لحد النهاردا؟

- وسابت علامة أكبر جواك، يمكن عشان كده الأرانب فضلت جزء من كوابيسك؟ فيه شيء غريب بينك وبين الكائن ده!

- ليه دايمًا مش بلاقي في كلامكم إجابات، ليه دايمًا بتمشوا قبل الأوان؟ ليه مطلوب مني أبقى بطل؟ أنا مش عايز كل ده!

- الأحلام اللي بنفتكرها لما بنصحى مش بتبقى أحلام، بتبقى رسايل يا يونس.

وكما حدث من قبل، تبخرت هي ومدينة الملاهي بأكملها لأجد نفسي في صحراء باردة رمالها سوداء كالموت، يطوف في سمائها كائنات ضخمة أشبه بقناديل البحر، تتحرك بانسيابية وهدوء في السماء، تلمع مع بريق السماء الحمراء في تناغم.

مشيت طويلًا، ساعات تمر والغريب أنني لا أشعر بإرهاق أو عطش، فقط إحساس لا يتغير بالقلق والخوف وكأني أتنفسه في الهواء، بعد بعض الوقت بدأ يظهر في بعد الأفق جبل أسود اللون تطير حوله كائنات أشبه بالوطاويط، أسفل الجبل كان يجلس النونو في مركب سوداء صغيرة امتلأت عن آخرها بهيا كل عظمية مختلفة الأحجام بداخل بركة من المياه السوداء اللزجة، كان يبدو هادئًا على غير عادته، اقتربت من قاربه وسألته عن مكاننا.

- شريف باشا! دي الكوابيس نورت يا باشا!

- خلاص بقى يا نونو قولي يا يونس، انت بتعمل إيه في كوابيسي؟

- مش كل اللي هتشوفه هنا كوابيسك الأصلية وبس، فيه كوابيس اتزرعت لك لغرض معين..

- ليه ماحدش بيقول جملة مفيدة؟ كأنكم كلكم متجمعين عشان تجننوني أكتر!

- بالعكس، ده أنا جاي أقولك على المفيد، الشرير في الحكاية

أوقات بيكون هو الطيب والعكس، انت اللي طول عمرك بتصدق أوي في الناس وبتدي الأمان بسهولة رغم كل اللي حصلك.

- مين الطيب اللي طلع شرير أو العكس؟

- انت صدقت هارون من شوية صور وحكاوي يا دكتور، هارون رماك هنا عشان يحمي ابنه اللي مفروض يكون هنا مكانك دلوقتي، أو على الأقل يكون معاك.

- ابنه؟ هارون قال إنه لا اتجوز ولا خلف!

- ازاي بس يا باشا! دكتور هارون اتجوز وابنه اسم الله عليه نجم كبير، ابنه يبقى حبيبك، حاتم نور يا باشا!

فندق القلب - ١٩٩٨

جلس عماد العلايلي في مكتبه بالفندق يراجع بعض الأوراق الهامة في تركيز شديد، إلا أنه انساق عن تركيزه على صوت طرق مزعج لباب مكتبه.

- ادخل!

كان الطارق هو هارون، أرشده عم وفيق عامل الفندق إلى الداخل وانصرف، خلع معطفه المبتل بماء المطر غاضبًا وهو يقول بصوت عالٍ وجسد يرتجف:

- كان لازم تقابلني هنا! أنا مش بكره في حياتي حاجة قد المطر، جايبني إسكندرية في يناير! أنا كنت هموت بسببك!

ضحك عماد وقال:

- طب وطي صوتك بدل ما يتعرف إن دكتور هارون عنده أوبروفوبيا!

- هتعملي فيها مثقف يا بتاع الفنادق! ده انت أخوك شغال بلياتشو! أنا غلطان إني قولتلك في يوم على الفوبيا اللي عندي.

- لو هتقل أدبك هطلعك برا يا هارون!

شعر هارون أنه تمادى في كلامه، فاقترب منه وهو يمازحه ليلطف الجو قليلًا وقال:

- يا جدع بهزر معاك ما تبقاش حساس كده، احكي لي ليه طلبت نتقابل بعيد عن الجُحر؟

- عشان اللي هقوله دلوقتي ما ينفعش يخرج بينا يا هارون، سر التلاتة سر الجميع، وانت عارف أنا بحبك قد إيه، عشان كده أنا جاي أقولك على الخطة اللي هننقذ بيها نفسنا وننقذ بيها ولادنا كمان!

- أنا مش فاهم حاجة من ألغازك يا علايلي، فهمني!

اقترب منه عماد وقال بصوت خفيض:

- الباب اللي فتحه نجيب بين عالمنا وعالم الكوابيس مش هيجيب غير الدمار، ونجيب قالها بنفسه، البوابة دي اللي هيقدر يتحكم فيها هو وريث الجحر، يعني حد من ولادنا الأربعة، سِحر، حاتم، عادل أو يونس، لازم سِحر تختفي تمامًا أو نقول إنها ماتت، وانت كده كده ماحدش يعرف إنك متجوز ومخلف غيري، يعني انت في أمان، المهم إن حاتم يبقى له اسم شهرة بعيد عن اسمك، ونسيب بقى الحرب تبقى بين يونس ابن ليل وعادل ابن نجيب.

- انت دماغك دي إيه يا راجل! بس افرض اتكشفنا؟ نجيب وأحمد مش هيسموا علينا..

- طول ما إحنا ما بنتكلمش، السر عمره ما هيطلع بينا.

رحل هارون من الفندق ليقوم بعدها عماد من مكتبه مستندًا على جدران فندقه في وهنٍ حتى وصل إلى غرفة سرية مُغلقة بعناية في الدور الأعلى للفندق، فتح الباب وأقفاله بالمفاتيح التي يحمل نسختها في سلسلة يرتديها حول رقبته، ليدخل إلى زنزانة ابنته سِحر المكبَلة كالمساجين، يحمل وجهها ملامح الفزع والضعف، اقترب منها في أسى وقال بصوت مهزوم:

- أنا عارف إنك بتكرهيني، وعارف إني في نظرك وحش يا سِحر، بس صدقيني يا بنتي أنا بحميكِ من لعنة إحنا مش قدها، وسجنك هنا أهون بكتير من اللي ممكن تشوفيه برا الغرفة دي!

كنت أشاهد المشهد كَمَن يشاهد فيلمًا سينمائيًا، ضحكت بصوتٍ عالٍ وشرعت في التصفيق كَمَن يحيي بطل الفيلم على أدائه العبقري. أوهم عماد بأنه قتل سِحر كي يحميها من لعنة الجحر حتى انقلب السحر على الساحر. أخفى هارون ابنه وأقنع الجميع أنه أعزب لا وريث له، قُتل عادل تلك الليلة في مصحة الموت الأسود ونال ما يستحقه، لأبقى أنا في النهاية كبش الجحر، طُعم للأرانب وأحمق كبير.

- ده أنا طلعت مُغفل يا نونو، ازاي ما اخدتش بالي لما حاتم كلمني على قناع الأرنب وقالي إن ده القناع اللي بشوفه في كوابيسي من زمان! ازاي ما اخدتش بالي! هارون رماني هنا عشان ينقذ ابنه!

- ما عاش اللي يقول عليك كده يا باشا! انت بس اللي بتصدق كلام الناس بسهولة، دي مشكلتك من زمان، من أيام الفيوم يا باشا..

- والعمل إيه بقى يا عبقري زمانك؟

- سعادتك ما عندكش حل غير إنك تطلع من هنا، أصل لو بعد كل ده دي نهايتك تبقى عيبة في حقك يا كينجيشن! المهم تركز في التفاصيل.

عزيزي ثيو،

كاذب مَن قال أن الوحوش هم تلك الكائنات التي تظهر في الليل، مكشرين عن أنيابهم يلتهمون ما يرون من مستضعفين، الوحوش تعيش بيننا، يرتدون كما نرتدي ويأكلون مما نأكل، إلا أننا لم نتمكن من التعرف على حقيقتهم بعد.

فينسنت

الفصل الثالث عشر

العمر الافتراضي للحنين

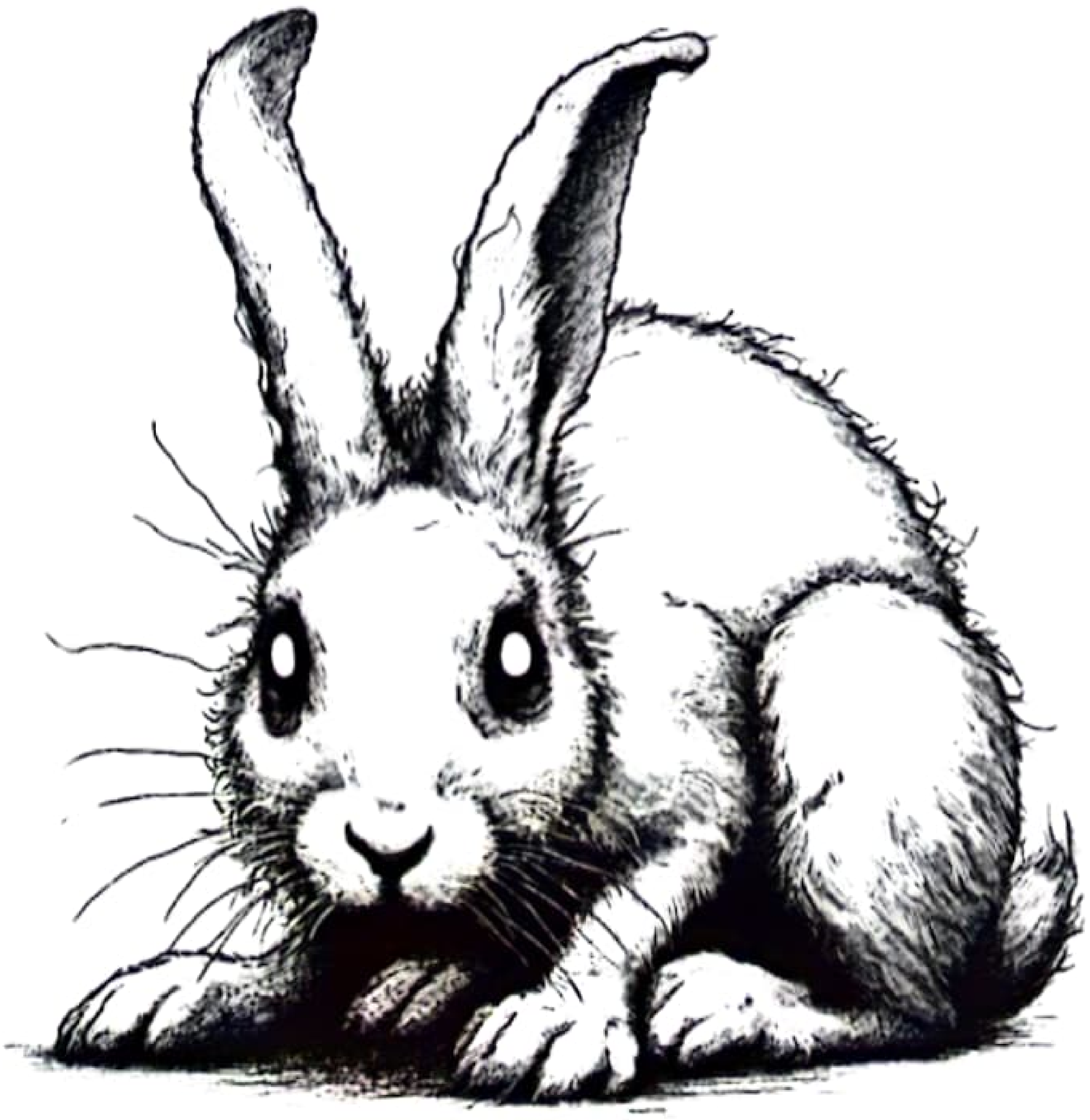

"أنا حبيت صوت أنغام عشان حبك ليها، وكرهتها عن اقتناع لكرهي ليكِ يا حنين".

لم يكذب فان جوخ عندما قال أن البؤس لن ينتهي أبدًا، صادق كان في كل شيء إلا أن العالم لم يفهم أو يستوعب ذلك. ولكن ليس البؤس وحده هو ما لا ينتهي، الكذب يعيش أيضا والخداع. اللعبة التي لُعبت عليَّ تمتد لسنوات طويلة، حاتم نور هو ابن الأستاذ هارون حسين الرفاعي، حاتم نور ليس سوى اسمه الفني، حاتم حسين الرفاعي، الممثل العظيم الذي استطاع أن يقوم بأبرع أدواره على الإطلاق، وكنت أنا ضحية هذا الأداء العظيم، للمرة الثانية. خدعني في الماضي عندما أوهمني بأنه على علاقة بزوجتي حنين وأقنعني بأنني قتلته، وها هو يخدعني مرة أخرى بقصة امه المخطوفة ويلقيني لمصير مرعب، خدعني هو وأبوه اللعين الذي أتمنى أن أسحقه الآن بين يدي.

الآن فقط تمكنت من فهم أشياء كثيرة، الآن فقط اتضحت الصورة بشكل كبير، ليست صورة مكتملة، وإنما صورة اقتربت بشكل كبير من الكمال. تجز النونو هو ومركبه لأجد نفسي مرة أخرى في شارع ضخم يخيم عليه الظلام باستثناء عدة مصابيح يشع منها إضاءة حمراء خافتة عكست لون الدماء على كل أركان الطريق لتضفي مشهدًا مقبضًا للقلب، أنظر إلى نوافذ تلك المنازل على ضفتي الطريق فأراها أشبه بوجوه مخيفة لا ملامح لها.

- إيه؟ حاسس إنك ساذج؟

نظرت إلى مصدر الصوت فرأيت حنين ترتدي فستانًا أخضر

قصير تجلس فوق مقعد ضخم من جلد الثعابين بالقرب من أحد مصابيح الإضاءة والذي كان يعكس الضوء الأحمر المخيف على ملامحها، وكأني أرى شيطانًا بشريًا، تدخن سيجارتها في هدوء، إلا أنها لا تشبه حنين التي أعرفها تمامًا، كان لونها شاحب غريب، وعينها كانت تميل إلى الأحمر الناري.

- حنين..

- ازيك يا يونس؟ هتفضل حياتك كلها عايش نتفرج على فيلم كل أبطاله بيمثلوا عليك؟

حنين، تلك الفتاة التي أحببتها كَمَن لم أحب من قبل، الفتاة التي كنت أطعمها أمانًا وحبًا في كل يوم، وفي المقابل كانت تطعمني هي محفزات الهلاوس وأطنانًا من الأكاذيب، حنين التي تم الزج بها في حياتي حتى أحبها فتخدعني لتصبح نهايتي داخل جدران مصحة الموت الأسود، لم أتخيل أني في يوم من الأيام سأقدم على إيذائها، لم أتخيل أنني في يوم من الأيام سأقف أمامها كما يقف الإنسان أمام عدوه، لم أقدم لها سوى الحب ولم تقدم هي سوى سلسلة من كوابيس الصحو في كل لحظة من لحظات حياتي معها.

- فرحانة فيا أكيد..

- بصراحة بقى لي كتير ما فرحتش كده.. برضو شكلك وانت محبوس هنا له لذة!

- ليه يا حنين؟ ليه بتكرهيني أوي كده؟

قامت من مقعدها تستشيط غضبًا كأفعى المامبا السوداء، تنفث سمها المميت في سئم وبغض.

- وانت ليه بتصدق أوي كده في البشر؟ ليه دايمًا بتفترض إن اللي بيتحكى لك هو الحقيقة المطلقة؟ وبعدين ازاي عايزني أحبك! انت قتلتني يا يونس!

كان يجب أن تموت، بعض البشر لا معنى لوجودهم في تلك الحياة سوى الخراب والشر، أكاد أجزم أن حنين لم تعرف معنى الحب طوال حياتها، البشر الأسوياء تمتلك قلوبهم ولو قدر بسيط من المشاعر الصالحة، أما حنين فكل مشاعرها أصابها العفن، عفن بلا لون ولا رائحة حتى تظل تستقبل ضحاياها في نفها اللعين مثل عنكبوت الأرملة السوداء.

- بس طه.. طه قال لي إنك عايشة! هو شاف صورتك!

- طه فعلًا شاف حنين، بس مين قالك إن حنين اللي شافها هي حنين بتاعتك! فراشتك!

- يعني إيه؟!

وفي ثوانٍ، تحولت حنين لكائن ضخم مخيف يشبه زيتون كثيرًا، يسيل من فمه الدم واللعاب، تمتد أظافره الحادة إلى الأرض لتصدر صوت صرير مزعج بسبب احتكاكها، وقال بصوت مرعب:

- في عالم الكوابيس، هتقابل كائنات غريبة كتير يا يونس، أسوأهم كائن النيدلان، اللي أنا منهم!

- النيدلان!!

- إحنا الكائنات الوحيدة في عالم الكوابيس اللي تقدر تتحول لأي شكل أو أي شخص، أنا حتى ممكن أبقى انت! النيدلان دوره إنه يلعب في خلايا عقلك، يخليك تقابل ماضيك ومخاوفك وجهًا لوجه.

وفي الحال، تحول الكائن لنسخة طبق الأصل مني، يرتدي ملابسي وينظر إليَّ بنفس النظرة الخائفة التائهة، يشبهني في كل شيء إلا أن عينه كانت حمراء اللون وجلده يميل إلى الشحوب، ثم تحول مرة أخرى إلى هيئة حنين وبدأ يتحدث بصوتها مرة أخرى.

- أنا عارفة إنك ما اخترتش كل ده، بس أنا كمان ما اخترتش أقع في طريقك! كل حاجة كان مترتب لها من زمان، وأنا زيي زي عصفورة، كنت مجرد ممثلة بتقوم بدورها.

قامت بوضع يدها على رأسي، فعادت تلك الذكرى إلى رأسي في الحال.

- كفاية لعب مع الحيوانات بقى يا حبيبي، هدومك بقى كلها طينة!

- مش انتِ اللي قولتِ لي عايزة تعيشي في مزرعة؟ اتعودي بقى على الطينة والقرف ده كل يوم..

ضحكت ياسمين من هيئتي المتسخة وقالت بسخرية:

- أنا اللي جيبت ده كله لنفسي أنا عارفة..

- يلا تعالي ساعديني.. كفاية دلع يا ياسمين..

ناديت عليها مرة أخرى، لكنها لم تجِب، ظللت أنادي اسمها مرارًا وتكرارًا، ولكنها لم تستجِب، تبع صمتها المقلق صوت صرخة أفزعتني جعلتني أركض صوبها في ذعر لأرى مجموعة من المقنعين يرتدون أقنعة لأرانب مخيفة الشكل يقومون بربطها، تمامًا كالمقنعين الذين قاموا بخطف ابنتي منال، وقبل أن أقترب منها عاجلني أحدهم بضربة فوق رأسي أسقطتني مغشيًا عليَّ في الحال.

- ده اليوم اللي اتحكى لك فيه إنك قتلت ياسمين، فاكر؟ أنا كنت ضمن المقنعين دول، كانت دي مهمتي الأولى، اليوم اللي انت عِشت بذنبه سنين، زي اليوم اللي برضو الجحر خلاك تفتكر إنك قتلت أبوك، بس انت قوي يا يونس! وقدرت تعدي بحاجات صعبة كتير ماحدش فينا لقى لها تفسير لحد دلوقتي..

كان كلامها صادمًا، إلا أنني ورغم كل شيء ابتسمت، شعرت بارتياح غريب أنني ورغم كل ما تحكيه علمت أني لم أظلم أحدًا، هي نالت ما تستحقه بجدارة، كل ما حدث لحنين هو الجزاء الأمثل لقلبٍ لم يعرف الرحمة في يوم من الأيام، اقتربت منها وقلت بابتسامة واهنة:

- عارفة يا حنين، أنا بشفق عليكِ، رغم كل اللي فضلتِ سنين تعمليه فيا بس والله بشفق عليكِ، أنا يمكن ما حستش إني عايش غير مع ياسمين، ما حستش إني عايش غير لما حبيت واتحبيت، وانتِ عشتِ وموتِ من غير ما تجربي طعم الحب ده..

ملامحها المنتصرة بدأت تتغير، التوتر يتملكها والضعف يظهر جليًا في حروفها:

- بس.. بس انت حبيتني يا يونس! مش أنا الحب اللي ابتدا بفنجان قهوة؟ مش أنا الحب اللي عشانه حبست الفراشة في برطمان؟ الحب اللي خلاك تحب صوت أنغام؟

نعم، لقد أحببت حنين ولا يمكنني أن أنكر هذا، أحببتها ووضعت فيها أحلامي وأمنياتي، حتى عندما جعلتني أشك في ماهية كل شيء، حتى عندما جعلتني أكاد أفقد عقلي، أحببتها حبًا لم تستحقه.

- فاكرة زمان لما قولت لك إن الحب عامل زي جبل كبير من التلج، ساعتها قولتِ لي إن التلج مسيره يسيح، دلوقتي وبكل ثقة قادر أقولك إن التلج ساح تمامًا من قلبي يا حنين..

صرخة مدوية مخيفة خرجت من حنين ليتحول الكائن إلى وحش شديد الضخامة، ثم وفي لحظة تبخر ليتحول لتراب أسود، كائنات هذا العالم لا يموتون بالأسلحة، بل بألعاب العقل.. ربما!

أشعر الآن بشعور غريب، هو مزيج من السعادة والراحة، أشعر بالامتنان لهذا المخلوق البغيض الذي أعطاني فرصة لقاء تمنيته طويلًا معها، مواجهة كان لا بد منها حتى تموت بداخلي تمامًا كما ماتت تلك الليلة في مصحة الموت الأسود. في تلك اللحظة علمت تمامًا أن حنين، كسائر الأشياء في حياتنا، لها عمر افتراضي في القلب وقد حان الوقت لإلقائها في سلة النسيان بلا رجعة، حنين لم تكن سوى بالونة امتلأت بالهيليوم مبهجة للعين والقلب حتى

فرغ منها الانبهار تمامًا، فعادت جمادًا مملًا لا نفع منه ولا ضرر.

الآن أغلق صفحتك يا حنين، بلا ندم ولا ذكريات قادرة على أن تلاحقني إلى أي مكان.

الفصل الرابع عشر

عازف البيانو

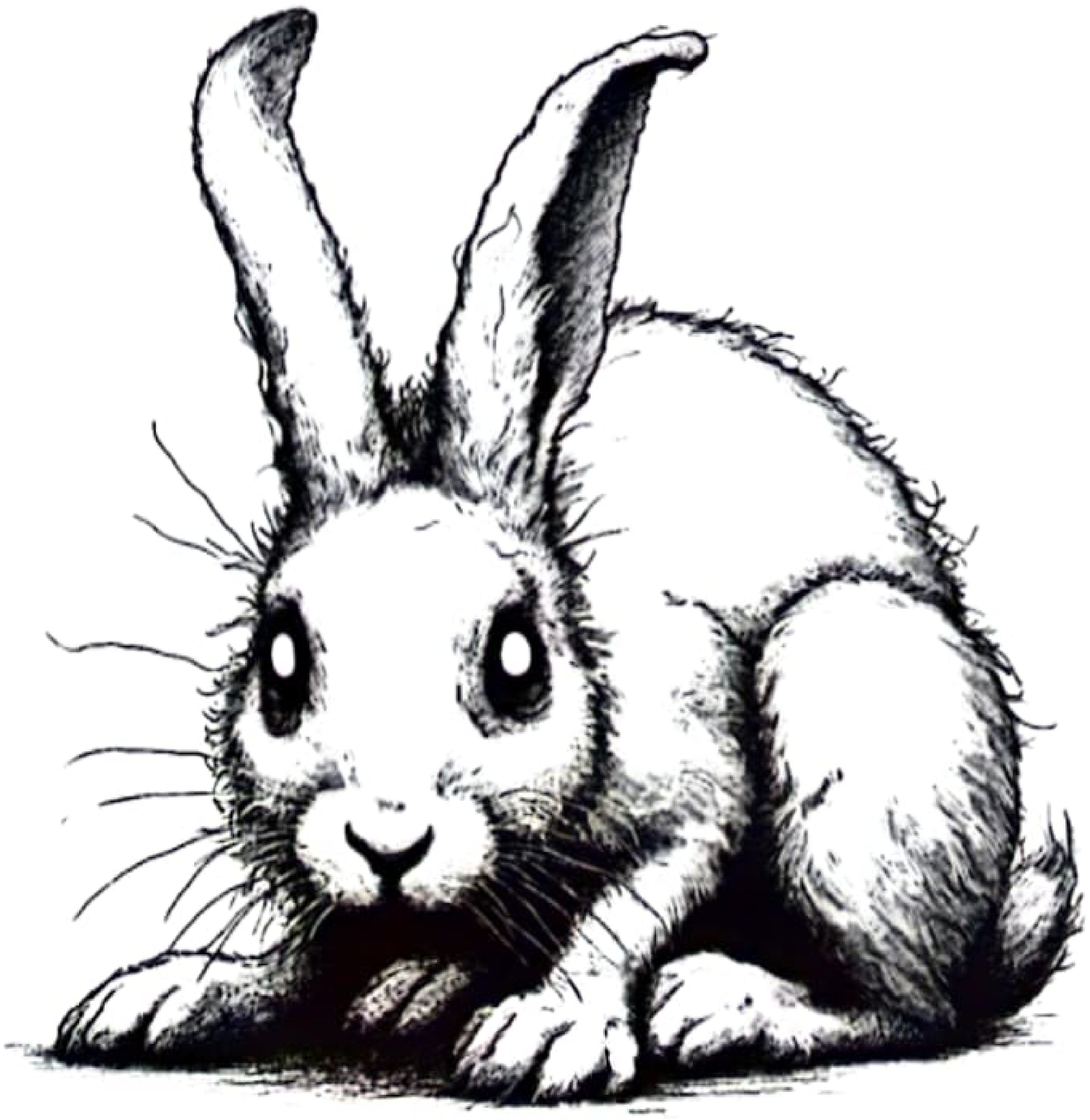

ساعات مضت بعدما ودعت حنين الوداع الأخير، لا أثر لأي شيء ولا أثر لفريقي التعيس، العطش يتملكني أخيرًا بعد ساعات حتى ظننت أنني لن أعطش في هذا العالم أبدًا، عيني ترى بئرًا أدعو الله ألا يكون سرابًا كما يحدث في الأفلام، أقترب من البئر في وهنٍ، ألقيت بنفسي أرضًا وبدأت في شرب هذا السائل اللزج بسعادة متناهية، طعمه يشبه كثيرًا طعم الدماء إلا أنني لا أملك خيارًا آخر ولا رفاهية الاعتراض، وبينما أنا غارق في سعادتي لمحت كائنًا آخر مخيفًا يقترب مني، كان الكائن هذه المرة يمشي على أربع، يشبه وحيد القرن في هيئته، عيناه سوداء تمامًا وأسنانه بارزة تستعد لالتهامي، يزمجر بصوت يشبه الخوار، فتظهر أنيابه القذرة جلية أمامي، اقترب مني أكثر، أغمضت عيني حتى لا أرى أعضائي وهي تترك بعضها البعض، إلا أن صوت صراخه في ألم جعلني أفتحهما في الحال، رأيت رجلًا يمتطي جوادًا غريبًا، يغرس سيفه في جسد هذا الكائن والذي مات على الفور من قوة الضربة.

قمت من الأرض أزيح التراب عن ملابسي متعجبًا من كوني ما زلت على قيد الحياة، نظرت إليه فوجدته يقترب مني، كان يمتطي كائنًا أشبه بالفرس، عيون حمراء وشعر أسود تمامًا، ينفث غضبًا من أنفه، في الأغلب كائنات عالم الكوابيس بأكملها لونها أسود! أما الفارس فكان مغطى بوشاح رمادي ويرتدي عباءة طويلة، اقتربت منه كي أشكره على إنقاذي إلا أنه ترجَّل من على هذا الكائن، وقال وهو يقرب نصل سيفه من رقبتي.

- انت مين؟ مين اللي باعتك هنا؟

- أنا اسمي يونس.. انت اللي مين؟!

ابتعد الرجل خطوة إلى الخلف وهو يزيح الوشاح من عليه، كان رجلًا في العقد السادس أو بداية عقده السابع، وسيم رغم سنه الكبير، ما زال محتفظًا بقوته وصلابته، شعره أبيض طويل ومموج يشبه شعر المحاربين في فيلم (تروي)، ذقنه بيضاء يتخللها بعض الشعر الفضي، لم تحلق منذ سنوات طويلة، نظر إليَّ في تمعنٍ ممزوج بالمفاجأة وقال:

- يونس؟ يونس ليل؟

تعجبت لمعرفته اسمي، سألته في دهشة:

- حضرتك تعرفني؟

قال الرجل في ارتياح وكأنه يترجى بعض الأمل من كلماتي:

- قالوا إنك هتيجي.. قالوا إن الحل معاك انت!

- مين اللي قالوا؟ انت مين أصلًا؟

عدل الرجل من هيئته ومد يده العجوز ليصافحني قائلًا في ود:

- آسف على طريقتي في استقبالك، زياد أورفللي[3]، عازف بيانو سابق في أوركسترا باريس..

- انت أول شخص أقابله في كوابيسي أكون ما اعرفوش!

ابتسم زياد وقال:

- مش يمكن عشان دي مش كوابيسك لوحدك؟

- يعني إيه؟!

- تعالى معايا وأنا هفهمك..

أمسك بيدي ومشينا سويًا حتى وصلنا إلى حافة الجبل، حيث يمكننا أن نرى عالم الكوابيس بأكمله من تلك النقطة، من الأعلى كان يشبه المدن في عالمنا، إلا أن المباني جميعها مصنوعة من اللون الأسود والأنوار جميعها مزيج من اللونين الأحمر والأخضر، تلك الكائنات العجيبة تطوف في سماء المدينة والكائنات الأخرى تمشي على أربع حول المباني بشكل عشوائي.

- من هنا تقدر تشوف المدينة كلها، أنا هنا من سنين على فكرة، عشر سنين وأنا جوا عالم الكوابيس بحاول أقضي على أرا..

- أرا؟ لعبة الموت؟ انت تعرف اللعبة دي منين؟

ضحك زياد من سؤالي ونظر إلى السماء وكأنه يرى شريط حياته يُعاد أمام عينه ثم قال في حزن:

- من سنين كتير لعبت لعبة الموت دي، وكان بسببها خسرت أغلى ناس عندي، خسرت البنت الوحيدة اللي حبيتها في حياتي، سلمى، وخسرت صحابي واحد ورا التاني، ولما جه الدور عليا عشان أموت مثلت إني ميت، فضلت غرقان في دمي ساعات، وقتها عرفت إنك تقدر تكدب على اللعبة، بس يوم ما اللعبة عرفت إني بكدب كانت النتيجة إني اترميت في عالم الكوابيس على أمل إن حد هيقدر يخرجني من هنا، كل السنين دي وأنا في انتظار يونس! من سنين كان ليا صاحب اسمه أيوب، أفتكر

إنه قتلني وإننا اتحررنا من لعنة اللعبة، ماكانش يعرف إن اللعبة زي ما عيشتنا في رعب سنين، قدرت بطريقتها تدخلنا جوا عالم الكوابيس.

بدا هذا العجوز وكأنه محمل بالحكايات والأسرار، افترشنا رمل الصحراء، أخرج من حقيبته بعض الماء النظيف شاركه معي وبدأ في سرد القصة، حكى زياد أن قصة اللعبة التي تدعى (أرا) بحسب رواية الكتب القديمة صنعت عام ٣٤٠ قبل الميلاد، على يد ساحر يُدعى أبا اللهيم، وهو أحد مؤسسي السحر الأسود في التاريخ، حكى أن أبا اللهيم كان يمتلك قوة جبارة، حتى أعتى الكهنة والسحرة في عصره لم يمتلكوا القوة لمواجهته أو حتى إضعافه، كان الملوك قديمًا يستعينون بسحره في الحروب، كانوا يخشونه ويخشوا قوته، حكى زياد بأنه قرأ كثيرًا عن قصة أبي اللهيم وعلم أنه كان لا يعرف سوى الشر والكراهية وأنه قبل وفاته وضع كل ما تعلم من سحر في صندوقين أسماهما (أرا)، الأولى لعبة ورقية وهي اللعبة التي لعبها زياد مع أصدقائه منذ سنوات، وكانت نتيجتها موتهم جميعًا، أما الصندوق الثاني فكان بداخله قوة جبارة وكيان غير معلوم، قوة بإمكانها أن تفتح باب عالم الكوابيس، العالم الذي أغلق بوابته كهنة معبد التنبؤات في سيوه منذ آلاف السنوات لكونه بداية خراب العالم، إلا أن بعثورهم على اللعبة فُتحت البوابة مرة أخرى على يد نجيب أسود.

- الأساطير والكتب كانوا دايمًا بيحكوا عن اللعبتين دول، قالوا إن واحدة منهم هتكون سبب دمار البشرية والتانية هتدمر العالم كله.

عقلي الذي بُني على الدراسة والتحليل العلمي يسمع ولكن لا يستوعب تمامًا كيف يمكن للعبة أن تفعل كل ما يقوله زياد.

- اعذر جهلي يا أستاذ زياد، بس أنا عمري ما كنت بصدق في السحر، أنا طول حياتي بمشي على حقائق علمية ودراسات، عمري ما كنت بصدق في عوالم الماورائيات والسحر الأسود، بس في أوقات كتير بنحتاج إننا نصدق عشان نفهم..

- أنا كنت زيك، لما لعبت اللعبة دي أول مرة شوفت صاحب عمري بيموت قدامي قولت إن أكيد مات موتة طبيعية، وإن أكيد فيه سبب منطقي لموته، بعدها هاجرت لفرنسا وعشت هناك ٣٠ سنة، ٣٠ سنة بشتغل وباكل وبنام وأنا عامل نفسي مش فاكر اللعبة، بس لما كبرت ولعبتها تاني عرفت إني كنت غلطان عشان ما صدقتش من البداية، فضلت سنين بشتغل عازف بيانو ولقيت إن كل مقطوعة ألفتها كانت بتتكلم عن الموت من غير ما أحس، يوم ما أيوب ضرب عليا النار عشان يكسب اللعبة افتكر إني مُت واللعبة كمان افتكرت كده، وبعد ما عاش سنين بيدور على السعادة والراحة ومالقاش منهم شيء عرف إنه ملعون، وقتها بعد ما كان بيدور على الحياة قرر إنه ينهي حياته بإيديه، ويدفن اللعبة في معدته ويغرق نفسه بيها في البحر، ما كانش يعرف إن أتباع أبي اللهيم كانوا مراقبينه في كل لحظة وما كانوش هيسمحوا إن أي حاجة تحصل للعبتهم وورثهم.

أشعر بمأساته حتى وإن كنت لا أفهم قصته تمامًا، لا أعلم تمامًا إن كان يجب عليَّ أن أصدقه أم لا، إلا أنني شعرت نحوه بشيء من الراحة التي افتقدتها منذ دخولي هذا المكان الملعون، كان

يجب عليَّ أن أستمع للنصيحة الأهم في التاريخ: لا تنظر خلف الأبواب المغلقة ولا تسترق النظر حتى.

أرى تشابهًا عجيبًا بين ثلاثتنا، أنا وزياد وطه، ثلاثتنا فقدنا أشخاصًا غالين على قلوبنا، ثلاثتنا عشنا في أسى بسبب الحب، ثلاثتنا عشنا تائهين ضائعين في عالم لا ننتمي إليه، وثلاثتنا وجدنا ضالتنا في عزلتنا.

- بالمناسبة، فريقك عندي في البيت، كانوا بيدوروا عليك، تعالى نروح انت أكيد محتاج ترتاح.

- بيت؟ هو فيه هنا بيوت؟

- هو انت فاكر عشان إحنا في عالم موازي يبقى مفيش بيوت وبنعيش فوق السحاب ولا إيه؟ هنا قوانين الطبيعة مختلفة شوية، الجوع والعطش أقل، الشعور بالتعب أقل، لأنك ملعون بما يكفي في المكان ده.. يلا بينا!

وصلنا أمام باب يشبه الكهف بعض الشيء، دلفت خلفه لأجده بالفعل مثل البيوت المعتادة باستثناء أن العفش كله مصنوع من خشب أسود يشبه الفحم في ملمسه، كان الفريق بأكمله بالداخل وكم شعرت بالارتياح لرؤيتهم، كان يسري منهمكًا في كتابة شيء ما في دفتر صغير بين يديه إلا أنه تركه وابتسم في صدق فور أن لمح وجودي، دولت وشوكت نائمان فوق أريكة خشبية صغيرة يصدران شخيرًا مضحكًا متقطعًا، أما طيف فكانت تجلس في صمت تنظر إلى السقف في هدوء، وفور أن رأتني ابتسمت قائلة في دلال:

- كويس إنك عايش، ماكنتش حابة أكمل حياتي في المكان ده بصراحة، ما طلعش مبهر زي ما تخيلت!

ابتسمت لها في ود ثم نظرت إلى يسري وسألته عما يكتب فقال في خجل:

- العلاج بتاعي أساسه الكتابة زي ما حضرتك عارف، الدكاترة بتوعي نصحوني إني لازم طول الوقت أكون بكتب، وأنا من أيام الحُجر وأنا بشتغل على أول رواية ليا..

- أوعدك لو خرجنا من هنا هساعدك تنشرها.

- بجد؟ تقدر تعمل كده؟

ربتُّ على كتفه وقلت بابتسامة صادقة:

- نخرج من هنا بس واعتبره وعد مني..

جلست مع فريقي نتبادل أطراف الحديث، دخل زياد إلى مطبخه والذي تعجبت لكونه يمتلك مطبخًا في هذا المكان، ليختفي دقائق ثم عاد بوعاء ضخم يخرج منه الدخان بداخله طعام يشبه كثيرًا في رائحته الدجاج، وقال في سعادة مناديًا على الجميع:

- يلا كله ييجي هنا بسرعة انتم ضيوف الكوابيس ولازم تجربوا أكلها.

كان الطعام شهيًا باستثناء أن الكائن الذي نأكله في الوعاء الساخن كان لديه أكثر من مئة عين تناثرت بأكلها في أطباقنا، إلا أن الجوع جعلني أتغاضى عن هذا تمامًا وألتهم تلك الأعين في

رضا.

- هو إيه اللي في الطبق ده يا زياد؟

سألته وأنا أتناول الطعام على مضض.

- ده اسمه كابا، أو شيطان البحر، كائن صعب جدًا صيده بس أفضل الكائنات في الطعم جوا العالم اللي إحنا فيه ده، معلش أنا لو عليا كنت قدمت لكم حاجة أفضل من كده..

- كل فترة في حياتي بقول إني مستحيل أشوف أكتر من اللي شوفته، آديني دلوقتي باكل شيطان البحر!

تناولنا الطعام باستمتاع رغم كل شيء لسعادتنا بأننا نمتلك سقفًا أعلى رؤوسنا البائسة، كان الجوع قد تملكنا جميعًا، لا أعلم كم لبثنا في الجحر حتى الآن، الساعات لا تعمل هنا والسماء تميل إلى الظلام طوال الوقت فلا شمس هنا ولا نور يرشدنا، ولكنني انتهزت فرصة جلوسي معهم جميعًا في لحظة تميل إلى السعادة لأبدأ في معرفتهم بشكل أكبر، فقلت وأنا أبتسم:

- دولت وشوكت، احكوا لي شوية عنكم!

شعرا بالإحراج من تسليطي التركيز عليهما، ابتسما في خجل هما الاثنان وشرع شوكت في الحكي بصوته العجيب الذي يشبه إلى حد كبير نقيق الضفدع:

- أكيد يا دكتور حضرتك تقصد إيه سبب مرضنا وإيه سبب إننا اتصابنا بالذهان المشترك رغم نُدرته، أنا ودولت عيشنا حياة صعبة في طفولتنا، إحنا وعينا على الدنيا لقينا نفسنا عايشين

في ملجأ في بلد صغيرة، ملجأ متواضع، أكله متواضع، مرافقه متواضعة وحتى الحب اللي فيه كان متواضع، كنا بنتعرض للتنمر طول الوقت بسبب شكلنا، حضرتك ممكن تتخيل ولد وبنت توأم شكلهم بالنسبة لناس كتير مش جميل، بيسمونا في الملجأ (ضفادع)، يمكن عشان صوتنا يشبه الضفادع ويمكن عشان وشنا يشبههم، طول الوقت كنا بنسمع كلام وحش، طول الوقت بنتعرض للإهانة ومطلوب مني إني أحمي أختي من العالم ده، لحد ما في يوم وإحنا عندنا ١٤ سنة صحيت من النوم عندي حالة من الهياج والغضب، شوفت العيال اللي معايا في الملجأ على إنهم وحوش مخيفة، لقيت نفسي من غير ما أحس بقوم من سريري وبشوكة صغيرة بضرب كل اللي في العنبر بكل وحشية وغضب من غير ما أحس، الغريبة مش اللي عملته، الغريبة إني لما خدوني عند مدير الملجأ لقيت دولت هناك، وعرفت إنها عملت نفس اللي عملته بالظبط وفي نفس التوقيت كمان!

- حبكم لبعض وخوفكم على بعض في الأغلب هو سبب المتلازمة دي، متلازمة Folie a deux بيكون في أوقات كتير سببها الحب، شوكت ممكن يكون هو الطرف الفعال في المرض ده ودولت من غير أي تركيز اتحولت لطرف موهوم لإحساسها بإنها لازم تحميك وتساندك.

- طيب دي حاجة كويسة ولا وحشة يا دكتور يونس؟

- التعلق المرضي، أسوأ أنواع الجنون هو الجنون المتواري وراء أقنعة الجمال يا شوكت.

أشفقت عليه، أسوأ الأمراض النفسية التي تأتي نابعة من الخوف والألم، هذا المسكين لم يتمنَّ سوى أن يحمي أخته، عائلته الوحيدة في هذا العالم، من بشر وحشيين، لم ولن يعرفوا معنى الحب أبدًا، ابتسمت له في ود وأنا أُربت على يده، ثم نظرت إلى يسري المتوتر دائمًا وسألته:

- وانت يا يسري؟ احكي لنا حكايتك أيها الكاتب العظيم..

يقبع في مقعده كطفلٍ صغير لم يقُم بواجبه المدرسي ويحاول بكل طاقته أن يبقى مختبئًا من العالم حتى لا يراه أحد، يدعو الله ألا يراه أستاذه، خرجت منه ضحكة صافية، ثم نظر يسري حوله في خجل وقال بصوت خفيض:

- أنا مُشكلتي إني بخاف، ومتلازمة مونخهاوزن نابعة من خوفي اللي مش بيقل مع الوقت، خوفي من إني ألاقي نفسي بين يوم وليلة لوحدي، خوفي من إني أصحى ألاقي العالم بقى فاضي عليا مافيهوش حد، بدأت أختلق أعراض في البداية عشان أحس باهتمام اللي حواليا، كنت بفرح لما أشوف نظرة حبهم ليا وقلقهم عليا، وبدأت أدمن إيذاء نفسي في أوقات وأوقات تانية بعيش في حالة مرضية غير حقيقية عشان طول الوقت أبقى متحاوط بحب الناس، بس زي حكاية الولد اللي عمل نفسه بيغرق وفضل كل شوية ينده على الناس عشان يلحقوه، وأول ما يقربوا منهم يقولهم عليكم واحد، لحد ما عرفوا إنه كداب و...

- وفي الوقت اللي كان بيغرق فيه بجد ماحدش صدقه فغرق!

- هو ده اللي حصل معايا يا دكتور، كدبتي ريحتها فاحت

والكل عرف إن يسري صاحبهم كداب وبيعمل كده عشان يكسب تعاطفهم مش أكتر، عشان كده أنا دايمًا بكتب، بكتب عن مشاعري، عن ندمي، وعن اللي بعيشه دلوقتي يمكن في يوم يعرفوا إني اتغيرت وشوفت أهوال بجد ويسامحوني.

- هيسامحوك.. التمارض مؤذي ليك قبل ما يكون مؤذي للناس اللي حواليك، وأنا لسه عند وعدي ليك.

ثم نظرت إلى طيف التي كانت تستمع إلينا بدون أي انفعال جلي على وجهها وسألتها نفس السؤال، إلا أنها ابتسمت في هدوء وقالت:

- معلش اعفيني من الحكي.. مش شاطرة أوي في الموضوع ده!

احترمت رغبتها ولم أرد أن أضغط عليها، أكلنا طعامنا في اغتباط، كانت أمسية دافئة رغم برودتها، جليد يذاب وقلوب تحكي وأمل يتجدد في الحياة، خرج بعدها يسري ليكمل ما يكتبه في الهواء الطلق، بينما خلد الباقون إلى النوم وذهبت بعدها أنا وزياد لنجلس سويًا خارج منزله أمام غابة فضية أشجارها ليكمل زياد قصته.

- بعد موت صديقي أيوب فضلت كتير أراقب جماعة (أرا) بعد ما أقنعت الجميع إني ميت، سنين من البحث عنهم لحد ما عرفت إنهم بيتجمعوا في قصر مهجور من قصور القاهرة القديمة اللي ماحدش بيقرب منها عشان يمارسوا طقوس اسمها طقوس الموت، بيقعدوا في دواير وبيعملوا حركات بأجسامهم وبيقولوا كلام زي

تعاويذ، وفي اليوم اللي دخلت فيه عالم الكوابيس دخلت القصر معاهم ولبست لبسهم، حتى وشي غطيته بقناع من الأقنعة اللي كانوا بيلبسوها أثناء أداء الطقوس، وقعدت في دايرة أعمل زي ما بيعملوا لحد ما شخص اسمه دياب قرب مني..

- ازاي قدر يعرف إنك مش منهم؟

ضحك زياد وقال في أسى:

- حظي كان حقيقي سيئ، اكتشفت إنهم كلهم على إيديهم وشم لوش الأرنب من الدم، قدر يكشفني وخلاني بعد تعذيب كتير أحكي له كل حاجة وكان الحكم إني أتنفي للعالم ده، عالم الكوابيس كعقاب ليا إني خدعت لعبة الموت.

بدأ زياد في سرد ما حدث له هذا اليوم، كان جالسًا يقلد الباقين فيما يقولون، فقط يحرك فمه وجسده دون فهم، يعدل من غطاء رأسه حتى لا تظهر ملامحه حتى شعر بيد تمتد لتمسك به من تلابيبه ليقول الممسك به في غضب:

- انت إيه اللي دخلك هنا!

- أنا.. أنا معاكم!

أمسك الرجل الذي يدعى دياب بذراع زياد وقال بصوت مهيب رج أركان القصر بعدما سكت الجميع ليشاهدوا ما يحدث:

- انت مش موشوم بعلامة أرا، اكشف وشك!

خلع زياد غطاء وجهه في خوف فجحظت أعين دياب في ذعر

وهو يتأمل وجه زياد وقال في عدم فهم:

- زياد؟ زياد أورفللي؟ انت ازاي عايش؟ مستحيل!

- عارف اسمي الثنائي كمان؟ واضح إنك كنت مراقب كل اللي بيلعبوا لعبتكم!

- مستحيل! أنا شوفتكم كلكم ميتين قدام عيني!

ابتسم زياد رغم ضعف موقفه وقال متحديًا دياب:

- شوية مهارات في التمثيل، والطلقة ما صابتش أي منطقة حيوية في جسمي..

قام دياب بكل ما أوتي من قوة بسحب زياد من مكانه ليأخذه حيث يجلس زعيمهم والذي ينادونه بـ (مولانا) ليلقيه أمامه ويقول:

- مولانا، جزاء اللي يخدعنا لازم يكون الموت!

ظل مولانا صامتًا للحظات ثم قام من مكانه وهو يشير بعصاه لزياد وقال:

- اللي يخدعنا جزاؤه أسوأ من الموت، إحنا هننفيك لمكان هتتمنى فيه الموت يا زياد.

سكت للحظات ثم سألته:

- ومين حكى لك عني؟

- مراتك.. عصفورة.

الفصل الخامس عشر

العصفورة والأرنب

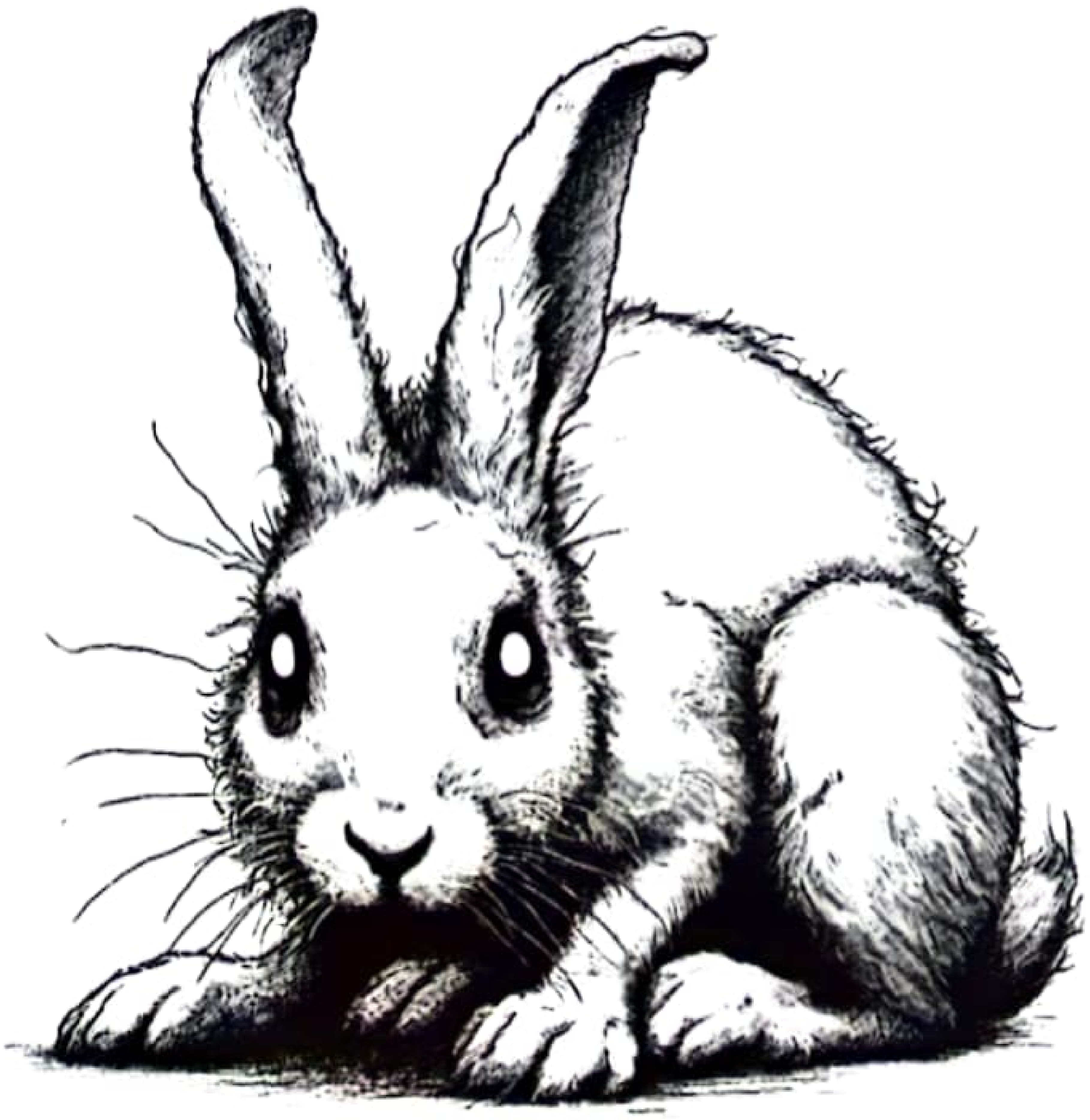

على شاطئ أسوان الذهبي بدأ حبي لها، وعلى شاطئه انتهى هذا الحب بلا رجعة. تلك الاستثنائية السمراء التي سحرتني، عصفورة صغيرة حلقت بي في السماء لأبعد نقطة في الفضاء، ثم ألقتني بكل قسوة ولا مبالاة كأنني لم أكن في يوم من الأيام كل شيء لها، ألقتني حتى تحطم ما تبقى مني من قطع، مهشم، ممزق وضعيف في هذا العالم، وكأنها أعادت تمثيل مشهد خيانة حنين لي، ولكن بشكل آخر، تذكرت في تلك اللحظة المرة الأولى التي قابلتها فيها، يومها قالت بأسى وهي تحكي لي قصتها:

- الخيانة وجع.. بس زيها زي القدر.

- مين علمك ضرب الودع يا عصفورة؟

- زمان أمي أخدتني فوق الجبل، هناك علموني ضرب الودع.

- هما مين دول يا عصفورة؟

- مش كل الحاجات لازم نتقال ونتعرف يا باشا!

كان هذا من ضمن حوارنا في اللقاء الأول، كم كانت محقة، بالفعل لا يجب أن نعرف كل شيء، بعض الأشياء من الأفضل أن تبقى مطموسة في أدراج النسيان حتى النهاية، كم كنت أتمنى أن تبقى أسرارها بعيدة عن معرفتي، كم كنت أتمنى ألا أعرف أن تلك العائلة التي ظننتها بسيطة عادية في يومٍ ما، كشرت عن أنيابها لأرى عائلة تحاوطها الشرور والسحر الأسود من كل جانب.

"مش كل اللي بيلمع دهب"، تلك هي الجملة الأهم التي تعلمتها

من الجدة ونجي الحكيمة، ولكنني كنت أرى لمعان عصفورة وكنت أراها ذهبًا أيضًا.

- عصفورة؟

- عالم الكوابيس مرتبط بشكل وثيق بحكاية اللي فتحوا البؤرة، اللي ورثوها واللي دخلوها عنوة، عالم الكوابيس بيتشكل بناءً على السيناريو الخاص بحياة ساكنيه، يعني كل اللي بيدخل هنا كوابيسه بيكونوا هما سكان العالم ده، مخاوفه ووحوشه بيكونوا منقوشين بتفاصيله وأسوأ مخاوفه، عشان كده ما تستغربش لو قابلت أي حد من حكايتك هنا، زي ما أنا برضو بقابل شخصيات حكايتي هنا.

جلست معه لساعات يروي لي قصته، عشقه للموسيقى التي ورثها عن والده، حياته بفرنسا، وحب حياته الوحيد سلمى، بعدها استأذنت من زياد أن يتركني وحدي قليلًا، الهواء في هذا المكان ثقيل مُر، فوق كهفه وقفت أنظر إلى السماء الحمراء أشاهد أسرابًا من كائنات سوداء مجنحة تجتاح السحب السوداء تنعق مثل الغربان، أفكر في كل شيء، أفكر في أي طريقة تخرجني من هذا المكان، أم هو من الأفضل أن أبقى هنا؟ ربما عالم الكوابيس هو العالم الأصلح لقلب لم يتذوق من الحياة سوى مُرها.

شعرت بيدٍ حانية مرتجفة توضع فوق كتفي، ابتسمت لي عصفورة في خجل، ترتدي جلبابًا أبيض شاحبًا مثل لونها وقالت:

- هييجي يوم وتسامحني يا يونس؟

مشاعر مختلطة ما بين الحنين والغضب، شفقة وكراهية، عصفورة هي الشخص الوحيد في حياتي الذي له بداخلي مزيج غير مفهوم من المشاعر المختلطة، نظرت لها في عينيها قائلًا:

- أحمد طالع شبهك، كأنه نسخة منك..

- كان نفسي أشوفه، كان نفسي أنا اللي أربيه مش واحدة غيري.

- انتِ اللي عملتِ كده يا عصفورة، انتِ اللي ضيعتِ اللي بينا.

أخرجت من جيب جلبابها بلورة زجاجية صغيرة قربتها من وجهي، بداخلها صورة متحركة لسعيدة ومحروس يفترشان الأرض في منزلهما بأسوان أمامهما نار مشتعلة بينما يلقون بعض التعاويذ بصوت خفيض.

شرعت عصفورة في البكاء، وكلما زادت دموعها كلما بدأت هيئتها في التحول تدريجيًا لكائن النيدلان البغيض، تحولت في لحظات لكائن عملاق يسيل من فمه الدماء المتجلطة، وقالت بصوت مخيف حرك الأشجار من مخدعها:

- هما السبب يا يونس، والله أنا حبيتك وماكنتش عايزة أعمل أي حاجة تضرك، لو كنت مكاني كنت هتعمل إيه؟

- لو اتحطيت في اختيار بين إني أموت وبين إني أخونك كنت هختار الموت عن إني أوجعك بأي شكل من الأشكال، تقدري تقولي لي كسبتِ إيه؟ عارفة إيه المشكلة يا عصفورة؟ إني حكيت لك حكايتي كلها وحكيت لك اللي حصل مع حنين، وانتِ بكل

بساطة كررتِ نفس القصة معايا من تاني، ورغم اللي شوفته بسببك ما كرهتيكيش!

- آخر حاجة كنت أتمناها إني أكون جزء من كوابيسك، يمكن الحسنة الوحيدة في ده إني قادرة أشوفك دلوقتي وأتكلم معاك، ممكن تسمعني؟ دي المرة الأخيرة اللي هتشوفني فيها وأستاهل إنك تسمعني.

- احكي يا عصفورة..

هدأت عصفورة لتعود مرة أخرى لصورتها التي أحببتها، جلست إلى جواري وشرعت في الحكي...

أسوان – ٢٠١٨

دلفت الحاجة سعيدة والدة عصفورة إلى غرفة ابنتها، أشعلت السبرتاية لتعد لهم بعض الشاي بالقرنفل كتهيئة منها للأجواء قبل أن تشرع في إملاء طلبها على ابنتها البائسة.

- شوفي يا بنت بطني، من يوم ما أبوكِ مات وأنا معيشاكِ معززة مكرمة كيف الملوك، لا قولتلك انزلي اشتغلي ولا سيبي بيتك واسعي ورا أكل عيشك.

نظرت لها عصفورة في تعجب وقالت في استسلام:

- خير يا أما؟ لازمته إيه الكلام ده الساعة دي؟

أجابتها سعيدة بشيء من الاستجداء:

- عشان أنا جاية أطلب منك حاجة بس سايق عليكِ النبي ما تعترضي ولا تقولي لا.

- قولي يا أمي.. أنا عمري ما رفضت لك طلب..

ناولت ابنتها كوب الشاي ببعض حبات القرنفل وقالت في هدوء:

- أنا عمري ما قولتلك تعالي اشتغلي معايا رغم إن الأسياد ياما قالوا عايزين عصفورة، بس أنا عارفاكِ طيبة زي جدتك ومالكيش في الكلام ده.

- مهما عملتِ انتِ أمي، ومهما كنت بقول شغل أمي مش على هوايا بسكت ومش بقول حاجة ياما وانتِ خابرة..

- هو ده العشم يا قلب أمك، لعبة صغيرة هنعملها والمقابل هتكسبي مستقبل مضمون وعيشة نضيفة ماتحلميش بيها والأهم هتنقذي أمك من السجن.

- وغوشتيني يا أمي، اطلبي أنا لا يمكن أرفض لك طلب..

أكملت عصفورة سرد القصة إلى نهايتها، الاتفاق الذي أبرمته مع أمها والطلب الذي لا هروب منه لكونه مرتبط بمصير سعيدة، مرورًا بمقابلتها الأولى مع يونس وإهدائها له الخاتم الفيروزي وحتى هروبه إليها وزواجهما وخطة عادل اللعينة، أشعر أنني أقف فوق جسر من الزجاج، أمامي الموت وخلفي الموت وإن بقيت واقفًا في مكاني سيتهشم الزجاج وأسقط إلى الهاوية، كل الطرق تؤدي إلى الموت وكل الطرق تؤدي إلى إجابات مفقودة لن أجدها مهما حاولت جاهدًا العثور عليها في كل مكان، والإجابة التي أبحث عنها في تلك اللحظة، هل عصفورة تستحق السماح؟ هل عصفورة بالفعل ضحية حبها لأمها أم أنها كان من الواجب عليها أن ترفض إيذائي مهما كان الثمن؟

أشفق عليها، أريد أن أحتضنها وأخبرها أنني أعلم كم الضعف الكامن في ضلوعها، أريد أن أهبها جزءًا من حياتي كي تعود

وترى ابنها وتحمله بين يديها لتشعر بشعور الأمومة ولو للحظات قليلة، أريد أن أخبرها أنني أحببتها بصدق، أريد أن أخبرها أنني يوم قررت الهروب من العالم بأسره لم أهرب سوى إليها، ولكن الآن أشعر أن كلماتي تعجز عن الخروج، أشعر أن كلماتي لن تكون سوى بعض الحروف الباهتة لا طعم لها ولا لون، هي الآن جزء من كوابيسي ولا أمل أن تعود ولا أمل أن تصبح في يوم من الأيام عصفورة التي أحببتها مرة أخرى.

الدموع تنهمر من عيني، مشاعر مختلطة لا يمكن وصفها ولا الإمساك بها كحيوان بري لا يتوقف عن الركض.

- انتِ وهبتيني أجمل ابن في الدنيا رغم كل شيء، ازاي أنسى حاجة زي دي؟

- يعني مسامحني؟

ابتسمت في حزن والدموع تملأ عيني وقلت:

- كل اللي أقدر اقولهولك إنك على الأقل مش هتبقي جزء من كوابيسي بعد كده..

- وعشان أكون خلصت ضميري وأرتاح من عذاب الضمير، فيه حاجة أخيرة لازم أقولك عليها يا يونس...

الفصل السادس عشر

صخب داخلي

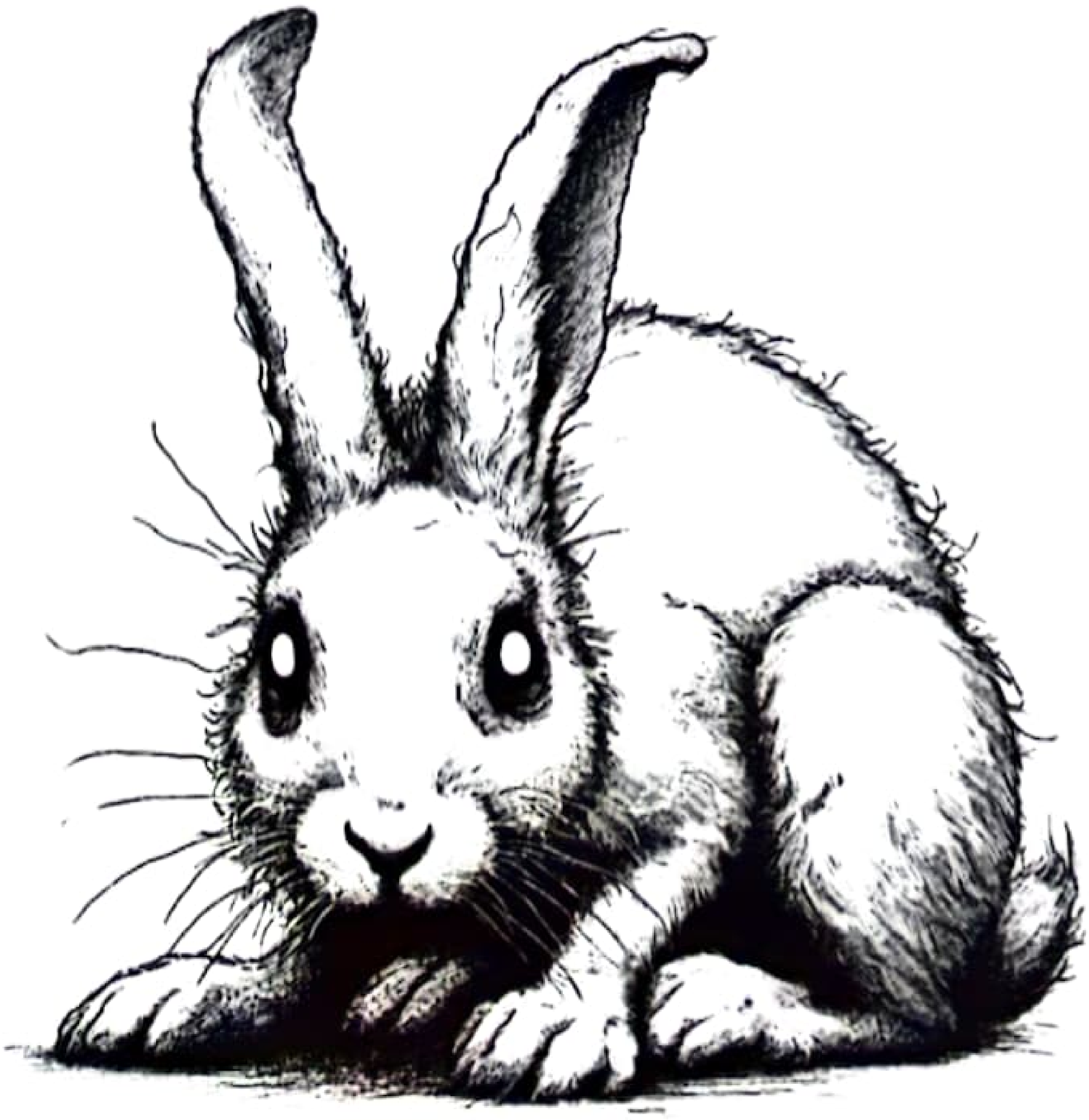

أخبرتني عصفورة بالشيء الوحيد الذي لم أره قادمًا، بالسر الأسوأ في قصتي كلها لترحل بعدها إلى عالمها الجديد وتتركني في بحر من الألم بداخل مركب لا يحمل بداخله سوى الظلام والأسى، وحدي أقف في الفضاء، لا أسمع أي شيء، أذني مُبطنة بعازل مانع للصوت يشبه مادة الأرض اللزجة، أسمع صرخات متناثرة ومخيفة تحدث فقط داخل رأسي، أصوات متداخلة وكأن حربًا قد نشبت داخل طيات عقلي، في بُعد الأفق أرى طريقًا ممهدًا طويلًا في نهايته قلعة ضخمة سوداء يحرسها تنين غاضب يحلق فوقها في حركة رتيبة لأجنحته، يقترب مني أرنب أبيض مألوف يرتدي نظارة طبية وملابس بشرية وهو يلهث بشدة، يخرج من جيبه ساعة جيب ضخمة وكأنه يريد أن يخبرني أن الوقت قد حان، يختفي الأرنب والأرض أيضًا تختفي من تحتي رويدًا رويدًا وأنا أسمع صوته من بعيد وهو يقول "اتأخرنا يا يونس! ميعاد المرواح قرب!"، السحب الحمراء في السماء تتحول إلى كائنات رخوية تلتف حولي في هدوء وبطء مربك ومخيف، تحاوطني، ولكنها لا تعتصرني، ما زلت حيًا، ما زلت أشعر بكل شيء.

تظهر أمامي مرآة ضخمة أرى بها انعكاس صورتي، الصورة تتغير ملامحها بين اللحظة والأخرى، أظهر في مرة طفل صغير يبكي بحرقة مصاب بكدمة في عينه اليمنى ومن ثم أتحول إلى شاب جامعي نحيل ينظر إلى انعكاسه في حزن، ثم أتحول إلى يونس الذي أعرفه الآن، أمسك في يدي قناع الأرنب، أقربه إلى وجهي لأرى كيف يبدو عليَّ فيلتصق بي ملتحمًا مع جلدي،

أحاول أن أنزعه فيمزق لحم وجهي فتتساقط دمائي كألوان زيتية للوحة لم يُكتب لها الرسم لفان جوخ، أنظر مرة أخرى للمرآة فتظهر أنغام في المرآة ترتدي فستانًا مرصعًا بالفيروز وتقول في استياء وهي تنظر لي:

"مش دي اللي عشقها خيالك وحكيت عنها للناس؟"

يتبخر انعكاسها لأرى بدلًا منها طفل صغير، طفل دميم أتذكره جيدًا، إنه زميلي في المدرسة الذي كان يتنمر عليَّ دائمًا، فكري الكريه، أراه يتبسم بشكل مقزز وهو يتناول ساندويتش تتساقط محتوياته على ملابسه فتتحول إلى حشرات صغيرة تلتهم جسده، يرمقني بنظرات الكراهية ويقول في زهو وهو يتآكل: "عمرك ما هتبقى صاحبنا يا يونس، عمرك ما هتلاقي حد يحبك".

تبخرت صورته لتتهشم المرآة لقطع صغيرة فأغوص في الفضاء ساقطًا في جُحر عميق كأليس التي لم يفهمها أحد متفاديًا الزجاج، لأجد نفسي في لحظات جالس فوق أريكة صفراء ضخمة مهترئة في الأغلب الأصفر ليس لونها الأساسي، في حانة قديمة خاوية تعود إلى زمن آخر، الطاولات نظيفة تصطف فوقها المقاعد في برود، برميل الجعة قابع في أحد الأركان تتساقط من صنبوره قطرات البيرة في تناغم موسيقي، أنظر إلى جانبي لأجده جالسًا بقميصه البالي وجسده النحيل يدخن غليونه في صمت مطبق، فان جوخ بشحمه ولحمه يشاركني نفس المجلس، نظر إليَّ بعد دقائق من حملقتي إليه، ليقول في هدوء:

- اتعلم أنك تشبهني كثيرًا؟ وكأن قصتي تُعاد مرة أخرى في زمن

آخر!

نظرت له في دهشة متسائلًا:

- إحنا فين؟!

- أنت في لاهاي، في عام ١٨٨٣، أي قبل وفاتي بسبعة أعوام!

أخرج من جيبه دفترًا صغيرًا بيده المرتعشة ثم أكمل كلامه قائلًا بنفس الهدوء الغريب:

- تلك القصة التي تعيشها الآن، هي نسخة أخرى من روايتي البائسة، لا تكرر أخطائي يا يونس!

- ماحدش فينا اختار قصته يا فينسنت..

- سأريك شيئًا...

ثم أمسك بيدي لننتقل فجأة إلى الزمن الحالي، تحديدًا داخل متحف فان جوخ في أمستردام، كان الوقت ليلًا بعد ساعات العمل الرسمية للمتحف ولم يكن هناك غيرنا في المتحف الضخم، شعور غريب يتملكني لرؤيته في لوحاته وأمامي في نفس الوقت، بدأ فينسنت بالدوران في مرح مثل الأطفال في أرجاء المتحف وهو يقول بصوت عالٍ بينما جسده النحيل يتراقص حول لوحاته:

- أنظر جيدًا.. هذا ما جنيته في قصتي، أوراق وألوان تحمل مأساتي يراها الناس من كل بلاد العالم مزارًا ممتلئًا بالنجاح والإبداع، الأطفال تمرح في أرجاء المتحف والبالغون يلتقطون

الصور الفوتوغرافية في لا مبالاة كأنهم في سيرك مليء بالمهرجين، برون أحزاني وكوابيسي أشياء ملهمة لهم، يطبعون صوري وصور لوحاتي فوق ملابسهم ومقتنياتهم الشخصية وهم لا يدركون أن تلك اللوحات هي عصارة الأوجاع بداخل قلبي.. فينسنت الذي لم يتذوق من الحب إلا المرار ومن الحياة إلا الحنظل.

- بس الناس عرفت قيمة اللي قدمته، أكتر من ١٠٠ سنة على موتك والناس كلها بتشوفك من أهم الفنانين في العالم لحد النهاردا!

- أردت أن أُعرف حيًا يا يونس، أردت أن أجني ثمار تعبي بينما أنا على قيد الحياة، عشت حياتي بين أروقة المصحات ومقاعد الحانات، تحطم قلبي كثيرًا حتى أصبحت بلا قلب، حتى كلاسين تركتني، كلاسين التي رأيتها كما لم يرَها كل البشر، عاهرة رخيصة، تركتني بعدما أنجبت بأيام.

أخرج من يده عود ثقاب أشعله ليلقيه على جسده، بدأ في الاحتراق وهو يهلل في سعادة وقال بينما يتبخر داخل النيران كتنين في إحدى الأساطير:

- الحب ليس الحياة والموت ليس النهاية يا يونس، ابحث عن الحقيقة لمرة واحدة حتى تعيش في راحة إلى الأبد.

بدأ المتحف في الاختفاء، يتوارى في صمت لأنتقل إلى منزلي بالساحل الشمالي، أقف أمام البحر بينما منال وأحمد يلعبان سويًا، وياسمين تقرأ رواية في انسجام بينما البحر يداعب أقدامها، اقتربت من ياسمين وقبَّلت رأسها وأنا أقول لها في حب:

- المهم إن منال رعت بالسلامة، أوعدك إني هرجع..

الكذب يكسو ملامحي، أعلم أنني لن أعود إليهم، خرجت إلى الشاطئ أشاهد أطفالي وهم يلعبون في سعادة لتقترب مني امرأة جميلة يكسو الحزن وجهها قائلة في أسى:

- أنا رحيل يا يونس..

- رحيل؟!

قالت تلك الغريبة جملتها واختفت لأجد نفسي في غرفتي القديمة في منزل والدي، يجلس زيتون أمامي في صمت، على هيئة رجل عجوز وسيم يرتدي حلة فاخرة يعدل من شعره الفضي اللامع وهو يقول:

- مش كل اللي هتشوفه حقيقي ومش كل حقيقي هو الحقيقة يا يونس!

ليتحول إلى قطٍّ ويختفي بعد جملته، نظرت حولي لأجد نفسي بجانب منزل زياد مرة أخرى في عالم الكوابيس، وحدي في العراء يحاوطني الضباب من كل جانب، كررت لنفسي جملة فينسنت الأخيرة "ابحث عن الحقيقة لمرة واحدة حتى تعيش في راحة إلى الأبد"، ولكن ماذا لو كانت الحقيقة لا تُحتمل؟ ماذا لو كانت الحقيقة مؤلمة ومؤذية بشكل لا يُحتمل؟ ماذا لو كنت غير مؤهل لرؤية الحقيقة بصورتها الكاملة؟ ماذا لو كان كلام زيتون هو الأصدق وأن بالفعل الحقيقة التي أعيشها وأعلمها قد تكون غير حقيقية بالمرة؟ ولكن ما معنى ذلك؟

اقتربت مني طيف وسط كل هذا الصخب الداخلي وقالت بصوتها الهادئ الجميل:

- مش انت بس اللي بتدور على الخلاص يا يونس، قالوا لي إنك دكتور شاطر!

- مفيش دكتور شاطر مش بيعرف يحل مشاكلهن بس أحب جدًا إني أسمعك.

بدا على وجهها وكأنها تفكر في إن كانت تريد أن تحكي أم لا، ثم قالت:

- أنا بس مش بعرف أوي احكي قدام ناس كتير، عارف، أنا مش طول عمري الست اللي قدامك دي، مش طول عمري بشوف نفسي حلوة وأحلى من أي ست، طيف اللي قادرة تسحر أي راجل كانت مجرد طيف مش متشاف في الدنيا، بس زي ما الحب كان سبب في وجعك، الحب كان سبب قوتي يا يونس، أو وجع الحب عشان أكون دقيقة أكتر، أنا دخلت هنا عشان ارمي كل حاجة جوايا في المكان ده، زي ما قدرت في العالم اللي برا أبقى واحدة تانية، يمكن هنا المكان الأصلح اللي أرمي فيه ذكرياتي!

- الحب علمك إيه يا طيف؟

- علمني إني ما ابقاش عبيطة، زمان كنت مع شخص كان طول الوقت بيزرع جوايا إني مش كفاية، إني لازم أبقى دايمًا بحاول عشان أوصل لمكانته، ماكنتش أعرف إنه بيداري ضعفه وقلة

حيلته في كلامه ده، ولما قررت أبعد عرفت بجد أنا مين، وإن قد إيه أنا ماكنتش بشوف نفسي بالصورة اللي أستاهلها.

- كويس إن الحب قواكِ، أنا الحب ما عملش حاجة غير إنه فضل يكسر جزء مني كل يوم لحد ما بقيت الشخص اللي قدامك ده، أو اللي فاضل من الشخص ده على الأقل.

اقترب منا يسري في خجل وقال مبتسمًا:

- ممكن أقعد معاكم؟

- طبعا يا يسري، يلا أنا مستني روايتك عشان أكون أول واحد يقراها.

- شرف ليا يا دكتور والله، ماكنتش أتخيل إن المكان ده هيكون ملهم بالشكل ده!

- حقيقي نفخور بيك.

- وأنا والله ممتن جدًا لوجودك يا دكتور يونس..

قبل أن أُجيبه، سمعت صوت زمجرة مقلقة تأتي من خلفي، أشحت بنظري عنهم لألقي نظرة إلى مكان الصوت لأرى مرة أخرى هذا الوحش المخيف الذي يشبه وحيد القرن، أسنان حادة كأسنان القرش وعين حمراء لا ترانا إلا فريسة وعشاءً شهيًا، وكأن الخوف تجسد في صورة كائن بأربعة أقدام، خرج زياد وباقي الفريق على صوت هذا الكائن، زياد يقترب منه وهو يحمل سيفه وأنا ومن معي نشاهد المشهد لا نعرف تمامًا ما يجب علينا فعله، لمعان السيف كان مستفزًا للوحش الذي اقترب من زياد

بفمٍ مفتوح على مصراعيه، يصدر صوتًا يشبه قهقاع الدب، نظر إليّ زياد وكأنه يودعني بابتسامته المعهودة، إلا أن الحظ كان حليفه لسببٍ ما، أيقظني من ثباتي صوت لثلاث رصاصات دوت في الهواء لتستقر في جسد الوحش الذي سقط ميتًا في الحال والدماء السوداء تسيل من جسده، ليزاح الستار عن منقذنا الذي نظر إلينا في سعادة وهو يعدل من قبعته في فخر.

- طه! جيت ازاي؟

- اعترف إني بظهر لك دايمًا في الوقت المناسب!

- بصراحة معاك حق، يا جماعة ده طه صديقي..

نظرت له طيف في إعجاب وقالت وهي تمد لها يده:

- لو خرجنا من هنا ممكن تعلمني أضرب نار؟

ابتسم لها طه في توتر وهو يهز رأسه بالموافقة، اقترب منه زياد وهو يربت على ظهره ملقيًا عليه عبارات الشكر والعرفان ليدعوه بعدها ليتناول بعض الطعام، ضحكت في خبث وأنا أخبره عن روعة الطعام الذي يعده زياد، إلا أنه قبل دخولنا منزل زياد توقف طه كأنه تذكر شيئًا ما وقال ضاحكًا:

- كنت هنسى! أنا جايب لك معايا ضيف على فكرة!

عاد طه عدة خطوات إلى الخلف ليغيب ثوانٍ ويعود وهو يدفع أمامه دكتور هارون المكبل من يده بحبلٍ غليظ وعلى وجهه ملامح الغضب والكراهية، نظرت إليه غير مصدق وقلت له مبتسمًا:

- حمد الله على السلامة يا دكتور! ابن حلال والله، كده الشمل اكتمل وندور على الجذر سوا.

- اللي بتعمله ده مش كويس عشانك يا يونس..

- نورت عالم الكوابيس يا دكتور هارون.

خلد الجميع إلى النوم بعدما وضعنا هارون في غرفة تشبه القفص كان زياد قد صممها ليضع بها الكائنات التي يمسك بها في عالم الكوابيس، الجميع دلف إلى فراشه إلا أنا وزياد وطه، أخذنا زياد إلى شاطئ طويل بحره بنفسجي اللون، تطير فوقه كائنات صغيرة تشبه الغربان شفافة اللون باستثناء منقارها العريض الأحمر الذي يساعدها على التقاط طعامها من الماء، أرى هذا العالم ساحرًا في تفاصيله رغم كل شيء، ممتلئ بالوحوش إلا انها وحوش حقيقية صادقة، لا تريد سوى بعض الطعام كأي كائن حي، الوحوش التي قابلتها في حياتي كانوا الأسوأ، وحوش ترتدي وجوهًا بشرية لتخدعك، فتجبرك على حبها بعدها تسلب منك حياتك بأكملها، وحوش مخادعة لا تعرف الحب، ولا تفكر إلا في كيفية اختراق روحك وتدميرك إلى فتات.

- حصل إيه بعد ما دخلنا بوابة عالم الكوابيس؟ احكي لي..

سألت طه في فضول وسعادة:

- فضلت أيام مستخبي وسط الناس اللي شغالين في الجُحر، شوية ألبس زي العمال، شوية ألبس زي الدكاترة، وفضلت طول الوقت أراقب هارون واللي سمعته امبارح بيتكلم في التليفون، بيكلم

واحد اسمه حاتم...

الجُحر - الليلة الماضية.

في مكتبه الضخم، جلس هارون يحتسي قهوته وهو يتحدث إلى حاتم الذي بدا صوته قلقًا، صوت شخص لم يتذوق النوم منذ فترة طويلة.

- خلاص يا حبيبي اتطمن بقولك، يونس دخل برجليه الجُحر، يعني انت في أمان يا حاتم.

أتى صوت حاتم خائفًا من الجانب الآخر للهاتف وهو يقول:

- يا بابا انت ماتعرفش يونس، ده عامل زي القطط بسبع أرواح، يعني كل اللي حكيتهولك عنه ده ولسه مش عايزني أكون قلقان؟

- لعب العيال بتاعكم قبل كده حاجة واللي هو فيه دلوقتي حاجة تانية خالص، لعبة الهلاوس ومراته اللي قتلها ومصحة نجيب أسود اللي دخلها وكل الكلام ده أنا بقولك إنه لعب عيال، يونس دلوقتي في مكان مش هيعرف يخرج منه إلا لو أنا عايزه يخرج منه.

اقتحم طه الغرفة عليه وهو يحمل بيده مسدسًا يشير به لوجه

هارون الذي القى هاتفه من يده في الحال، أمسكه طه من تلابيبه وهو يقول بصوت هادئ إلا أنه يحمل في طياته تهديدًا واضحًا:

- انت دلوقتي قدامك اختيارين ماهومش تالت، تقوم معايا حالًا نروح ليونس، يا مسدسي ده هيعمل في راسك خرم قد الجحر اللي إحنا فيه ده، تختار إيه؟

أكمل طه القصة، قال أن هارون لم يفكر للحظة، تمسكه بالحياة جعله يتحرك كالمنوم مغناطيسيًا ينفذ الأوامر بلا تفكير، مشيا سويًا حتى وصلا إلى غرفة ضخمة يتوسطها باب غريب لا يشبه الأبواب الذي نعرفها، بوابة الدخول لعالم الكوابيس، أخبره هارون أن دخولهم إلى هناك قد يعني نهايتهم، إلا ان نظرات طه كانت كفيلة ليستمع هارون إليه بلا نقاش أو جدال.

- والله ما عارف أقولك إيه يا طه!

قلتها وأنا أحتضنه في حب.

- يا عم إحنا اخوات!

- أنا بجد ممتن لوجودك، ولوجود زياد، انتم الاتنين انقذتوني من موت مؤكد.

ابتسم طه وقال في جدية:

- اشكرني لما نخرج من هنا وترجع لمراتك وعيالك.

- أنا لازم أشكر سِحر وحبيب على إنقاذهم ليك.

الفصل السابع عشر

نصف الحقيقة

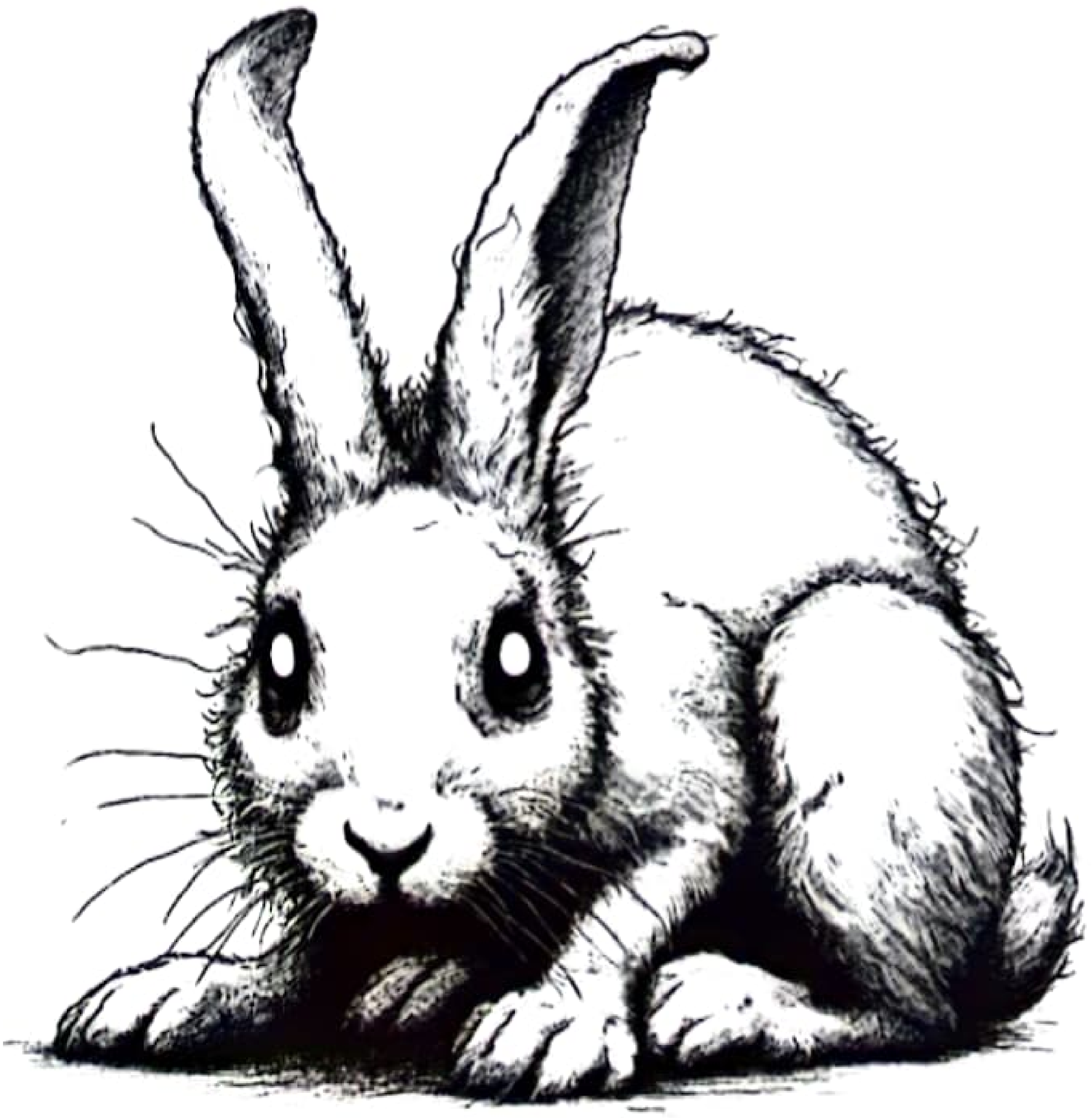

الحقيقة: الشيء الثابت يقينًا، هذا هو تعريف المعجم الجامع لكلمة (حقيقة)، أما تعريف نصف الحقيقة فهو حذف بعض الحقائق الضرورية بهدف التضليل والغش والخداع.

وفي قصتي المدهشة، فقد تم حذف الكثير من الحقائق الضرورية حتى أصبحت لا أفرق بين الواقع والهلاوس، بين الصدق والكذب، وبين الأحلام والكوابيس، وبين الحليف والعدو، وما روته عصفورة أو نيدلانها كان قادرًا على تدميري مرة أخرى.

- قولي يا عصفورة، أنا سامعك.. يمكن لو فهمت أقدر أسامح!

- أنا عارفة إني طول الوقت كنت بشوف كل حاجة ومش بتكلم من زمان، بس انت من حقك تعرف اللي أنا عرفاه، عايزة أرتاح من الحمل اللي شيلاه يا يونس، أنا عيشت سنين زي الشيطان الأخرس بسمع حكاوي آن الأوان إني أحكيها عشان تنزاح عن روحي..

بدأت عصفورة تحكي القصة بأكملها لتقلب موازين كل شيء في حياتي...

منزل أحمد ليل - ٢٠٠٠

دلفت يارا إلى غرفة والدها بعدما نده عليها، كان جالسًا فوق مقعد مكتبه في انتظارها، يبدو عليه التوتر الشديد، فور دخولها طلب منها أن تغلق الباب لتجلس إلى جانبه وتنصت إلى كلامه جيدًا.

- يارا، الكلام اللي هقوله ده لازم يفضل سر بينا، السر مش بيبقى سر لو خرج برا اتنين يا بنتي، أنا مش أب شرير عشان بحاول أحميكِ يا يارا، أنا بعمل اللي بعمله ده عشان تعيشي حياتك بعيد عن الشقاء وبعيد عن المشاكل، يارا، أنا عايزك تسمعيني كويس عشان حقيقي مفيش وقت نضيعه.

نظرت له يارا في استغراب وقالت:

- قلقتني يا بابا، فيه إيه يا حبيبي؟!

ربت أحمد على كتفها ثم أكمل كلامه قائلًا:

- أنا مش بقولك الكلام ده عشان اخوفك، أنا بقولك الكلام ده عشان انتِ كبيرة وهقدر اعتمد عليكِ، أنا نهايتي قربت، ولما أمشي مش هيكون فيه حد موجود عشان يحميكِ، عشان كده

أنا أخدت قرار صعب عليا بس مفيش حل غيره، إن اللعنة اللي اتحطت على العيلة دي هتبقى لعنة حد من أخواتك، انتِ بنت ومش هتستحملي..

نظرت له يارا بوجهٍ ملامحه تصرخ بأنها لا تفهم أي شيء مما يقوله والدها، فسألته باستنكار كمحاولة بائسة أن تستوعب ما يقوله:

- حد من أخواتي؟ يعني إيه يا بابا؟ أنا ماليش أخوات غير يونس!

- أنا عارف إن اللي هقوله ده بيوجع بس لازم تعرفيه يا حبيبتي، انتِ عندك أخ غير يونس، اسمه عادل، في نفس سنك تقريبًا، اسمعيني يا يارا، أنا عملت حاجات غلط كتير في حياتي، ظلمتك وظلمت أخواتك، بس أنا مش مستعد إني أمشي من هنا وتعيشي انتِ في تعاسة مالهاش نهاية من بعدي..

- بابا.. ممكن تقولي إن حضرتك بتهزر؟ حضرتك عايز تجنني؟

- كل كلمة بقولها دلوقتي مافيهاش أي هزار يا يارا، بس الحقيقة إنك ماتعرفيش أي حاجة عن أبوكِ، من سنين كتير كنت بتعالج عند دكتورة شابة اسمها رحمة، كنت بعاني من هلاوس مرعبة، بشوف حاجات غريبة وبسمع حاجات غريبة كانت بتخليني مش بعرف أنام بالأسابيع، الكلام ده كان في السبعينات، بدأت معاها رحلة العلاج، وفي نفس الفترة دي قربت منها ومن عيلتها واتعرفت على جوزها نجيب أسود، راجل مُختل، بس لما بقينا صحاب وحكيت له عن اللي بشوفه ومخليني

مش عارف أعيش ولا أنام قالي إنه ممكن يساعدني، وإنه بصدد اكتشاف شيء هيساعد أي مريض نفسي على إنه يعالج مرضه النفسي أيًا كان إيه من جذوره عن طريق الأحلام، وقال إن اللي معطله عن حلمه هو الفلوس، وقتها كنت عايش في يأس، عرضت عليه إني أشاركه من غير أي تفكير، والغريب إنه وافق على طول، وشبه سرعتي في القرار ده بسرعة الأرنب، قربت منه وقربت برضو من مراته، أنا ورحمة حبينا بعض وهي تبقى أم عادل أخوكِ.

دموع يارا تنهمر، تحاول أن تستوعب أي شيء مما يقال، تحاول أن توقظ نفسها من هذا الكابوس اللعين.

- بابا، هي رحمة اللي حضرتك بتتكلم عنها هي رحمة الدكتورة اللي بتعالج يونس أخويا؟

- هي، بعد ما اتفقنا أخدني نجيب في يوم لجزيرة غريبة في نص البحر، هناك كان مستنينا اتنين من أصدقاء نجيب، شخص اسمه عماد العلايلي وشخص تاني اسمه دكتور هارون.

جزيرة الجُحر - ١٩٧٨

دلف نجيب من المركب في زهوٍ وهو يعدل من ربطة عنقه يتبعه أحمد في صمت، ينظر حوله فلا يرى سوى الأشجار والرمال، جزيرة مهجورة أو لم تخطُها قدم من قبل على أقل تقدير، على رمال الشاطئ كان في انتظارهم رجلان، الأول رجل عريض البنية له شارب ضخم مهذب بعناية، والآخر كان أصلع الرأس ملامحه حادة عنيفة، صافحهم نجيب ومن ثمَّ أحمد ليفترشوا جميعهم الرمال غير مبالين باتساخ ملابسهم ليبدأ نجيب في الحديث.

- أعرفك بباقي الفريق يا أحمد، الأستاذ عماد العلايلي صاحب فندق القلب الشهير في إسكندرية وهو اللي هيقوم بكل شيء يخص البناء للمشروع، والدكتور هارون وهو اللي هيكون مسؤول عن كل شيء يخص الأطباء والتمريض في المشروع، وبصراحة سرعتكم كلكم في الاستجابة للمشروع حسستني فعلًا إني بشارك مجموعة من الأرانب، ذكاء وسرعة ورؤية حادة لأهمية اللي بنعمله هنا.

ضحك هارون وقال ممازحًا:

- ده على كده إحنا نسمي المؤسسة بتاعتنا الجُحر، ما إحنا أرانب بقى!

ليضحكوا جميعًا غير مدركين أن الدعابة التي ألقاها هارون ستتحقق لواقع بعد فترة قصيرة للغاية، وأن الجحر الذي قاموا بحفره ليكون ملاذهم سيكون مقبرتهم جميعًا.

ظلت يارا في مكانها تستمع إلى أبيها وهي ما زالت لا تفهم أي شيء، أكمل أحمد قصته قائلًا:

- كل واحد منهم كان عنده دافع عشان نبني الجُحر ده، نجيب كان عايز يحقق سبق علمي ويدخل التاريخ بأفكاره، هارون كان حلمه يدخل جوه عقل متهمين قضايا القتل ويدرس عقولهم، وعماد فكرة تطويع العقل البشري كانت بالنسبة له مبهرة، وشاف إن من وراها ممكن يحقق ثروات مالهاش آخر، سنين وأنا وسطهم، بشوف أبحاث غريبة بتتعمل، أغلبها بيتعمل على أرانب، منها اللي بيفشل ومنها اللي بيوصلنا لطريق مسود، بس نجيب بالذات كان عنده إيمان عجيب باللي بيعمله وشاف إنه هينجح، بقيت مش بسمع في ودني وأنا صاحي وفي نومي غير صوت ضغيب الأرانب وهي بتصرخ من الألم، لحد ما في يوم حصلت أغرب حاجة شوفتها بعيني، نجيب قدر يفتح باب بين العالم بتاعنا وعالم تاني، والغريب كان إن العالم ده لسبب ما سمعه نجيب بيطلب اسم أخوكِ يونس، العالم اللي اكتشفه بيخليك تعيش مخاوفك، كل حاجة بتشوفيها في كوابيسك بتبقى حقيقة، واللي اتفقنا عليه إحنا الأربعة إن الابن الأكبر لكل واحد فينا هو اللي هيورث المكان ده بكل اللي فيه، وأنا مش مستعد أعمل ده فيكِ.

- فهتعمله في يونس يا بابا؟!

سكت أحمد للحظات وهو يمسح دمعة هربت من عينه وأكمل قائلًا:

- أنا بحب أخوكِ، بس انتِ يارا، أول فرحة وأغلى حاجة في حياتي، واسم يونس اتنده يا حبيبتي..

- يمكن مش ده اللي حصل! يمكن اللي اسمه نجيب ده فهم غلط! ليه البوابة هتنده اسم عيل صغير لسه في المدرسة؟

- أسئلة كتير جدًا ما عنديش إجابات ليها، كل اللي عايزه منك هو حفظ السر ده.

ثم ناولها صندوقًا صغيرًا وضعه بين يديها وقال قبل أن يقبل رأسها:

- العلبة دي فيها مذكراتي وأبحاثي وكل حاجة أعرفها وشوفتها في الجُحر، أنا بسلمك ده عشان لو حصلي حاجة تقدري تنقذي نفسك وتبعدي عن كل ده.. وفيه سر كمان هقولهولك بس في الوقت المناسب.

قبل أن تقول يارا أي شيء، دلفت منال إلى الغرفة، لم تنبس ببنت شفة، إلا أنها نظرت إليهما في صمت ثم قالت:

- مالكم قاعدين كده ليه؟ انتم كويسين؟

ضحكة صفراء خرجت من أحمد وهو يتنحنح قائلًا:

- هو الواحد مايعرفش يقعد مع بنته في البيت ده ولا إيه؟ واحد قاعد مع حبيبته يا ستي!

- ربنا يخليكم لبعض يا سيدي ماحدش قال حاجة، يلا عشان الغدا جاهز طيب..

خرجا الاثنان لتبقى منال وحدها في الغرفة، العرق يتصبب من جبينها كالأنهار، الذعر يتملكها والخوف والغضب يعتصران قلبها، لقد سمعت كل شيء، كانت تقف خلف باب الغرفة منذ بداية الحديث، فطرة الأمومة بداخلها تخبرها بأنني قد أكون في خطر وشيك، وأنها يجب أن تفعل شيئًا ما، ذهبت بعدها إلى غرفتي، كنت أقرأ رواية ما، اقتربت مني في حبٍ وقالت وهي تحتضني:

- يونس حبيبي، انت كويس؟

- آه يا ماما الحمد لله، فيه إيه؟

- مفيش يا حبيبي، كنت عايزة أتطمن عليك.

خرجت بعدها وأنا معها لنتناول الطعام مع أبي ويارا، كانت أمسية يخيم عليها الصمت، الجميع ينظر إلى طبقه هربًا من أعين الآخرين، الكل في حيرة ينتظر شيئًا ما، في المساء ذهبت أنا ويارا إلى النادي وذهب أبي إلى عمله لتبقى منال وحدها في المنزل، أمسكت بهاتفها بيدٍ مرتعشة لا تعلم هل ما ستقدم عليه سينجح أو لا، إلا أنها قامت بالاتصال بنجيب أسود بعد بحث طويل بين أوراق أبي عن رقم هاتفه.

- أستاذ نجيب، أنا منال ليل مرات أحمد ليل، محتاجة أقابل حضرتك حالًا ويا ريت من غير ما أي حد يعرف.

- أهلًا مدام منال! خير حصل حاجة؟

- لما أشوفك هفهم حضرتك كل حاجة، ويا ريت زي ما قولتلك ماحدش يعرف إننا هنتقابل!

في صباح اليوم التالي، استقلت منال سيارتها متجهة إلى الفيوم بعدما انتهت من مقابلتها مع نجيب أسود، لم يكن لقاءً طويلًا إلا أنه كان مؤلمًا بعض الشيء، زوجة الخائن وزوج الخائنة يعدان خطة محكمة للانتقام، إلا أنها من أعماق قلبها لم تكن تفعل ذلك لكي تنتقم، كل ما كانت تفكر فيه وقتها هو أمان يونس ولا شيء آخر، اتفقا على خطتهما سويًا، بحثت كثيرًا عن شخص يدعى النونو حتى عثرت على غايتها المنشودة أمام الشاطئ بمساعدة أحد الأطفال، جالس فوق كرسي خشبي يصطاد في هدوء وهو يدخن سيجارته، أخبره الطفل أنها تريد مقابلته فأعطاه بعض الجنيهات في يده ودعاها للجلوس على الكرسي المجاور له.

- أوامرك يا هانم، مركب، فسحة، فندق، النونو خدامك!

- اسمع اللي هقوله كويس يا نونو عشان مش هعيده، ركز في كلامي عشان مفيش مجال لأي غلط يتعمل، واللي هتطلبه هتاخده وبزيادة كمان.

- يا مدام وغوشتيني! هو حضرتك جاية في حوار ولا إيه؟

بعد مقابلتها للنونو بأسبوع كانت قد وضعت خطتها بعدما أخبرني أبي أنه سيأخذني في رحلة إلى الفيوم، أنا وهو فقط، في الأغلب كان يظن أنه يتأسف بطريقته، يعطيني شيئًا قبل أن يأخذ كل شيء، كان يعلم أنه يظلمني، كان يعلم أنه على وشك الزج بي في بحر من الكوابيس، إلا أن أمي كانت تعد خطتها الخاصة جدًا.

- الأسبوع اللي جاي أحمد جوزي هييجي يأجر من عندك مركب، كل اللي مطلوب منك تحطله هو والولد اللي معاه منوم في الأكل اللي هتقدمه ليهم على المركب، وسيب الباقي عليا.

- يا مدام اللي بتطلبيه ده ممكن يوديني في داهية! أنا سمعتي زي الجنيه الدهب!

- اسمعني يا نونو عشان أنا ماعنديش وقت أضيعه بإني أقنعك، يا تسمع كلامي يا هتتحبس باقي حياتك، القرار ليك.

اتضح أن فكرة سفري أنا وأبي إلى الفيوم هي فكرة أمي، كانت ترسم الخطة بدقة، ونقطة البداية هي الفيوم، المكان الأمثل لتقوم بالسيناريو كما تريده تمامًا.

- أحمد، أنا حجزت لك انت ويونس رحلة للفيوم، ابنك له حق عليك، فرصة تغيروا جو وتقربه منك شوية..

- بس انتِ عارفة أنا مشغول قد إيه الفترة دي يا منال! وبعدين يارا مش هتيجي معانا؟

قالت منال بشكل قاطع:

- مشغول عن ابنك؟ أحمد بعد إذنك ادخل قوله وفرحه، وأنا اليوم ده هاخد يارا ننزل نشتري شوية حاجات.

في هذا اليوم، كنت بدأت أشعر ببداية جديدة سعيدة لعلاقتي مع أبي، حنان لم أجده معه من قبل طوال حياتي، وعلاقة تمنيتها طويلًا إلا أن حتى تلك اللحظة المثالية اتضح لي بأنها من ترتيب أمي، لشيء ما وضعت هي وحدها حجر أساسه وخطته.

- مبسوط يا يونس؟

- أوي يا بابا! يا ريت نعملها كتير الرحلة دي..

كان هذا اليوم من أجمل أيام حياتي، حتى وإن كان شعوره نحوي مزيفًا أو بدافع من أمي، قمنا باصطياد الكثير من السمك، تناولنا الطعام الشهي الذي أعده الريس نونو قبل تحركنا بالقارب، سقطت في نومٍ عميق بعد الكثير من المرح، وآخر ما اتذكره هو استيقاظي بعد عدة ساعات لأجد المركب غارقة في الدماء ولا أثر لأبي، رجال شرطة والنونو، الكثير من الاتهامات والصراخ، لينتهي أبي من حياتي بعد تلك اللحظة، ليتركني في هذا العالم للعنة لم أتمنَها، قناع لن يحميني من أي شيء والكثير من الأسرار والحكايات.

بعد مرور أسبوعين على ما حدث كانت أمي تتحدث إلى نجيب أسود في الهاتف مرة أخرى، كان عزاء أبي قد انتهى منذ أيام، الحزن يخيم على أرجاء المنزل، يارا لا تكف عن البكاء، الجميع يتحاشاني، الجميع يتعامل معي كأني غير مرئي وهو الأمر الذي كان مريحًا بشكل كبير وقتها، كانت يارا تراقب أبي عن كثب منذ وقت الحادث، ترى أن أمي مثيرة للريبة لسببٍ ما، كنت أمكث في بيت جدتي في تلك الفترة، وقفت يارا خلف باب

غرفة أمي تستمع لمكالمتها مع نجيب.

- أنا حكيتلك موضوع رحمة وأحمد عشان تساعدني مش عشان تقتله!

- لما أعرف إن ابني الوحيد اللي اتمنيته طول حياتي مش ابني عايزاني أعمل إيه؟ لما ابني اللي كبرته وعرفت إني هموت وهو شايل اسمي يطلع ابن صاحبي! مفروض أبقى قادر أسامح؟

- الأب اللي بيربي مش اللي بيخلف يا نجيب، اوعدني إنك مش هتقتله! أنا عملت كل ده بس عشان أنقذ يونس من أحمد، غير كده مش فارق معايا حاجة.

- مش هيموت، بس والله لا أخليه يتمنى الموت كل يوم، سواء هو أو رحمة!

دلفت يارا إلى الغرفة تنظر إلى أمها في ذعر، ترتعد أوصالها وعينيها جامدة من الرعب تنطق الحروف بصعوبة كالمجذوب:

- ماما.. هو بابا.. عايش؟

نطقت جملتها في وهن إلا ان منال اجابتها بوجهٍ جامد:

- ابوكِ غلط، وكان لازم يدفع تمن غلطه ده..

- ماما قوليلي بابا فين!

- انسي إن ليكِ أب يا يارا..

كانت عصفورة تحكي وتُريني ومضات من تلك المشاهد وكأنها

تحمل بين روحها الماضي في جعبتها، بداخلي مشاعر لم يكتشفها البشر بعد، خليط من كل شيء، خليط من اللا شيء، يارا كانت تعلم كل شيء منذ البداية، أمي هي من زجت بأبي داخل جدران مصحة الموت الأسود، أمي كانت تحميني، أتقنت الدور تمامًا، أقنعت الجميع بأنها لا تريد رؤيتي أو سماع صوتي بعد وفاته، كانت تحاشاني، أم تحاشى الحقيقة؟ أبي عاش لسنوات طويلة بداخل جدران غرفته في مصحة ملعونة تحت اسم سعد فقط لأن أمي شعرت بأنه مقبل على أمر قد يؤذيني، أم أنها كانت تنتقم منه لخيانته لها؟

يارا لم تخبرني ولو لمرة واحدة بأنها تعرف أي شيء، تركتني كالأعمى داخل قفص الأسود، لم تحاول ولو لمرة واحدة أن تحكي وتخبرني ما تعرفه، أن تنتشلني من كوابيسي، بل فضَّلت أن تعيش في أمان كما نصحها أبي، أمان على حساب أخيها.

الفصل الثامن عشر

الوجه الآخر للحب

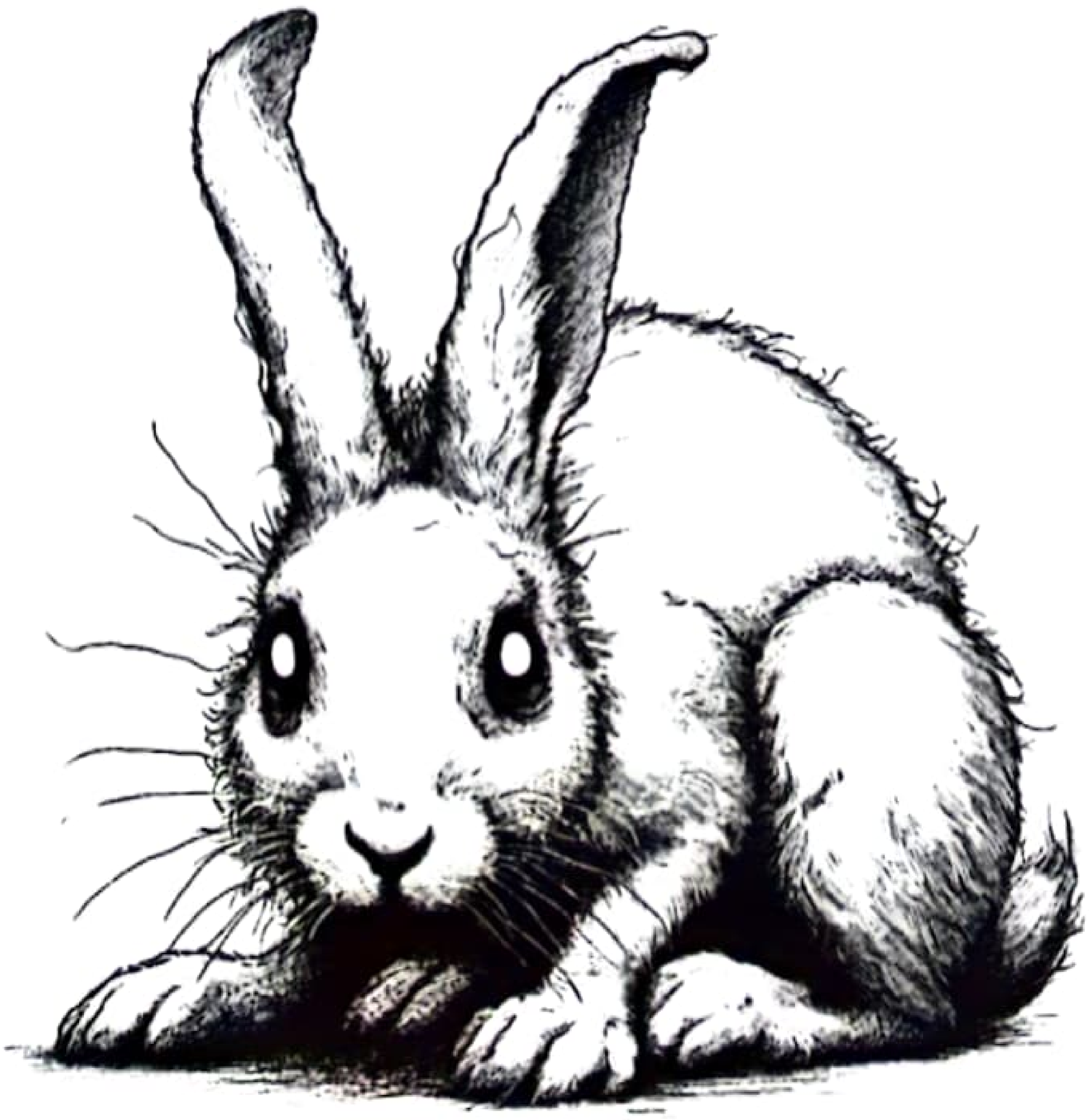

تبًا للحب.. تبًا للمشاعر التي تتحكم في كل حياتنا وطريقنا. الجميع في قصتي كان متهمًا، الجميع كان يحمل بين طياته احتمالية أن يكون طرفًا في لعنتي أو لا، غلا يارا، أختي يارا هي الشخص الوحيد الذي استبعدته تمامًا من تلك الاحتمالية، أختي يارا كانت في نظري الأمان في عالم لا أمان بداخله، الحب في عالم لم يعرف معنى المشاعر في يوم من الأيام، أريد أن أصرخ حتى تتفتت ضلوعي، أريد أن أبكي فيتوقف قلبي حزنًا على دموعي، إلا أنني التزمت الصمت التام، الصمت في أوقات كثيرة أسوأ من البكاء والصراخ، الصمت يقول كل ما لا يمكننا قوله.

أتذكر هذا اليوم، عندما أتت يارا لتبارك على افتتاح عيادتي النفسية بعد تخرجي من الجامعة بعام، جلست أمامي في غرفة الكشف وهي تنظر إليَّ في زهو وفخر، كأنها تنظر إلى ابنتها مريم يوم تخرجها، أمسكت بيدي وهي تقول والدموع تملأ عينيها:

- بابا وماما كانوا هيبقوا فخورين بيك أوي يا حبيبي..

لتخرج من حقيبتها (دريم كاتشر) مليء بالألوان ناولتني إياه وهي تقول بابتسامتها المعهودة:

- عشان كوابيسك تبعد عنك شوية!

أهذا حقًا ما كنت أحتاج إليه يا يارا؟ لعبة من القماش؟ وحدكِ عشتِ حياتك بالسر الذي طال الإفصاح عنه، ولكن أي سر عذبكِ أكثر؟ الأب الذي ألقى على عاتقكِ مسؤولية سِره؟ أم الأم التي قتلتيها بدم بارد؟ أم الأخ الذي ألقيتيه في التهلكة؟ أهو الحب يا يارا؟ أهو الحب الذي جعل منكِ وحشًا لا يملك أي

مشاعر؟ حبكِ لأبيكِ؟ حبكِ لنفسك؟ أم حبكِ لهذا الإحساس بأنكِ في أمان من لعنة أحمد ليل؟

ما هي الأسرار التي لا أعرفها بعد يا أختاه؟ ما دوركِ في بقية القصة يا عزيزتي؟ أم أن الدور انتهى عند حدود الألم؟

مقيد في مقعده، جلس هارون في موضعه عاجزًا عن الحركة، تتحرك عينيه بيني وبين باقي الجالسين، ملامح الكُره تظهر جليةً على وجهه، النظرة التي كان يرميني بها أيام دراستي.

- دكتور هارون، أنا ماعنديش حاجة أخسرها، لما بتعرف إن كل حاجة في حياتك كدبة، بتبقى خلاص مش فارق معاك حاجة..

مددتُ يدي لطه فوضع بداخلها مسدسه، أشرت بفوهته لوجه هارون المرتعد والذي قال في خوف:

- هتستفيد إيه من موتي؟ أنا راجل عجوز موته مش هيغير حاجة!

- رغم إنك راجل كداب وحقير، بس لسه في جزء من الحكاية عندك، وقبل أي شيء تقولي نخرج من هنا ازاي!

قال هارون بكل ما أوتي من غضب وقوة:

- يا يونس أنا ما كدبتش عليك! حكاية أبوك وأمك وأختك دي مشاكل عائلية ماليش دعوة بيها، أبوك كان طول عمره حمار، والأوسخ إنه ماكانش عنده مبادئ، يعترض على تعذيب الأرانب البشرية بس ما عندوش مشكلة إن يخون صاحبه ويدمر حياة عيلة كاملة. أبوك مش بس دمر حياة عيلتك ده عمل كده كمان مع رحمة وعادل.

- فقررت تكمل اللي هو كان عايز يعمله؟ وتحكي لي حكايات مالهاش أي معنى عن صداقتكم اللي مفيش زيها اتنين!

هدأ قليلًا ليجيب بصوت العقل:

- أنا أحسن واحد فيهم كلهم، كل واحد فيهم كان عنده أطماع عايز يوصل لها من الجُحر وبوابة الكوابيس، أنا كان كل غرضي إني أحمي حاتم ابني، ياما قولتله يبعد عنك، بس عجبته لعبة حنين وعادل اللي لعبوها عليك! تفتكر ليه العالم كله بيكرهك بالشكل ده يا يونس؟

- يمكن تكون صح في حاجات كتير، بس غلطان في إن العالم بيكرهني، أنا عندي ما يكفي من الحب يا هارون.. ما تضيعش وقتي أكتر من كده وقولي الجدر فين!

- كل ده مافهمتش يا يونس؟ لسه مافهمتش إن انت المفتاح؟

الجُحر - ١٩٩٦

وقفوا هم الأربعة أمام بوابة عالم الكوابيس في الجُحر ينظرون تارة إلى الباب الذي يشع أضواء عجيبة، وتارة أخرى إلى بعضهم البعض في صمت، خوف وقلق يتملكهم، حتى نطق عماد أخيرًا وقال كمحاولة منه لتخفيف الأجواء:

- مش ده اللي كنتم عايزينه؟ آهي البوابة ظهرت، سنين البحث والمحاولات كان نهايتها النجاح، ليه وشكم عامل كده؟

نظر له نجيب قائلًا:

- عشان مش ده اللي اتفقنا عليه يا عماد، إن البوابة تطلب اسم حد من ولادنا! يا عالم هيطلبوا إيه بعد كده!

- أسبوعين عدوا وابني يونس زي الفل، ماحدش يقلق. خليكم في اللي ماشيين عليه زي ما انتم!

قالها أحمد في هدوء تعجب منه الباقون، فأجابه هارون:

- المشكلة إننا مش عارفين البوابة دي هنقدر نستخدمها ازاي أو حتى إيه اللي جواها، إحنا كل اللي عملناه إننا فتحنا باب للعالم

ده، واللي هيفضل يخرج منه إحنا مش هنقدر نتحكم فيه لأننا ما عندناش أي معلومات كافية عنه!

- البوابة واتفتحت، ودي البداية الملموسة الحقيقية اللي وصلنا ليها، أي حاجة بعد كده هنقدر نوصلها زي ما وصلنا لده.

نظر إليهم نجيب وقال بجدية:

- أنا يمكن أكون أكتر حد متحمس للتجربة، بس إحنا محتاجين اللي يدخل البوابة دي يبقى شخص قادر إنه يخرج عشان ينقلنا التجربة، عايزينه يبقى شخص عنده القدرة إنه يلاقي مفتاح للخروج بدل ما كل تعبنا يروح على الفاضي.

سكت أحمد قليلًا ثم قال:

- ما دام البوابة طلبت يونس يبقى يونس هو اللي هيقدر يدخل ويخرج من هناك، بس في الوقت المناسب، خلينا ماشيين في بحثنا زي ما إحنا ولما يحين الوقت، أنا بنفسي هخلي يونس يدخل البوابة دي ويعرف لنا سر العالم ده.

نظر له هارون وقال في حنق:

- كلنا عارفين انت ليه في المشروع ده من البداية يا أحمد، كوابيسك بتدفعك للجنون! بس افرض إن البوابة زي ما نادت اسم ابنك قررت إنها تنادي اسم حد تاني من ولادنا؟ إحنا كده مش هنبقى بنكسب، هنبقى بنخسر حياتنا بالتدريج! لازم زي ما نجيب قدر يفتح البوابة يعرف ازاي يتحكم فيها!

مصحة الموت الأسود - ٢٠٠٠

داخل زنزانته بالمصحة، كان الخوف يعتصر قلب أحمد ليل، يضرب الباب بكل قوته وهو يصرخ طالبًا الخروج، يضرب بكلتا يديه في ذعر، لا أحد يجيب، لا يسمع سوى صدى صوته يحرك أرجاء المكان في رعب، ساعات قضاها ينبح ككلب تائه حتى فُتح الباب ليتم تكبيله من قبل رجلين أشداء، ويرحلا بعدها ليتركوه مع مضيفه، نجيب أسود.

- نجيب؟ أنا فين يا نجيب؟ إيه الجنان اللي بتعمله ده؟

نظر له نجيب بكُره وقال:

- يوم ما عرفت حكايتك يا أحمد والكوابيس اللي بتخليك مش عارف تعيش ما ترددتش لحظة إني أطلب من رحمة تساعدك، ويوم ما عادل سمعك انت ورحمة بتتكلموا في العيادة بهدلته وقولت عيل ومش فاهم اللي بيسمعه، كان عندي ثقة فيكم لحد آخر لحظة، بس ده وقت الحساب يا صديقي، كنت فعلًا أرنب، بيعمل كل شُغله في صمت.

- سامحني يا نجيب، إحنا صحاب بقالنا عشرين سنة!

ضحك نجيب وقال بوجه مشمئز:

- وانت عملت إيه بالعشرين سنة دول يا أحمد؟ احترمتهم؟ حافظت عليهم؟ بس أنا راجل عادل، زي ما انت خُنتني عشرين سنة أنا هحبسك في الزنزانة دي عشرين سنة زيهم.. أشوفك بعد ما تعفن يا صاحبي.

منزل أحمد ليل - ٢٠٠٠

تعشق يارا أباها، حب مرضي لم تر في طياته أخطاءه ولو لمرة واحدة، حب أعمى جعلها تتغاضى عن كل شيء باستثناء خسارتها له، حب صوَّر أحمد في عينيها ملاكًا بلا أجنحة. أمسكت يارا بسكينٍ أحضرته من المطبخ وبيدٍ مرتجفة بدأت في تهديد أمها بصوت عالٍ يملأه الخوف:

- رجعي لي بابا دلوقتي!

- إيه اللي بتعمليه ده؟ ماسكة لأمك سكينة؟ وبعدين قولتلك انسي إن ليكِ أب!

- يا ماما ما تخلينيش أعمل حاجة هندم حياتي كلها عليها!

- أنا اللي هندم لو لقيت مبرر للي أبوكِ عمله أو اللي انتِ بتعمليه دلوقتي ده، اقتليني يا يارا، والله ما هزعل منك يا بنتي، ولا أقولك...

قالتها منال لتسحب من يارا السكين بسرعة عجيبة وتغرسه في قلبها لتسقط إلى جانب أقدام ابنتها جثةً هامدة في لحظات والدماء تسيل من جسدها، صرخت يارا وهي تحتضن أمها، صرخة تحمل

بين طياتها ندم وعذاب ومسؤولية.

جميعنا نقف حول هارون في عدم فهم لجملته الأخيرة، ماذا يعني بجملته بأنني المفتاح؟ هل هي لعبة جديدة من ألاعيبه أم هو يعني شيئًا ما في باطن كلماته؟!

- البيبان اللي بنبص وراها وإحنا مش فاهمين بنبقى إحنا لوحدنا المسؤولين عن اللي هييجي من وراها.

قالها هارون وبدأ في التحول تدريجيًا لكائن غريب، جسده بدأ في التضخم بشكلٍ سريع ومخيف ليقطع الحبل من حوله بكل سهولة محولًا إياه إلى فتات. أسنانه بدأت تتحول لفك بأسنانٍ حادة كأسنان الذئب، ورأسه تمدد كالأفعى لتأخذ شكلًا يشبه المسخ. وعينيه تحولت إلى لونٍ أحمر ناري، ليقوم بعدها من مقعده بعدما أصبح في حجم شجر الصنوبر العملاق، أشار إلى نفسه بأصبعه الذي يكسوه الشعر الأحمر وقال بصوت مخيف أقرب إلى الزئير:

- شايف الجُحر عمل فيا إيه؟ لو فاكر إن اللي انت فيه لعنة، أحب أفرجك على اللعنة الحقيقية..

مد يده العملاقة وأمسك بجسدي بكل قوة حتى أصبحت فاقد القدرة على الحراك تمامًا، الألم يتملكني. أخرج طه مسدسه إلا أن هارون عاجله بضربة من يده الأخرى أطاحته بعيدًا، زياد أحضر سيفه إلا أن بنظرة من هارون تيبس في مكانه كجذع شجرة عجوز، الغضب بدأ يتطاير من أعين طيف والتي بدأت في الانقضاض على هارون بمخالبها كقطٍ مسعور، تخدشه في كل ما طالته يدها من مكان في جسده الوحشي، الألم يظهر جليًا على هارون إلا أنه يدفعها بقدمه بينما أنا بين أصابعه كفأر بائس ينتظر أن يتم التهامه

على يد أسد جائع.

تشجَّع يسري، ألقى بحقيبة أوراقه بعيدًا وأمسك بكل ما أوتي من قوة بسيف زياد، ليقترب من هارون بيدٍ مُرتعشة مترددة، استجمع قوته وضرب هارون بنصل السيف ليصرخ الأخير صرخة هزت أرجاء عالم الكوابيس ويسقطني من يده، نظر هارون ليسري نظرة تحمل الكثير من الغضب والكراهية ليمسك به بدلًا مني، وبينما كنت أقوم بإحضار مسدس زياد وإطلاق رصاصتين منه استقرا في قلب هارون، كان هو يغرس أنيابه في صدر يسري الذي بكى متألمًا، لينظر إليَّ والدموع تنهمر من عينيه وقال لي والدماء تسيل من جسده وفمه:

- يونس، ما تنساش وعدك ليا!

بدأ هارون في الترنح من أثر الرصاص، ليتهاوى في مكانه ثم سقط ساكنًا وفي يده يسري، اقتربت منه وأنا أبكي في ألم، أمسكت بيد يسري وقلت في نحيب:

- أوعدك يا يسري.. أوعدك..

نظرت خلفي لأجد هارون يتحرك مرة أخرى باتجاهي، يحوم حولي كحيوانٍ في أَسرِه، وقفت في مكاني، رفعت يدي إلى وجهه دون أن أنبس ببنت شفه، لتبدأ الأمطار تتساقط في غضب واستفحال وكأن سماء الكوابيس لم تمطر من قبل، بدأ هارون يتضاءل وهو يصرخ، كلما لمست الأمطار وجهه صرخ كالمجذوب، سقط أرضًا وهو يحرك أقدامه ويديه في حركات بهلوانية مثيرة للضحك والاشمئزاز، بدأ لونه في التغير وجلده في

الانتفاخ ككلب ميت، بدأت تنزف عينه في مشهد مرعب ليسكن جثة هامدة.

توقف المطر، الكل ينظر إليَّ في عدم فهم أو تصديق، ابتسمت لهم والدموع تنهمر من عيني قائلًا:

- هارون عنده فوبيا المطر، من سنين طويلة في الجامعة الدنيا مطرت، شوفته بيجري زي المذعور لعربيته، المطر ما بلش غير إيده، وفي اليوم التاني إيده كانت محروقة بالكامل، حاجة جوايا النهاردا خلت المطر ده ينزل..

الألم يجتاح صدري كما يجتاح جسدي، مات يسري اليوم وهو ينقذ حياتي، لم تدم معرفتي به أيامًا قليلة إلا أنني أشعر بحزنٍ لا نهاية له الآن، كان الصمت والحزن يخيمان على أرجاء اليوم، قمنا بدفن يسري وتوديعه وداعًا يليق بروحه الجميلة الشجاعة، كتب طه على شاهد قربه (يسري – الفارس والمُبدع)، الجميع كان حزينًا بكل صدق، زياد لم يغادر غرفته طوال اليوم بعد أن دفناه، طه خرج وغاب لساعات طويلة، دولت وشوكت لم يتوقفا عن البكاء، بينما جلست أنا وطيف بجانب المنزل ننظر إلى السماء في صمت، وبعد ساعات طويلة استأذنت هي لكي تنام، وبقيت وحدي لأشعر به يقترب مني، يواسيني كما كان يفعل في الماضي.

- أنا آسف..

قالها زيتون بوجهٍ جاد على غير عادته، إلا أنني لم أُجِبه، فأكمل كلامه قائلًا:

- أنا عارف انت حاسس بإيه، وعارف إنك جواك غضب، أنا قادر أشوف غضبك بعيني المجردة، بس المهم دلوقتي إنك تخرج من هنا..

نظرت إليه والحزن يملأ صوتي وقلبي وقلت في جزع شديد:

- قلبك عليا أوي يا زيتون؟ عايز تساعدني؟

- عندك شك في ده؟ أنا عمري ما اتخليت عنك! بلاش زعلك ينسيك زيتون، عمومًا أنا جيت أقولك إن كل حد من حكايتك قابلته هنا وسامحته، ده جزء من مفتاح خروجك..

استوقفتني جملته، فسألته بجدية:

- يعني إيه؟

ابتسم زيتون وقال:

- العالم ده مُصمم إنه يطلع النسخة الأسوأ منك، عالم الكوابيس وظيفته يسلب منك كل مسببات الحياة، السعادة، الأمان، والتسامح، المشاعر اللي انت تعبت عشان تلاقيهم في العالم الحقيقي بتاعك يا يونس، وعشان كده المكان ده شبه طريق طويل كله محطات، زي قطع من لغز أو أُحجية، بتجمع قطعة منها مع كل محطة بتقف فيها، كل محطة بتوصلها بتوصلك أكتر للخلاص في حكايتك ومفتاح خروجك بيتكون مع كل محطة لحد ما يكتمل في المحطة الأخيرة، أو الكابوس الأخير بمعنى أصح.

- وأوصل ازاي للكابوس الأخير ده؟

أشار زيتون بيده لمبنى عملاق بعيد يظهر جليًا من وسط الأحراش والغابات، مبنى أسود ضخم نوافذه ينبعث منها ضوء أحمر وقال:

- خُد فريقك وروحوا للقصر اللي هناك ده، هناك هتلاقي الكابوس الأخير، ومفتاح خروجك انت وكل اللي معاك يا يونس، ساعتها بس دوري في حكايتك هينتهي تمامًا..

الفصل التاسع عشر

نبوءة وكابوس

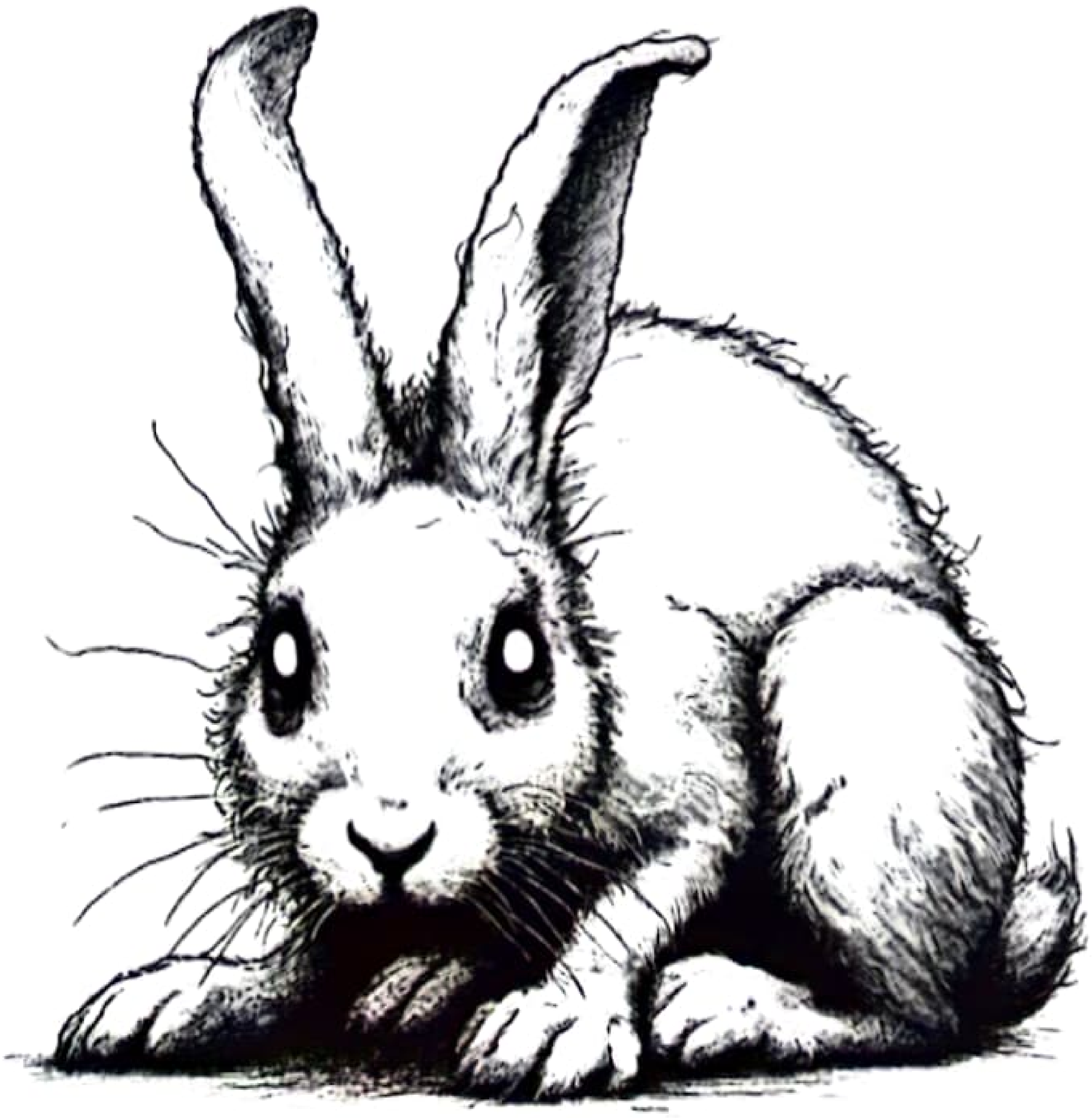

"الانتقام عامل زي القهوة، لازم يتعمل على نار هادية عشان يطلع مظبوط".

تلك كانت جملة حنين الأشهر، لم تكن تعلم أن الانتقام سيطولها قبل الجميع، انتهت حنين وانتهت قصتها، انتهت الكثير من الأشياء في هذا العالم اللعين، انتهت أسطورة الأرانب إلى الأبد، مات الأرانب الأربعة بلا عودة، الأربعة الذين اعتقدوا أنهم سيغيرون العالم، وأنهم سيتحدّون الطبيعة نفسها للوصول إلى المراد. ماتوا وماتت معهم أطماعهم الشخصية ليتركوا بوابة ملعونة.

أريد أن أعود إلى البحر كي أدمره، أريد أن أعود حتى أحوله إلى فتات، أريد أن أحرقه كما حُرق قلبي من الوعود. لماذا لم أر أننا جميعًا ضحايا في قصتي؟ أحمد ليل ضحية كوابيسه، منال ضحية أبي، يارا ضحية العهد، نجيب ضحية الأمل، رحمة ضحية الحب، حنين ضحية الشر، عصفورة ضحية الضعف، هارون ضحية الحلم، وأنا ضحية المؤامرة..

ربما لم أكن ملعونًا كما ظننت، ربما لم أكن السم الذي يزرع في قلب كل من أحبني، ربما أنا ولو لمرة واحدة ترياق تلك القصة، ربما أنا البَحُر الذي يحمل كل الأسرار، وملاذ الجميع!

ومثل الأساطير، تحركنا فريق واحد في مواجهة الكوابيس للمرة الأخيرة، أسير وإلى جانبي زياد بسيفه المصنوع يدويًا، خلفنا طيف ودولت وشوكت وفي نهاية الصف طه بمسدسه وقبعته، في طريق طويل لم يُمهد سوى للنهايات التعيسة. أعلم أن النهاية أيًا كان مصيرها، قد اقتربت كثيرًا، لم أعد يونس الذي أعرفه، لم

أعد يونس الساكن في الضلال، أصبحت الحياة أكثر وضوحًا، الجميع بدأ يشعر بالإنهاك بعد ساعات طويلة من المشي، دولت وشوكت يشبهان سلحفاتين لم تتذوقا الماء منذ قرون، لا أحد يتكلم ولا أحد يشكو، الجميع ينتظر لحظة إسدال الستار.

بعد مرور ساعات، كنا وجهًا لوجه أمام باب القصر الأسود، استقبلنا كائنين أقرب ما يكونا إلى البشر، كل واحد منهم له أربع أيادٍ وأربعة أقدام، جسد خنفساء بوجه إنسان، أخبرتهم باسمي فأشارا إلينا أن نتبعهما حتى وصلنا إلى بهوٍ عملاق يتوسط حائطه مصباح ضخم ينير الغرفة بأكملها بإضاءة حمراء انعكست على ملامحنا، وفي نهاية البهو جلست امرأة رائعة الجمال، شعر أسود كالليل، ترتدي شيئًا يجمع بين الدرع الحربي والفستان، شاحبة الوجه يزين رأسها تاج من الفيروز، ابتسمت فور أن رأتني وقالت بصوت ناعم لا يخلو من القوة.

- أهلًا بيك وبكل فريقك، أنا رحيل، ملكة عالم الكوابيس..

كان الموقف مهيبًا، إنها المرة الأولى في حياتي التي أقابل ملكة من أي نوع، أغلب نساء حياتي كانوا من المجرمين والمختلين.

- أهلًا بيكِ، أنا يونس، زيتون قال إن مفتاح خروجي هيكون هنا..

ضحكت بصوت خافت ثم قالت:

- انت مش محبوس هنا، هارون كان بيحكي عن المكان ده ليك كأنه بيحكي لك عن سجن، بصراحة سعيدة إنه مات..

- يعني إحنا مش محبوسين؟ نقدر نمشي دلوقتي؟

ارتسمت على وجهها ملامح الجدية وقالت:

- ده عيب البشر، دايمًا مستعجلين في كل شيء، اسمع الحكاية الأول واسمع عرضي ليك وبعدها القرار ليك!

- حكاية إيه وعرض إيه؟!

لم تجب، فقط قامت بالإشارة بسبابتها للمصباح الأحمر فتغير لون الغرفة إلى الأرجواني، ليغرق بعدها البهو في ظلام دامس وتحول إلى مجسمات من الهولوجرام، صوت صورة كأنك تشاهد عرضًا مسرحيًا من الكواليس.

"مش كل حقيقي هو الحقيقة".

تحولت إضاءة الهولوجرام إلى شاب وسيم، يسير في طريق طويل في منطقة صحراوية نائية، ينظر بين اللحظة والأخرى خلفه ليتأكد أن لا أحد يتبعه حتى وصل إلى جبل ضخم، صعد أدراجه ليجلس بعدها في انتظار شيء ما، حتى اقتربت منه فتاة رائعة الجمال، يحيط جسدها هالة من نور أخضر وكأنها ساحرة ألقت على نفسها تعويذة ما، لم يبد عليه التعجب من رؤيتها، بل ابتسم وهو يقترب منها في لهفة المحب قائلًا:

- اتأخرتِ.. كنت خايف ماتجيش!

ابتسمت في دلال وقالت بفخر:

- الكابوسيات مش بيخلفوا وعودهم!

- وحشتيني..

ليتبخر المشهد ويتبدل بنفس الشاب ونفس الفتاة ولكن تلك المرة والحزن جليًا على ملامحهما، كانت الدموع تملأ عينيه وهو يقول لها:

- بس أنا بحبك!

- انت عارف إني بحبك، بس الحب ده نهايته مكتوبة من بدايته!

بكى الشاب في ألم وهو يقول لها:

- وليه نحكم على حكايتنا بنهاية إحنا الاتنين مش عايزينها يا رحيل؟!

تبخر المشهد مرة أخرى لنرى الشاب في سنٍ أكبر قليلًا، بينما الفتاة تقف أمامه والغضب يتطاير من عينيها والهالة التي تحيطها تحول لونها إلى لون النار وهي تقول:

- واضح إنك مبسوط في حياتك الجديدة!

نظر لها بتعجب متسائلًا في غيظ:

- بتلوميني على إني بحاول أعيش حياتي اللي انتِ قررتِ إنك تسيبيها؟ مش شايفة إنك أنانية؟

- أوعدك إنك مش هتشوفني تاني.

- بس أنا ما...

لم تمهله الفرصة ليجيب، تركته في حيرته وألمه. اختفى المشهد وعاد البهو كما كان بإضاءته المخيفة، قامت رحيل من مكانها واقتربت مني وهي تقول:

- دي الحكاية اللي ماحدش حكاها عشان ماحدش عرفها يا يونس!

- البنت اللي شوفتها دي انتِ؟ صح؟

- والشاب ده يبقى أحمد، أبوك يا يونس..

استشف رحيل من ملامحي التائهة في غياهب قصتها بأنني لا أفهم أي شيء مما تقوله أو مما شاهدته من مشاهد للتو، طلبت من خدامها أن يأخذوا فريقي حتى يرتاحوا ويتناولوا الطعام، لتتهلل وجوه شوكت ودولت فور سماعهم كلمة طعام، نظرت لزياد وطه الذين ارتسمت على وجوهم ملامح القلق وأومأت برأسي بابتسامة كي أطمئنهم، وقامت هي باصطحابي إلى شرفة قصرها حتى يتسنى لها الحكي بشكل أوضح.

- اللي اتحكى لك من هارون ماكانش غلط، واللي اتحكى لك كان من عصفورة مش غلط، بس ماحدش منهم يعرف الحكاية الحقيقية غيري، الحكاية اللي عشتها بنفسي من وأنا لسه بضفاير..

- ممكن تحكي لي ازاي تعرفي بابا؟ هو بابا دخل عالم الكوابيس قبل كده؟ أنا مش بعمل حاجة غير إني بسمع حكايات بسيناريوهات مختلفة بتهد كل حاجة عرفتها في حياتي..

- خليني أفهمك القصة كلها من بدايتها يا يونس..

واحة سيوة - ١٩٧٠

جلس أحمد ليل، الشاب العشريني يتأمل تفاصيل هذا المعبد الذي تكاثرت حوله القصص الأسطورية، يقوم بالتقاط الصور الفوتوغرافية في سعادة بكاميرته الكانون موديل EXEE التي لا تفارقه منذ أن اشتراها العام الماضي، كان قد انتهى منذ فترة وجيزة من دراسته الجامعية وأراد أن يسافر لواحة سيوة التي سمع عنها كثيرًا قبل أن يتولى مسؤولية إدارة محلات والده بالقاهرة كونه وريثه الوحيد، ظل يلتقط الصور في شغف وعينه لا تغادر فتحة منظار الرؤية الخاصة بكاميرته حتى لمح خيالًا مشعًا يمر سريعًا من أمامه.

انتفض أحمد وأنزل كاميرته من عينيه فلم يجد أي شيء، ظل يتجول في أرجاء المعبد يبحث عن هذا الكيان المنير حتى وجد نفسه أمام جحر صغير في مكان نائي من أركان المعبد، يكفي لمرور شخص نحيل مثله من خلاله، وضع رأسه في فوهة الجحر فرأى الضوء العجيب مرة أخرى، أخذ نفسًا عميق وألقى بنفسه داخل هذا الجحر، ليجد نفسه في ثوان في مكان آخر، مظلم ومقبض، أمامه تقف فتاة رائعة الجمال بفستان أسود، كان القلق واضحًا على

ملامحها، حاولت أن تهرب منه إلا أنه ابتلع ريقه بصعوبة وقال بصوت مطمئنٍ:

- ما تخافيش مني، أنا مش هعملك حاجة!

بأقدام خائفة اقتربت منه الفتاة، مد يده ليصافحها وهو يبتسم لها:

- أحمد ليل.

- رحيل..

ليبدأ بعد هذا السلام قصة حب حُكم عليها بالفشل منذ لحظتها الأولى، شاب من البشر وقع في حب أميرة من أمراء عالم آخر يسمى بعالم الكوابيس، بشري حالم وكابوسية تنتظر الحب، تمامًا مثل الأساطير التي يقع فيها الإنسان في حب مخلوقة من أحد العوالم الخفية التي لا نعلم عنها إلا القليل، ولمدة خمس أعوام كان أحمد دائم الذهاب لسيوة، ليمر من هذا الجحر الصغير ليسرق بعض اللحظات مع رحيل، حبيبته الأولى في هذا العالم، وفي العالمين الذي عرفهم في حياته، وفي مقابلتهم الأخيرة أخبرها أحمد أن عائلته قد اختارت له عروسًا تُدعى منال، إلا أنه لا يريد سوى أن يعيش حياته بأكملها مع رحيل، أخبرته بأنها لا يمكنها أن تترك عالمها وملكها، حاول كثيرًا أن يقنعها بأن حبهما أهم بكثير من كل شيء إلا أن نداء الواجب كان له الأولوية، اتفقا على الفراق على أن يعيش كل منهما حياته وأن يقابلا بعضهما كل عدة أعوام ليشبعا حبهما الملعون..

- أنا عمري ما هنساك يا ليل..

تزوج أحمد من منال، وعاش معها في سعادة لمدة عام واحد فقط حاول خلاله أن ينسى رحيل قبل أن يعود الحنين بطرق بابه مرة أخرى، حاول حتى أن يتناسى رحيل، ولكن بلا جدوى، حاول أن يراها في منال ولكن الحب الذي دام لخمسة أعوام لم يقل في قلبه حتى بعد زواجه من منال، كانت رحيل دائمة الظهور له، تأتيه في منامه، ككابوس تظنه هدية له كي يشعر بها، يُعذب ولا يجد حلًا، وجودها مؤلم وغيابها أشد ألمًا. أنجب أحمد من منال ابنته يارا، وأنجبت رحيل من زوجها ذكرًا، كان حبه لها يعميه، يسكر ويبكي كالأطفال، حتى عندما ألقى بنفسه بين أحضان رحمة لم يجد مراده، كان يبحث عن الرحيل في كل نساء الأرض، ولكن هيهات.

- أنا ممكن أبطل أكون جزء من أحلامك يا ليل..

- عشان خاطري يا رحيل، يمكن الكوابيس دي الحاجة الوحيدة اللي بتخليني لسه عايش..

كان يعتقد أنه إذا عالج كوابيسه سينتهي كل شيء وينساها تمامًا، كان يعتقد أنه إذا نزع لعنته سيموت حبها في قلبه، ولكن هل يموت الحب مهما طالت السنوات؟ هل ينسى المرء حكاياته أم يعيش معذبًا مثل فينسنت؟ بعد عدة سنوات ذهب ليقابل رحيل، كان زوجها قد مات منذ مدة، والشوق قد نال منهما ما نال، غرقا في قبلة طويلة انتظراها لسنوات، طلب منها بدموعه وتوسله أن يبقى معها تلك الليلة، ليلة تمناها لسنوات، ليلة لم يتمنَّ سواها في كل الأعوام السابقة، الليلة التي أسفرت عن حملها بطفل هو مزيج من البشر والكابوسيين، طفل يدعى يونس..

الصدمة تظهر جلية على ملامحي، يرتعد جسدي كزلزال يوشك على الفتك بالعالم كله، استشفت رحيل شعوري، اقتربت مني وهي تتأمل ملامحي وقالت:

- بعد ما خلفتك ما كانش ينفع تعيش في العالم ده، طلبت من أحمد ياخدك تعيش في العالم بتاعه، عيلتي لو عرفوا إن عايش وسطهم كائن نصفه بشري ونصفه كابوسي كانوا هيقتلوك ويقتلوني، وبعدها قفلت البوابة اللي بين العالمين عشان أحمد ما يقدرش يقرب لي تاني، كان لازم كل واحد فينا يعيش حياته بشكل طبيعي، أحمد قال لمنال إنه اتبناك وهي حبتك كأنها أمك، عمرها ما حسستك إنك مش ابنها، أنا كنت طول الوقت حواليك وبشوفك، حبيت منال لحبها ليك، الصندوق اللي اتبعت لك واللي كان مليان صور ليك، الصور دي كلها أنا اللي كنت بطلب إنك تتصورها، عشان أشوفك في كل ثانية، كان نفسي أبقى جنبك وانت بتكبر، ولما أبوك عمل المستحيل عشان يفتح البوابة، بعتلك أخوك الكبير من زوجي الأول عشان يكون جنبك طول الوقت ويحميك، طلبت منه إنه يفضل ملازمك في كل مرحلة من مراحل حياتك عشان أكون متطمنة عليك يا حبيبي..

- زيتون؟ زيتون يبقى أخويا؟!

لم يكن قرينًا ولا صديقًا خياليًا، لم يكن عفريتًا ولا من صنع خيالي، لم يكن قوة خفية تحميني، بل كان أخي الأكبر، أخي الذي كُلف بحمايتي من قبل أمي التي لم أعرفها سوى

منذ لحظات، أخي الذي أنقذني من الموت، أنقذني من التنمر وأنقذني من نفسي مرارًا وتكرارًا، زيتون أخي ولم يتمكن ولو لمرة واحدة أن يفصح عن هذا السر احترامًا للعهد الذي أبرمه مع أمه، أو أمي!

- اسمه الحقيقي سنوي، وهو انعكاس لاسمك زي ما العرف عندنا بيقول، فضلت إني أعيش بعيدة عنه عشان يكون جنبك وأعيش بعيدة عنك عشان تعيش حياة طبيعية وماتدفعش تمن اللي عملته أنا وأبوك.

نظرت لها والدموع تملأ عيني وقلبي وأنا أقول:

- للأسف الحياة اللي اتمنتيها ليا مش هي الحياة اللي حصلت عليها، أنا حتى اللي بتحكيه دلوقتي بقى مش غريب بعد كل اللي شوفته، زيتون، أو سنوي، كان عنده حق لما قال إن مش كل شيء حقيقي هو الحقيقة. الأرانب الأربعة عاشوا حياتهم بيحاولوا ينقذوا ولادهم من دخول المكان ده، وماحدش فيهم كان عارف إن ماحدش كان مكتوب له يدخل غيري، وإن اللي طلبتني هي أمي، وإن اللعنة هي السر، والحقيقة هي المفتاح!

ابتسمت وقالت:

- كنت بحاول أعمل أي حاجة عشان ترجع ليا انت وأخوك، أحمد كان بيحاول يعمل أي شيء عشان يرجع لي بس أنا كنت عايزة ولادي، أحمد عمره ما حب يا يونس!

أمسكت بيدي في حب وهي تقول:

- أنا آسفة يا يونس، آسفة على كل اللي عديت بيه كل السنين اللي فاتت، قولي ازاي أقدر أعوضك وأنا مستعدة أعمل أي شيء!

حررت يدي من يدها برفق وأنا أقول:

- هتصدقيني لو قولتلك إني مابقتش عارف حتى أنا عايز إيه؟ أفضل مع أمي الحقيقية في المكان الوحيد اللي حسيت جواه بالراحة دي رغم وحوشه وتفاصيله المرعبة؟ ولا أرجع لعالم ما اخدتش منه غير الكدب والألاعيب؟ ولا أعيش مستخبي من العالم مع ياسمين وأحمد ومنال زي ما كنت عايش وأنا مستني علبة جديدة فيها أسرار جديدة عليها وش أرنب؟

أشعر أنني أحلم.. لماذا لا تتوقف الحياة عن مفاجأتي؟ لماذا لا تتوقف الحياة عن إبهاري بأسوأ وأبشع الطرق على الإطلاق؟ هل من المفترض أن أفرح؟ هل من المفترض أن ألقي بنفسي بين ذراعيها وأخبرها أنني سعيد لرؤيتها أم أبكي أن منال ليست أمي؟ أشعر بمزيج عجيب من المشاعر التي أريد أن أنتزعها من ضلوعي.

- أنا حاسة بكل كلمة انت بتقولها، الاختيار لأول مرة ليك يا حبيبي، اللي هتطلبه هو اللي هيحصل، والأسرار كانت نهايتها مع مقابلتك ليا.

نظرت خلفي، طوال حياتي وأنا أشعر بوجوده حتى عندما يحاول الاختباء مني، ابتسم في خجل وهو يقترب مني، أمسكت رحيل بذراع كل منا وهي تقول وعينيها مغرورقة في الدموع وهي تبتسم:

- عارفين بقى لي كام سنة مستنية اللحظة دي؟ عمري كله! رغم إن كل السنين اللي فاتت كنتم بعيد عني بس أنا فخورة بيكم، فخورة بسنوي اللي قدر يحمي أخوه من كل اللي عاشه، ومن كل اللي حاولوا يدمروه، ومن يونس، الدكتور الشاطر اللي عرف يلاقي الحب في عالم مافيهوش أي حب.

ضحكت وأنا أضرب زيتون برفق في صدره وأنا أقول:

- طلعت أخويا في الآخر؟ والله كان قلبي حاسس!

احتضنني زيتون وهو يقول:

- كان نفسي أقولك حاجات كتير أوي يا يونس، بس العهد كان أكبر مني ومن كل اللي عِشته، وبعدين هو أنا سيبتك؟

بكيت بحرقة وأنا أجيبه:

- بس آديك هتسيبني دلوقتي، بس أنا مبسوط إنك أخيرًا هتعيش حياتك اللي اتحرمت منها سنين عشاني.

ابتسمت رحيل وهي تقرب يدها من مكان قلبي وتقول:

- أنا وأخوك هنفضل هنا، سواء في العالم ده أو في أي عالم تاني هتعيش فيه، إحنا سكان قلبك الأصليين يا يونس..

الفصل الأخير

ما تبقى من يونس

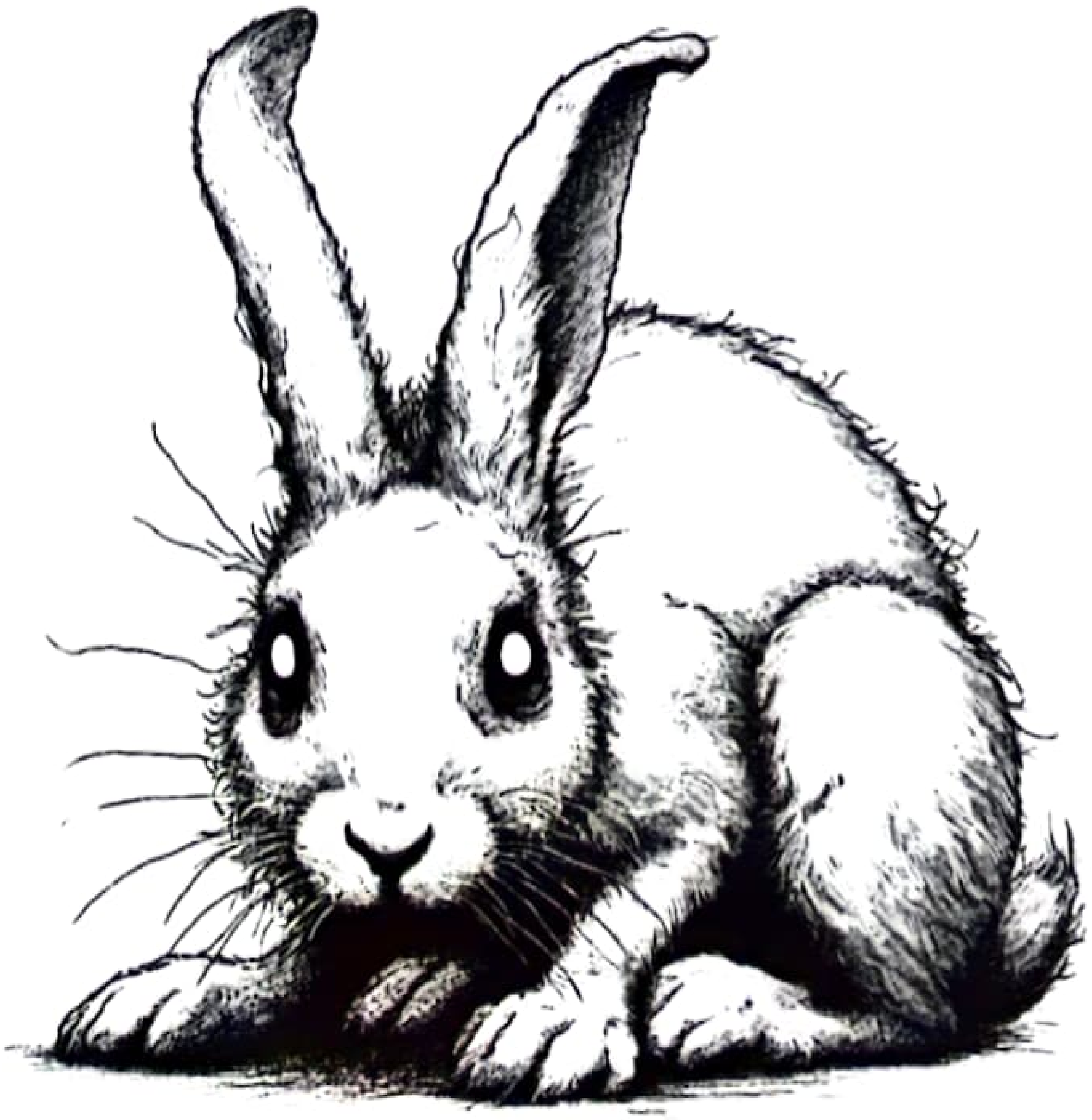

بعد مرور ثلاثة أشهر..

أنا هو أنا.. أنا يونس أحمد ليل.. الذي لم يعتقد في يوم من الأيام أن الكوابيس ليست إلا جزءًا من جيناته وتكوينه، يونس الذي يرى الحقيقة الكاملة للمرة الأولى في حياته، يونس الذي يمتلك حق الاختيار أيضًا للمرة الأولى في حياته. أشعر بالفخر، بالسعادة والراحة، لكوني يونس.. أو على الأقل ما تبقى منه.

عدت إلى منزلي بعد تلك الرحلة العجيبة، جلست على مقعدي المفضل الدافئ أتأمل الحائط بعد تجديده، فوق التلفاز قمت بتعليق قناع الأرنب كي يكون دومًا أمامي شاهدًا على كل ما مررت به ورمزًا لانتصاراتي الصغيرة، إلى جانبه وُضع برواز ضخم لأمي التي لم أحب غيرها، منال، وبرواز آخر يتضمن صورة أحتضن بها ياسمين وأحمد ومنال الصغيرة، كل ما أملك في هذا العالم، أو في كل العوالم. تذكرت جملة الجدة ونجي بأن ليس كل ما يلمع ذهبًا، إلا أنني علمت أخيرًا ما هو الذهب الحقيقي في حكايتي.

قبل رحيلي من عالم الكوابيس شكرت رحيل على أنها منحتني حق الاختيار، وهو الحق الذي حرمت منه طوال حياتي، قبل خروجنا من بوابة عالم الكوابيس تفاجأت بطلب غريب من

دولت وشوكت برغبتهم في البقاء هناك، أخبرتني أمي أنهما سيكونان من أهل المملكة، أخبراني أن السلام والسكينة التي عثروا عليها في عالم الكوابيس لم يجدوهما في عالم البشر، وأنها ستثنيهما لأجلي.

وعدت رحيل بأنني لن أنساها، وطلبت منها طلبًا واحدًا، أن تسلِّط خدامها من الكابوسيين على المدعو حاتم نور حتى يفقد عقله أو حياته، أيهما أقرب، أردت أن أنتقم منه دون أن أراه مرة أخرى حتى أتحرر من كل الشرور والماضي، وعدتني بأنها ستكون دومًا حولي، وأنها لن تتركني مهما كانت بعيدة عن عالمي، هي وزيتون، أو سنوي، الأخ الذي طالما تمنيته والأخ الذي لم أحصل على أفضل منه، الأخ الذي لا أتخيل حياتي بدونه، ولكن عودته إلى عالمه وحياته هي القرار الأفضل له مهما كان قرارًا صعبًا ومؤلمًا لقلبي.

هاتفت يارا لأطمئن عليها وعلى مريم دون أن أتطرق لأي شيء مما عرفت، بعض الأشياء من الأفضل أن تبقى مستترة إلى الأبد حتى لا توقظ جرحًا أكبر من طاقتنا، ستظل يارا أختي وأمي الثانية رغم كل شيء. قامت طيف بافتتاح مركزًا لمساعدة الفتيات والسيدات من ضحايا العنف بأنواعه، وأخبرتني في رسالتها الأخيرة أنها هي وطه يعيشان قصة حب جميلة تحمل بين طياتها الكثير من الأمل في حب ظنوا أنه غير موجود في هذا العالم، فرحت من قلبي لهما وتمنيت لهما حياة سعيدة هادئة بعيدة عن الحنين والفراق.

استقال طه من عمله، وقام بافتتاح مشروعه الشخصي، مكتب

للتحقيق الخاص في قضايا القتل والاختطاف، حتى يتسنى له مساعدة أكبر عدد من الأشخاص دون الرجوع لأحد وبسياسته الخاصة في العمل، إلا أنني طلبت منه طلبًا شخصيًا غير أخلاقي تمامًا، إلا أنه طلب لا بد منه، الزج بالنونو في مياه الفيوم ليلًا حتى تنتهي المدينة الجميلة من هذه الأفعى إلى الأبد، أخبرني أن سِحر العلايلي وزوجها حبيب على اتصال دائم به، أخبرني بأنهما قد تزوجا إلا أنهما لم يخبراه عن مكان سكنهما وقد تفهم هذا جيدًا.

كان طلب زياد فور عودتنا هو أن يعيش في جزيرة الجُحر، حيث الهواء والبحر الذي حرم منهما لسنوات، أرسل إليَّ رسالة مصورة من بيته الجديد فوق جزيرة الجُحر، الجزيرة التي أهديتها له بكل حب، كان يريني في الفيديو كيف قام بإطلاق سراح كل الأرانب البشرية الذين تم إيداعهم في مصحة حقيقية بعيدة تمامًا عن الجزيرة بعدما تم الزج بكل الأطباء والعاملين في هذا المكان في السجن، وكيف أطلق سراح الأرانب غير البشرية ليصبحوا سكان الجزيرة معه، يأكلوا من زرعها ويتكاثرون دون الخضوع لأي تجارب مجنونة أخرى، حتى أنه أرسل لأحمد ومنال أرنبين صغيرين ليعيشا معنا، أخبرني أنه بصدد تحويل الجزيرة إلى مزار سياحي تقام به الحفلات الموسيقية، وأنه عاد بعد سنوات طويلة لأكثر ما أحب في العالم، البيانو.

ذهبت إلى القاهرة لأفي بوعد لم أنسَه رغم كل شيء، دلفت إلى مكتب صاحب إحدى دور النشر، كان جالسًا وراء مكتبه يراجع بعض الأوراق وهو يعدل من وضع قبعته، الأستاذ (محمد المصري) الناشر المخضرم، والذي اشتهر منذ سنوات بحبه للمغامرة

في مجال النشر وحبه الأكبر لتبني المواهب الشابة، صافحته في ودٍّ ودعاني للجلوس وبدأ في سماع قصة رواية يسري بعدما طلب لنا كوبين من الاسبريسو، ساعات أحكي عن الرواية وظروفها، بالطبع دون أن أتطرق لدخولنا شخصيًا لعالم الكوابيس حتى لا يتم طردي من مكتبه ووصفي بالجنون، أحكي ويسمع هو في إنصات واهتمام حقيقي، انتهيت من الحكي وقد بدا على وجهه ملامح الرضا الممزوجة بالفضول، أخرج من درج مكتبه عقدًا أبيض وقال بوجه شغوف:

- الرواية دي بتاعتي.. وصاحبك اللي بتحكي عنه ده عبقري!

ابتسمت في سعادة وأنا أقول:

- أنا حقيقي مبسوط ان الرواية عجبتك، وكان نفسي يسري يكون معانا يوقع عقد روايته بنفسه.

- الصُحاب اللي زيك مش كتير يا أستاذ يونس، أوعدك إن الرواية دي هتخرج للجمهور بالشكل اللي يليق بمحتواها وبموهبة كاتب شاطر زي ده.

- وأنا متأكد من ده يا فندم.

- ها قوللي بقى، عندك تصور لاسم الرواية؟

أغمضت عيني للحظات كأنني أشاهد مشهدًا في رأسي ثم قلت ضاحكًا:

- بصراحة فكرت كتير وشايف إن أنسب اسم ليها: كوابيس قبل النوم.

مرت ثلاثة أشهر منذ خروجي من الجحر، إلا أنني أشعر أن كل ما حدث قد مر عليه لحظات، ما زلت أتذكر كل تفاصيل تلك الرحلة، الرحلة التي جعلتني أخيرًا أرى الصورة الكاملة للحقيقة، أمسكت بالجريدة التي يحضرها لي يوميًا عم فايز الجنايني لأرى في صفحة الفن خبر بالبنط العريض (اعتزال الفنان حاتم نور وابتعاده عن الأضواء لأسباب شخصية)، خرجت مني ضحكة ممتزجة بشر مشروع، كان قد وصلني منذ أيام صندوق صغير يحتوى على فلاش ميموري بداخله فيديو لحاتم نور وهو يصرخ كالمجذوب في غرفته، لا يظهر في الفيديو أحد غيره إلا أن الرعب كان جليًا على ملامحه، كأنه يرى شبحًا مخيفًا. أترك الجريدة من يدي وأنظر إلى الشاطئ فأرى منال تسبح في البحر تحاول أن تُمسك بسمكة صغيرة وهي تضحك بينما أحمد يبني قصرًا من الرمال بتركيز شديد، اقتربت ياسمين تلقي بذراعيها في أحضاني وهي تقول بابتسامتها المعهودة:

- خلاص مفيش كوابيس تاني؟

- خلاص يا حبيبتي الحدوتة خلصت، من دلوقتي مفيش لعنات ولا كوابيس، أنا مش عايز أفكر غير في الحاجات المهمة في حياتي، يعني عايز أستاذة منال تعلمني ازاي اصطاد سمك بإيدي، بشمهندس أحمد يعلمني ازاي أبني قصر مدهش من الرملة زي القصر اللي بيعمله ده، وانتِ تعلميني الشيء الأهم في حياتي، إني أرجع من تاني أعيش واصدق في الحياة..

- أنا عمري ما هبعد.. ده وعد.

بعد مرور أربعة أعوام...

نشتاق نحن الرجال إلى بعض الهدوء، نشتاق إلى العزوبية والمشي عاريًا في أرجاء المنزل كإنسان الكهف غير مبالين لأي شيء، منذ يومين سافرت ياسمين ومعها أحمد ومنال إلى إنجلترا في رحلة ألحوا عليَّ طويلًا أن أذهب فيها معهم، إلا أنني رأيت في تلك الرحلة فرصة كي أنعم ببعض الهدوء بعيدًا عن الضوضاء، سافروا منذ يومين وأشعر من وقتها أنني ملك هذا المنزل أخيرًا، استيقظت في السابعة صباحًا كما أفعل كل يوم، الجو قاتم رغم إننا في الربيع، المكيف المركزي يعمل بصورة طبيعية إلا أنني أشعر بشيء ما يطبق فوق صدري، أنزلت قدمي من فوق الفراش كي أرتدي شبشبي، إلا أنني رفعتها سريعًا في ألم من أثر عضة في أصابع قدمي، نظرت إلى الأسفل لأجد أرض الغرفة ممتلئة عن آخرها بأرانب بيضاء وسوداء لا حصر لهم يركضون ويقفزون في كل مكان، قرصت نفسي، أنا لا أحلم، تحركت بصعوبة حتى بلغت باب المنزل، بدأوا في الركض إلى الخارج بسرعة جنونية، نظرت إلى السماء فوجدتها تميل إلى الأحمر الناري، تفاصيلها المضطربة تشبه لوحة (ليلة مرصعة بالنجوم)، لا أحد حولي، أعلم تمام العلم أن الساحل الشمالي يكون في الأغلب خاليًا تمامًا في مثل

هذا التوقيت من العام، إلا أن ما أشعر به الآن إحساس مخيف لا يمكن وصفه.

أنظر حولي باحثًا عن إجابات حتى أتت إجابتي في صورة يد تجذبني من ملابسي، لأجد هذا الأرنب الذي كان يزورني في أحلامي قديمًا، عدل من وضع نظارته الطبية وقال:

- دكتور يونس، إحنا في أشد الحاجة لحضرتك..

حاولت أن أنطق إلا أن الصدمة ما زالت تسيطر عليَّ، بقيت في ثباتي حتى ظهر أمامي باب يشبه باب عالم الكوابيس، خرجت منه أمي رحيل وأخي زيتون، سرعان ما تبخرت ابتسامتي لرؤيتهما بسبب ملامحهما التي يبدو عليها القلق.

- إيه اللي بيحصل؟ انتم كويسين؟

نظرت رحيل حولها في خوف ثم قالت بعدما احتضنتني:

- السنين اللي فاتت حصل فيها حاجات كتير في عالم الكوابيس، الباب اللي فتحه أبوك في الجُحر زي ما انت دخلت منه زي ما فيه كائنات قدرت تتسلل للعالم بتاعكم، الكائنات دي ممكن تكون مسالمة في عالم الكوابيس، بس هنا الكائنات دي وحوش. انت متخيل النيدلان لوحده قادر يعمل إيه هنا؟ إحنا محتاجين مساعدتك يا يونس، نرجع كل حاجة لطبيعتها بدل ما تحصل كارثة ممكن تدمر العالمين!

ابتسمت وأومأت برأسي لهما وأنا أقول:

- أنا جزء من العالمين، يعني ده بيتي وده كان بيتي!

تعجب زيتون من إجابتي فقال محذرًا بحب:

- بس الموضوع مش هيبقى سهل يا يونس! لو مش عايز تكون طرف في الحرب دي أنا وأمك هنكون متفهمين..

قبل أن أجيبه رأيت وحشًا مجنحًا أسود اللون يقترب منا، أشار إليه زيتون فهبط الى جانبنا، فوقه كان يجلس زياد، بدا مهندمًا، ابتسامته مشرقة وقد زاد وزنه فظهر في سن أصغر، شعرت بفرحة شديدة لرؤيتي له، ابتسم زياد في ود ثم قال بجدية:

- قوة (أرا) زادت بعد فتح البوابة، وأتباع أبو اللهيم مش هييجي من وراهم غير الحرب، قوة أرا هي اللي بتمد وحوش عالم الكوابيس الهاربين بالقوة اللي عندهم!

اتسعت ابتسامتي وقلت في تحدٍ:

- مفيش حاجة صعبة بعد اللي عشته، ومفيش حرب مش هقدر أحاربها، أيًا كان اللي خرج من عالم الكوابيس ومهما كان اللي بتحضر له (أرا)، مع بعض هنقدر نحارب الحرب دي ونكسبها، حابين نبدأ منين؟

بدأت ملامح الارتياح والتفاؤل تظهر على وجوههم جميعًا بعد جملتي الأخيرة. أعلم أنني أقسمت ألا أعود للمتاعب، ولكن المتاعب هي التي تجذبني كالنداهة. أعلم أنني لا أعلم تمامًا ماذا سأواجه، إلا أنني مستعد تمامًا له..

أنا الآن يونس آخر.. أنا الآن يونس أقوى، على أتم الاستعداد لأي حرب، وخصوصًا إن كانت حربًا ضد الكوابيس...

تمت بحمد الله

شكر واجب

لكل الناس اللي كانت معايا في رحلة كوابيس قبل النوم، واللي دورهم كان مهم جدًا -سواء بعلمهم أو لا- في إن الثلاثية تخرج بالشكل العظيم ده واللي أنا راضي عنه من كل قلبي، إليكم كل الشكر والحب اللي في الدنيا:

ماما، بابا وزياد، لكونهم السكان الأصليين لقلبي.

فينسنت فان جوخ ورسائله الحقيقية لأخيه، لكونه الملهم الأول لتلك الثلاثية.

هشام نزيه، خالد حماد - وخالد الكمار، على الموسيقى اللي خلتني أكتب كأني في عالم تاني.

بُن أبو عوف (غامق محوج)، لدوره الهام في إني أقدر أفتح اللابتوب كل يوم الصبح.

محمد ممدوح ومحمد فراج، لكونهم يونس وشريف في خيالي منذ بداية الثلاثية.

رنيم الحداد، أختي، وصديقتي على كل الدعم والسلام والسعادة اللي بستمدهم منك.

محمد المصري لكونك أخ قبل أي شيء.

جون كلود أورفلي، موسيقتك ساحرة مثلك يا صديقي العبقري.

نورهان سعيد، لكونك صديقة حقيقية خالية من زيف العالم.

إسلام مجاهد، عشان دايمًا بتستحمل زني وبتفهم دماغي اللي مليانة دوشة.

ملك خليل، صديقتي، دعمك كان شيء مؤثر في كتابة الثلاثية.

حنين جلال، أشطر فويس أوفر، اللي قدرت تحول ريماس لإنسان حقيقي.

خلود العبيدي، اللي استحملت عدد لا يُستهان به من الأرانب والجنون.

بسمة مجدي، لكونك بوصلة حقيقية في وقت التوهان.

فرح بهاء، شكرًا لكونك فرح وكفى.

حازم شوقي، شكرًا على إنك بتيجي كل معرض كتاب وانت مش بتحب الكتب عشان بس تدعمني.

سلمى سامح شمس الدين، شكرًا لكونك فنانة ذكية وصديقة حقيقية.

يسري عفت، شكرًا لكونك أخ صادق ومرآة كل عمل بكتبه.

أسماء جلال، شكرًا لكونك ملهمة واحدة من أهم شخصيات الرواية.

أحمد فكري، شكرًا على فيديوهاتك العظيمة ودعمك الصادق يا فيكو.

جنة عبد المنعم، شكرًا لكونك دايمًا موجودة وعلى إنك من أجمل الناس في عالم لا يعرف من الجمال إلا القليل.

نور محمد، ومي المليجي، شكرًا على وقتكم في إن برومو الجزء التاني يكون عبقري وزي ما تخيلته بالظبط.

سلمى شحاتة، شكرًا على كونك صوت حنين وإنك حولتيها لكيان من لحم ودم بإحساسك.

محمد عصمت، شكرًا على كل شيء وعلى وجودك.

رجاء مجدي، شكرًا على كونك جدعة وحقيقية.

شيريهان محمد، شيمو كساب، وأسماء محمد، لكونهم من أهم الداعمين والبشر الحقيقين.

قرائي، شكرًا ليكم على كل الحب والدعم، أنا من غيركم ولا حاجة.

عن الكاتب:

- كاتب مصري من مواليد الإسكندرية ١٩٩٢

- تخرج من كلية الإعلام قسم إذاعة وتلفزيون

- حاصل على بكالوريوس الإعلام من جامعة Bedfordshire البريطانية

- صدر له ١٠ أعمال أدبية

- يعمل في مجال التسويق والإعلانات كمدير ابداعي ومعد للبرامج

- كتب للتلفزيون (المخبر - راجل و٢ ستات)

- كتب برامج اونلاين (كراكيب - حواديت نص الليل)

- كتب واخرج العديد من الإعلانات

- كتب مقالات في بعض الصحف الإلكترونية

- تصدرت روايته "كوابيس قبل النوم" قائمة الأكثر مبيعا وتُرجمت الى الانجليزية

- تصدرت رواياته في حضرة الموت والسكان الأصليين للقلب قائمة الأكثر مبيعا

صدر للكاتب:

- حنين اضطراري

- آخر أيام آدم

- زي كل سنة

- كوابيس قبل النوم ١ (تُرجمت للإنجليزية)

- كوابيس قبل النوم ٢

- في حضرة الموت

- بتوقيت الفراق

- السكان الأصليين للقلب

- اختفاء السيد ديفينهايم (ترجمة)

- كوابيس قبل النوم ٣

للتواصل مع الكاتب..

Notes

[←1]

لمعرفة قصة (طه الحسيني) الكاملة ارجع لرواية (السكان الأصليين للقلب).

[←2]

لمعرفة قصة (سِحر وحبيب) الكاملة ارجع لرواية (السكان الأصليين للقلب).

[←3]

لمعرفة قصة (زياد أورفللي) الكاملة ارجع لرواية (في حضرة الموت).

كوابيس قبل النوم

انا هو انا . ملعون بعدم الاكتراث . ملعون بالاعتياد . ملعون بعدم قدرتي على الوصول الى الذروة في اي شيء . ملعون بكوني شخصا expired لا تفوح مني رائحة العفن ولكن الافضل للاخرين عدم استخدامي . انا العدو الاكبر لدى نفسي لا أؤذيها حقا . ولكني ايضا لا انفعها . انا من يدفن نفسه في العمل لساعات وساعات لأتفادى وقتا قد أقضيه مع نفسي، أنا من يعيش في ماضي لن يعود وحاضر لا أكترث لوجوده وينتظر مستقبلا لا أمل فيه ..

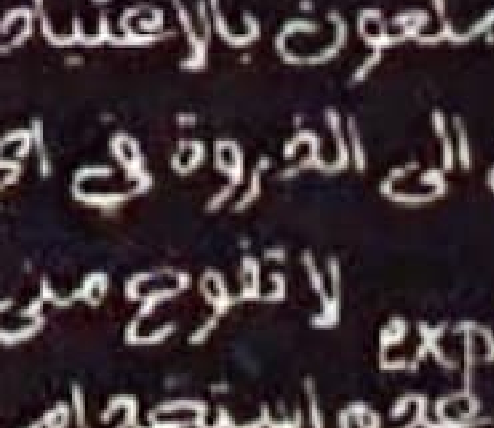

عبد الرحمن حجاج

صدر له 5 روايات
(حنين اضطراري - آخر أيام آدم - رجل كل سنة - كوابيس قبل النوم - كوابيس قبل النوم 2)
احتلت روايته كوابيس قبل النوم قائمة الأكثر مبيعا في Virgin Megastore في سبتمبر 2020
عمل في العديد من شركات الدعاية والإعلان
حاليا هو Creative Director Associate في شركة THE APP CONCEPT
تم محاورته على إذاعة ارجي الفرنسية كواحد من الفنانين المؤثرين في جيل الشباب في أكتوبر 2020

العليا للنشر والتوزيع

9 789776 740198

تصميم الغلاف : محمد ممدوح

ضياء
t.me/twinkling4